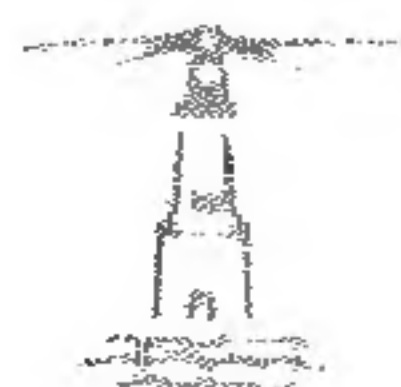
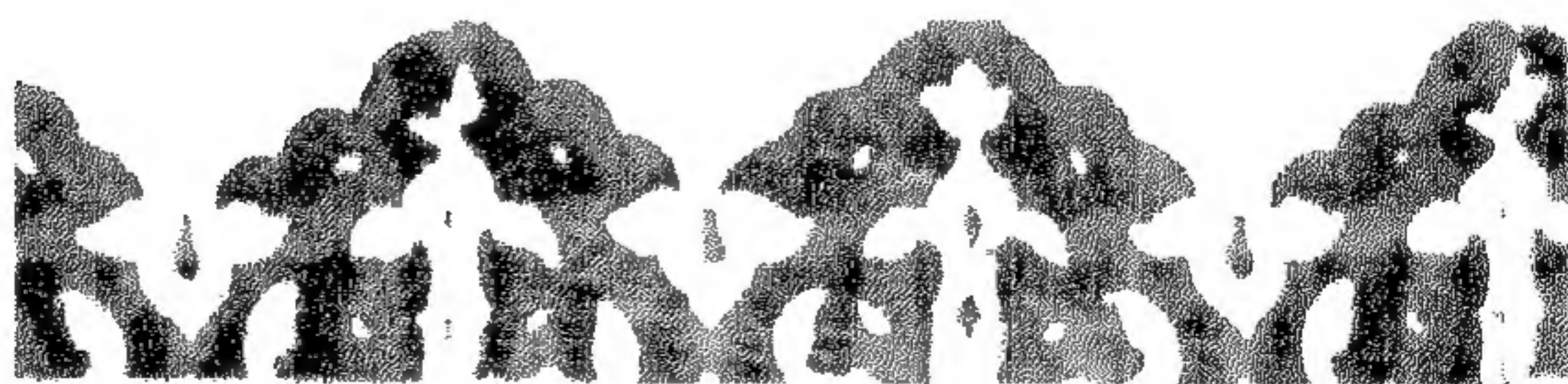


دكتور الطاهر أحمد مكي

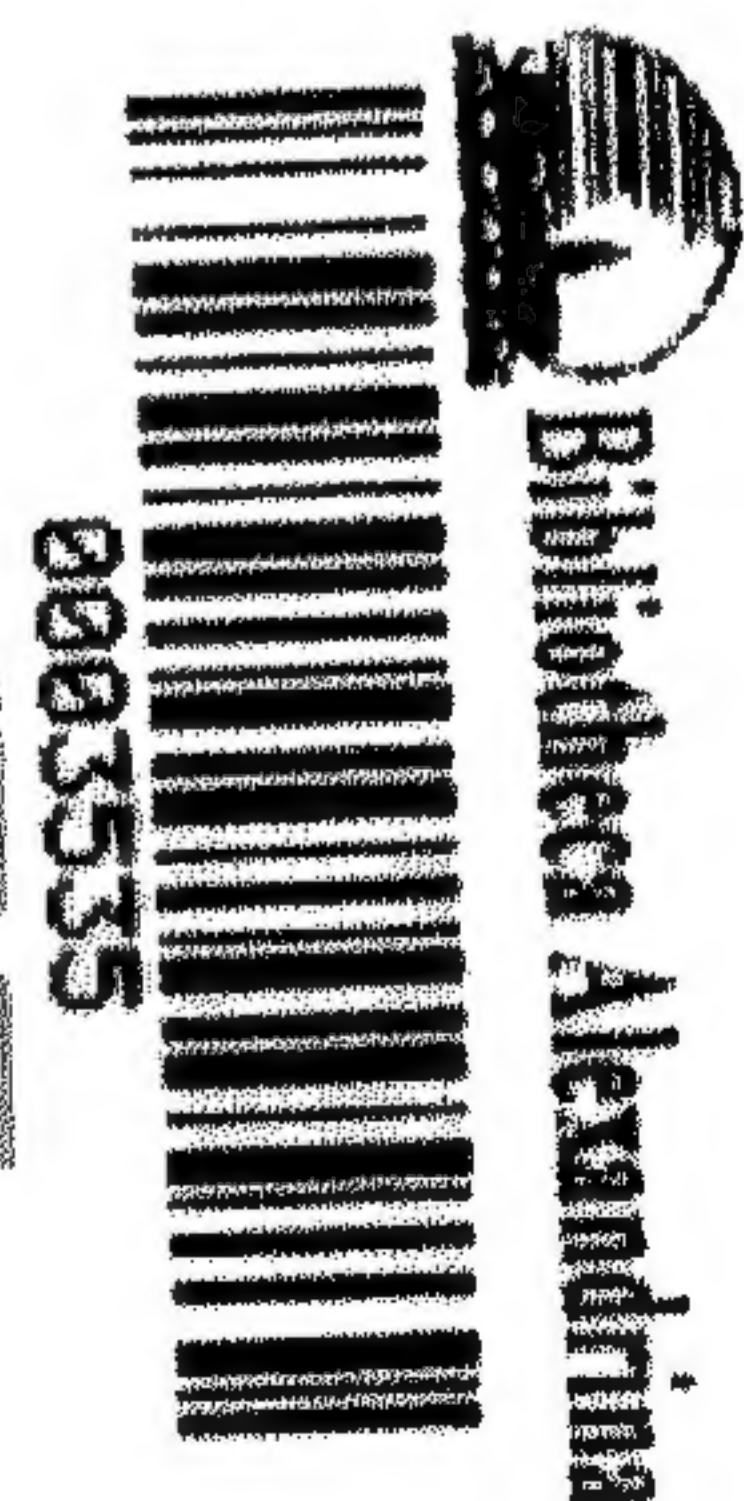
دراسات انجليزية

في الأدب والتاريخ والفلسفة

الطبعة الثالثة



دار المعارف



دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة

حرر بعضها ، وترجم البعض الآخر

دكتور الطاهر أحمد مكي

أستاذ الأدب

كلية دار العلوم بجامعة القاهرة

الطبعة الثالثة

١٩٨٧



دار المعارف

- الطبعة الأولى:
جمادى الآخرة ١٤٠٠ هـ
مايو ١٩٨٠ م
- الطبعة الثانية:
صفر ١٤٠٤ هـ
ديسمبر ١٩٨٣ م
- الطبعة الثالثة:
جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ
يناير ١٩٨٧ م

الإهداء

إلى طالباتي وطلابي في كلية دار العلوم ،
وإليهم في قسمي اللغة العربية في كليتي الآداب والتربية في جامعة
الزقازيق ،

إلى الذين تخرجوا منهم ومن لا يزالون على الطريق ،
وإلى أهلي ورفاقي وأصدقائي وزملائي ...
عرفاناً باقياً بما غمروني من مشاعرهم الدافئة ، وعواطفهم الكريمة
الصادقة ، إبان وحدتي مصاباً ، فكانوا العزاء والسلوى ، والأنيس
والسمير ، والعضد والساعد ، ومع نبيل مواساتهم اجتزت المحنة إلى بر
السلامة والأمان .

إليهم جميعاً ... شاكرًا ومقدرًا وممنونًا

○ كلمة :

يضم هذا الكتاب مجموعة متفرقة من الدراسات ، ولكنها تتلاقى في موضوعها ، فهي تدور حول الأندلس ، حضارته وأدبه وفكره وتاريخه ، بعضها حرره المؤلف ، والبعض الآخر ، وهو الأقل ، ترجمه لعدد من كبار المستشرقين الإسبان ، وهم شركاؤنا في هذا التراث ، ويكتبون - في جملتهم - بروح موضوعي حين يعرضون له ، قدر ما تسمح لهم به ظروفهم .

بعض الدراسات التي قمت بها نشر في عدد من المجلات المتخصصة ، في مصر أو في بقية العالم العربي ، وآثرت جمعها في كتاب لأن المجلات بحكم طبيعتها ، ونتيجة ما انتهى إليه العالم العربي من فرقة محزنة ، وقطبيعة مدمرة ، إذا بلغت قطراً منه لا تبلغ الآخر ، وينتهي وجودها بعد صدورها بأيام ، ولكن الكتاب أفضل قدراً ، فهو ينتظر الراغب لسنوات ، ومن يطلبه يجده ، وإذا نفذ يعاد طبعه ، ورغم كل المصائب لاتزال العلاقة بين الشعوب العربية بعامة ، وبين المثقفين منهم بخاصة ، تسير في طريقها نحو الوحدة ولا صلة لها بالسياسات الرسمية ، وهي قصيرة النظر ، وتقوم على الأنانية المفرطة ، إنهم يتلاقون ويتفاهمون ، يحاورون ويتناقشون ، يتفقون ويختلفون ، ولكنهم في نهاية المطاف أبناء أمة واحدة ، وأخوة متحابون ، رغم كل الضواغط الظاهرة والخفية ، لأن الغاية واحدة والهدف مشترك ، وإن اختلفت الوسائل وتباينت وجهات النظر .

قد تختلف المناهج في دراسة عنها في أخرى ، تبعاً لاختلاف اللحظة ، وتباين النظرة ، وقد يعرض للفكرة الواحدة ، بجملة أو مفصلة ، كاتبان أو أكثر ، وقد ترد في دراستين ، فيصبح معنا أكثر من وجهة نظر ، في انتظار من يرجح بإحدهما ، أو يضيف إليها جديداً ، في ضوء ما يجد كل يوم ، من مخطوطات لم تنشر من قبل ، ووثائق اكتشفت حديثاً ، وقد تكاملت الدراسات فيما بينها ، فتمس إحدهما جانباً من الموضوع ، وتمس الثانية

جانبًا آخر ، وبالجملة فإن هذه الدراسات تقدم في مجموعها صورة متكاملة لبعض جوانب الحياة الفكرية في إسبانيا ، أيام كانت تتحدث العربية وتدين بالإسلام .

أما المستشرقون الذين اخترت لهم بعض دراساتهم فأربعة :

خوليان ريبيرا : Julian Ribera (١٨٥٨ - ١٩٣٤) ، وكان أمة وحده في عالم الأندلسيات ، لم يكن مجرد مستشرق فحسب ، وإنما كان باحثًا عظيمًا ، ومؤرخًا قديرًا للثقافة الإسلامية ، ومفكرًا أصيلاً ، وأستاذًا بكل ما تحمل الكلمة من جلال ، رغم الظروف القاسية التي عمل فيها ، فجعل مصادر الأندلس على أيامه كانت مخطوطة ، والمطبوع منها أسوأ من المخطوط ، وقليل جدًا منها كان يبلغ إسبانيا . وقد اخترت له دراستين ، أولاهما دراسة موازنة بين كتابي : **تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية** ، وكتاب **أخبار مجموعة لمؤلف مجهول** ، وفيها يقدم المثل واضحًا للباحث المقتدر في تحليل النصوص واستنطاقها ، والوصول إلى هوية المؤلف المجهول ، ملاحظه وصفاته وأصوله ومعتقداته وموطنه ، وإن جهلنا اسمه ، ولا أهمية لهذا في تقويم محتوى الكتاب . وكانت دراسته الثانية عن « **الأصول العربية لفلسفة رايغوندا لوليو** » وهي الأولى فيما أعلم ، وحسبك به رائدًا في هذا المجال .

وأما الثاني فهو **ميجيل أسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios (١٨٧١ - ١٩٤٣)** ، وهو تلميذ خوليان ريبيرا ، ومنه تسلم الراية ، ووقف حياته على دراسة الفلسفة الإسلامية بعامة ، وفي الأندلس بخاصة ، وكان دوره فيها عظيمًا ورائعًا : ترجم روائعها إلى الإسبانية ، ونشر عددًا من مخطوطاتها المجهولة ، وتتبع روافد العطاء والأخذ بينها وبين الفلسفة الأوروبية ، ولا يدانيه في عمق تمكنه منها أحد من المستشرقين . غير أننا يجب أن نضع في الاعتبار دائمًا أنه كان راهبًا من رجال الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا ، وفي أظلم أيامها ، يخضع نشاطه ودراساته وكل ما ينشر لرقابة الكنيسة مسبقًا ، وموافقها بدءًا ، وهو بحكم وضعه ملزم بخدمة أهدافها ، كما يتلقاها من رؤسائه ، ولا حرية له في رفض ما يطلب منه أو تركه أو انتقاده ، ومن ثم فحين نجد بين تعابيره ، وهو قليل ، مالا ترتاح إليه نفوسنا دينيًا ، أو علميًا ، فلنعذره ، فلغيرنا كان يكتب ، وربما من أجل هذا القليل سمحوا له

بالنشر ، والجليل الذى أبدعه فى هذا المجال يشفع له ، ويجعله دائماً موضع الإحترام والتقدير منا . وقد اخترت له دراسة قيمة عن زاهد ألمرية « أبو العباس بن العريف وكتابه محاسن المجالس » وهو صوفى مجهول بيننا ، رغم أن كتابه سبق أن طبع فى القاهرة منذ خمسة وثمانين عاماً ، وقام بلاثيوس نفسه بطبع الكتاب بالعربية ، وترجمه إلى اللغة الإسبانية فى مدريد عام ١٩٣١ م . وهو لا يقف عند الزاهد وحده ، وإنما يلقى بعض الضوء على الحياة الثقافية فى مدينة ألمرية ، وازدهرت حيناً وتنوعت ، ولو أن التاريخ جار عليها ، فلم يعطها من العناية ما أعطى قرطبة أو إشبيلية أو غرناطة أو حتى طليطلة . وكانت الدراسة الثالثة للعالم الجليل أنخل جونثالث بالثيا Angel Gonzalez Palencia (١٨٨٩ - ١٩٤٩) ، صاحب الكتاب الرائع عن الأدب الأندلسى ، والدراسات المهمة عن المستعربين فى طليطلة ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، ودراسات أخرى كثيرة ، تتميز بالدقة والعمق ، والأصالة والموضوعية ، واخترت له دراسة عن « الشعر العربى وتأثيره فى الشعر الأوروبى » ، وهو بحث مركز ، وملهم ومستنير ، ويفتح أمام الراغب فى هذا المجال احتمالات كثيرة ، ويضىء له ، فى طريقه ، جوانب عديدة .

ولكى تكون صورة الحياة الفكرية فى مدينة ألمرية واضحة لدينا ، بعض الشيء على الأقل ، اخترت دراسة عن شاعرها ابن خاتمة ، للمستشرقة الإسبانية الفاضلة الدكتورة سوليداد خيبرت Soledad Gibert ، وهى أستاذة الأدب العربى فى كلية الآداب بجامعة مدريد المركزية ، وفيها تخرجت ، ومنها حصلت على الدكتوراه ، ثم عملت حتى أعوام قليلة خلت أستاذة بكلية الآداب فى جامعة برشلونه ، وتخصصت فى دراسة الحياة الفكرية والأدبية فى مدينة ألمرية ، ووقفت جهدها على تتبع النشاطات الثقافية المختلفة فى هذا الثغر الأندلسى الهام ، خلال القرون الثلاثة الأخيرة من حياة الإسلام الإيبانى . وقد حققت ديوان ابن خاتمة ، وترجمته إلى اللغة الإسبانية ، وقدمت للترجمة بدراسة ممتازة عنه ، وعربت هذه المقدمة لما تتسم به من عمق التناول ، ومنهجية البحث ، وأناة فى حل مشكلاته ، وصبر دعوب على تتبع قضاياها ، وصدق وإخلاص جديرين بكل تقدير

ولإجلال . ولها إلى جانب هذا أبحاث أخرى عن ابن خاتمة نفسه ، وعن غيره من العلماء الذين ارتبطوا به بسبب أو بآخر .

أما منهجى فى التعريب فعرضت له أكثر من مرة فيما نشرت من أعمال أخرى ، وحسبى أن أشير هنا إلى أننى التزمت الأمانة فى النقل ، وحرصت على الأصل نصاً وروحاً ، ولم أتدخل معلقاً أو معقّباً إلا فى حالات قليلة حين تستدعى الضرورة العلمية هذا ، وجل هذه التعليقات جاءت فى الهامش تعريفاً بأعلام أوربية لا يعرف القارئ العربى المتوسط الثقافة عنها شيئاً ، ومهما يكن فقد أشرت إلى ما أضفته فى كل الحالات صراحة ، أو وضعته بين معقوفتين .

وبعد ، فأدع هذه الدراسات تواجه القارئ بنفسها ، ليقول فيها رأيه ، وغاية أملى أن يرضى عنها ، وأن يحس معها أنه عرف جديداً ، وتعلم شيئاً ، وتذوق جمالاً ، ولم يضع وقته عبثاً .

وإن جاءت دون ما يتمنى فبحسبى أننى ما أبقيت من جهدى شيئاً . وعند الله المثوبة ، وبه التوفيق ، ومنه الهداية .

الظاهر أحمد مكى

٣٩ شارع المرافى - العجوزة

القاهرة الكبرى

١٠ من ذى الحجة ١٣٩٩ هـ

٣١ من أكتوبر ١٩٧٩ م

الأندلس

تاريخ اسم وتطوره

مع أول جماعة من المسلمين وطئت أرض إسبانيا تها التاريخ لمرحلة جديدة في سيره : العرب يفتحون أوروبا . وفي جانب منها ، لاتيني وكاثوليكي ، يستقر الإسلام ، وتعلو كلمة الله ، وتصبح العربية لسانا ، وعلى بطحاء شبه الجزيرة تتعايش أجناس من البشر واللغات والعقائد ، وفي ظل الإسلام يتنفس الناس جميعاً جواً سمحاً جميلاً ، من اليسر والإخاء والمساواة ، لم يعد الملوك مردة جبارين ، متعتم القهر ، ولعبتهم الإذلال ، ولم يعد المستضعفون في الأرض رقيقاً يصنع الرفاهية دون أن يشارك فيها ، ويدلل صعاب الحياة دون أن يأخذ بحظه منها . لقد أدار المجتمع مع الإسلام وبعون منه ظهره للأمس ، وما هو غير صالح من عاداته وتقاليده ونظمه ، ليواجه غداً متفائلاً ، أخف أثقالاً ، وأطيب عيشاً ، وكان من بين الجديد الذي جاء به الإسلام اسم لشبه الجزيرة لم تعرفه من قبل : الأندلس .

كان الفاتحون المسلمون أول من أطلق اسم الأندلس على هذا الجانب من الأرض ، أما قبلهم فعرف اسمين مختلفين . أطلق عليه الإغريق لفظ إيبيريا Iberia ، وكان يقصد به في البدء منطقة ولبة Huelva ^(١) ثم أصبح يطلق على كل المنطقة الممتدة شرقاً على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، واتسع مدلولها حتى أصبحت تطلق على كل شبه

(١) تطلق ولبة الآن على مقاطعة كبيرة تناخم مقاطعتي أشيلية وقادس من الشرق ، والبرتغال من الغرب ، وشمالاً مقاطعة بطليوس . ويمر فيها نهر صغير يسمى النهر الأحمر Rio Tinto ، ونهر آخر يسمى أوديل OdieI ويصبان متقاربين في خليج واسع ، تتأثر فيه عدة جزر صغيرة ، أكبرها جزيرة شلطيئ ، وبين المصين ، على رأس يفصل بينها ، تقع ولبة الحالية . وهي ميناء كبير ، ومركز هام لصيد الأسماك ، وقاعدة المقاطعة التي تحمل اسمها ، وهي موطن أسرة ابن حزم العالم الأندلسي العظيم ، وخرجت من دار الإسلام نهائياً عام ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م ، على يد فرناندو الثالث المعروف بالقديس .

الجزيرة^(٢) ، ونجد اللفظ مستخدماً لأول مرة في مؤلفات Hecartee de Milet وهو مؤرخ وجغرافي إغريقي عاش في القرن السادس قبل الميلاد^(٣) ، وتلتقى باللفظ أيضاً عند المؤرخ اليوناني هيرودوت ، وعاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، ويأتي المؤرخ الإغريقي بوليبيوس ، وكان في شبه الجزيرة نفسها خلال الثلث الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد ، فيلقى على مفهوم اللفظ مزيداً من الوضوح : « يطلق اسم إيبيريا Iberia على الجزء الواقع على البحر الأبيض ، ابتداء من أعمدة هرقلوس (مضيق جبل طارق الآن) ، أما الجزء الواقع على الأطلنطي فليس له اسم يعرف به ، لأنه اكتشف منذ قريب » . وجاء بعده المؤرخ استرابون ، وعاش في نهاية القرن الأول الميلادي ، فاستخدم اللفظ يريد به كل شبه الجزيرة . وقد ظل الكتاب الإغريق يستخدمون هذا اللفظ ومشتقاته ، حتى أولئك الذين كانوا يعيشون في بيثات لاتينية خالصة^(٤) .

وهي حقيقة لم يغفل عنها الجغرافيون العرب القدامى ، يقول أبو عبيد البكري ، المتوفى عام ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م ، وهو أعظم جغرافي عرفه الأندلس ، في كتابه : « المسالك والممالك » ، ويتميز بالدقة والوضوح والبعد عن الأساطير ووصلنا في جانب منه وضاع الباقي^(٥) : « يذكر أن اسمها في القديم إبارية Iberia ، من وادي إبره »^(٦) . وجاء من بعده مواطنه الحميري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ، المتوفى عام

(٢) Antonio Garcia Y Bellido : Vienticinco Estampas de la Espana Antigua, P. 208, Madrid, 1967.

(٣) دائرة المعارف الأسبانية ، مادة Iberia

(٤) Antonio Garcia: Op. cit, P. 206 ss.

(٥) وصلنا من كتاب أبي عبيد البكري : « المسالك والممالك » الجزء الخاص بأفريقيا ، وبدأ المشرق الفرنسي كتبرير ، المتوفى عام ١٨٥٧ م بترجمته إلى اللغة الفرنسية وأتم الترجمة أستاذه ومواطنه البارون دي ساسي ، المتوفى عام ١٨٣٨ م ، ونشر الأصل العربي في سنة ١٩١١ ، والترجمة الفرنسية في سنة ١٩١٣ ، وعثر ليبي بروفنسال على الجانب المتصل بإسبانيا ، وقد نشره الدكتور عبد الرحمن على الحجى أخيراً بعنوان : « جغرافية الأندلس وأوروبا » ، عام ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٨ م .

(٦) أبو عبيد البكري : المسالك والممالك ، ص ٥٨ ، طبعة عبد الرحمن حجى .

٨٦٦هـ - ١٤٦١م ، فنقل عنه هذا النص دون زيادة ، في كتابه : «الروض المعطار في خير الأقطار»^(٧) .

والاسم الثاني إسبانيا Ispania ، وأطلقه عليها الإغريق أيضا ، أو على الأقل أول ما نلتقي به في كتاباتهم ، ولو أن أصل الكلمة يجب أن نبحث عنه في لغة قوم أقدم من اليونان . ويرى الكاتب بوشارت Bochart في كتابه «الجغرافية المقدسة» وصدر في مدريد عام ١٧١٢م ، أن الاسم مشتق من الكلمة الفينيقية سبان Span بمعنى بلاد الأرانب ، لأن شبه الجزيرة كان غنيا بهذا النوع من الحيوان . وإحدى العملات القديمة التي وصلتنا من عصر الإمبراطور أدريانو Adriano (٧٦ - ١٣٨م) تمثل إسبانيا في شكل أم جالسة بين قدميها أرانب^(٨) ، وهو تفسير يرفضه الباحثون المعاصرون دون أن يقدموا له بديلا . نعم ، هناك من يرى أن الكلمة ربما كانت من أصل سلتى ، وأن أصلها في هذه اللغة هو نفس أصل الكلمة الألمانية Spann ، ومعناها الوادى أو المدخل أو المفتاح ، ولكنه افتراض أبعد عن التصور من افتراض الأصل الفينيقى . وقد استخدم الإغريق شكلا ثانيا للكلمة هو Spania^(٩) ، وكان الكاتب اليونانى Artemodoro أول من استخدمها^(١٠) . ويشير الحميرى أيضا إلى هذه الحقيقة فيقول : « اسم الأندلس في اللغة اليونانية إشبانيا »^(١١)

وقد استخدم الرومان الكلمة اليونانية Spania بعد أن زادوا عليها حرف H في البدء فأصبحت Hispania وفي واحد من ثلاثة كتب افتتح بها تاريخ الأدب

(٧) ص ٢ ، من طبعة القاهرة .

Antonio Garcia: Op. cit., p. 214 ss.

(٨)

Antonio Ramos-Oliveira: Historia de Espana, tomo I, P. 261, México, 1952.

(٩)

(١٠) دائرة المعارف الإسبانية . مادة Epsana . Dozy: Recherches, Epsana 2 edi., Vol. I, p. 310.

(١١) الحميرى ، الروض المعطار . ص ١ .

● عثر على هذا الكتاب المشرق الفرنسى لىي بروفنسال . وانتخب منه المادة الخاصة بالأندلس ، وترجمه إلى الفرنسية مع تعليقات ضافية وفهارس وافية . ونشر القسم العربى بعنوان : « صفة جزيرة الأندلس » ، متخبة من كتاب الروض المعطار فى خير الأقطار ، وصدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٣٧ . وما يذكر أن الكتاب وقع فى يد المفريزى ، المؤرخ المصرى الشهير . فاختصره فى مجلد صغير .

اللاتيني ، أى فى اللحظة التى بدأت فيها اللاتينية تصبح لغة أدبية ومكتوبة ، نلتقى بهذا الاسم الذى سوف يحمله شبه الجزيرة بين العالم الغربى ، إلى أن يهبطها طارق بن زياد وجنده الفاتحون ، فى قصائد الشاعر اللاتينى أنيوس Ennius (٢٣٩ - ١٦٩ ق . م) ، ولا نمضى غير قليل حتى نلتقى باللفظ شائعاً فى كتابات كل المؤرخين والشعراء الرومانيين ، وترد كثيراً فى قصائد الشاعر الرومانى تيتوليفيو ، وعاش من عام ٥٩ قبل الميلاد إلى عام ١٧ الميلادى . وإلى جانب هذا اللفظ استخدم الرومان شكلاً آخر له على نحو قليل وهو Spania ، ومنه اشتقت كلمة إسبانيا Espana الحديثة .

أما هيسبيريا Hesperia وترد أحياناً فى بعض المصادر الإغريقية مرادفاً بها شبه الجزيرة نفسها ، فلا يقف مفهومها عند شبه جزيرة إيبيريا فحسب ، وإنما تعنى فى اللغة الشعرية كل الأراضى التى تقع غرباً على شاطئ البحر الأبيض المتوسط . تلك هى أسماء شبه الجزيرة قبل الفتح الإسلامى ، وتبقى معنا كلمة الأندلس ومعها سوف تدخل التاريخ بعده .

* * *

لم يعرف العرب قبل الفتح كلمة الأندلس ، وبتعبير ياقوت فى معجم البلدان : « هى كلمة أعجمية لم تستعملها العرب فى القديم ، وإنما عرفتها العرب فى الإسلام » . وباستثناء الإشارات العارضة والنادرة الواردة فى كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين الأندلسيين ، فإن المصادر العربية القديمة لاتعرف أيضاً كلمة « إسبانيا » ولا تتحدث عنها ، والمؤلفون العرب عدا قلة يقولون بلاد الأندلس . فمن أين أخذ العرب هذا الاسم ؟

كان المستشرق الهولندى رينهارت دوزى ، المتوفى عام ١٨٨٣ ، أول من طرح المشكلة ، وحاول أن يجد لها تفسيراً علمياً ، وهو التفسير نفسه الذى قبله سيبولد محرر مادة أندلس فى دائرة المعارف الإسلامية ، وتوسع فيه شيئاً . كلاهما يرى أن « أندلس » أخذت من لفظ Wandalucia ، وهى صيغة ربما أطلقت على إقليم باطقة Bética الذى احتله الوندال على امتداد عشرين عاماً تقريباً ، من ٤٠٩ م . ويشمل منطقة واسعة فى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة يخترقها نهر الوادى الكبير ، وربما أطلق أيضاً على ثغر Tractu

الذى عبر منه الوندال في طريقهم إلى أفريقيا ، ويظن أن موقعه حاليًا مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras ، ويفهم من الروايات العربية أن موقعه نفس المكان الذى حط فيه أبو زرعة طريف رحاله مستطلعًا ، وهو المكان الذى حمل اسمه إلى الأبد ، فعرف باسم جزيرة طريف Tarifa (١٢) ، غير أن تحديد المكان بالدقة : هل هو مدينة الجزيرة الخضراء ، أو جزيرة طريف ، أو الصخرة التى حملت اسم طارق ، مازال موضع خلاف شديد ، ولكنه خلاف لا ترتب عليه أية نتائج عملية ، لأن المواضع الثلاثة تكاد تكون متصلة .

ووفقاً لهذه النظرية فإن الفاتحين المسلمين من العرب والبربر أطلقوا اسم الإقليم أو المدينة التى هبطوا فيها لأول مرة على شبه الجزيرة كلها ، بل وعلى مادان لهم من ولايات في جنوب فرنسا ، مثل سبتمانية ونربون ، وهذا التدرج فى التسمية تدعمه رواية للحميرى يقول فيها : « إن شبه الجزيرة فى القديم كان يسمى ايبيريا ، ثم سميت بعد ذلك باطقة ، ثم سميت إشبانيا ، اسم رجل ملكها فى القديم ، أو الإشباني الذين ملكوها فى الأول من الزمان ، ثم أطلق عليها الأندلس ، أخذًا من اسم الأندليش الذين سكنوها » (١٣) . لكن الرواية العربية ، وهى متأخرة بالنسبة إلى الفتح ، وبإزاء تسمية غامضة تحاول أن تجد لها تفسيرًا ، لاتقف عند التاريخ الخالص وحده ، وإنما تضرب فى يدهاء الأسطورة على غير هدى ، والحق أن أكثر ما نجد ذلك فى كتب التاريخ ، وأقل ما نجده عند الجغرافيين . فهى سميت بالأندلس لأن الأندلس بن طوبال بن يافث ابن نوح أول من سكنها ، أو أنه الأندلس بن يافث مباشرة دون عبور بطوبال ، ولتصبح القصة أكثر ثقلًا ، وتجد لها من قلوب الناس مكانًا ، وإن لم يكن لها من فكر العقلاء نصيب ، فإن سبت بن يافث ، أخو الأندلس بن يافث ، عبر المضيق إلى أفريقيا ، ونزل بالعدوة المقابلة للأندلس ، وحط رحاله فى مكان نُسب إليه ، وحملت المدينة التى نزلها اسمه ، فكانت مدينة سبتة Ceuta ، ولا تزال قائمة عامرة حتى يومنا هذا .

(١٢) دائرة المعارف الإسلامية - مادة أندلس .

(١٣) الحميرى : الروض المعمار - ص ٢ .

وتضطرب الأسطورة فتجعل من الأندلس اسمًا سابقًا لاسم إسبانيا ، وتجعل من هذا اسم ملك اجتاح شبه الجزيرة وملكها وعمرها ، هو : إشبان بن طيطش ، ولا يجد القاص معنى يفهمه لكلمة إشبانيا ، فيوشها بشيء من التوابل تجعل من القصة شيئًا ذا نكهة ومذاق : « وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان ، لأن مولده كان بها ، وأنه استحال في لسان العجم فأصبح إشبان »^(١٤) ، وهو استنتاج ذكي تدعمه قوانين اللغات ، فالهاء حرف غير منطوق في اللاتينية والسين والشين والصاد متقاربة المخارج ، ويحل أحدهما مكان الآخر ، ولما كانت اللاتينية ، والإسبانية تبعًا ، لاتعرف صوت الصاد ، فلنما تستعوض عنه عند نقل كلمة أجنبية إليها بأقرب الأصوات إليه مخرجًا ، وهو الشين أو السين ، غير أن هذه الإشارة وإن اتسمت بالذكاء ، يقف التاريخ منها في الجانب المقابل ، ذلك أن المؤرخين العرب اعتمدوا في هذه القضية ، وتطورها قديم موغل في القدم ، على الرواية الشفهية وحدها ، يلتقطونها قصصًا من أفواه خيرة العامة ، أو حكايات من رجال الدين ، في بلد كان غداة الفتح متواضع الثقافة ، لا يعرف التدوين كتابة في الورق ، أو حفرًا على الصخر ، إلا نادرًا ، فاختلطت عليهم الأمور ، ووقعوا في الخطأ حين أسرفوا على انفسهم في الاستنتاج . لأن كلمة أصبهان Saphan ، التي يشيرون إليها ، فينيقية الأصل ، ويظن فعلا أن كلمة إسبانيا مشتقة منها^(١٥) ولكن لاصلة لها بكلمة « أصبهان » اسم المدينة الفارسية ، ولقد اختلط عليهم الأمر ، فمضوا مع القصة إلى نهايتها : الملك اسمه أصبهان ، لأنه ولد في هذه المدينة ، وباسمه سمي شبه الجزيرة لأنه ملكها ، واستحال في لغة العجم إلى إشبان . إن اسم إسبانيا أقدم بكثير من مجيء أصبهان إلى الحياة .

وعمضى المقرئ في « نفح الطيب » ، نقلا عن ابن حيان في « المقتبس » : « ذكر رواية العجم أن الخضر عليه السلام وقف على إشبان المذكور ، وهو يحرق الأرض بفدن له أيام

(١٤) انظر :

- الحميري : الروض المعطار ، ص ٢ .
- أبو عبيد البكري : المسالك والممالك ، ص ٥٨ .
- المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٤٢ ، طبعة مجي الدين .

(١٥)

حراثته ، فقال له : يا إشبان ، إنك لذو شان ، وسوف يخطيك زمان ، ويعليك سلطان ..»^(١٦) ، ويمضى الحوار بينهما في حديث مسجوع مصنوع أشبه بسجع الكهان . ثم دعا له الخضر بالخير ، وبشره بالملك . ولأن كان الخضر في عالم الأساطير يتحدث بكل اللغات ، إلا أن الراوى لم يقل لنا هنا بأيها تحدث إلى هذا الشيخ إشبان .

ومع إشبان هذا تستطيع أن تمضى لحظات ممتعة ، رفقة خيال خصيب ، فهو أحد الذين ملكوا الدنيا- فيما زعموا- (والاحتراز من المقرئ!) ، استوت له الأندلس بأسرها ، ودانت له بكاملها ، واتخذ إشبيلية دار ملكه ، واستغلظ سلطانه في الأرض ، وكثرت جموعه فعظم عتوه ، وغزا إيليا ، وهى بيت المقدس الشريف ، بعد سنتين من ملكه ، خرج إليها من إشبيلية في السفن فغنمها وهدمها ، وقتل فيها من اليهود مائة ألف ، واسترق مائة ألف ، ونقل رخام إيليا وآلاتها إلى الأندلس .

لقد أورد المقرئ في الجزء الأول من تاريخه فيضاً من هذه الروايات وليست كلها صنعة قاص ، وإنما فيها تاريخ حقيقى كثير ، مضطرب نعم ، ومتداخل دون شك ، ولكنه مادة خصبة وأساسية لفترة تفتقد المؤرخ والتاريخ .

ويحتاط ابن حيان المؤرخ الأندلسى الجليل لنفسه ، فذكر أنه ينقلها عن رواة العجم ، وكانوا يتداولونها شفاها ، وهذا التداول الشفوى هو مصدر الخلط والاضطراب ، وحين كانت تصطدم مع موازينه في الرواية ، ومنهجه في التمهيص ، ويراه سبيله الوحيد لمعرفة شئ عن تاريخ الأندلس القديم ، يوردها ويعتذر لنفسه ، والحق أن هذه الأساطير لا تختص بها المؤلفات العربية وحدها ، وإن أوهم بعض المستشرقين بذلك ، إذ نلتقى بها ، كثيرة وتشير الضحك ، في المؤلفات الإسبانية المسيحية التى كتبت في اللغة اللاتينية ، أو في اللغة القشتالية القديمة ، فنجدها في : «مدونة تاريخ إسبانيا العام» ، والتى أمر الفونسو العاشر ، الملقب بالحكيم ، بكتابتها ، تأليفاً في جانب منها ، ونقلها عن العربية في جوانب أخرى ، في منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، ونجدها في مؤلفات رودر يجو خمينث

(١٦) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ص ١٣٤ .

مطران طليطلة ، وعاش في النصف الأول من القرن الثالث عشر أيضًا . وفي مؤلفات أخرى كتبت في هذا القرن أو بعده ، وتعكس قصة غزو بيت المقدس وقتل اليهود وأسرههم طابع الصراع العنيف الذي كان قائماً بين اليهود والكاثوليك في الأندلس ، قبل مجيء المسلمين ، وخلال حكمهم ، وبعد دولة المسلمين هناك .

* * *

ومها يكن من أمر فقد انتشر اسم الأندلس سريعاً بعد الفتح الإسلامي ، وشاع استخدامه في كتب التاريخ والجغرافية والرحلات والوثائق ، ونحا من المدونات وذواكر الناس كلمة إسبانيا تماماً ، وحين كانت دولة الإسلام تشمل كل شبه جزيرة إيبيريا تقريباً ، وقسماً من جنوب فرنسا ، كان لفظ الأندلس يطلق عليها جميعاً ، غير أن الأمر لم يستمر على هذا النحو وبدأت حركة المقاومة الكاثوليكية تشتد في الشمال من الأندلس ، منذ القرن العاشر الميلادي ، وتجدد من البابا في روما ، ومن بقية الكاثوليك في العالم ، عوناً وتشجيعاً ، وأخذت الدولة الإسلامية تتآكل شيئاً فشيئاً ، حتى انحسرت في القرن الثالث عشر الميلادي داخل إقليم ضيق ممتد على الساحل ، من جبل طارق حتى مدينة ألمرية ، ويمتد داخلاً في العمق حتى سلسلة جبال رندة وجبال إلبيرة ، ويرى معظم الباحثين من المحدثين ، وجلهم من المستشرقين والإسبان ، أن اسم الأندلس كان مرتبطاً بالدولة الإسلامية وحدها ، مهما كان امتدادها ، يتسع معها ويضيق ، ويجدد هذا الرأي سنده في أن المدونات الإسلامية درجت على أن تطلق على الدويلات الكاثوليكية المختلفة التي قامت في الشمال من شبه الجزيرة أسماء مختلفة ، غالباً ما تكون المقاطعة التي يملكها الحاكم مثل : نبرة وأرجون وقشتالة وأشتورياس والبرتقال ، وتسميهم النصارى أحياناً والروم أحياناً أخرى .

ولكنني لا أقبل هذا الرأي على إطلاقه ، ذلك أننا نجد على بن موسى من بني سعيد ، المتوفى عام ٦٧٣هـ = ١٢٧٤م . ومكمل تصنيف كتاب : « المغرب في حلى المغرب » يضمن كتابه جزءاً خص به الأندلس المسيحية ، سماه : « كتاب لحظة المريب فيما بقي من جزيرة الأندلس لعباد الصليب » أي أنه يمتد بالتسمية فيجعلها تشمل تلك الدويلات المسيحية

التي تكونت على حساب الدولة الإسلامية ، وانتزعت منها عددا من المدن الكبرى والهامة .

وفيما أرى ، يجب التفرقة بين المصادر العربية الأولى حين تشير إلى هذه الدويلات ، أو الشبيهة بها ، التي قامت في الشمال ، وتكونت في وقت مبكر على الطرف الثاني من شبه الجزيرة ، على أرض لم تتأصل فيها الحضارة الإسلامية يوماً ، وإن مربها المسلمون من حين لآخر غازين أو عابرين أو ملاحقين لجيوش المسيحيين ، ومن ثم لم يرها المؤرخون الأول جزءا من الأندلس الإسلامي ، وبين المصادر المتأخرة حين اتسعت هذه الدول ، وقوى شأنها ، على حساب الأندلس الإسلامي ، فضمت إليها مدناً ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية ، ونفقت سوق الأدب ، وعمرت بالمعاهد والمساجد وشغلت عقول الناس واحتلت من قلوبهم مكاناً غالباً مثل طليطلة وشنترين وبلنسية وسرقسطة ، ثم إشبيلية وقرطبة ومرسية أخيراً ، فاعتبروها أندلساً وإن كانت في قبضة الكاثوليك .

يقول ابن سعيد : « وأعظم الملوك الذين توارثوا المملكة عند النصارى بالأندلس وقسموا بلادها أربعة : أذفونش ، وهو مالك قشتالة ، وهي أعمال في جهة طليطلة إلى البحر المحيط ، كانت قاعدتها قبل أن تصير لهم طليطلة مدينة غليسية ، وهي على البحر المحيط . ثم البرجلوني (نسبة إلى برشلونة) وهو ملك شرق الأندلس ، ويقال لمملكته أرغون ، لأنه كان في مدينة أرغون حتى ملك طرطوشة وبرجلونة (= برشلونة) وغيرها ، ثم البيوج وهو في بلاد الشمال مجاور لبطليوس ، وقاعدته ليون ، ثم ابن الريق ، وهو ملك جليقية ، وهي في الشمال والغرب من الأندلس ، كانت قاعدته مدينة شانت ياقوه ، وهي عظيمة إلى نهاية ، فيها معدن الذهب ، وقد صارت له أشبونة وغيرها من بلاد الإسلام ^(١٧) » .

وتقسيمات ابن سعيد دقيقة وصحيحة في مجملها ، ولكنها تحتاج إلى فضل بيان في بعض الألفاظ ، فعاصمة قشتالة قبل أن يستولى أذفونش Alfonso على طليطلة كانت

(١٧) بنو سعيد : المغرب في حل للغرب ، ج ٢ ص ٤٧٣ ، الطبعة الثانية ، تحقيق الدكتور شوقي خيف ، دار المعارف ، القاهرة بلا تاريخ .

مدينة برغش Burgos ولم تكن غاليسية Galicia وفي وسط المملكة وليست على البحر المحيط ، وغاليسية وتكتب في المصادر العربية الأولى جليقية اسم مقاطعة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة وليست اسم مدينة ^(١٨) . وأرغون ليست مدينة ، وإنما اسم إقطاعية سوف تصبح دويلة ، ثم مقاطعة من مملكة ، ثم محافظة في إسبانيا الحديثة ، والاسم مأخوذ من نهر كان يمر بها ^(١٩) .

بقى أن أشير إلى أن المؤرخين المسلمين ، فيما قرأت ، لم يطلقوا أبداً اسم إسبانيا على الأندلس الإسلامي ، أو على ما تبقى منه في يد الكاثوليك ، أو استولوا عليه عنوة فيما بعد من المسلمين . كذلك فإن المدونات الكاثوليكية وهي متأخرة وقليلة ، وكتب جلها رجال الدين في اللغة اللاتينية ، لا تطلق على الجانب الإسلامي اسم الأندلس إلا قليلاً ، وإنما تتحدث فقط عن العرب والمسلمين ، ويرى سيبولد في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أندلس : « أن نصارى إسبانيا الشمالية كانوا يجهلون اسم الأندلس جهلاً تاماً ، وكانوا يطلقون على الجزء العربي الجنوبي الاسم القديم إسبانيا Hispania أو Spania أما موطنهم الشمالي فأطلقوا عليه أسماء خاصة مثل : أشتورياش وليون وقشتالة وأرجون » وهي فكرة تحتاج إلى إعادة تحرير ، فالحق أن المسلمين هم الذين أطلقوا أولاً هذه الأسماء على الدويلات المسيحية التي قامت في الشمال ، وهي تسمى في نشأتها دويلات تجوزا ، لأنها كانت مجرد إقطاعيات يقوم عليها إقطاعي حاكم ومالك ، يسمى نفسه أميراً أو ملكاً أو نبيلاً ، وقد سبقت المدونات العربية في ذلك أية مدونة مسيحية .

أما القول بأن نصارى الشمال كانوا يجهلون اسم الأندلس جهلاً تاماً ، فدعوى كبيرة تحتاج إلى بيان . ينبغي أولاً أن نفرق بين المعرفة والتدوين ، فلا أظن أن ملوك الشمال حين كانوا يهبطون قرطبة الإسلامية إلتماساً للعلاج عند كبار أطبائها ، أو الطلاب المسيحيين حين كانوا يتزلونها طلباً للعلم عند شيوخها ، وفي معاهدها ، كانوا يجهلون أنهم في عاصمة دولة تسمى الأندلس . ولا أعتقد أن المسيحيين الذين كانوا يعايشون المسلمين في دولتهم وعرفوا

Antonio Cavanilles: Historia de España, tomo II, p. 79 ss., Madrid, 1861.

Antonio Ramos: Op. cit., P. 386

(١٨)

(١٩)

باسم المستعربين Los Mozarabes لأنهم اتخذوا العربية لساناً ، يتحدثون بها ، ويقولون الشعر فيها ، ثم هاجروا إلى الممالك المسيحية في الشمال يعملون خبراء أو مترجمين ينقلون أفضل ما عرفوا ، كانوا يجهلون هم ، أو الذين يستخدمونهم ، أنهم قادمون من عند الأندلسيين ، وهم - رغم كاثوليكيتهم - يتكلمون لغتهم ، ويحتدون عاداتهم ، ثقايلهم وملبساً وأنماط حياة . ونتجاهل الواقع حين نتصور أن المترجمين الذين عكفوا في مدينة طليطلة ، على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي ، ينقلون التراث الإسلامي من العربية إلى اللاتينية ، ثم إلى القشتالية فيما بعد ، وقد أصبحت المدينة عاصمة قشتالة بعد أن استولى عليها ألفونسو السادس من المسلمين عام ١٠٨٥ م ، كانوا يجهلون أن شبه الجزيرة يسمى بلاد الأندلس ، أو الأندلس فحسب ، في مؤلفات المسلمين . وأما أن المسيحيين كانوا يسمونها إسبانيا فذلك مقصور على الكتب المدونة ، وكتابتها دون استثناء لغتهم اللاتينية ، وجلهم من رجال الدين ، وهم بحكم ثقافتهم الدينية واللغوية المحافظة ، إن لم نقل المتعصبة والجامدة ، يتمسكون بالقديم ويقفون عند مفردات اللغة اللاتينية لا يتجاوزونها إلى لفظ آخر لم تعرفه . وكانت اللاتينية تعرف لفظي *Spania, Hispania* وتجهل لفظ الأندلس لأنه جديد مستحدث . وهم عندما كانوا يستخدمون التسمية اللاتينية كانوا يعنون بها شبه الجزيرة كله ، سواء في ذلك الأراضي الإسلامية أو التي في حوزة الكاثوليك . فإذا اتصل الأمر بالمسلمين وحدهم سموها : المسلمين *Los Moros* أو المحمديين أو الأفريقيين أو العرب في القليل .

* * *

يوجد اسم « الأندلس » في أقدم المصادر الجغرافية والتاريخية التي لدينا ، وأقدمها يعود إلى مطلع القرن التاسع ، أي أن بين الفتح الإسلامي وتدوين وقائعه فترة تبلغ المائة عام ، أزيد أو أنقص قليلاً ، فهل جاء هذا الاسم مع التدوين أم عرفه المسلمون قبله ، وفي أي عام ؟

لا توجد وثائق أو نصوص تعيننا على هذا التحديد ، غير أننا إذا لجأنا إلى المسكوكات لانجد الاسم في العملة التي ضربت أيام الفتح نفسه ، ويظن أن موسى بن نصير أمر بسكها

أيام أن كان محاصراً لمدينة ماردة Mérida ، وصنعت من ذهب متوسط الجودة ، وأقدم مايوجد منها دينار مثير يوجد في مكتبة باريس الوطنية ، ويعود إلى عام ٩٣ للهجرة ، الموافق لعام ٧١١ ميلادية وعلى وجهه كتابة باللغة اللاتينية ، ويستخدم التاريخين الهجرى والميلادى ، وهما يتطابقان أحياناً ويختلفان أحياناً أخرى ، وفي هذا الدينار نجد هـما متوافقين ، وصورة الكتابة على الوجه الذى يحمل التاريخ جاءت على هذا النحو : ANN XCIII He INDCXI وفى العام التالى ، ٩٤ هـ - ٧١٢ م ، ضربت دنانير أخرى وصلنا عدد كبير منها ، وفى سنة ٩٥ هـ - ٧١٢ م ضرب نوعان آخران من الدنانير ، وهى أندر وجوداً الآن من دنانير العام الذى سبقه ، وفى هذه الدنانير كلها استخدم العرب الاسم اللاتينى لشبه الجزيرة ، وهو كلمة إسبانيا (٢٠) .

ويلحظ الدارس لهذه المسكوكات أن المسلمين نهجوا فى كتابتهم اللاتينية نفس الطريقة التى يتبعونها فى اللغة العربية ، فكتبوا الحروف الساكنة فحسب وأسقطوا حروف اللين ، مما يعنى أن كاتبها كان مسلماً يعرف العربية شيئاً محدوداً من اللغة اللاتينية .

ونفتقد بعد ذلك عملات جديدة ، إلى أن ينجى الحروب بن عبد الرحمن الثقفى والياً على الأندلس ، فيأمر فى عام ٩٨ هـ - ٧١٦ م بضرب عملة جديدة تحمل لأول مرة لغة مزدوجة ، النص اللاتينى على وجه ، وترجمته العربية على الوجه الآخر ، وجاءت كلمات النص اللاتينى على الصورة التالية : Feritus Solidus in Spania anno XCVII ويقول النص العربى المقابل له : « ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة ثمان وتسعين » . وهذا الدينار أقدم وثيقة بين أيدينا نجد فيها الاسم اللاتينى إسبانيا Spania مترجماً إلى اللفظ العربى « الأندلس » (٢١) . ويثير هذا الدينار إلى جانب ذلك ، عددًا من الملاحظات . فنحن نجد على غير ماتعودنا فى العملات السابقة يحمل الكتابة اللاتينية كاملة ، بحروفها الساكنة واللين ، وأنهم رسموا الكلمات اللاتينية على نحو ما سمعوها ، وليس كما تقتضيه قواعد اللغة ، واقتصرت فى الكتابة على التاريخ الهجرى وحده ، سواء فى ذلك الوجه الذى

Catalogue de la Voix. No. 128. Saavedra: Invasion arabe en Espagne, P. 108.

(٢٠)

Casto M. del Rivero: La Moneda Arabigo-espanola, P. 4 ss., Madrid, 1933.

(٢١)

كتب في اللغة العربية أو الوجه الآخر الذي كتب في اللغة اللاتينية ، وأن ثمة farka بين التاريخين في النص العربي والنص اللاتيني ، فالنص الأول يحمل تاريخ ٩٨ هـ ، بينما يحمل النص الثاني تاريخ ٩٧ هـ وإذا كان fark في هذا الدينار لا يتجاوز العام ، فهو يتسع في دنائير أخرى حتى يبلغ ، أحياناً ، ثلاث سنوات ، وفي عدد منها أخطاء في النص العربي ، مثلاً نجد الجملة مكتوبة على النحو التالي : « سنة مان وتسعين » بدلاً من ثمان ، و « ضرب هذا الدينار بالأند ثمان وسنة تسعين » وذلك يعني أن القائمين على هذه الصناعة لم يكونوا متمكنين لا من اللغة اللاتينية ولا من اللغة العربية ، أو بتعبير أدق لم يكونوا عرباً من المشرق ، ولم يكونوا إسبانياً من أهل شبه الجزيرة ، وفيما يبدو لي كانوا بربراً من الذين دخلوا الإسلام حديثاً ، وحظهم من كلتا اللغتين محدود .

إذن أول استخدام رسمي لاسم « الأندلس » يعود إلى عام ٩٨ هـ ، أي بعد ستة أعوام من بدء الفتح ، لكن ذلك لا يعني بآية حال أن استخدام المسلمين لهذا الاسم بدأ في العام نفسه . لأن استخدام اسم ما في عمله رسمية يعني أن يكون الاسم المستخدم شائعاً ومعروفاً بين الناس ، إن لم يكن عند الجميع فبين الكثرة الغالبة التي ضرب لها على الأقل ، وأنا أرجح أن اسم « بلاد الأندلس » كان معروفاً للكثرة الغالبة من المسلمين الوافدين من المغرب ، ممن ينحدرون من أصول بربرية ، ليس بعد الفتح فحسب ، وإنما عشيته أيضاً ، وحتى قبله بزمان طويل على ما سنعرض بعد قليل ، ولم يستخدم في الدناير التي ضربها موسى بن نصير لأنها لم تستخدم العربية إطلاقاً ، وجاءت تقليداً أميناً لدناير لقيها في أفريقية - تونس الحالية - جرى الناس على التعامل بها منذ أيام هرقل ، إبان احتلال الرومان لقرطاجة .

ليس ثمة شك في أن اسم الأندلس يرتبط بالوندال على نحو ما ، تتفق في ذلك المصادر العربية والأجنبية ، وهي قبائل جرمانية غازية هبطت جنوب إسبانيا الشرقى لفترة قصيرة ، فعاثوا في الأرض فساداً ، ودمروا في طريقهم كل شيء ، ثم عبروا المضيق إلى شمال أفريقية فاستقروا فيه زمناً ، ولم يكونوا هنا بأحسن حالا مما كانوا عليه هناك ، فتركوا في

حياة الناس وذواكرهم أسوأ الأثر . فالذين اشتق منهم الاسم إذن معروفون للإسبان الذين في شبه الجزيرة ، ومعروفون أكثر لسكان شمال أفريقيا ، ولم يكن هؤلاء يعرفون عن الغزاة الجدد إلا أنهم قادمون من وراء المضيق ، وأن الأرض التي قدموا منها هي بلاد الوندال . والباحثون المحدثون من العرب يرون أن اسم الأندلس قد أخذته العرب من كلمة فندلس Vandalos أما كيف تم ذلك دون أن يخضع لأي قانون صوتي أو لغوي عربي معروف فلم يقف عنده أحد . وإذا بحثناه علمياً ، وتأملناه ملياً ، وجدنا أن كلمة الوندال لها صورتان : واحدة جرمانية والأخرى لاتينية . أما الجرمانية فهي Wandalos والحرف الأول منها ينطق فيما يشبه الواو في اللغة العربية ومن ثم يجب أن ينطق جمعها وندلس ، وانقلاب الواو همزة لاتعرفه العربية في مثل كلمة أندلس . وإذا قيل أن العرب أخذوها عن اللغة المتكلمة في الأندلس ، فإن هذه الكلمة الجرمانية يجب أن تكون قد انتقلت إلى لاتينية إسبانيا العامة طبقاً لقوانينها الصوتية ، فتصبح Guandaluz لأن الإسبانية درجت على أن تحول حرف W الأجنبي إلى Gu هكذا صنعت مع المفردات الألمانية ، فكلمة Wilhem أصبحت في الإسبانية Guillem ، ومع المفردات العربية فكلمة وادي الرمل أصبحت Guadarrama وإذا قلنا إن العرب عرفوا اللفظ في صورته اللاتينية Vandalos فيجب أن ينتقل إلى العربية في صورة بندلس ، ولم يحدث كذلك أن انقلبت الباء همزة في اللغة العربية ، إن تصور أن يكون لفظ Wandalos قد أخذ طريقه إلى اللغة العربية مباشرة أمر بعيد الاحتمال .

لكن الذي أراه أن شمال أفريقيا كان يعرف إسبانيا تماماً ، وهي منهم على مرأى البصر ، في الفترة التي سبقت الفتح باسم « بلاد الأندلس » ، أي البلاد التي جاء منها الوندال ، وقد ارتبط هؤلاء في مخيلة الناس بقسوتهم وجبروتهم ، وعاشوا في أذهانهم شيئاً مرعباً . وأن التسمية شاعت في كل شمال إفريقية ، وأصبحت تطلق على الجانب الآخر المقابل لطنجة من شبه جزيرة إيبيريا ، حتى بعد أن آل حكم شبه الجزيرة إلى القوط ، وحين جاء الإسلام إلى شمال أفريقيا فاتحاً عرف العرب ، أو سمعوا على الأقل ، اسم الأندلس يقصد به إسبانيا ، قبل أن يعبروا إليها المضيق فاتحين . عرفوا ذلك الاسم عن

طريق البربر أولا ، وهو افتراض يدعمه أن المدونات العربية الأولى التي عرضت لأحداث الفتح كثيرا ما تتحدث عن « بلاد الأندلس » ، ولا تذكر كلمة الأندلس مفردة إلا في القليل .

صحيح أن المصادر القديمة ، عربية ولاينية وإسبانية ، سكنت عن العلاقات الجارية بين البلاد القائمة على جانبي مضيق جبل طارق تحت أى اسم وجدت ، حتى وقع في الوهم أنهما لم يكونا على صلة ، رغم أن جانباً من شمال أفريقيا ، يشمل منطقة سبتة وما حولها ، كان يتبع إسبانيا سياسيا ، مباشرة أو في شكل حماية ، وشجع المسلمين على فتح شبه الجزيرة . وكان ابن الرقيق القيرواني أبو اسحاق إبراهيم بن القاسم ، الوحيد الذي ألمح في كتابه : « تاريخ أفريقية والمغرب » إلى شيء من هذا ، يقول : « فعزم طارق على غزو الأندلس واستنفر البربر ، فجعل إليان يحمل البربر في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس ، ولا يشعر بهم أهل الأندلس ، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم ومعاشهم ومتاجرهم » (٢٢)

ويرى المؤرخ الإسباني المعاصر أنتونيو غوسية أن المعرفة بين الضفتين موعلة في القدم ، وأن تبادل الحكم بينهما يمثل دورة تاريخية : « نحن نعرف منذ المدرسة الابتدائية أن العرب اقتحموا الجزيرة عام ٧١١ م ، ولكن أحداً لم يؤكد لنا أن هذا الغزو ليس إلا تكراراً لظاهرة تأخذ طابع عامل يتكرر في تاريخنا . فقبل العرب جاء الإيرون ، ربما أواسط الألف الثاني قبل الميلاد ، وفي القرن الثاني الميلادي كان ثمة غزو آخر ، ودارس مرحلة ما قبل التاريخ يمكن أن يضيف إلى هذين المثالين أمثلة كثيرة معتمدا على بقايا الأشياء الصناعية المتخلفة في إسبانيا وشمال أفريقيا ، وبالقطع يمكن القول بأن مضيق جبل طارق لم يكن أبداً ، ولن يكون يوماً مضيقاً يفصل ، وبحري ماء يباعد ، بل على النقيض هو طريق

(٢٢) كان هذا الكتاب ضائعا . وعثر على مخطوطته غير كاملة العالم المغربي الجليل الأستاذ محمد المنوي في خزانة الرباط . لا تحمل أية نسبة أو إشارة إلى مؤلفها ، وكان هو الذي اهتم بالمقارنة إلى أنها لابن الرقيق ، وقدم وصفا لها في مجلة المغرب . العدد ٦ و ٧ . لعام ١٩٦٥ . ولدى نصها مكتوبا بالآلة الكاتبة . وقد نشر النص الأستاذ التونسي المنجي الكعبي . في مدينة تونس . ولا يقع في يدي .

يوحد ويقارب . ولقد عبر الوندال إسبانيا إلى أفريقيا خلال هذا المضيق ، ومنه أيضا جاءنا العرب عبر شمال أفريقيا ، وسلك المرابطون والموحدون نفس الطريق ، ولست أدري ما إذا كنا سنحكم من جديد برجال يأتون من شمال أفريقيا ، وإذا اعتقدنا أن ما هو حادث الآن سيستمر دائما نكون كمن يرى التاريخ بعين الثملة ، وقيسه بمقياس حياتها الخادع » (٢٣)

أضف إلى هذا أن تطور الاسم إلى الصيغة التي عرف بها في اللغة العربية يتفق ، على نحو ما ، مع اتجاهات اللغة البربرية ، فنحن نجد في هذه اللغة عددا من الأسماء تضاف إليها الواو بدءا في حالة الجر ، وتجرد منها في الحالات الأخرى فمثلا كلمة Adu ، وتعني عاصفة ، تصبح في حالة الجر Wadu وكلمة Aman بمعنى ماء ، تصبح Waman وكلمة Ass بمعنى اليوم تصبح Wass و ayyur بمعنى القمر تصبح wayyur . وهم يقولون مثلا : Fkid Aman أعطني ماء ، فإذا قالوا أعطني قليلا من الماء أصبحت Fkid imik waman ألا يمكن الافتراض إذن بأن البربر تصوروا أن كلمة Wandalus الجرمانية جاءتهم في صورة الجر ، فاشتقوا منها اسما في حالة الرفع ، هو على قواعد لغتهم ، ودون أي استثناء ، يصبح أندلس Andalus ، أي أن كلمة Andalus تكون بالنسبة لكلمة Wandalus في البربرية ، ما تكونه كلمة "n" مرفوعة بالنسبة لكلمة Waman مجرورة (٢٤) . وجاء العرب من المشرق فالتقطوها من أفواه البربر ، فهي إذن دخلت اللغة العربية عن طريق اللغة البربرية ، وليس من اللاتينية أو الجرمانية أو اللاتينية المتكلمة في إسبانيا مباشرة ، وبذلك يمكن حل المشكلة صوتيا وتاريخيا ، إن غياب حرف W أو V من كلمة أندلس لا يمكن تفسيره إلا في ضوء هذا الفهم .

* * *

لم يذهب الاسم بسنوط دولة الإسلام في الأندلس وإنما بقي في إسبانيا الحديثة بعد أن أخذ صورة أندلسيا Andalusia . ويطلق تقريبا على ما يسميه أبناء سعيد بن

(٢٣)

Antonio Garcia op. cit. P. 184.

(٢٤)

Wycliff Werner. Sobre la historia de un nombre.

كتابهم «المغرب في حلى المغرب» موسطة الأندلس ، أى على المنطقة التى تشمل محافظات :
 ألمرية وغرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية وقادس وولبة . وقبل ذلك عبرت التسمية
 مضيق جبل طارق مع ثلاثمائة أسرة قرطبية نفاها الحكم الأول . خلال ثورة الربض
 الشهيرة ، فأتجهوا نحو فاس واستقروا فيها ، وأطلقوا على حبيهم اسم الاندلس ، وعرفوا هم
 بالأندلسيين ، وما زالوا به يعرفون . وكذلك أدت كثرة الوافدين من الأندلسيين على
 القاهرة فى طريقهم إلى الحج ، أو طلبا للعلم ، أو بحثا عن الرزق ، إلى أن تكون لهم
 بالفسطاط محلة يطلق عليها اسم الأندلس ، تضم رحبة ومسجدا ومصلى ، وضم إليها مع
 الزمن رباط للعجائز المنقطعات الصالحات ، وآخر للأرامل العابدات ، وبستان مشمر .
 ومنذ نهاية القرن الخامس عشر حمله معهم المسلمون الذين أكرهوا على الخروج من
 الأندلس بعد انتصار الكاثوليك هناك إلى الأمكنة الإسلامية التى لا ذوا بها ، فى تونس أو
 الجزائر أو المغرب .

وقبل ذلك وبعده ، بقى اسم « الأندلس » فى أعماق كافة المسلمين جوهرًا مشعًا ،
 يبعث التأمل والإعجاب ، ويحرك الشجى والندم ، ويشير الأسى والحسرة على الدوام !

○ تعقيبات أدبية ولغوية

الأندلس : تاريخ اسم وتطوره

للعالم الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر

كتب الدكتور الطاهر أحمد مكى فى عدد الثقافة (٢٢ - يولية ١٩٧٥) ، كلمة جيدة عن « الأندلس : تاريخ اسمه وتطوره » ذكر فيها أن الباحثين المحدثين من العرب ، يرون أن اسم « الأندلس » ، أخذته العرب من كلمة Vandalos وهم « الوندال » وأن كتابتها بالجرمانية Wandal وجمعها Wandalos وأن الحرف الأول منها وهو w وينطق بما يشبه الواو فى اللغة العربية ، فىكون نطق هذا الجمع بالعربية « وندلس » ، ثم قال :

« وانقلاب الواو همزة لاتعرفه اللغة العربية أبداً » ثم عقب على ذلك بقوله : « إن تصور أن يكون لفظ Wandalos قد أخذ طريقه إلى اللغة العربية مباشرة ، أمر بعيد الاحتمال » . فمن أجل ذلك ، بحث لها عن مدخل فأنتهى إلى أن هذا اللفظ قد انتقل إلى العربية عن طريق اللغة البربرية ، ثم أفاض فى توجيه دخول هذا اللفظ إلى البربرية وعن افتراض تحوله فى اللسان البربرى من الواو إلى الهمزة طبقاً للقواعد الصوتية فى اللغة البربرية ، ثم ختم ذلك بقوله : « فهى إذن دخلت اللغة العربية عن طريق اللغة البربرية ، وليس من اللاتينية ، أو الجرمانية ، أو اللاتينية المتكلمة فى إسبانية مباشرة . وبذلك يمكن حل المشكلة صوتياً وتاريخياً ، فإن غياب حرف v أو w من كلمة أندلس ، لا يمكن تفسيره إلا فى ضوء هذا الفهم » .

كان الدكتور الطاهر فى غنى عن كل ما كتبه عن اللغة البربرية ، وعن اتجاهاتها الصوتية ، وعن افتراض ما افترضه فى تحول الواو فى اللغة البربرية ، بيد أن الذى حمله

على ارتكاب هذا الطريق البعيد ، هو ما اعتقده اعتقاداً جازماً ، من أن « انقلاب الواو همزة لاتعرفه اللغة العربية أبداً » . والأمر في الحقيقة على خلاف ما اعتقد ، وذلك أن قلب الواو همزة قياس مطرد في العربية بلا شك .

وتلخيص القول في ذلك : أن « الواو » إذا كانت في أول الكلمة ، فلها ثلاثة وجوه : أما مضمومة وإما مكسورة وإما مفتوحة ، فإذا كانت الواو مضمومة ، فيكاد يكون قياساً مطرداً في العربية أن تقلب الواو همزة ، فمن ذلك في القرآن العظيم ، في سورة المرسلات : « وإذا الرسل أقتت » وهي من « الوقت » وقرأ أبو عمرو وابن ورداك : « وإذا الرسل وقتت » بواو مضمومة الأصل ، وقالوا في « وجوه » جمع « وجه » « أوجوه » وغيرها كثير .

وإذا كانت الواو الأولى مكسورة ، فقياس مطرد أيضاً أن تقلب همزة ، نحو قولهم في « وسادة » « أسادة » وفي « وشاح » « أشاح » وغيرهما كثير أيضاً .
وأما إذا كانت الواو الأولى مفتوحة ، وهو الذي عندنا هنا في « وندلس » و« أندلس » ، فقلب الواو المفتوحة قليل في العربية ، وليس قياساً مطرداً ومع ذلك فهو كثير أيضاً على الوجهين أي أن تقلب الواو الأولى المفتوحة همزة ، وأن تقلب الهمزة المفتوحة واوا . وذلك نحو قولنا « وحد » فتقول « أحد » بفتحيتين ، وهو من « الوحدة » بلا ريب ، وقولهم أيضاً : « امرأة وناة » ، أي كسول ، بطيئة القيام فيها فتور من طول النعمة ، فقالوا : « امرأة أناة » ، وقالوا للجبل الصغير « وجم » بالواو ، فقالوا فيه « أجم » وقالوا : « وسن الرجل » و« أسن » ، إذا غشى عليه من نتن ريح البئر ، وقالوا : « وكدت العهد » و« أكدته » ، وقالوا « ولته حقه » و« ألته حقه » أي نقصه حقه ، وقالوا : « ورخت الكتاب » ، و« أرخته » ، وقالوا « ورشت بين القوم » وأرشت بينهم » ، أي أفسدت ما بينهم وحرشت بعضهم على بعض ، وقالوا : « ماوبت له » ، وما أبهت له « أي ما فطنت له ، أو ما باليت به لقلته وتفاهته ، وقالوا « وج » وهو اسم بلدة الطائف بالحجاز و« أج » بفتح الهمزة ، وقالوا « وجه » ، أجه ، لوجه الإنسان ، وغير هذا كثير ، فضلاً عن قلب الواو همزة إذا كانت في وسط الكلمة أو في طرفها .

وإذن فالأمر على خلاف ما يعتقد الدكتور الطاهر ، من إنكاره قلب الواو همزة ، وأن العربية لا تعرف هذا القلب أبداً .

وإذن فأقرب شيء إلى الاحتمال ، هو ما رآه الدكتور الطاهر بعيد الاحتمال ، أن يكون لفظ « وندلس » قد دخل إلى العربية دخولا مباشراً بقلب الواو الأولى المفتوحة همزة . والذي ألبأ سلفنا الفاتحين من العرب أصحاب اللسان العربي إلى إبدال الواو الأولى المفتوحة همزة ، أنها جاءت بعدها نون ساكنة ، ومخرج الواو من طرف الشفتين ، ومخرج النون الساكنة من الخياشيم ، فثقل ذلك على ألسنتهم لقرب المخرجين ، ولا رتداد النفس من الشفتين عكسا إلى الخياشيم ، ولأن الواو المفتوحة أخفى من الواو المضمومة والمكسورة في النطق ، ولأن الهواء المندفِع من الحلق عند نطق الواو المفتوحة آت من عند مخرج الهمزة في أقصى الحلق ، فمن أجل ذلك كله آثروا أن يقلبوها همزة صريحة من أقصى الحلق ، ليندفع هواؤها إلى مخرج النون الساكنة من الخياشيم سهلا بلا مؤونة على أداة النطق . ولهذا الأسباب نفسها ، رأيت أصحاب اللسان العربي فيما استظهرته وتبعته قد كرهوا أن تجتمع الواو والنون متجاورتين في أول الكلمة الواحدة من عرييتهم ، وتكون الواو أصلا في الكلمة ، والنون التي تليها أصلا أيضا في الكلمة .

وإذن ، فالذي لاشك فيه ، هو أن لفظ « وندلس » ، قد دخل اللسان العربي مباشرة ، بعد إخضاعه للقانون الصوتي العربي ، ليدخل بعد أن يصقله الذوق العربي دخولا سهلا ساريا على أصول لغته .

وللأخ الدكتور الطاهر أجزل الشكر على الفوائد الكثيرة التي تضمنها مقاله عن « الأندلس » .

○ ولي تعليق قصير :

كتبت مقالى عن لفظ الأندلس وتطوره وتاريخه وأنا بعيد عن القاهرة ، وبجاء تعليق العالم الجليل الأستاذ محمود شاكر عليه في العدد التالى من الثقافة (العدد ٢٣ ، السنة

الثانية ، أغسطس ١٩٧٥) ، وأنا بعيد عنها أيضا . كنت في الأندلس نفسه لبعض المراجعات التاريخية والأدبية ، أقوم بها هناك في موقع الأحداث نفسها ، أطلالا ومهابط وبشرا ، ولم أقرأ التعليق إلا بعد شهور طالت من نشره ، ففقتنى فرصة أن أزجى إليه الشكر صادقا وعميقا على ماصوب وصحح وأفاد . ولما حاولت ذلك بشخصى ، وما أكثر ما حاولت ، كنت أجده حين يتاح لى الوقت ، وما أقل ما يتاح ، خارج القاهرة على سفر أيضا ، ولعل تعليقي هذا يقوم بالسفارة عني ، في أن يحمل للأستاذ الفاضل الذى تعلمنا منه الكثير المفيد ، فتية نقرأ له ، وشبابا نتابع ذوده عن الإسلام والعروبة في حزم وصلابة واستنارة ، طالما ذكرتني بعالم الأندلس العظيم ابن حزم القرطبي ، إجلال من عرفه على البعد وتقديره ، وأكبره عن طريق الحرف .

إن الحياة في تطورها تميل إلى الأسهل دواما ، ويؤثر الإنسان في مواقفه ما يتطلب جهدا أقل ، ويقوى أو يضعف ، ويشتد أو يسهل ، من قواه ما يقتضيه هذا التطور ، والشئ نفسه يقال عن الكلمات أيضا ، وهو ما ندرسه تحت قواعد الإبدال والإدغام وغيرها ، وإذا استثنينا الكلمات التى ضاعت عبر الزمن ، وأدلتنا عليها ظنية ، مستمدة من استنطاق ما وصلنا ، كسقوط ضمير المثنى المتكلم وميل العربية المعاصرة إلى تجاوزه في حالتي الغائب والمخاطب ، فإن حالات الإبدال ، إذا لم تكن من صنع الجدل الصرفى المجرد ، وصلتنا فيها الكلمة على صورتها ، أو صورها ، الحرف فيها مبدلا وقبل أن يبدل ، وهو ما نفتقده في لفظ أندلس تماما ، لأن الأصل وهو « وندلس » ، لم يصلنا بهذه الصورة في أية وثيقة ، هذا إذا لم تكن صورته الأخرى ، وهى « بندلس Vandalos » ، هى التى كانت مستعملة وشائعة في إسبانيا لأنها صورته اللاتينية ، وكان الأندلس لحظة الفتح لاتينيا كله ، في لغته على الأقل .

وعملية الإبدال ، كما أشار أستاذنا بحق ، ليست في واقعها إلا ظاهرة صوتية من الميل إلى الأسهل ، وهو أمر لا يتم بين عشية وضحاها ، وإنما يحتاج إلى وقت تستخدم فيه الصورة الأولى ، ثم تثقل مع الزمن ، أو حتى اللوثة الأولى ، فنجد من يبدل من حروفها ما ثقل عليه ، فطرة لا صناعة ، مستخدما بدلا منها ما خف في لفظه ، ولطف على أذنه ،

وتتجاوز الصيغتان زمنا يقصر أو يطول ، واحدة على لسانه وآخرين ، والأخرى في أفواه الكثيرين من معاصريه ، هو يتكلم بما أحب ، وهم يتحدثون بما تلقوا ، ثم تبدأ الصورة الثانية في الذبوع والانتشار ، وترسل بالأولى إلى زوايا النسيان ، لتصبح تاريخا يدرسه اللغويون .

ومثل هذا الأمر لانجده في لفظ « الأندلس » ، لأننا نلتقي بها مدونة على هذه الصورة بعد ست سنوات من الفتح فحسب ، وهي سنوات جد قليلة ، ولا تقدم مناخا ملائما لمثل هذا التطور على أرض الأندلس نفسها ، ولا حتى في المغرب ، لأن حركة التعريب في كليهما ، كانت في خطاها الأولى ، لقد رافقت اللغة العربية الإسلام في مده ، ولكنها كانت تجميء في مؤخرته ، وراءه وعلى خطوات منه .

لهذا قلت : لما يزل في نفسي من الأمر شيء ، وكم وددت أن تكون كلمة أستاذنا الجليل هي الفاصلة ، إذن لقرت بها عيني راضيا وشاكرا ، وإلى أن نبليغ هذا القول الفصل ، أو الأرجح ، سأظل عند فرضي في أن لفظ الأندلس ، دخل إلى اللغة البربرية أولا ، ومنها أخذه العرب وتلقوه .

تاريخ افتتاح الأندلس

لابن القوطية

وكتاب أخبار مجموعة

لمؤلف مجهول

دراسة موازنة

● نشر للمستشرق الأسباني الكبير خوليان ريبيرا هذه الدراسة مقدمة لكتاب « افتتاح الأندلس » عندما ترجمه إلى الأسبانية ، ونشره بجمع التاريخ الملكي ، في سلسلة الكتب التاريخية والجغرافية التي تولى نشرها ، وكان ترتيب هذا الكتاب الثاني بينها ، ونشر في مدريد عام ١٩٢٦ . ثم أعيد نشر هذه الدراسة وحدها مرة أخرى في كتاب « نبذ ومقالات » ويتضمن أهم دراسات هذا المستشرق الأسباني العظيم ، في الجزء الأول منه ، الصفحات ٤٣٥ ، ٤٥٦ ، مدريد ، ١٩٢٨ . وعنوانها فيه : « ابن القوطية وكتابه » ، واخترت لها العنوان الوارد أعلاه ، لأنى رأيت أكثر دلالة على المحتوى .

لو استطعنا الآن أن نتقل تصوراً إلى المكان والزمان الذى عاش فيه ابن القوطية ، وتعرفنا إلى الصفات الخارجية لشخصه فحسب ، وأدركنا الجو الاجتماعى الذى أحاط به ، ربما كونا عنه ، وعن المجتمع الذى عاش فيه ، فكرة خادعة إلى حد ما . يمكن أن تزور هذه الشخصية المسلمة التى حملت اسم محمد ، فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، فى ضيعته الجميلة التى كان يملكها فى واد مورف ، تتناثر على بساطه بيوت ريفية مطمئنة ، تحت سفح جبل العروس الحالم ، وحوله تنتشر قصور ضخمة فخيمة ، فقد أصبح من المظاهر الأرستقراطية ، منذ أسس عبدالرحمن

الناصر الحى الملكى الرائع ، الذى حمل اسم الزهراء ، أن يملك الشخص ضيعة فى هذه النواحي .

ذات أصيل هبط صاحبنا محمد ، فى ملابسه الشرقية الفضفاضة المهيبة ، من ضيعته إلى المدينة ، ممتطياً صهوة جواده ، فصادفه أبو بكر ابن هذيل ، متوجها إلى ضيعة له بسفح جبل قرطبة أيضا فحياه بيت من الشعر :

من أين أقبلتَ يا من لا شبيه له ومن هو الشمسُ والدنيا له فلكُ

فتبسم صاحبنا ، وأجاب على البديهة :

من منزلٍ تُعجبُ النساءُ خلوته وفيه سترٌ على الفتاك إن فتكوا

ولم يتالك ابن هذيل نفسه ، فقبل يد ابن القوطية إعجابا ، ودعا له ، فقد كان تلميذه ، واحتفظ لشيخه بإجلال وقور .

وفى الحق كان صاحبنا محمد واحدا من كبار علماء المسلمين فى قرطبة ، واسع المعرفة مهابا ، « عالما بالنحو ، حافظا للغة ، متقدما فيها على أهل عصره لا يشق غباره ، ولا يلحق شأوه » ، ولا يبلغون حتى موطىء نعله بتعبير النقاد فى عصره . وفيما يتصل بهذه العلوم ألف كتباً كانت مادة الدرس فى كثير من معاهد العلم لقرون طويلة ، ونشرت فى وقتنا هذا بين أمهات كتب التراث ^(١) .

« وكان جيد الشعر ، صحيح الألفاظ ، حسن المطالع والمقاطع ، إلا إنه تركه ورفضه » وكان فقيهاً متمكناً ، واسع العلم بالحديث والسنة ، ولكنه تربوياً لم يسر فى تدريسها على مناهج الفقهاء فى عصره ، فاتهموه بأنه « لم يكن بالضابط لرواية فى الحديث

(١) الترجمة الموسعة والدقيقة لأبى بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم ، المعروف بابن القوطية ، توجد عند : ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة رقم ١٣١٦ ، طبعة كوديرا ، (١٣١٨) ، طعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة (١٩٦٦) .

وانظر ترجمته ، وأخبارا عنه ، وعن مؤلفاته فى : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، تأليف بونس « بيبير » ، ص ٨٣ . وللوقوف على استمرار تدريس كتبه انظر : ابن خير ، فهرسة ما رواه عن شيوخه ، المجلد العاشر من المكتبة العربية الأساسية ، نشر كوديرا وريبيرا ، ص ٣٣٤ .

وقد نشر كتاب الأفعال لابن القوطية اجناسيو جويدي فى ليدن ، مكتبته بريل عام ١٨٩٤ . (ونشره فى القاهرة أستاذى المرحوم الدكتور قواد حسين) .

والفقه ، ولا كانت له أصول يرجع فيها ، وكان ما يسمع عليه من ذلك إنما يحمل على المعنى لا على اللفظ ، وكثيرا ما كان يقرأ عليه مالا رواية له فيه ، على جهة التصحيح ، ولكنهم مع ذلك يعدونه من العباد النساك . وقد « طال عمره ، فسمع منه الناس طبقة بعد طبقة ، وروى عنه جماعة من الشيوخ ، والكهول ، ممن ولى القضاء ، وقدم إلى الشورى ، وتصرف في الخطط ، من أبناء الملوك وغيرهم » .

إذا حكمنا على هذا الفقيه الوقور من خلال الظاهر فحسب ، دراسة ودينا ، ولغة وملبسا ، مال بنا الظن إلى أنه ينتمى إلى أسرة ذات أصول عربية خالصة ، وحيث نقع في الخطأ : إن هذا الفقيه الوقور الذى يتردد على المسجد الجامع يوميا ، يصلى خاشعاً ، ويلقى دروسه فى اللغة العربية متمكناً ويدرس الفقه فى زمن عبد الرحمن الناصر العظيم ، ينحدر مباشرة من أسرة غيطشة الملكية القوطية ، وهو طراز يقدم لنا المثل ، ونستطيع من خلاله أن نوجز ملامح الحضارة الأندلسية ، أو الإسبانية ، سمها كيف شئت . يمكن أن نقول عنه أنه مؤرخ عربى ، فقد كتب مؤلفاته فى اللغة العربية ، ولكن الكنية التى يحملها : ابن القريطية ، تعنى أن الجانب الإسباني من شخصه لم يذهب تماما . فهو وآخرون كثيرون على شاكلته ، يمثلون قمة الثقافة العربية فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، يمكن أن ندعوهم عربا ، كما نطلق لفظ لاتينى على كثيرين من المؤلفين الإسبان الذين يكتبون فى اللغة اللاتينية ، دون أن يعنى ذلك أنهم تخلوا عن إسبانيتهم ، لا لأنهم ولدوا على أرض إسبانيا فحسب ، ولكن لأن الدم الإسباني يتدفق عبر عروقهم .

والشئ نفسه كان يجرى فى عروق ابن القوطية وأسهم فى تكوين فكره ، ومن الضروري أن نضع هذا العنصر فى حسابنا عند تفسيرنا لجانب كبير من محتوى مدونته التاريخية ، التى وصلت إلينا تحمل اسمه .

فى هذه الفترة ، من ذلك العصر ، وصلتنا مدونتان رئيسيتان : أخبار مجموعة وكتاب ابن القوطية ، وإحداهما تؤكد ما فى الآخر ، تكملها على نحو ما ، وقد خبر المستشرق الهولندى رينهارت دوزى كلتا المدونتين جيدا ، وأفاد منها كثيرا ، ومع ذلك يبدو لى أنه لم

يستطع تحديد العصر الذى ألفت فيه المدونة الأولى^(٢)
وقد ذكر لفونى القنطرة فى الصفحة السادسة من مقدمته للطبعة التى نشرها من أخبار
مجموعة ، محتذياً فى ذلك خطى دوزى ، أن مؤلف هذا الكتاب يجب أن يكون قد عاش
فى القرن الحادى عشر الميلادى .

وهذا رأى يعتمد أساساً فيما يبدو ، على الفقرة التالية من أخبار مجموعة : « وكان رأيه
(أى عمر بن عبد العزيز) انتقال أهلها منها ، لانقطاعهم عن المسلمين ، وليت الله كان
أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله » .
ويرى دوزى أن هذه العبارة لا يمكن أن يتفوه بها إلا مسلم عاش فى القرن الحادى
عشر .

ليس من السهل على المؤرخ دائماً أن يتخلى عن وجهة نظره الذاتية عندما يدرس
الشخصيات التاريخية التى يعرض لها . وفى الحالة التى نحن بصدددها لا يجب أن ننسى أن
إمكانات كاتب مسلم ، عاش فى الأندلس فى تلك الأيام البعيدة ، ليست نفس
إمكانات مؤرخ للأحداث يعيش فى شمال أوروبا بعد ذلك بعشرة قرون .
فى كل العصور ، وحتى فى أفضل الأيام بالنسبة لأية جماعة اجتماعية ، ثمة أفراد يمكن
للمؤرخ أن يصفهم بأنهم أشرار إذا لم يكونوا على وفاق معه ، أو مع أسرته ، أو مع
طبقة ، وأعتقد أن المؤرخ الذى فاض بتلك المشاعر الحزينة ، كان يعيش فيما نعتبره الآن
أفضل أيام الخلافة الأموية فى الأندلس ، أى فى عصر عبدالرحمن الناصر .

لكى نترك على نحو أوضح المنظور التاريخى الذى كان أمام مؤلف مدونة « أخبار
مجموعة » ، وكتب تلك الفقرة المتشائمة ، علينا أن نبحث عن المؤلف الذى حرر هذه
المدونة .

إذا توقفنا قليلاً فى أخبار مجموعة وجدنا أنها مجموعة من المذكرات وال فقرات
التاريخية ، سجلها صاحبها شيئاً فشيئاً دون أن يقصد إلى ربط الحوادث ربطاً منهجياً أو
يرتبها تاريخياً ، وهو فى روايته يتجاوز أحداثاً وقعت ثم يعود إليها ، مثلاً بعد أن يذكر

(٢) البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٠ ، طبعة دوزى .

مغامرة عبدالرحمن الداخل ، والنهاية التعسة لبنى أمية في المشرق يعود إلى ولاية أبي الخطار في إسبانيا ، وثمة فقرات يبدو أنها أضيفت إلى النص الأصلي فيما بعد ، دون أن تكون لها صلة بما كان يهتم به الكاتب الأول .

ولست أشك في أن أشخاصاً عديدين أسهموا في تأليف أخبار مجموعة ، يختلفون ثقافة وفكراً وزمناً وذوقاً ، ويمكن أن نتعرف إليهم من خلال المواد المتباينة التي يوردونها ، والأفكار ووجهات النظر التي يعبرون عنها ، وحتى من خلال الأسلوب الشخصى لكل واحد منهم : أحيانا نجد الرواية مطولة مفككة ، حافلة بالتفاصيل ، كذلك التي كتبها أولئك الذين بدأوا تحرير هذه الأخبار ، وأحيانا أخرى مركزة موجزة مقتضبة . وبعض الذين أسهموا في الكتاب يميلون إلى أخبار الحروب وأحداث السياسة ، دون غيرها ، ويعتبرون ماعداها تافها . والبعض الآخر يميلون إلى شؤون الدين ، وقضايا الفقه والأخلاق ، لا يهمهم أو يستلفت انتباههم ماعداها . ومن الواجب أن نشير إلى أنهم جميعا يصدر عن اتجاه متشابه ، من عصبية قبلية ، أو وحدة طبقية ، كما لو كانوا كلهم ينتمون إلى أسرة واحدة ، أو قبيلة بعينها .

أول هؤلاء الذين أسهموا في تحرير الكتاب لابد أن يكون رجل حرب لأنه لا يقف باهتمامه عند الحملات الحربية خاصة فحسب ، وإنما يعرض لما يستخدم فيها من ذكاء وحيلة ، والحاجة إلى الأدلاء الذين يقودون الجيش إلى مواطن الضعف في جبهة العدو ، واستخدام الجواسيس الذين يعرفون عورات البلد ، ويدرك مواقف الفتح الخطرة ، ووسائل الوقاية والأمن التي تتخذ في المدن المفتوحة ، وأن من الضروري أن يتبين الفاتحون الصديق من العدو ، بل ويتوقف طويلاً عند أعداد الجنود ، والوضع الذي يأخذونه في المعارك ، ويصف ذلك كله دون أن يلجأ إلى الأساطير والمبالغات ، ويشرح التحركات الفنية في القتال ، من المفاجآت والأحداث الحربية الأخرى ، كما لو كان خبيراً واسع التجربة والدربة ، ويعتمد في معرفته على العلم والتقاليد العسكرية ، وليس على كلام العامة وشائعاتهم .

وهو سياسى أيضا . يردّ الأحداث إلى أسبابها الحقيقية ، ويستخف بأقاويل العامة ،

ويحتقر الناس المرفهين ، ويدير ظهره للعسكريين الذين يجهلون واقع الأشياء ، ويورد مفاوضات عبد الرحمن الداخل السياسية في تفصيل حافل ، يشي بأنه شهد بشخصه بعض تلك الأحداث .

وهو قرطبي ، يتحدث عن الأمكنة في قرطبة ، كمن شهدا رأى العين . ويعرف ما طرأ عليها من تغيير في البناء ، أو المآل ، أو الاسم ، كالمساجد والمقابر ، ويقدم لنا تفسيراً لما أصابها من التغيير .

وهو عرلي ، شريف النسب ، من قبيلة قريش ، يحفظ من الذاكرة أسماء القبائل العربية الكثيرة ، وروابط الصداقة التي تجمع بين كل قبيلة وأخرى ، وعلى علم تام بالمخالفات أو العداوات القائمة بين الأسر المختلفة يهتم كثيراً بالأنساب والأسر الشريفة ، والمناصب التي تتولاها ، ويعجبه من رجال الطبقة الدنيا تقديرهم الموالي ، رغم أنه لا تجرى في عروقهم دماء عربية ، وحين يسمى أحداً ينتسب في قبيلة قريش يلزم نفسه بأن يشير إلى البطن أو الفخذ الذي ينتمي إليه . وإذا جهل بعض تفصيلات النسب ، وهو قليلاً ما يحدث ، يعترف به كعيب فيه ويعتذر عنه . ويحلوه أن يسجل الاحترام الذي عليه أن يحتفظ به إزاء قبيلة قريش ومواليها ، ويدعو غيره إلى توقير الأشراف ، ويبقى على كل واحد في مستوى طبقته ، وينصحه ألا يدعى لنفسه من الشرف أكثر مما يستحق ، ويحتفظ بالرتب ، ويعين المناصب العليا لكبار القوم ، ويرى أن الانتماء في قبيلة قريش يفتح الطريق أمام امتيازات كثيرة ، بما فيها ألا تتعرض حياتهم للاعتداء عليها أبداً .

وأخيراً ، وهو من البيت الأموي ، يشير إلى الأمويين كلهم تقريباً ، قبل أن يجيء العباسيون إلى الحكم في المشرق ، ويهتم بذكر الأحداث التي قام بها أفراد يرتبطون بأسرته . وفي الحملات الحربية يشير بوضوح إلى الأمكنة التي شغلها أمويون ، ويسجل حتى أنفه الأعمال التي قام بها بعضهم ، ويورد نماذج من الأدب والاحترام التي يحتفظ بها صغارهم لكبارهم ، ويطلب في ذكر أفراد الأسرة الأموية الذين دخلوا إسبانيا بعد مجيء عبد الرحمن الداخل ، ويأتي على أخبارهم تفصيلاً .

وكاتب في مثل هذه الحال ، لا يستبعد منه ، في ضوء خبرته المباشرة ، وثقافته الحربية

والسياسية ، أن يقدم لنا مدونة مفصلة ودقيقة إلى حد بعيد ، تبدأ من الفتح وتمتد حتى ارتقاء هشام الأول عرش الإمارة .

وبعد هذا القسم ، فيما يليه من المدونة ، سوف تتغير الصورة تماماً ، سوف تختلف طريقة الكتابة كلية واختيار المادة التاريخية أيضاً ، ولم تعد الحملات الحربية ، ولا الموضوعات العسكرية ، تعنى الذين كتبوا هذا الجانب من المدونة . وإذا عرضوا لها مرة ، جاء حديثهم عنها خالياً من التفاصيل التقنية ، كما يفعل غير المختصين من الكتاب ، وحتى الموضوعات السياسية لا تسترعى انتباههم ، وإنما تركز اهتمامهم ، على نحو واضح بالموضوعات الدينية إذا تحدثوا عن الأمراء لا تعينهم البطولات ، وإنما يعرضون لهم بطريقة تجريديّة ، يذكرون مميزاتهم الثقافية ، وفضائلهم الخلقية ، ويشيرون إلى ما هم عليه من خشوع وتقوى ، ويتحدثون عن أدبهم وحجهم للفقهاء ، ويضمنون حديثهم عن الحكومة الصالحة المواعظ الخلقية وآيات الشعر . مما يوحي بأن كاتب هذا الجانب من المدونة فقيه أديب ينتسب في قبيلة قريش ، يحتفظ بين أوراق أسرته بخطابات قديمة ، كوثائق عائلية ، عليه كفقيه أن يواصلها . ونعرف بعضاً من أمثال هؤلاء الفقهاء القرشيين ، ويرد في الحاضر فقيه منهم ، كان يتمتع بشعبية واسعة ، وشهرة علمية فياضة ، ودرج القرطبيون على أن ينادوه في لقبه الرومانى : ابن الشبنسية Sepancia^(٣)

في أى عصر عاش ، أو كتب ، الفقيه الذى حرر الجزء الأخير من مجموعة الأخبار التاريخية هذه ، والتي حملت اسم « أخبار مجموعة » ؟

أنا أعتقد أنه عاش في عصر عبد الرحمن الناصر ، حيث تتوقف الرواية ، وتلك الأيام التى تحدث عنها المؤرخ كأيام محيفة ، بل وتعيصة يُرثى لها ، وشهدت احتضار القوة العربية ، ليست عقبة تحول دون هذا الرأى .

كل فرد ، كما سبق أن قلنا ، يبدو له الأيام سيئة وحتى تعسة ، حين تقع لشخصه أو أسرته أو قومه أحداث غير مرضية ، ومن ثم هناك من يتحدث بسوء حتى عن أفضل الأيام

(٣) ابن الأبار ، الترجمة رقم ٢٦٩٥ ، و الجزء الذى نشره مركز الدراسات التاريخية ، من تكملة الصلة ، مطبعة ١٩١٥ .

التي تمر بها أمته ، وأذكر بهذه المناسبة أن الخشني ^(٤) يحدثنا عن قاض من قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر عرض لتلك الأيام فوصفها « بفساد الزمان ، واختيال الفجار ، وما يحدث من الأمور المشبهة التي لاتبين له حقيقتها ، ولا يكشف له وجهها » . وعندما تحدث الخشني نفسه عن هذا القاضي ، وصفه بأن « مذاهبه محمودة ، وسيرته حسنة ، وهديه جميلا ، وكان له من الوقار والإخبات ما بذ به أهل زمانه ، وفات فيه أهل عصره » . ثم يضيف : إن هذه الصفات الأندلسية تلاشت في أيام عبد الرحمن الناصر . وفيها نجد كثيراً من السادة الذين احتفظوا بطابعهم اللاتيني ، ومن ثم فهم ليسوا عرباً ، واصلوا ثوراتهم حتى ذلك الوقت ، ثم استنزلوا من حصونهم ، وأصبحوا معاهدين ، وأصحاب نفوذ في قرطبة ، وأباحوا لأنفسهم رخصاً لايرتضيها قانون الدولة الإسلامي ، وبلغ الأمر حد أن اسم شخص إسباني ، ينحدر من أب وأم لاتينيين ، رن في عاصمة الخلافة الإسلامية ، كمرشح لمنصب قاضي الجماعة فأثار استنكار المسلمين الطيبين بعنف . أي فقيه تقى من قبيلة قريش الشريفة لا يفعل فكراً بالأحداث السياسية في عهد عبد الرحمن الناصر ، حين يرى اللاتينيين أصبحوا سادة ، ويدفعون الأشراف العرب الأصدقاء ، وكانوا حتى هذه اللحظة يسرون السياسة القرطبية ، إلى مكان ثانوي مغفور ، خامل الذكر؟ ويرى الأسر الإسبانية الحديثة العراقية ، وليس في عروقتها نقطة من دم عربي ، تخلف القرشيين في المناصب السياسية والحرية في إمبراطورية بني أمية ؟

مثل هذه الأيام ، فيما يرى أي قرشي ، بالغة الخطر على مستقبل الجماعة الإسلامية ، وينبئ بنهاية حكمها في شبه الجزيرة إنها أسوأ ما يمكن أن يتصور من الأيام ! والحق أن الفقيه الشريف الذي كتب هذا الجانب من المدونة كان واقعاً تحت هذا التأثير ، ودليلنا عليه موقفه من عبد الرحمن الناصر فيما يتصل بهذه القضية ، فبعد أن أتى على الانتصارات الشخصية العظيمة التي حققها الخليفة أضاف ، وأصاب في ذلك كبد الحقيقة : « ولكنه - عفا الله عنه - مال إلى اللهو ، واستولى عليه العجب ، فولى للهوى لا للغناء واستمد بغير الكفاءة ، وأغاظ الأحرار بإقامة الأندال ، كنجدة الحيرى وأصحابه

(٤) تاريخ قضاة قرطبة ، ونصه العربي وترجمته إل الأسبانية ، وقام بها خوليان ريبيرا نشر في مدريد عام ١٩١٤

الأوغاد . فقلده عسكريه ، وفوض إليه جليل أموره ، وألجا أكابر الأجناد ، ووجوه القواد ، والوزراء من العرب وغيرهم ، إلى الخضوع له ، والوقوف عند أمره ونهيه ، وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه ، وركاكة عقله »^(٥) .
 ألا يبدو لنا الآن من الوضوح بمكان ، أن قرشياً من أيام عبدالرحمن الناصر ، يتحدث عن ذلك العهد في تشاؤم ؟!

ولأن الذين حرروا أخبار مجموعة : ينحدرون من أسرة عربية قرشية شريفة ، ليس لنا أن نعجب من احتقارهم للطبقة الدنيا من عامة الناس ، وبخاصة السكان الأصليين الذين ينحدرون من أصول إسبانية ، ولقد انصرفت عنايتهم كلها إلى أخبار عرب الأندلس وحدهم . ووجهوا جل اهتمامهم إلى القرشيين من بينهم ، وإلى البيت الأموي من بين القرشيين بخاصة . أما العناصر الاجتماعية الأخرى فلا تحتل من الكتاب إلا مكاناً منزوياً حقيراً ، وبحي الحديث عنها في إشارات عابرة وذلك أكبر نقص يؤخذ على الكتاب .

* * *

أما كتاب ابن القوطية ، على نحو ما وصلنا ، فعلى العكس من ذلك ، ونشك فيما إذا كان ابن القوطية نفسه مؤلفه المباشر ، وكتبه قاصداً . فهو ليس كتاباً انتظمت أقسامه ، وارتبطت منهجياً ، كعمل أدبي لمؤلف واسع العلم ، غزير الثقافة ، وهو ما كان عليه ابن القوطية فيما يقول المؤرخون . ولكنه مجموعة من الأخبار القصار ، دونها بعض من كان يحضر دروسه من المولعين بالأخبار ، فجاء لوحات جزئية ، لا رابط بينها أحياناً ، أو روايات منفصلة لأحداث تاريخية ، ليست من إنشاء ابن القوطية نفسه ، وإنما حررها أحد سامعيه ، فهو يقول مثلاً : « قال لي ابن القوطية » . وتتخلل الروايات أساطير شعبية ذات روح شاعري ، وتقوم على أساس من التاريخ ، ولا يؤلف بينها رابط قوى ، ولا يجمعها تناسق خاص ، ويورد أحياناً ، كما يحدث في آخر الكتاب ، روايات ملفقة تماماً ، أقرب إلى أن تكون ثرثرة .

هذه الإشارات تجعلنا نعتقد أن ابن القوطية لم يحرر هذا الكتاب شخصياً ، وإنما هي

(٥) أخبار مجموعة ، ص ١٣٥ من الترجمة ، وص ١٥٥ في النص العربي .

نقاط نقلها أحد تلاميذه من دروس عديدة له ، حاول فيها أن يعرض ما يعرف من تاريخ إسبانيا ، أو مجموعة من الأخبار التاريخية كان يحتفظ بها بعض أبنائه أو أحفاده ، ثم تولوا ترتيبها على النحو الذى وصلتنا عليه .

وثمة إشارات أخرى تومئ إلى أن ابن القوطية لم يؤلف هذا الكتاب بهدف أن يكتب عملاً أدبياً ينسب إليه .

فابن الفرضى المؤرخ ، صاحب التراجم المعروف ، وتلميذ شخصياً على ابن القوطية ، يتحدثنا عن نفسه أنه اختلف عدة أعوام إلى الدروس الأدبية التى كان يلقيها ابن القوطية فى مدينة قرطبة ، وقد أعجب به ، وأثنى عليه كأستاذ عظيم ، وعاش ابن الفرضى بعد ابن القوطية ستة وثلاثين عاماً^(٦) ، فلو كان ابن الفرضى يعرف أن لابن القوطية هذا الكتاب محرراً ، أما كان يغتم الفرصة ليفيد منه فى كتابه « تاريخ علماء الأندلس » ، أو على الأقل أن يشير إليه ولو مرة واحدة ، كما ذكر مؤلفات : عبد الملك بن حبيب ، والرازى ، والحشى ، وآخرين ؟ ، إنه لم يذكر كتاب ابن القوطية هذا ولا مرة واحدة إذا شئت ، والترجمة التى خصه بها ، وهى أكمل ترجمة له وصلتنا ، تتحدث عن مؤلفاته فى النحو واللغة فحسب ، وإلى جانب ذلك ، كان ابن الفرضى على علم تام بأن ابن القوطية ينطوى على حب عميق لمادة التاريخ ، فهو يتحدثنا عنه قائلاً : « وكان حافظاً لأخبار الأندلس ، ملياً برواية سير أمرائها ، وأحوال فقهاءها وشعرائها ، يملئ ذلك عن ظهر قلب » . ولكنه لا يذكر لنا صراحة أنه كتب أية مدونة ، أو ألف أى كتاب خاص عن تاريخ الأندلس . وذلك فيما أرى ، دليل على أنه فى حياة ابن القوطية ، وحتى سنوات بعد وفاته ، لم يكن الكتاب الذى يحمل اسمه قد عرف طريقه إلى الجمهور .

غير أن الاهتمام بالعلم والأدب ظل قورياً فى نطاق أسرة ابن القوطية . فقد سار ابنه المسمى عمر ، ويكنى أبا حفص ، فى الطريق نفسه ، فكان أدبياً شاعراً ، وروى عن أبيه وغيره^(٧) وكان من سلالة عبد الملك ، ويكنى أبا الوليد ، ويعرف بابن القوطية أيضاً .

(٦) توفى ابن القوطية عام ٣٦٧ هـ - ٩٧٧ م .

(٧) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٨٤٩ ، طبعة مدريد (والترجمة رقم ٨٥٤ من طبعة القاهرة) .

« متصرفاً في العلوم من الفقه والعربية والحساب ، محسناً لعقد الوثائق ، بصيراً بعللها ، راوية للأخبار ، حافظاً للآداب ، وروايته للعلوم واسعة ، وشيوخه كثيرون بقرطبة وإشبيلية ، وروى عن عمه أبي بكر^(٨) ، أي ابن القوطية صاحبنا ، وأحد هذين ، أو أي تلميذ آخر ، يجب أن يكون قد حرر تاريخ افتتاح الأندلس ، على النحو الذي وصلنا عليه .

ومع ذلك ، ورغم أن ابن القوطية لم يكن هو الذي حرر الكتاب شخصياً ، فإن المادة التي تضمنها وتنسب إليه ، تتفق تماماً مع كل مانعوف عن شخصه وجنسه وأسرته وتربيته وثقافته ، وما إلى ذلك ، وليس ثمة شك على الإطلاق فيما يتصل بها . فالمؤرخون ، حتى دون قصد منهم ، ينقلون إلينا وجهة نظرهم الشخصية ، يروون ما يهمهم أكثر ، ويضعون عليه ظلالاً تعكس حالتهم النفسية ، ومحتوى تاريخ افتتاح الأندلس يتفق تماماً مع نفسية ابن القوطية .

هو فقيه من قرطبة ، ولكنه واسع الأفق ، أديب عميق ، واسع الثقافة ، يجري فيه جانب من الدم العربي ، فهو مولى بنى أميه ، ولكنه من جانب آخر ، يتحرك في أعماقه إنساناً ويغلى روح إسباني ، وشرف أسرة نبيلة ، تنتمى إلى الأسرة القوطية المالكة . فهو مسلم مخلص ، تربى في وسط ديني شديد المحافظة ، ودرس مبادئ أشد المذاهب الإسلامية سنية ، ودافع عن اتجاه تاريخي خلقى تستشفه خلال كتابه ، ومؤداه أن الدين يعملون الطيب ، والصالحين والأتقياء ، ينلقون الثواب في الدنيا ، وأن الأشرار والسيئين ينالهم العقاب في الدنيا أيضاً ، فضلاً عما ينتظرهم في الآخرة .

والملوك الصالحون هم الذين يقربون الفقهاء والعلماء من رجال الدين ، وبهذا يصبحون سعداء ويسعدون رعاياهم ، ولكنه مع ذلك لم يكن متشدداً ولا متعصباً ، ويورد أخبار زرياب في ود ، رغم أنه كان موسيقياً ، ولا يتردد في رواية السنة على نحو قد لا يرتضيه منهج المحافظين على أيامه .

ولأنه كان مسلماً صادق الإيمان لم يكن لديه ما ينجعل منه فيما يتصل بموقف أفراد

(٨) المصدر السابق ، الترجمة رقم ٧٦٥ ، طبعة مدريد (والترجمة رقم ٧٧٠ ، طبعة القاهرة) .

أسرته الذين ساعدوا حملة الفتح الإسلامى ، بل ويمكن القول إنه غالى فى الخدمات التى قدمها أسلافه إلى العرب ، فى تواطئهم الخائن ضد الشعب الإشباني ، وإنه كمؤمن صادق الإيمان يعتبر أن الفتح الإسلامى هبة إلهية لإنقاذ البشرية .

وقد ارتبطت أسرته بالولاء لبني أمية ، لأن جدته سارة القوطية ، حفيدة غيطشة ، ذهبت إلى دمشق ، تشكو إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك ظلامه أصابها من أحد موالىها المسلمين ، فأنصفها (وزوجها من عيسى بن مزاحم ، الذى قدم الأندلس معها ، وسكننا إشبيلية) ، ومن ثم كان صاحبنا ابن القوطية يعتبر ملوك الأندلس الأمويين موالى له ، ولهذا السبب أيضا ، فإن اهتماماته وآراءه التاريخية تتفق فى هذا الجانب مع آراء وأفكار مؤلفي أخبار مجموعة وكانوا أمويين أيضا . فهم وابن القوطية ، يتفقون فى كتابتهما على احتقار موسى ابن نصير ولفريق ، ويعتبران هذا الأخير غاصبا ومتكبرا وفارغا ، ومستخفا بالتقاليد الدينية ، ومغتصبا للنساء ، ومرتكبا لذنابل وآثام أخرى كثيرة . وفيما يرون جميعا فإن موسى ابن نصير ، وعزله الأمويون السوريون ظلما وبطريقة مخجلة ، مثل واضح للطموح المبطل ، وقد حقد على طارق القائد المحظوظ الذى عهد إليه بفتح إسبانيا ، ضربه كعبد حقير ، اختصم معه حول رجل المائدة ، وما أن موسى وابنه انسجما مع أسرة لفريق ، وحتى ارتبطا عائليا ، فإن الأمويين أتباع غيطشة كرموا موسى ومواليه ، ولفريق وأتباعه وعاقبهم وفى هذا يتفق أخبار مجموعة وكتاب ابن القوطية .

ولكن هناك ، كما أشرنا من قبل ، اختلافا جوهريا بين محتوى الكتابين ، مصدره اختلاف سلالة مؤلفيهما . فالقرشيون الذين ألفوا أخبار مجموعة يظهرون احتقارا كبيرا نحو العنصر الأصلي من السكان ، قلما يعرضون لهم ، ولا يكادون يهتمون تقريبا بغير البطولات العربية ، والقرشيون من بين هؤلاء بخاصة ، والأمويون من بين القرشيين على نحو أنحس . فى حين أن ابن القوطية ، وبحس بالدم الإشباني يتدقق عبر عروقه ، يحتفظ فى أعماقه بشرف جنسه حيا ، فأدخل فى كتابه العديد من الروايات التى تعرض لموقف العنصر الإشباني ، من سكان البلد الأصليين .

ومسألة الشرف هذه تفاقمت للغاية فى الأيام التى سبقت ابن القوطية ، وبخاصة فى

عهد الأمير عبد الله ، حين كانت كل العناصر الاجتماعية في إسبانيا الإسلامية تضطرب بعنف ، لغياب القوة المركزية التي تسيطر عليها .

وفي بلد ، ك شبه الجزيرة يومها ، يتعايش الناس من أجناس مختلفة ، وأديان متباينة : مسلمون ومسيحيون ويهود ، وعرب وقوط ورومانيون وغيرهم ، وقبائل وأسر ظلت حتى ذلك الوقت تحتفظ في قوة بخلافاتها القبلية والعائلية ، من عرب وجرمان ، ليس من الغريب في النضال الاجتماعي ، أن يشتد الزهو بالانتماء إلى هذه القبيلة أو تلك ، وإلى هذه الأسرة أو الأخرى ، وإلى هذا الدين بعينه . فالمسلمون يحتقرون اليهود والمسيحيين ، يتجنبون الاتصال بهم أو الاحتكاك بهم ، والذين ينحدرون من أسر شريفة يحتقرون العامة والذين في أدنى سلم الحياة ، وينفرون من التعامل معهم .

غير أن التعايش أمر لا مفر منه ، وضرورات الحياة في أحيان كثيرة تضطر الجميع إلى التسامح ، وفي بعض الحالات إلى التلاقي والتعاون ، ومن ثم انتقلت مسألة الشرف إلى أوساط أخرى ، وأخذت طابعا مختلفا ، طابعا معنويا لا صلة له بالجنس أو الأسرة .

نعم ، أصبح الإحساس بالكرامة الشخصية شديدا ، وأصبح الشخص الذي حقق شيئا من الهيبة الاجتماعية يعتقد أنه أهين إذا وجد نفسه مضطرا إلى أن يتعاون مع شخصية أخرى من طبقة أدنى ، وصار السلوك الخلقى المحمود يُكسب صاحبه قيمة وثقة . وإذا ميز أناس موقرون شخصًا ، أو نعتوه بأنه كريم ارتفع بهذا العمل وحده في التقدير الاجتماعي . وإذا ارتكب شخص من أشرف قريش فاحشة ، فإن قاضي قرطبة يمكن أن يعزره ويذله ، ولا يتوقف تقدير المرء على سلوكه الشخصي فحسب ، وإنما يتأثر أيضا بموقف الأسرة نفسها فهو ينعكس على مكانة أفرادها ، فالموقف السيء لابن يؤدي إلى تعزيز الأب أحيانا . وقد اضطر قاض في قرطبة إلى أن يستعفى من منصبه بسبب مجون ابنه . وعندما بلغ ابن أحد القضاة سنا متقدمة ، أدى ذلك إلى الشك بأن الأب لم يعد كامل الأهلية ، ومن يطلب ، أو يرجو لنفسه منصبا عاما ، يوصف مسلكه هذا ، أحيانا ، بأنه غير كريم . هذا الإحساس الخلقى ، الموسوس والقوى ، في الشعب الأندلسي ، أدى إلى تكوين

جاعات سياسية مختارة ، تقود الشعب بآرائها ، وتحتفظ في الوقت نفسه باحترام كامل لأمرائه .

إنه إحساس مدني راق ، هيا إلى جانب ظروف أخرى سياسية واجتماعية لإمبراطورية الأمويين في الأندلس أن تبلغ أوج عظمتها على يد عبدالرحمن الناصر .
وليس ثمة شك في أن ابن القوطية تأثر بهذا الجوا المعنوي ، وأحس بكل هذه الدوافع التي تجعل مواطنه يرتفعون به مرتبة عالية متميزة في درسه ، واعتدال سلوكه ، وسلامة تدينه ، واحترام نسبه العربي والقوطي ، وقد روى لنا الأحداث التي أسهمت فيها أسرته ودورها في القضايا العامة ، ولأن دم عنصرين يجري في عروقه ، فقد نخدم الاثنين في مدونته .

نجد في كتاب ابن القوطية عددا من الأساطير ذات الطابع القومي كانت تتداول شفاها بين المسلمين القوميين الإسبان^(٩) ، وتعكس في تضاعيفها دون قصد ، وعلى نحو واضح ، غلبة العنصر الأصلي من السكان على أيامه ، وهو يروي الوقائع دون أن يموه أو يشوه قاصداً .

وقد وجد ابن القوطية نفسه ، دون أن يقع ذلك في خاطره ، مرتبطاً بقومية بعض الفرق التي شاعت في الأندلس ، ولكن في اعتدال ، مدفوعاً إليها بثقافته المالكية ، وعلاقاته بالأسرة الأموية ، وروايته لأرطباس مع الصميل بن حاتم ، وميمون العابد ، وهي رواية زهاد قوميين ربما تفرعت عن اتجاهات شيعية تظهر لنا العرب في صور الجهلة المبطلين ، وتصور لنا أرطباس القوطي رجلاً عظيم المواهب ، حميد الأخلاق ، وحقى ممتازاً في صلاته الاجتماعية .

ويورد مؤلفنا في كتابه عدة روايات ذات طابع ملحمي ، تتميز بأنها قصيرة ، عن أزهى أيام إسبانيا الإقطاعية فروسية ، وتشمل الفترة التي تمتد من عصر الأمير محمد إلى عصر الأمير عبداللّه ، وفيها ازدهر الشعر الملحمي على يد الشاعر تميم بن علقمة ، وكان

(٩) جانب كبير من روايات ابن القوطية يعتمد على الرواية الشفوية ، سمعها من أساتذته الأسان ، إلى جانب بعض آخر سمعته من كتاب عبدالملك بن حبيب ، والمنظومة التاريخية للشاعر تميم بن علقمة ، وضاعت ولم تصلنا .

متزوجاً من ابنة كونت مسيحي في الأندلس ، وفي هذا الوفد نفسه كان بنو قسي في أرجون ، وهم إسبان اعتنقوا الإسلام ، وتعودوا أن يلهبوا روحهم المقاتل حماسة بإنشاد أشعار عنزة بن شداد .

ولم يكن ابن القوطية سعيداً بسلوك المتمردين على البيت الأموي ، ومع ذلك كان يُسر برواية أخبار قصصية ، كأخبار الشاعر غريب ، الداهية المتعصب لقومه من أهل طليطلة ، وعن وقائع مروان الجليقي بناحية بطليوس وأعمال إزراق في وادي الحجارة ، وأخبار عمر بن حفصون وغيرها . ويبدو السخط الشعبي في بعضها واضحاً ، دون قناع ولا تخفف ، ويحدد من خلال الأساطير العقاب الذي سيوقعه الله بالعاصين ، فبعد مذبحه وجوه طليطلة الغادرة ، « حين أتى القتل منهم إلى خمسة آلاف وثلاثة مائة ونيف ، وأثبت عبدالرحمن بصره في السيف ، فلم تزل به غمزة في عينه إلى أن مات » .

الاتجاه القومي المعتدل طابع كتاب ابن القوطية ، ويجعل له قيمة كبيرة ، فقد ضمنه أخبار بقية عناصر السكان المسلمين من غير العرب ، الذين أهملهم المؤرخون الآخرون تماماً ، وبذلك جعل محتوى كتب التاريخ العربي أشمل مادة وأدق تسجيلاً .

ومع ذلك ، وبالرغم من كل شيء ، فإن بعض العناصر ، وبهم تكمل الصورة التاريخية لإسبانيا الإسلامية ، تبقى أخبارهم غامضة ، أو تبيح على استحياء بين الوضوح والابهام وهي صورة القوميين المناهضين للحكم الأموي والذين وقفوا في وجه العرب ، متأثرين بمبادئ الشيعة الوافدة من فارس^(١٠) ، وأنبتت الهرم ، وظلت مبادئها نابضة حية في مؤلفات الصوفية أحياناً ، وأهل كذلك الجماعات المسيحية واليهودية ، والحق أن كل المدونات التاريخية احتقرت أخبارهم ، فصمت عنهم تماماً .

وقد وفق بشكوال جياالجوس في أن يلحق بنهاية كتاب ابن القوطية عدة نصوص

(١٠) وصلتنا أساطير كثيرة نلاحظ فيها التأثير الفارسي ، وتأثير الشرق الأقصى ، مثل حادث نيودمير ، والبيت المغلق في طليطلة

وغیرها .

تاريخية^(١١) ذات أهمية ، وبخاصة ما نقله عن ابن قتيبة^(١٢) ، ولو أنها في الحقيقة تتضمن حوادث لم تقع في إسبانيا ، وإنما حدثت في المشرق وتتصل بموسى بن نصير بعد أن غادر شبه جزيرة إيبيريا ، وعلى الرغم من أنها أساطير ترد فيها الوقائع التاريخية مشوهة ، إلا أنها تبين لنا إلى حد ما نظرة المشاركة إلى الأندلس لحظة الفتح ، ونحتاج معها إلى أن ننعم النظر في بعض الشخصيات وفي بعض الأحداث ، وحاول مؤرخو البيت الأموي وأتباع غميطشة غمط تاريخهم كل ما كان ذلك ممكنا .

ينعكس الانطباع الذي أحدثته فتوحات موسى الكبرى في المشرق ، بطريقة جيدة للغاية ، في الأساطير التي أوردها ابن القوطية ، ومن المؤكد أن المسلمين هناك قد اعترتهم الدهشة ، واجتاحتهم الحماسة ، عندما عرفوا السرعة التي اتسعت بها الإمبراطورية الإسلامية . فلم تمض اثنان وتسعون عامًا على الهجرة حتى بلغ الإسلام شواطئ بحر الظلمات ، نهاية الأرض المعروفة في ذلك الحين ، ثم عبر المضيق ، وانتشر في جانب لا بأس به من أوروبا ، وفي فورة الحماسة صيغت أروع الأقاصيص خيالًا وأطرفها ، وأشدّها مبالغة ، غالوا في تقدير الثروات والكنوز التي وجدها المسلمون في إسبانيا ، كما لو كانت دورادو El Dorado^(١٣) المسلمين .

هذه المبالغات المفرطة لا بد أنها أثارت الشكوك حول سلوك موسى بن نصير قائد الحملة ، وشاع الظن بأنه احتفظ لنفسه بالجانب الأكبر من هذه الكنوز ، لأنه لم يدخل في خزائن الدولة القدر المناسب ، والذي تستحقه شرعًا من هذه الثروات الأسطورية ، وتبريرا لهذا الشك اخترعوا أساطير تقول إن كنوز ملوك كثيرين أصبحت في حوزته ، وتيجانهم وأحزمتهم الذهبية ، وأقذار لا تحصى من الجواهر واليواقيت ، والطنافس

(١١) وقد ترجمتها أيضا مع الكتاب ، والذي كتبت هذه الدراسة مقدمة له .

(١٢) ترجمتها في كتابه «تاريخ الدول الإسلامية» ١. أساسيا

The History of The Mohammedan in Spain ، ج ١ ص ٥٠ وما بعدها من الملحق والجزء الثاني ص ٣ وما بعدها .

(١٣) الدورادو : بلد بالغ الثراء على نحو لا يقدر ، ولا وجود له إلا في غيلة أصحابه ، وتصور الغزاة الأوروبيون لأمرينكا ثلاثينية أنه يوجد في أمريكا الوسطى فأدخلوا يبحثون عنه عبثا .

المنسوجة بالذهب والفضة والجواهر ، والأثاث المصنوع من أغلى المواد ، وإلى غير ذلك كثير .

وفضلاً عن ذلك ، أصبح هذا القائد المسلم وأسرته يحكمون مساحات شاسعة جداً من الإمبراطورية الإسلامية ، من تونس إلى المغرب وإسبانيا ، وشاعت الأخبار عن معاملته الحسنة ، وإنسجامه مع الملوك الغرباء الذين خضعوا له ، حتى أن أحد أبنائه تزوج من أرملة ملك إسبانيا ، فأثار ذلك كله شكوك الخليفة الأموي بأن موسى يمكن أن يستقل بالأمر لنفسه .

حينئذ قرر الخليفة قلقاً ومتوجساً ومنذفعاً ، أن يدعوّه إلى المشرق وأن يعزله ، على حين اعتقد موسى ، وقد أصبح هرمًا تقدمت به السن ، أن ماضيه في خدمة المسلمين ، وولائه للخليفة ، يجعله يحظى بالاحترام ، ويتيح له أن يمضي في وطنه شيخوخة هادئة ، فأذعن للأمر ، ترك إسبانيا ، وعرض نفسه في بلاط الخليفة .

وقد برهن استقبال موسى ، ومسلك الخليفة إزاءه ، والتدبير المرعب والنجس باغتيال ابنه عبد العزيز ، المتزوج من أرملة لذريق ، على ما كان ينتظر هذا القائد العظيم ، ولا يطاوله في عظمتة الحرية غير هرنان كورتس Hernan Cortés^(١٤) من جحود وقلة عرفان من خلافة دمشق ، جزاء قيادته الماهرة ووطنيته الصادقة ، وولائه لخليفته وأمته . وكل هذه الأشياء التي يروها لنا ابن القوطية ، مختلطة بالأساطير ، تجعل من النظرة التاريخية عند أخبار مجموعة ، وعند ابن القوطية ، أكثر اتساعاً ، وتساعدنا على أن نفهم بوضوح أشد خفايا الأحداث الكبرى في التاريخ .

ورغم تعدد الروايات التي أوردها فثمة شك فيما يتصل بالتفصيلات التي تضمنتها ، والتي يمكن مناقشتها وبيان جانب الضعف فيها ، مثل التفاهة التي تقص كيف أن طارق بن زياد احتفظ بأحد أرجل المائدة التي عثر عليها في طليطلة ، وأن ذلك لم يحدث ، وعن حقيقة خوليان ، وغير ذلك من التفاصيل ، والذين يهتمون بدراسة تركيب الظواهر

(١٤) من قواد أسبانيا العظام في غزوها لأمریکا اللاتينية لحظة اكتشافها ، وعلى يده تم اكتشاف المكسيك وفتحها ، توفي عام

(المترجم)

الاجتماعية والسياسية فحسب ، سوف يجدون في هذه المدونات التي ينشرها المجمع الملكي التاريخي ، تفسيرات واضحة عن العناصر التي كانت تتكون منها إمبراطورية بني أمية في إسبانيا الإسلامية ، والتي استمرت زمناً طويلاً .

ويمكن القول بأن خروج موسى إلى المشرق ، واغتيال ابنه المتزوج من أرملة لذريق ، أدى بالضرورة إلى تغييرات عظيمة في العلاقات السياسية الإسبانية ، لقد استعاض عن موالى موسى ، والأسبان من أتباع لذريق ، بأناس من العرب أكثر ولاء لبني أمية ، مثل جند الشام ، وبأسبان من أنصار غيطشة ، وكان هؤلاء قد انسجموا سريعاً مع أمويي المشرق ، وبهم ربطوا مصيرهم .

ولقد حانت لحظة عابرة ، عندما أصبح يوسف الفهري والياً على إسبانيا ، وبدأ قدرها متأرجحاً غير مؤكد ، حيث بدأت الأساطير التاريخية تقدم لنا أرطباس ، من أتباع غيطشة ، يجلس على كرسي أشبه بعرش ، يحيط به الرؤساء العرب في شبه جزيرة إيبيريا ، يحضرون عنده ، ويسألونه شيئاً من سخائه الملكي .

وعندما أزاح العباسيون في المشرق بني أمية عن الخلافة ، لم يمكن لأولئك في شبه الجزيرة من يعتمدون على ولائه غير القليل ، فإسبانيا بعيدة عن الكفاح الجيد الذي اضطلعت به الأسرة الجديدة التي تولت الخلافة وأثار إعجاب الكثير من المسلمين ، فاهتبل الفرصة أحد أبناء الأسرة الأموية ووجد الظرف مواتياً لكي ينشئ هنا في الأندلس مملكة مستقلة ، واستطاع أن يحظى بمساعدة موالى أسرته ، والعنصر الإسباني من السكان الأصليين ، وكان يتمتع ساعتها بنفوذ وهيبة كبيرين ، وتقدم لنا الروايات التاريخية عبد الرحمن الداخل في نزهاته عبر شبه الجزيرة يصحبه أرطباس ، قمة حزب غيطشة ، ولقد حدثت دون شك خلاقات خطيرة بين الاثنين . وتجرأ عبد الرحمن الداخل فقبض إقطاعيات أرطباس ، ولكنها انسجما أخيراً ، واسترد أرطباس كرامته كاملة كرئيس للنصارى في الأندلس ، واغتنم أتباع غيطشه الظرف تماماً ليحصل كل واحد منهم على ما يستطيع من المراتب .

وقد بقي أحفاد غيطشة ، من ناحية الأب ، على عقيدتهم الدينية المسيحية ، دون أدنى

شك ، واحتفظوا بمكائهم الاجتماعية في نطاق التنظيم المسيحي ، وأمكنهم أن يحتفظوا بها بعد الفتح العربى ، وتولوا مراكز دينية سامية . فأصبح أحد أبناء سارة - مثلاً - مطران إشبيلية ، وشغلوا مناصب قضائية وسياسية هامة فكان منهم قاضى العجم فى طليطلة ، وقومس الأندلس ، أما الأحفاد الذين انحدروا من ناحية الأم ، أى أبناء سارة القوطية وأحفادهم ، فقد أصبحوا مسلمين ضرورة ، بحكم الشريعة الإسلامية ، وذلك أن سارة القوطية عندما أحست بالمعاملة السيئة التى يلقاها عمها أرطباس ولما فى المرأة من ضعف ، ذهبت إلى الخليفة الأموى فى دمشق ، فبحث لها هذا عن زوج مسلم أوصى به عبد الرحمن بن معاوية ، أمير الأندلس فيما بعد . وقد آثرت السلالة التى انحدرت من سارة أن تتخذ مسرورة من اسم أمهم المسيحية لقباً لهم ، وفضلته على أسماء آبائهم المسلمين ، ويقول ابن القوطية إن أحفاد سارة كانوا ، فى نطاق المجموعة الإسلامية ، يتمتعون بمكانة ممتازة وبهيبة يئنة ، لم يتمتع بها أولاد أزواجها من نساء أخريات . إن اتباع غيطشة يستطيعون أن يفخروا بأنهم ساعدوا على سقوط إسبانيا فى عهد موسى ، وبأنهم اسهموا أيضاً ، لصالحهم الشخصى ، فى تدعيم الإمبراطورة الإسلامية فى العصور التالية . وفى عصر عبد الرحمن الناصر ، وعاش ابن القوطية أيامه ، وكتب مدونته ، كان دم غيطشة لما يزل يتدفق حاراً فى صدور المسلمين .

القصيدة التي فجرت ثورة

مع أول القرن الثامن الميلادي جاء العرب إلى الأندلس ، ومع نهاية القرن العاشر أصبح بهم دولة مرهوبة الجانب ، مركزية السلطة ، يسودها الأمن ، وتفيض بالخير : الحقول خضراء زاهية ، والبيوت أنيقة مريحة ، والحمامات كثيرة ونظيفة ، وأنظمة الري دقيقة ومحكمة والأقوات موفرة بأرخص الأسعار ، ويتحرك الناس في صحة بادية وملابس نظيفة ، وانكمش الفقر أو تلاشى .

وقد صنع هذا المجد عريبان عظيمان ، كان الأول خليفة ، وهو عبد الرحمن الناصر ، وكان الثاني حاجبا أو رئيسا للوزارة في لغتنا المعاصرة ، وهو المنصور بن أبي عامر . وكما تكون إجازات العباقرة عظيمة تجيء أخطاؤهم من نفس المستوى . وكان الخطأ الذي وقع فيه الاثنان ، والتبعة على الأول أكثر ، لأنه الذي بدأ والثاني سار على طريقه ، أنهما لينفردا بالأمر ، ويتمكنا من السلطة ، أتيا على النفوذ العربي تماماً ، استغنيا عن أبناء البيوتات ، وأذلاً كبار الرجال فيها ، واستعاضا عنهم بولاء الرقيق من الصقالية ، والنازحين من الأفارقة ، وأولئك ولاؤهم مأجور ، وهؤلاء إحساسهم بالوطن واهن ، ولم يكن للقاعدة العريضة من الجماهير دور طليعي على أيامهم ، ولا قبلها ، لافي الأندلس ولا في غيره ، نعم كانوا مادة مهياة للثورة ، حين يبلغ سوء مبلغة ، وتنحدر الحال إلى قدر لا يحتمل ، ويجيء الزعيم المنتظر ليقودها ، في الحال تلبى ندائه ، وتصطف وراءه ، وتمضي معه بلا تردد إلى نهاية الطريق .

حين توفي المنصور بن أبي عامر خلفه ابنه من بعده ، وكان دون أبيه قدرة وموهبة . ولم يبق غير سنوات قليلة ثم لحق به ، وكانت هذه السنوات القليلة كافية لكي يتجمع كل أولئك الذين يريدون أن ينقضوا على السلطة ، يريدونها لهم ، أو لأناس يرضون عنهم ، وتحول الأمر إلى فوضى ، وكل الذين في الأندلس بدأوا يتقاتلون لغير سبب ، أو لسبب

أنانى مفرط فى الأنانية ، يهجمون ويرتدون ، وخلال التقدم والانسحاب يدمرون وينهبون ، حتى عاد كل شىء أسود قائما فى العين وفى الأمل ، وخرائب وانقاصا فى الواقع وفى الحياة ، وماتت الضمائر فى النفوس ، وانحلت عقدة الولاء للجماعة ، واستبيحت كل الحرمات ، وانقض كل خوآن على جانب من الدولة ، وأعلن نفسه أميرا ، ووسط هذه المصائب تميزت طائفتان - إن كان مثل هذا يعد تميزا - هما : الفقهاء يقدمون لكل حادث فتوى ، ولكل جريمة مبررا ، وفى خدمة الأقوى دائما ، والشعراء يتغنون بمن يدفع أكثر ، ولمن يقدم رفاهية أعظم ، وتحول الفن الجميل والنبيل على أيديهم إلى سلعة تباع وتشترى ، وغرقوا فى الأنانية فأخذوا يدورون حول أنفسهم غزلا وخمرا ومديحا ! وفى جو كهذا أمسك الخيرون بأنفسهم ، وتواروا خجلا ، أو هاجروا إلى أرض بعيدة ، أو دفعوا الثمن معاناة وسجنا وقتلا .

واهتزت السلطة المركزية ، وهاوت الخلافة ، وسطا على أمجادها مجموعة من السفهاء ، وقام على أنقاضها قرابة ثلاثين من الأمراء ، يتقاتلون طمعا ، ويتدافعون حول أشبار ، ويعلنون الحرب من أجل أمتار ، ويدفعون كلهم الجزية للعدو الرابض على الحدود وهم صغار ، ولم يكن بأقوى منهم لو اتحدوا .

وقد ورثوا فى كل مكان ذهبوا إليه أنجاد الأمس الباذخة ، ولم يضيفوا إليها جديدا ، ومضوا يبعثون فيها بلا حساب ، شأن السفه حين يتلقى ثروة لم يبذل فيها جهدا ، ولا كلفته مشقة ، وتحول الأندلس على امتداده العريض إلى مجتمع مستهلك ، ينفق فى بذخ دون أن ينتج شيئا أو شيئا قليلا لا أهمية له ، ونفق المجتمع بأولئك الذين يستطيعون أن يدغدغوا عواطف المستهلكين بيت رقيق من الشعر ، أو بوصلة جميلة من الغناء ، أو بلحن موسيقى أسر ، أو بحركة راقصة فاتنة ، « وفاضت رغبات الناس الجنسية ، وتجاوزت ما هو مقبول عرفا وعادة ، ولم يعد حب المرأة رغم شيوعه ويسره كافيا ليوقف اندفاعهم ، من أى وسط كانوا ، وإلى أية طبقة انتموا ، نحو اتجاه آخر تنحرف فيه العاطفة عن مسارها الطبيعي » (١)

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكي : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص ٥٠ ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

كان هؤلاء الأمراء ، أو الملوك الصغار ، على عهد الطوائف ، كما يسمون تاريخاً ، يتمون إلى شتى العناصر التي استوطنت الأندلس ، وتميز كل أمير منهم بمزاج خاص ، فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغزير ، وابن ذى النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ ، وفاق ابن رزق صاحب السهلة أتداده في الموسيقى ، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم ، وبز ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالثر الجميل المسجوع . أما الشعر فكان أمراً مشتركاً بينهم جميعاً ، يلقي منهم كل رعاية ، ولكن عناية بني عباد أصحاب إشبيلية الجميلة به كانت أعظم وأشمل ، وفي أثناء ذلك كله كانت قرطبة النبيلة تحتضر ، وكان البربر أصحاب السلطان في جنوبي الأندلس قد عقدوا الخناصر مع اليهود ، وقل وفود العناصر الشرقية على الأندلس ، وانصرف نفر من أهل الأدب إلى تأليف مجموعات في جيد الكلام من نظم ونثر ، ومضى الناس في نظم الموشحات ، ولكن أكثر ما انصرفت إليه الملكات هو قرض شعر حديث على طريقة القدماء ، ولدينا من ثمار قرائحهم آلاف من الأبيات ، لقد أصبح أهل الأندلس كلهم شعراء ! ، حتى قال القزويني : إن أي فلاح يحترث بأثوار في شلب يرتجل ماشئت من الأشعار فيما شئت من الموضوعات . ومضى الشعراء يقطعون الأندلس طولاً وعرضاً ، يتسجعون قصور الأمراء حيث يظفرون بالمأوى والصلوات ، ويحضررون مجالس أصحاب الأمر ، وتدرج أسماؤهم في سجلات الدواوين ، وتُخلع عليهم وظائف التدريس ^(٢) .

ومن بين هؤلاء جميعاً يهمن أن نقف عند بني زيوى الصنهاجيين ، وكانت غرناطة من نصيبهم ، وكانوا فيها الأمراء والقادة .

جاء الصنهاجيون إلى الأندلس بعد خلاف وقتن ومعارك جرت بينهم في أفريقية ، فكتبوا إلى المنصور بن أبي عامر يستأذنونه في الجواز إلى الأندلس للجهاد في سبيل الله ، فأذن لهم . وعبروا بزعامة زاوى بن زيوى . فأكرمهم المنصور وأنزلهم منزلاً حسناً .

(٢) Emilio Garcia Gomez: Poemas arabigo andaluces, P. 32, 4 ed. madrid 1959 - Angel Gonzales Palencia: Historia de la Literatura arabigo-espanola, 2ed., P. 66, Barcelona 1945.

واتخذهم جندا له وعوناً ، ونظمهم مع زناته وسائر بطون البربر الأخرى ، وقويت شوكتهم في أواخر أيامه ، وفي أيام ولديه عبد الملك وعبد الرحمن ، ورجحت كفتهم في الجيش ، وحين سقطت الدولة العامرية شاركوا في الفتن التي تلتها غما وغرما ، ولعبوا دوراً بارزاً في تدمير قرطبة ، خلال ماعرف بفتنة البربر عام ٤٠٣هـ - ١٠١٣م ، فقد اقتحموها في مناظر مروعة من العبث والسفك والنهب وأتوا على مدينة الزهراء الرائعة الجمال بأكملها ، وقد رأى الخليفة المستعين أن يفرق البربر في الكور والثغور ، تخفيفاً لضغطهم على العاصمة ، فأقطع قبيلة صنهاجة وزعماءها من بني زيوى ولاية إلبيرة .

ولما رأت صنهاجة تفكك الدولة ، واستقلال كل أمير ببلده ، عزموا على الرحيل عن الأندلس ، والجواز إلى العدو ، ولكن أهل إلبيرة ، وكانوا في بسطة من الرزق والثروة ، وسعة من الأرض وخصبها ونمائها ، دعوهم إلى البقاء معهم ، ومشاركتهم ما يملكون ، على أن يتولوا الدفاع عنهم ، وقبل زيوى وقومه دعوتهم ، وطابت لهم الإقامة فيها ، وتعلقوا بها ، وقر رأيهم على الدفاع عنها ، ثم رأوها لا تصلح للدفاع ، فابتنوا في البسيط الواقع على مقربة منها مدينة جديدة يتزلون بها ، وتكون معقلهم ، وهكذا قامت مدينة غرناطة ، على حين خربت إلبيرة ، وعفت ربوعها ولفها النسيان ، ونمت المدينة الجديدة سريعاً ، وأصبحت العاصمة ، وسوف تكون آخر مدينة تسقط في يد الأعداء (٣)

على أن زاوى قرر العودة إلى أفريقية ، على الرغم من معارضة ولده ووجوه قومه ، وخرج عن غرناطة في أهله وأمواله مستخلفاً عليها بعض شيوخ قبيلته ، ثم سعى ابن أبى زهين قاضى غرناطة في أن يعين حبوس بن ماكسن ابن أخى زيوى ، والياً على غرناطة ، ويشيد ابن حيان ، وعاصر هذا العهد ، بخلال حبوس ، وأنه على قسوته «يصغى إلى الأدب» وينتمى في العرب ، للأثر المفقوف في قومه صنهاجة ، وكان وقوراً حليماً ، فظاً مهيباً ، نزر الكلام قليل الضحك ، كثير الفكر ، شديد الغضب ، شجاعاً حسن

(٣) عبد الله آخر ملوك بني زيوى : كتاب التيان ، ونشره ليني بروفنسال بعنوان : مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٨ وما بعدها ، دار المعارف ، سلسلة ذخائر العرب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥ .

الفروسية ، جباراً متكبراً ، واسع الحيلة ، كامل الرجولة ، له في كل ذلك أخبار مأثورة ،^(٤)

أصعب ما واجه أمير غرناطة أن يجد وزيراً أول صالحاً ، في مستوى وزراء جيرانه من الأمراء ، أديباً قادراً على تحرير الرسائل التي يبعث بها الأمير في لغة عربية راقية ، مسجوعة وذات أسلوب بليغ ، ولم يكن يثق في قومه البربر ، فهم يعرفون جيداً كيف يقاتلون ، ويستولون على المدن ، وينهبونها أو يحرقونها عند الضرورة ، ولكنهم عاجزون عن الكتابة في لغة عربية فصيحة . وهو يخاف العرب ، وقد تكون لهم مصلحة في بيعه وخداعه ، فبدأ يبعث عن بغيته في مكان آخر ، حتى لو كان من خارج غرناطة .

وقد تذكر أن الرسائل التي يرفعها إليه وزيره أبو القاسم بن العريف نقية اللغة ، عالية الأسلوب ، مصيبة الأفكار ، لا يدانيها شيء فيما يأتيه من رسائل أخرى ، وكاتبها خير من يصلح لهذه المهمة ، وحين باح بإعجابه بها للوزير صارحه هذا : إنها من عمل كاتب يهودي يدعى صمويل .

ولما توفي ابن العريف أقام حبوس أكبر أبنائه مقامه ، وكان في الابن صبوة لا يحسن معها تحمل المسئولية ، ففكر به صمويل ، ولزم خدمة الأمير وصار متى غاب ولد أبي القاسم يحضر صمويل ، فإذا سأل عنه حبوس يقول اليهودي معذراً في الظاهر ، ومطالباً في لحن من القول : « ولد أبي القاسم ، كما ترى ، صبي يؤثر الراحة ، وأنت جدير بالإغضاء عليه ، وإقامة عذره ، وأنا عبده أنوب منابه ، فرفني بما شئت يتبأ لك ذلك ، فلم يزل على هذا أبداً ، حتى ظهرت خدمته ، وتمكن منه » .

* * *

اسم صمويل هالفي ، وينادونه ابن الثغلة ويسمى في المصادر الأندلسية اسماعيل ، أو إسموأل ، ويكنى بإبراهيم ، وأهله من ماردة وولد في قرطبة ، وتخصص صغيراً في الدراسات التلمودية على يد أبي حنوك بن موسى الرئيس الروحي للطائفة اليهودية في عاصمة الخلافة ، ثم توجه رغبةً إلى دراسة الأدب العربي وكل ألوان الثقافة الأخرى التي

(٤) ابن بسام : النخبة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ١٠٤ .

كانت شائعة في أيامه ، فدرس الفلسفة مع أبي زكريا يحيى بن داود ، وشمل الأستاذ تلميذه برعاية ملحوظة تجاوزت الدرس والتحصيل إلى المعاونة على مواجهة الحياة ، وتعلم من اللغات العبرية والكلمدية واللاتينية إلى جانب العربية لغته الأولى ، وفي ما عدا ذلك لم يكن في حياته العادية غير مجرد عطار في قرطبة ، فلما اقتحمها البربر مع المستعين عام ١٠١٣ م ، وأتوا على المدينة ، غادرها إلى مالقة ليمارس المهنة نفسها .

جاء حانوت ابن النغولة إلى جانب قلعة يمتلكها أبو القاسم بن العريف وزير حبوس ، ومالبث أن اشتهر بين زبائنه بأنه أديب وشاعر ، وبدأ الناس ، غير المثقفين ، يترددون عليه ليكتب شكواهم ، ويحرر لهم رسائلهم إلى الوزير أو الأمير ومع المران والاستمرار اكتسب خبرة فائقة ، فجاءت رسائله آية في البلاغة العربية بمقاييس ذلك العصر . ولما ذهب ابن العريف إلى مالقة سأل عن الرجل الذي يكتب لمواطنيه هذه الرسائل الجميلة ، ولما عرف أنه يهودى يبيع العطارة في حانوت متواضع ، عرض عليه أن يستخدمه كاتباً له ، وتنبأ له بمكانة مرموقة إلى جانب الأمير نفسه ، في مستقبل غير بعيد ، ثم صحبه معه إلى غرناطة ، ولما حانت الفرصة تحدث عنه إلى الأمير على نحو ما أشرنا .

ومن المؤكد أن أمير غرناطة وجد فيه إلى جانب مواهبه الأدبية ، وقلة خطره على مستقبله الشخصى والسياسى ، أشياء أخرى ليس بأقلها قيمة مهارة اليهود في جمع المال ، وتنظيم الضرائب ، وكثرتهم في غرناطة ، والإفادة من المكانة الممتازة التى تتمتع بها الجالية اليهودية الكبيرة في عالم التجارة والاقتصاد والسفارات . صحيح أن الرجل يهودى ، ولم يحدث في أية مملكة إسلامية أخرى ، أوحى غير إسلامية ، أن حكمها يهودى بدرجة رئيس للوزراء ، رغم أن يهودا كثيرين بلغوا مكانة اجتماعية عالية في الدولة الإسلامية ، ونالوا حظوة أثرية لدى حكامها ، وأصبحوا لهم بطانة ومقربين ، رغم ما طبع عليه المسلمون من تسامح على امتداد كل العصور الوسطى ، وشهرت بالتعصب الدينى . وربما يسر هذا الأمر أن جالية يهودية قوية النفوذ ، كثيرة العدد ، كانت تسكن غرناطة ، حتى أن بعض المصادر القديمة تنسبها إليهم فيقال « غرناطة اليهود » ، وفي ظل الجو السامح الذى ساد الحياة في الأندلس لم يعيشوا بمعزل عن أهلها في الحياة العامة ، وإن اتخذوا لهم أحياء

خاصة بهم أحياناً ، وإن شئت الدقة كانت خاصة بالفقراء منهم ، فخلق ذلك لونا من الود بينهم وبين بقية العناصر الأخرى ، من عرب وبربر وأندلسيين من أصل أسباني ، دون أن يهبط هذا بالعرب عما اختاروا لأنفسهم من قمة اجتماعية ، ودون أن يرتفع باليهود إلى حيث اختار العرب أن يكونوا ، وهي منزلة ارتضتها لهم بقية العناصر الأخرى طواعية لسابقتهم في الإسلام ، أو لدورهم في الفتح ، أو وجدت نفسها مكرهة عليها بحكم ضواغط الحياة الاجتماعية .

كان صمويل رجل دولة ممتازا ، ذكيا وداهية ، معارفه واسعة ، وتجاربه متعددة ، عاقلا وهادئا ، يتحدث قليلا ، ويفكر كثيرا ، وهي صفة رائعة لدبلوماسي مقتدر ، نهّاز للفرص ، يتسرب إلى هدفه كالميكروب ، ويندس إلى أعماق الرجال خفية ، ليتعرف إلى أهوائهم ونزواتهم ويتحكم فيهم من خلالها ، مزهو بنفسه ، يظنه من يراه يتجول في قاعات الحمراء الواسعة أنه ولد وفي فمه ملعقة من ذهب ، يتكلم في أناقة وبراعة ومداهنة ويملك قدرة فائقة على أن يكون ودودا وآسرا ، ملهم في اللحظات الحرجة ، ومقنع بأفكاره دائما ، ليست له غطرسة الدخيل ، ولا عجرفة الغني ، طيب ولطيف مع كل العالم ، ويحترم نفسه في غير ادعاء ، ولا ينجل من أصله المتواضع ، ولا يحاول أن يخفيه ، بل كان يفتخر به ، ويواجهه بسيطا ومعطيا المثل لمن يحاول أن يذكره به ، وكل ذلك شيء نادر بين من رفعهم الحظ ، ووضع بين أياديهم مقادير البشر^(٥)

منذ اللحظة الأولى بدأ صمويل يتحرك على محاور متعددة : أن يكسب ثقة الأمير ، وأن يعزله عن بقية مواطنيه ، وأن ينال رضا جمهرة الناس من عرب وبربر ، جنودا ومثقفين ، وأخيرا ، وأولا إذا شئت ، أن يمكن لليهود في الدولة الجديدة .

ولكى يحقق غايته مع عامة المواطنين لم يكن يبادر أحدا بشرا ، ويلقى السوء ببسمة ، ويمثل دور العطوف في مقابل قسوة الأمير ، يحكي المؤرخون - مثلا - أنه تعود ان يمر صحبة الأمير أمام صاحب حانوت قريب من القصر ، فكان العطار يشبع صمويل شتايم

(٥) Jose Amador de los Rios: Historia Social, Política y religiosa de los Judios de Espana y Portugal, P 117 ss. madrid 1960.

وسبابا ، فغضب الأمير من هذه الجرأة ، وأمر صمويل أن يعاقبه بقطع لسانه ، ولكن الوزير اليهودي لم ينفذ أمر الأمير ، ولا فكر في ذلك ، وطلب من رجاله أن يوافوه بتقرير عن حالة العطار ، فلما جاءه تبين له أن التاجر يتعثّر في حياته الاقتصادية ، تطوّه الديون وعلى وشك الإفلاس ، فأرسل له مبلغاً كبيراً من المال ليواجه مشكلاته ، ويتخلص من ديونه ، ويعاود تجارتها مطمئناً ، وبعد قليل مر الأمير . وبصحبه صمويل كالعادة ، بباب العطار ، فأغرقه هذا بالدعوات الطيبات وعجب الأمير ، وغضب من وزيره : ألم أقل لك اقطع لسانه ، فلماذا لم تنفذ أمري ؟! . وأجاب صمويل : لقد نفذته يامولاي ، لقد قطعت لسانه الشرير ، ووضعت له مكانه لساناً طيباً .

غير أن أوضح ما في حياته السياسية والأدبية إعلان صراحة أنه حامى اليهود ، وعلى نحو ما اتجه اليهود قديماً إلى مصر ، ليجدوا الأمن والرعاية في ظل يوسف وزير فرعون بدأت قوافل يهود الأندلس تتجه نحو غرناطة ، وبخاصة بعد هجوم البربر على قرطبة وتخريبها عام ١٠١٣ م ، فأحسن استقبالهم ولم يقف بجهد عند تيسير ضروريات الحياة لهم ، وإنما يتعهد أبناءهم ، وبخاصة الفقراء منهم ، تعليمًا وتربية ، وبدأ بهم نهضة ثقافية عبرية واسعة ، « وكان عنده من العلم بشريعة اليهود والمعرفة بالانتصار لها والذب عنها ما لم يكن عند أحد من أهل الأندلس » ^(٦) وقد حرر أكثر من عشرين مؤلفاً تتصل بنحو اللغة العبرية فحسب ، وله رسالة رد فيها على أبي مروان بن جناح اليهودي في كتابه نحو اللغة العبرية ، وكان شاعراً في العبرية يتكئ في معاني قصائده على « نشيد الأنشاد » والمزامير ، والأمثال ، والجامعة . وغيرها من أسفار التوراة ^(٧) . ومتأثراً بطريقة الحكم الثاني في قرطبة كان في خدمته نساخ كثيرون ينسخون له التلمود والمشنا ، ويهديها إلى تلاميذه الذين لا يستطيعون شراءها ، بل ويرسلها إلى الراغبين من اليهود في بقية مدن الأندلس ، أو خارجها في شمال أفريقيا وصقلية وبيت المقدس وبغداد والقاهرة . وأدى هذا بداهة إلى تأصيل الدراسات العبرية في الأندلس ، ورفع المستوى الثقافي لليهود غرناطة ، وبالتالي

(٦) مساعد القاضي الطليطل : طبقات الأمم ، ص ١٠٠ ، طبعة القاهرة .

Alegandro Diez Macho: Mose Ibn Ezra, P. 143 Barcelona 1953.

(٧)

جعلهم أكثر إعدادًا لتولى الوظائف العامة بكفاءة . واستخدم سلطانه الواسع فعلا في التمكين لهم في كثير من الشئون الإدارية والمالية ، فاكسبوا الجاه في أيامه واستطالوا على المسلمين ^(٨) ، وبلغ الأمر أن عين الشاعر موسى بن عذرا على خطة الشرطة ، أو المسئول عن الأمن بلغتنا المعاصرة ، وهي أهم الخطط وأخطرها في الأندلس ، ومن ثم فإن يهود غرناطة أرادوا أن يبرهنوا على امتنانهم وعرفانهم ، فقلدوه عام ١٠٢٧م رتبة الناجد Ha - Nagid ، أى رئيس اليهود أو أميرهم في غرناطة ^(٩)

توفي حبوس عام ١٠٣٨م ، بعد أن سار بين قومه بأجمل سيرة ، وأعدل طريقة ، وصرف أحكامه أجمع إلى قضاة البلاد ، وتعفف عن كل شيء ، وجمدت يده عن الحرام والأموال ، فأحبه الناس ، وأمنت معه السبل ، وقل الفساد ، وارتفع الجور ^(١٠) . مات حبوس وترك ولدين ، أكبرهما باديس ، والأصغر يدعى بلقين ، وقد مال بعض البربر وجانب كبير من اليهود إلى هذا الأخير ، على حين أثر العرب ، وجانب من اليهود بينهم صمويل ، الابن الأكبر ، وأوشكت غرناطة أن تواجه حرباً أهلية ، فاستخدم صمويل كل ذكائه ومواهبه لكي يجعل بلقين يتنازل عن المطالبة بالعرش راضيا ، وعلانية ، وتقدم فحلف بيمين الولاء لأخيه ، وسار أتباعه على خطاه . وفتح هذا النصر طريقه إلى قلب باديس منذ اللحظة الأولى ، واحتل منه مكانة ونفوذاً أكبر مما كان له إلى جوار أبيه .

كانت بداية باديس في أعوامه الأولى مشجعة ، عدلا ورفقا وتحببا إلى المواطنين ، ثم أخذ يزداد مع الأيام قساوة وغدرا وحبا للدماء ، وإسرافا في السكر ، لا يكاد يفيق منه ، وبدأ الناس يشكون ويتهامسون ، وأخيرا بدأوا يتآمرون ، وكلما اكتشف مؤامرة وأطاح برؤوس أصحابها ازداد ضعفا أمام صمويل . واختلت أعصابه ، فأصبح يهيج بلاسبب .

(٨) ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ص ٤٤٦ ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد عبد الله عان ، القاهرة ١٩٥٥ .

(٩) دوزى ، تاريخ مسلمى الأندلس ، المجلد الثانى ، الجزء الرابع ، الصفحة ٣٠٥ ، الترجمة الأسبانية ، الطبعة الأولى .

بونى ايرس ١٩٤٦ .

(١٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٢٥ .

يشق أثوابه ، ويهجر شرابه ، ويحرق ملاذه ، ويتصور الرعية توشك أن تنقض عليه ، فيقرر أن يفتك بها أولاً ، واختار أن يكون ذلك في يوم الجمعة ، وأسر بالأمر إلى وزيره صمويل ، فنهاه عن ذلك وخطأ رأيه ، « وسأله الأناة ومحض الروية ، وقال له : هبك وصلت إلى إرادتك ممن بحضرتك ، على ما في استباحتهم من الخطر ، فأنت تقدر على الإحاطة بجميعهم من أهل حضرتك ويسائط أعمالك ؟ أتراهم يطمثون إلى الذهب عن مصائبهم ، والاستقرار في موضعهم ؟ ما أراهم إلا سيوفاً ينتظمون عليك في جموع ، يغرقونك في لججها أنت وجندك ، ^(١١)

ولكن هذه الكلمات بكل ما فيها من فطنة لم تؤد إلى أية نتيجة في تفكير باديس ، وطلب من الوزير أن يحتفظ بالأمر سرا ، وأعطى الأوامر بتنفيذ الخطة في يوم الجمعة ، وفي ذلك اليوم كان على الجنود أن يجتمعوا بكل أسلحتهم ، بحجة القيام بعرض عسكري . ولكن صمويل لم يسكت أمام هول المأساة ، كان يعرف أنها ستعصف بباديس ، وستنهى نفوذه ، إن لم تطح برأسه ، على أقل تقدير ، فدرس « نسواناً إلى معارف هن من زعماء المسلمين بغرناطة ، ينهاهم عن حضور المسجد يومهم ويأمرهم بإخفاء أنفسهم ، وفشا الخبر فتخلف الناس عن شهود الجمعة ، ولم يأت إلا نفر من عامتهم ، اقتلدوا بمن أتاه من مشيخة البربر وأغفال القادمين . وجاء الخبر إلى باديس ، والجيش في السلاح حول قصره ، فسأه وفت في عضده ، ولم يداخله شك في أن سره قد ظهر ، وأنكر صمويل التهمة ورد : من ينكر على الناس الحذر ، وأنت عبأت كل جيشك ، ولست على سفر ، ولا عدو وثب إليك ، ومن هنا حدس القوم أنك تريد لهم . فأعد نظرك ياسيدى وأشكر الله بدل أن تغضب ، لأنهم عرفوا نيتك ولم يثوروا . فخذ الأمر بنفس هادئة ، وسيجيء اليوم الذي تعرف فيه أن الحق كان معي ، فتحمد رأيي ، وعاقبة نصحي ، ولم يقتنع باديس بما قال وزيره ، ثم طابت نفسه بعد لأي حين بسمع الرأي نفسه من شيخ بربري ^(١٢) .

وحدث ما جعل باديس يصبح أسير إرادة صمويل . فقد اتفق جماعة على قتل باديس

(١١) الإحاطة ، ج ١ ص ٤٤٥ .

(١٢) المصدر السابق ص ٤٤٦ .

وإقامه يدير بن حباسة مكانه ، وأشركوا صمويل معهم في الأمر ، فقبل فكرتهم ، واجتمعوا في منزله ، « وتقدم إلى باديس وأخبره الخبر ، وأتى معه إلى المنزل ، وقال له : « ليس الخبر كالعيان ، اسمع بأذنك ، وع بقلبك ؟ » ، وهو بموضع مرتفع على البيت الذي يرومون عملهم فيه ، وأبو إبراهيم في ذلك كله يقول عند محاورتهم كالمخاطب للبارئ : « يامن يرى ولا يرى ! » ، وهو يعنى بذلك باديس الذي يراهم ولا يرونه » (١٣) .

رأى باديس في صمويل عوضاً عن بني عمه ، ذمياً لا تشره نفسه إلى ولاية ، ولا يتدخل مع أمراء آخرين حوله ، ثم استغنى به في طلب الأموال ، فأحكم جمعها من الجباة ، وقسا في حسابهم ، وكان يرى أن بيت المال ، وإقامة أود الدولة أولى بها منهم .

وحين مات صمويل عام ١٠٥٥ كانت غرناطة من كبريات دول الطوائف وأقواها ، وقد حزنّت عليه الجالية اليهودية حزناً عميقاً ، ورأت في ذهابه بداية متاعب تبرز في قادم حياتهم . كان صمويل شيئاً كبيراً بالنسبة لهم جميعاً ، على غير خلاف بينهم . وكان للآخرين إنساناً يمكن التفاهم معه في لحظات الشدة ، وما كان أكثرها في دول تلك الأيام ! ، ويصفه المؤرخ الجليل ابن حيان ، وكان معاصراً له : « وكان هذا اللعين في ذاته ، على ما زوى الله عنه من هدايته ، من أكمل الرجال علماً وحلماً وفها ، وذكاء ودمائه وركانة ودهاء ، ومكرًا وملكا لنفسه ، وبسطاً من خلقه ، ومعرفة بزمانه ، ومداواة لعدوه ، وإسلا لا لحقودهم بحلمه ، ناهيك من رجل كتب بالقلمين ، واعتنى بالعلمين وشغف باللسان العربي ، ونظر فيه ، وقرأ كتبه ، وطالع أصوله ، فانطلقت يده ولسانه ، وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربي ، فيما احتاج إليه من فصول التحميد لله تعالى ، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتركية لدين الإسلام ، وذكر فضائله ما يريد ، ولا يقصر فيما ينشئه عن أوسط كتاب الإسلام » (١٤)

• • •

خلف صمويل ابنه يوسف ، وأعدّه ليكون وزيراً من بعده ، لباديس أول من يخلفه ،

(١٣) مذكرات الأمير عبد الله : ص ٣١ .

(١٤) الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٤٦ .

فأحسن تربيته ، وحمله على مطالعة الكتب وجمع إليه المعلمين والأدباء ، يعلمونه ويدارسونه . وأعلقه بصناعة الكتابة ، وشغل في حياة والده مكانه في المدرسة العبرية التي أنشأها يدرّس التلمود ، وكان إلى جانب ذلك جميل الوجه ، حاد الذهن ، « لم يعرف ذل اليهودية ولا قدر الذمة »^(١٥) ، ويزيد ابن إسحاق ، في كتابه الذخيرة وشهد أحداث العصر ، ما يمس أخلاقه الخاصة فيقول عنه : إنه كان « غلاماً وضياً ، ومركباً - زعموا - وطياً ، وكان لمن اعتنى يومئذ بالغلان فتنة . حتى كان يقال إنه وإنه » ، ويصفه في مكان آخر صراحة بأنه كان « مأبونا »^(١٦) ، ولم يرد الخبر في مصادر أخرى . فيما أعرف ، غير أن ابن حزم وشهر بالموضوعية ، وبالشجاعة العقلية في إيراد الأخبار ، ولعله نقله عن ابن حيان المؤرخ ، ولم يكن يتردد في ذكر أية معاييب ، يذكرها صراحة دون موارد ، وفي جراحة دون تردد^(١٧) .

وقد اصطنع لنفسه ولم يعرف ذل اليهود ولا قدر الذمة »^(١٨) ، كل ما عرف من الترف على أبياته ، فكشف أبهة الأمير وأخمل أنجاد صنهاجة ، فإذا مضى إلى جانب باديس لم يفرق الناس بين الرئيس والمرءوس ولم يعرفوا الأمير من الوزير^(١٩) .
والحق أن باديس مال في البدء إلى علي بن القروي ، وقال له : التزم خدمة مملكتنا فأنت أحق بها . فأبى ذلك علي ، وأكد عليه يوسف بن صمويل فأطباه بالأموال الجسيمة ، واسترضاه بالكلام المعسول ، يقول له : « ليس أرغب إلا أن أكون عبدك وتربيتك ، ولك الأمر ، وأنا كاتب بين يديك ، وأقوم بنفقتك كلها ، ولو كان أهلك عدد الحصي » ، فطمع علي في قوله ، وكلم السلطان في ذلك ، وقال له : « إن أبقيت علي ولد أبي إبراهيم ناصحك ، فأرجو ذلك لولدي من بعدى ، وأنا المشرف عليه » ففعل

(١٥) المرجع السابق ، ص ٤٤٧ .

(١٦) ابن إسحاق ، الذخيرة في ع الحسن أمل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ، ص ٢٦٩ .

(١٧) لمعرفة قيمة كتاب الذخيرة ومصادره ، انظر . د . الطاهر أحمد مكي ، دراسة في مصادر الأدب ، الطبعة السادسة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ .

(١٨) الإحاطة ، ج ١ ص ٤٤٧ .

(١٩) الذخيرة ، ص ٢٧٠ .

السلطان ما قال ، وقدمه على العمال والجبايات .

وأظهر يوسف للسلطان نصائح كثيرة حظى بها عنده . وتبرمك على على وغيره ، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يسأل به عن على ولا عن أحد من خلق الله . وكان فيما قال للأمير : « إن الذى يأخذ على أنت أولى به . والرجل كثير الأولاد والضعف ، ويذهب مالك إن لم تحمى وتعصدي ، وهو متى تملأ طمع فى ملكك . وأنا رجل ذمى لاهمة لى إلا خدمتك ، وجمع الدراهم لبيت مالك » . فوثق الرئيس بقوله ، وقاس عليه بعقله ، ومنع منه علناً وجميع الناس (٢٠) .

وشيثاً فشيئاً تمكن يوسف من باديس تماماً ، وأعانه عليه أن السن تقدمت به ، واشتغل بالشرب أكثر الوقت ، لا يكاد يصحو من سكر ، ودس عليه يوسف عيونه فى قصره ، من نساء وفتيان ، غمرهم بإحسانه ، فهم يحصون على الأمير حركاته ، وخفقات قلبه ، ينقلونها إليه (٢١) .

كان يوسف يفتقد ، رغم ذكائه ، الكثير من صفات أبيه ، لا يعرف كيف يصطنع الناس حوله ، متغطرس مزهو ، أساء إلى مواطنيه جميعاً من العرب والبربر ، وحتى إلى عقلاء اليهود أنفسهم ، وأغرى بهم الأمير بصادر أموالهم أو يشتريها بثمن بخس ، ووضع اليهود فى كل المراكز الاقتصادية الكبرى والهامية ، من الأشراف على جباية الضرائب ، والتصدير والاستيراد ، وتنمية ثروات الأمير ، وفى البلاط ، ووجد لها هؤلاء فرصة سنحت لكى يجمعوا الأموال ، ويبتنوا العقار ، دون أن يراعوا فى صنعها عدلاً ولا ذمة ، فلما رأى وزراء الدولة ، وابنا القروى تمكن اليهودى عند السلطان ، وعند الابن ، أغاظهم ذلك وأقلقهم ، وبلغ منهم كل مبلغ ، وأجمع رأيهم على الحيلولة بين الأمير واليهودى ، فتحدثوا إلى بلقين بن باديس وكانوا ندماءه لا يفارقونه ، وقالوا له : إن الأموال التى ينفقها اليهودى ويستأثر بها ، أنت أحق بها وأولى وقد أنحملك وأنحمل الدولة أجمع . ولو أنك قتلته لم يقل لك أبوك شيئاً فى ذلك وما عسى أن يصنع بابنه ؟ وسعوا بالوشاية بين بلقين بن

(٢٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٣٧ و ٣٨ .

(٢١) الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٤٨ .

باديس وبين يوسف ، وكان بلقين غرا قليل التجارب ، فقرر أن يقتل يوسف ، وتحدث بذلك لمن حوله ، دون أن يسارع بالأمر ولا تكتم بغيته ، وأدرك اليهودى تغير بلقين عليه ، رغم ما كان يظهر من المودة ومن تردده على داره ومشاطرته الشراب ، فقرر أن يتخلص منه ، وذات يوم دعاه مع خاصته وصحبه إلى مجلس شراب حافل ودس له السم فى الكأس ، ولم يخرج عنه حتى قذف كل ما فى جوفه ، واستلقى على الأرض ، ولم يستطع المشى إلى منزله إلا عن مشقة ، ولبث يومين يجود بنفسه حتى مات (٢٢) . وفرع باديس لمهلك ولده . ولكن يوسف أقنعه باتهام بعض فتیان ولده وجواريه وقرابته ، فقتل باديس منهم عدة وفر الباقون (٢٣) .

وبينا خاصة المجتمع يتململون من سيطرة اليهود على مرافق الدولة ، وأعيان الناس ، أو الطبقة الوسطى فى لغتنا الحديثة ، ضائقون بالضرائب ومن وجود يهودى على رأس الحكومة ، وعامة الناس يتعرضون لأقسى المظالم من كل جانب ، طمحت آمال يوسف إلى ما هو أكثر من قدرته ، فقرر أن يتخلى عن باديس ، وأن يسلم الإمارة لجاره ابن صمادح أمير المرية ، ثم تكون له مع هذا جولة يخلص فيها منه ، لتخلص له غرناطة مملكة مستقلة خالصة لليهود وحدهم . وبدأ الناس يتهايمون سرًا وفى صوت خفيض بأحلام الوزير ، خوفاً من بطشة ، وطلباً للسلامة ، وأخيرا وقع يوسف فى الخطأ القاتل الذى أدناه من نهايته ، حين اقتحم على عامة المسلمين مشاعرهم الدينية ، فبدأ أولا يطعن فى كل الملل والأديان ، يمس اليهودية فى رفق ، ويتجاوزها عجلا ليركز مطاعنه فى الإسلام ، يسخر من مبادئه ، ويزعم أنه قادر على أن يجيء بقرآن مثله ، وقد تصدى له ابن حزم العظيم فى رسالة أتى فيها على كل ترهاته (٢٤)

(٢٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٤١ .

(٢٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٦٥ .

(٢٤) انظر : الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص ٩٨ ، الطبعة الثالثة ، دار

المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

ومع هذه الوقعة كان الألم والغیظ والرغبة في والثأر تضطرم في نفوس الناس كافة .
وفي انتظار من يشعل الثقاب .
وجاء من يشعله !

يمكن القول أن غرناطة تحت حكم بنى زيرى كانت أفريقية أكثر منها أندلسية ، تشبه أن تكون جزيرة بربرية تطوقها بحار من الإمارات العربية . مدينة جافة لما تنفسج ، أبعد ماتكون عما ستصبح عليه حين ينتهى بها المآل أخيراً إلى أيدي العرب ، ولقد برهن العالم الإسباني المتخصص في الآثار طريس بلباس Torres Balbás على غيبة الفن التشكيلي والمعمار في المدينة لأن صغار ملوك البربر وهم جبناء وبخلاء ، لم يشيدوا غير سور متين باق حتى أيامنا هذه ، كهيكل عظمى للمدينة ، وآثروا أن يكسوا الأموال التي استولى عليها المرابطون فيما بعد .

وامتد الجذب إلى الحياة الأدبية نفسها ، فعلى امتداد نصف قرن ، وفي بلد يرتوى بالشعر ، ويتغذى بالغناء ، بقيت غرناطة على امتداد القرن الحادى عشر خارج المهابط التي يتردد عليها الشعراء ، ولم يحدث أبداً أن آیا من كبار الشعراء خارجها فكر أن يرتحل إليها ، ليمدح عبثاً أمراءها البربر ، أو وزراءها اليهود ، وأما الشعراء الذين فيها فكان عليهم أما أن يخضعوا أو يرحلوا .

كان المنفلت ، أبو أحمد عبد العزيز بن خيرة ، رأس الاتجاه الأول ، فوقف شعره على مدح صمويل ، وابنه من بعده . وغالى في مديحه . فارتفع بها إلى مرتبة الأنبياء ، وفضل بها موسى نفسه ، وجعلها أكرم الناس شرقاً وغرباً . وأنه بينهم على دينهم . فلذا التقى مع قومه آمن به سرّاً :

ومن يك موسى منهم ثم صنوه	فقل فيهم ماشئت لم تبلغ العشرا
فكم لهم في الأرض من آية ترى	وكم لهم في الناس من نعمة ترى
أجامع شمل المجدي وهو مشئت	ومطلق شخص الجود وهو من الأسرى
فضلت كرام الناس شرقاً ومغرباً	كما فضل العقيان بالخطر القطرا

فَضَلَّتْ كَرَامَ النَّاسِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا كَمَا فَضَّلَ الْعَقِيَانِ بِالْخَطَرِ الْقَطْرَا
 وَقَدْ فَزَتْ بِالْدُنْيَا وَتَلَتْ بِكَ الْمَنَى وَأَطْمَعُ أَنْ أَلْقَى بِكَ الْفَوْزَ فِي الْآخَرَى
 أَدِينُ بِدِينِ السَّبْتِ جَهْرًا لَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُ فِي قَوْمِي أَدِينُ بِهِ سِرًّا
 وَقَدْ كَانَ مُوسَى خَائِفًا مَرْقَبًا فَقِيرًا وَأَمْنَتَ الْخُفَاةَ وَالْفُقَرَا
 وَالْقَلِيلُ مِنْ شِعْرِهِ الَّذِي أوردَه ابنُ بَسَامٍ . فِي كِتَابِهِ « الذَّخِيرَةُ » . فِي غَيْرِ مَدْحِ
 صَمُوِيلَ وَابْنِهِ . يَوْمَىءُ إِلَى شَاعِرِيَّةٍ جَيِّدَةٍ مَقْتَدِرَةٍ ، مَتَفَتْنَةٍ . ذَاتِ جَوَانِبٍ مُتَعَدِّدَةٍ .
 وَلَكِنْ الْمُؤَرِّخِينَ عَقَابًا لَهُ . وَاسْتَصْغَارًا لِشَأْنِهِ . أَهْمَلُوا الْإِشَارَةَ إِلَيْهِ إِلَّا عَرْضًا . وَاكْتَفَوْا مِنْ
 شِعْرِهِ بِالْقَلِيلِ . يَقُولُ ابْنُ بَسَامٍ ، مُعَلِّقًا عَلَى بَعْضِ شِعْرِهِ : « وَهَذَا الْقَصِيدُ انْدَرَجَ لَهُ مِنْ
 الْغُلُوفِ فِيهِ . مَا لَا أَثْبَتُهُ وَلَا أُرْوِيهِ . وَأَبْعَدُ اللَّهِ الْمُنْفَتْلَ . فِيمَا نَظَمَ فِيهِ وَفَصَّلَ . وَقَبَحَهُ وَقَبَّحَ مَا
 أَمَّلَ » (٢٥)

وَكَانَ السَّمِيسِرُ خَلْفَ بَنِ فَرَجِ الْإِلْبِيرِيِّ . يُمَثِّلُ الْإِتْجَاهَ الثَّانِي خَيْرَ تَمَثِيلٍ . وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا
 الشَّاعِرَ « كَانَ بَاقِعَةً عَصْرُهُ ، وَأَعْجُوبَةً دَهْرُهُ » ، وَلَهُ مِنْ زَمَنِهِ مَوْقِفٌ رَافِضٌ . حِينَ رَأَى
 انْخِلَالَ الْقِيَمِ ، وَزَهْوَةَ الْبَاطِلِ . وَغَلْبَةَ الصَّغَارِ . وَعَجْزَهُ عَنِ التَّغْيِيرِ ، فَأَدَارَ ظَهْرَهُ لِكُلِّ
 مَا حَوْلَهُ ، وَجَاءَ شِعْرُهُ رَافِضًا بِكُلِّ مَا تَعْنِيهِ الْكَلِمَةُ فِي عَصْرِنَا الْحَدِيثِ . سَخِرَ مِمَّا يَعْظُمُ
 النَّاسُ ، وَهَجَا مَنْ يَمْدَحُونَ . وَاحْتَقَرَا مَا يَكْبُرُونَ ، وَجَاءَ هَجْوُهُ لَهُمْ مَفْحَشًا وَنَقْدُهُ قَاسِيًا .
 فَأَهْمَلَهُ الْمُؤَرِّخُونَ خَوْفًا مِنْ هَجَا هِمِّهِ . يَقُولُ ابْنُ بَسَامٍ مُشِيرًا إِلَى مَذْهَبِهِ هَذَا « وَلَهُ مَذْهَبٌ
 اسْتَفْرَغَ فِيهِ مَجْهُودُ شِعْرِهِ . مِنْ الْقَدَحِ فِي أَهْلِ عَصْرِهِ . صَنَتِ الْكِتَابَ عَنْ ذِكْرِهِ » (٢٦) .
 كَانَ دَاعِيَةً ثَوْرَةً حِينَ اسْتَطَابَ النَّاسَ الْمَتَعَ وَالْمَلَذَاةَ . وَخَلَدُوا إِلَى الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ .
 وَآثَرُوا الْأَمْنَ وَالسَّلَامَةَ . غَيْرَهُ يَمْدَحُ الْمُلُوكَ وَهُوَ يَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :

نَادِ الْمُلُوكَ وَقُلْ لَهُمْ مَاذَا الَّذِي أَحْدَثْتُمْ
 أَسْلَسْتُمْ الْإِسْلَامَ فِي أَسْرِ السَّعْدَاءِ وَقَعْدْتُمْ
 وَجِبَ الْقِيَامُ عَلَيْكُمْ إِذْ بِالسِّنْصَارِ قَتَمْتُمْ

(٢٥) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ، ص ٢٦٦

(٢٦) للرجع السابق ، ص ٣٧٢ .

لا تنكروا شق العصا فعصا النسي شققتم
 وبقي في غرناطة موزع القلب والعقل ، بين ما يؤمن به وما يرى تحت بصره ، بين
 ما يريد أن يفعل وبين قلة حيلته ، وتخيل كل من يعرفونه يسألون عن السبب :
 قالوا أتسكن بلدة نفس العزيز بها تهون !
 فأجبتهم بتأوه كيف الخلاص بما يكون !
 غرناطة مثنى الجنين يد مد ظلمة الجنين
 ثم استجمع أمره ، وقال كلمته في حكام غرناطة ، ساخرة قاسية ، بسيطة موجعة :
 رأيت آدم في نومي فقلت له : أبا البرية إن الناس قد حكموا
 أن البرابر نسل منك قال : إذا حواء طالقة إن صبح ما زعموا
 قالها ، وخلف غرناطة وراءه ، هاجر إلى حيث لا يرى وزيراً يهودياً يتحكم في مصائر
 قومه .

الشاعر الوحيد ذو الأهمية في غرناطة بنى زيرى لم يكن بالطبيعة شاعراً يتغنى بالحب ،
 أو الخمر ، أو بالترف المصقول ، كما عند بقية ملوك الطوائف ، بل ولا شاعر بلاط
 مداحاً ، وإنما كان صدى لواقع المدينة ، كان شاعر المعارضة والزهد والسياسة ومناهضة
 نفوذ اليهود ، ذلك الشاعر هو : أبو إسحاق الألبيري (٢٧) .

اسمه كاملاً : إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي ، ولقبه الألبيري ، وكنيته
 أبو إسحاق

صمت المؤرخون بعامة ، لسبب غير واضح ، عن أبي إسحاق ، ولا نجد له ذكراً
 إلا في أربعة مصادر ، رغم أنه أحدث ثورة بالغة الأثر على ما سنعرف . ترجم له القاضي
 عياض ، المتوفى عام ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م ، في نهاية كتابه « ترتيب المدارك » ، وتقريب
 المسالك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك . ونخصه الضبي ، المتوفى عام ٥٩٩ - ١٢٠٢ م ،
 بأقل من سطرين . في كتابه « بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس » ، ذكر فيها

(٢٧) اميليو غرمية غومت : مع شعراء الأندلس والنبي ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي ، ص ٩٢ ، الطبعة الثالثة . دار
 المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

اسمه ، وأنه : « فقيه فاضل زاهد عارف كثير الشعر في ذم الدنيا ، مجيد في ذلك » . وترجم له ابن الأبار ، المتوفى عام ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م ، في كتابه « تكملة الصلة » . ونعرف أن ابن الزبير ، المتوفى عام ٧٠٨ هـ - ١٣٠٨ م ، ترجم له في مؤلفه « صلة الصلة » ، ولكن المخطوطة الوحيدة التي نعرفها لهذا الكتاب ، والتي نشرها ليفي بروفنسال في الرباط عام ١٩٣٨ م ، مبتورة من الأول ، ولا يضم محتواها الترجمة المتصلة بشاعرنا ، والتي يجب أن تكون في بدء الكتاب . أما المقرئ التلمساني ، المتوفى عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣٢ م ، فأشار إليه ، في موسوعته الكبيرة « نفح الطيب » ، في ستة مواطن ، أورد له فيها أبياتاً منقولة عن ديوانه ، وبعض منها لم يرد في مخطوطة الديوان الوحيد التي بين أيدينا ، والتي توجد في مكتبة الإسكوريال ، وقد نشرها إميليو غوميز غومث في مدريد عام ١٩٤٤ م ، وجاء المقرئ بخبر وحيد قصير حول قصيدة أبي إسحاق المتصلة باليهود ، ثم أورد أبياتاً منها .

لا نعرف تاريخ مولد أبي إسحاق ، ولكننا نعرف أنه توفي قريباً من نهاية عام ٤٥٩ هـ - ١٠٦٧ م ، وأنه عاش باعترافه حياة تجاوزت الستين عاماً بكثير :
فقد وفَّيْتُهَا ستين حَوْلًا ونادتنى ورائي هل أمام
وفي ضوء ذلك نستطيع أن نفترض أنه جاء إلى الحياة مع نهاية القرن العاشر الميلادي ، في أسرة عربية عريقة تنتمي إلى قبيلة تميم المشهورة ، ومن الواضح أن نسبته إلى البيرة تعني أنه ولد فيها .

ويقص علينا مترجموه أن له شيوخاً كثيرين ، ولكنهم لا يذكرون من بينهم إلا واحداً : ابن أبي زمنين ، أبو عبد الله بن محمد ، قاضي غرناطة الشهير ، المتوفى ٣٩٨ هـ - ١٠٠٧ م ، ونبغ في دراسة الفقه ، وألف مدونته وعرف بتصانيفه في الوعظ والزهد وأخبار الصالحين ، وكان يقول شعراً يغلب عليه طابع التدين وشيء من التشاؤم^(٢٨) . وسنرى فيما بعد أن الطالب كان معجباً بأستاذه فروى عنه كتبه ، واحتذى منهجه في أشعاره .

ويغلب على الظن أن أبا إسحاق ترك البيرة إلى غرناطة عاصمة بني زيري الجديدة ، بعد أن تهدمت الأولى ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م ، خلال القتال الذي دار بين الصنهاجيين وأعدائهم ، وأنه شهد انسحاب زاوي بن زيوي إلى أفريقية ، ورأى شيخه ابن أبي زمنين ، زعيم البلدة وكبير فقهاءها يلعب دوراً هاماً في هذه الأحداث ، فكان في وداع زاوي حين ركب البحر من ثغر المنكب في طريقه إلى القيروان ، وبمبادرة منه وضغط تولى حبوس الإمارة مكانه (٢٩) .

وعمل أبو إسحاق فيما بعد كاتباً لأبي الحسن بن توبة قاضي غرناطة ، وكان قد عينه في هذا المنصب باديس بن حبوس ، بعد أن تولى العرش في عام ٤٢٩ هـ - ١٠٣٨ م ، ونال بوصفه قاضياً ومصلحاً ومعمراً شهرة واسعة في غرناطة ، فأنشأ منبر المسجد الجامع في المدينة ، والمسجد المتصل بالقبلة ، وجسراً على نهر الدارو لا تزال أطلاله باقية حتى اليوم ، ويحمل اسم قنطرة القاضي ، وأمر بضرب شاعر يدعى أبا بكر بن الحاج ، والطواف به في الأسواق لأنه اجتراً على هجاء ابن توبة ، وجماعة من الفقهاء . ونعرف من مقطوعة في الديوان أن أبا إسحاق رافق ابن توبة في مهمة إلى المرية ، لدى أبي جعفر ، أحمد بن عباس بن أبي زكريا الأنصاري ، وزير زهير العامري ، وتمت الرحلة في نفس العام الذي تولى فيه باديس العرش ، لأنه سوف يقتل جعفرًا هذا بيده ، بعد شهر من توليه (٣٠) . وقد مدح أبو إسحاق رئيسه بقصيدتين ، إحداهما أكيدا ، والأخرى طناً راجعاً ، ولم يمدح أحداً غيره (٣١)

كان أبو إسحاق يعمل كاتباً للقاضي ، ولا ينبغي أن نفهم من كلمة كاتب ما يفهم منها في عالم الإدارة اليوم ، لأنها تتسع لما هو أكثر من تسجيل أحكام القاضي ، فهو - إذا شئت - شريكه في الرأي ، وأمينه ومساعدته . ونائبه إذا تخلف أو غاب . ويقوم في الوقت ذاته بتدريس مؤلفات شيخه ابن أبي زمنين . ورواية شعره نفسه . وكان حريصاً

(٢٩) الإحاطة . ج ١ ص ٤٨٤ .

(٣٠) الإحاطة . ج ١ ص ٢٦٨ .

(٣١) وجاءت الأولى تحت رقم ٢٢ ، والثانية تحت رقم ٢٨ . في ديوانه الذي نشره غربية مرميت .

على التدريس لأنه المجال الوحيد الذى يستطيع فيه أن يلتقى بناشئة غرناطة ، وأن يتحدث إليهم عن المظالم حولهم ، وعن طغيان اليهود فى كل ناحية ، دون هجوم مباشر يثير حفيظتهم ، أو يغرى به الوزير . وكان بحكم مهنته فقيهاً ، ولائماً إلى أسرة عبرية عريقة غير راض عن سيطرتهم على الحياة السياسية والاقتصادية ، وهى مشاعر من المؤكد أنها اجتاحت أعماقه شاباً ، وأخفاها زمناً ، دون أن يتوقف عن إثارة الذين حوله ، والإعداد للثورة ، وتغيير الأوضاع الجائرة . ووجد فى رئيسه ابن توبة القاضى حاية وكبحاً ، وفى صمويل الوزير إغضاء وحلماً ، فلما توفى الأول فى ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م ، والثانى فى ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م ، واجه جامعاً ووحيداً الوزير اليهودى الجديد ، ولم يكن على شئ من مداراة أبيه ، وفاضت بأبى إسحاق مشاعره فنفاه باديس بضغط من وزيره اليهودى خارج غرناطة ، فتركها واستقر فى ضواحي مدينة البيرة الحربة ، فى زاوية تسمى رابطة العقاب ، وهناك نظم قصيدتين ، مطلع الأولى :

ألفتُ العقاب حذارِ العقاب وعفتُ الموارد خوفُ الذئاب
ومطلع القصيدة الثانية :

ألا حىُّ العقاب وقاطنيه وقلُّ أهلاً به وبزائريه
ويبدو أنه أمل فى رفاقه من الفقهاء خيراً ، من الانتصار له ، ورفع الغبن عنه ، والسعى لعودته ، ولكن أمله فيهم لم يصدق . ونفهم من شعره أن موقفهم منه لم يكن سلبياً فحسب ، وإنما بينهم - ولعلمهم الأكثرية - من تقرب بإيدائه ، وجارى أعداءه . ودس عليه عند الحاكمين . ويعبر أبو إسحاق عن ألمه من هذا الموقف ، فى بيت من الشعر ينضح مرارة :

وكم ذئبٍ يجاوره ولكن رأيتُ الذئبَ أسلم من فقيه
وتوالت الأحداث سراعاً ، وفارق أبو إسحاق البيرة إلى غرناطة العاصمة فى تاريخ مجهله ، ووجدها فى قمة الغليان والاضطراب ، فالعرب والبربر فى استياء بالغ من يوسف ابن صمويل ، وينسبون إليه أقسى التوايا رعباً ، وهو بحماقاته يدفعهم إلى المزيد من الكراهية والتطرف وكان وقد الثورة معداً ، وفى حاجة إلى من يشعل النار فحسب ،

وأشعلها أبو إسحاق بقصيدة عظيمة ، دخلت ، ودخل معها ، التاريخ من أوسع الأبواب ! .

لا يعرف العالم العربي أبا إسحاق إلا قليلا ، والقلة التي تعرفه تراه شاعرا زاهدا فحسب ، ولكن شهرته العالمية تعود في المقام الأول إلى قصيدته التي توجه بها إلى بربر صنهاجة ، يحرضهم على يوسف بن صمويل ، وزير باديس بن حبوس . « والحق أن القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة ، ولا نعرف إلا في القليل النادر أن أبياتا من الشعر لعبت دورا سياسيا مباشرا في التاريخ السياسي لأمة من الأمم ، فكهربت العزائم ، ودفعت بها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق ، وشحذت السيوف إلى القتل ، كالدور الذي لعبته هذه القصيدة » (٣٢) .

توجه أبو إسحاق بقصيدته إلى كل القوى التي يتكون منها المجتمع الغرناطي: بربر صنهاجة ، والأمير وهو منهم ، ورؤسهم كقبيلة في الوقت نفسه ، وجنود الجيش وهم من بربر أفريقية ، ثم عامة المسلمين من بقية الأجناس الأخرى ، وقد أثر في البدء أن يتحدث إلى القبيلة ، فالبربر حانقون على اليهود فعلا ، وبقليل من المديح لهم ، وبسط ما كان عليه اليهود وما انتهى إليه حالهم ، سوف يصبحون من النافرين .

وهو يتحدث إليهم من القلب ، في لغة متواضعة ، ونغم هادئ ، وإرادة مغلصة ، ويشهدهم جميعا ، وهم الأجواد الشجعان ، على أن سيدهم ، أمير غرناطة ، ارتكب خطأ فادحا : تخير وزيره كافرا ، ولم يكرهه أحد على ذلك ، وفي المسلمين أكفاء لهذا المنصب ، ويمكن أن يركن إلى واحد منهم ، وقد أدى موقفه هذا إلى اعتزاز اليهود وزهوهم ، ومعه حققوا كل مآربهم ، وأكثر مما أملوا ، ولم يكن ذلك لمهارة فيهم ، وإنما لغفلة من المسلمين :

ألا قلْ لصنهاجة أجمعين بدور الندي وأسدي العرين
لقد زل سيدكم زلة تقر بها أعين الشامتين

(٣٢) غرسيه غوث : مع شعراء الأندلس والتنجي ، ص ١٣٤ ، الطبعة الثالثة ترجمة الدكتور الطاهر أحمد منكي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

تَحْيَرَ كَاتِبَهُ كَافِرًا وَلَوْ شَاءَ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَاتَّخَوْا وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْأَرْذَلِينَ
وَنَالُوا مِنْهُمْ وَجَازُوا الْمَدَى فَحَانَ الْهَلَكَ وَمَا يَشْعُرُونَ
فَكَمْ مُسْلِمٍ فَاضِلٍ قَانَتْ لِأَرْذَلٍ قَرِيٍّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
وَمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ سَعِيهِمْ وَلَكِنْ مَنَّا يَقُومُ الْمَعِينُ
وَيَسْأَلُ عَامَّةَ الْبَرِّبِرِ مَنْكَرًا : أَمَا كَانَ خَيْرًا لَهُ أَنْ يَعَامِلَهُمْ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ يَعَامِلُهُمْ خَيْرَةُ
الْأَمْرَاءِ قَبْلَهُ ، فَيَعُودَ بِهِمْ حَيْثُ يَسْتَأْهِلُونَ أَنْ يَكُونُوا : بَاعَةَ جَوَالِينَ ، عَلَيْهِمْ صَغَارٌ وَذَلَّةٌ ،
وَحَوْلَ الْمَزَابِلِ يَبْحَثُونَ عَنْ بَقَايَا خَرَقٍ يَصْنَعُونَ مِنْهَا أَكْفَانًا لِمَوْتَاهُمْ ، سَاعَتَهَا لَنْ يَسْتَخْفُوا
بِالصَّالِحِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَنْ يَطَافُوا أَعْيَانِ الْقَوْمِ رَاجِلِينَ أَوْ جَالِسِينَ :
فَهَلَّا اقْتَدَى فِيهِمْ بِالْأَلَى مِنْ الْقَادَةِ الْخَيْرَةِ الْمُتَقِينَ
وَأَنْزَلَهُمْ حَيْثُ يَسْتَأْهِلُونَ وَرَدَّهُمْ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ
وَطَافُوا لَدَيْنَا بِأَخْرَاجِهِمْ عَلَيْهِمْ صَغَارٌ وَذُلٌّ وَهُونٌ
وَقَمَّوْا الْمَزَابِلَ عَنْ خَرَقَةٍ مَلُونَةٍ لِدَارِ الدَّفِينِ
وَلَمْ يَسْتَخْفُوا بِأَعْلَامِنَا : وَلَمْ يَسْتَطِيلُوا عَلَى الصَّالِحِينَ
وَلَا جَالِسُوهُمْ وَهُمْ هَجْنَةٌ وَلَا وَكَبُوهُمْ مَعَ الْأَقْرَبِينَ
وَبَعْدَ حَوَارِهِ مَعَ الْبَرِّبِرِ تَوَجَّهَ بِالْحَدِيثِ إِلَى بَادِيسَ ، مُصَدِّرَ طَغْيَانِ الْيَهُودِ وَنَفُوذِهِمْ ،
وَلَمْ يَكُنْ يَطْمَعُ فِي أَكْثَرِ مَنْ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُ شَخْصًا مَحَايِدًا حِينَ تَشْتَعِلُ الثُّورَةُ ضِدَّ الْيَهُودِ ،
فَهُوَ يَصِفُهُ بِالذِّكَاءِ ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى النِّفَازِ إِلَى بَوَاطِنِ الْأُمُورِ ، وَأَنَّهُ ابْنُ مُلُوكٍ مُجَادِينَ ،
وَسَبَاقٌ إِلَى الْخَيْرِ دَائِمًا :

أَبَادِيسُ أَنْتَ أَمْرٌ حَازِقٌ تَصِيبُ بِظَنِّكَ نَفْسَ الْيَقِينِ
وَأَنْ لَكَ السَّبْقَ بَيْنَ الْوَرَى كَمَا أَنْتَ مِنْ جِلَّةِ السَّابِقِينَ
وَيَعْتَبُ عَلَى بَادِيسَ فِي رَفَقٍ : كَيْفَ خَفِيَ عَلَيْهِ حَالُ الْيَهُودِ ، وَقَدْ أَصْبَحُوا أَعْيَانًا ،
وَانْفَرَدُوا بِهِ ، عَلَى حِينِ أَنَّهُمْ فِي غَيْرِ غَرْنَاطَةِ ضَعْفَاءِ مَهَانِينَ ، فَبَغَضُوهُ إِلَى شَعْبِهِ ، وَحَالُوا
دُونَ رَقِيهِ ، إِنَّهُ يَبْنِي وَهُمْ يَهْدِمُونَ :

فكيف اختفت عنك أعيانهم وفي الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا وهم بغضوك إلى العالمين
وكيف يتم لك المرتقى إذا كنت تبنى وهم يهدمون
نأمل بعينيك أقطارها تجدهم كلابا بها نحاسين
وكيف انفردت بتقريبهم وهم في البلاد من المبعدين
ومن الحديث إلى البربر ، وعتاب الأمير ، إلى الإثارة وتهيشة النفوس للثورة . وطريقه
إليها أن يصف ما وجد عليه اليهود حين هبط غرناطة : لقد قسموا بينهم المناصب ،
ويتولون جباية الضرائب ، ويلبسون أفخر الملابس وعندهم - وهم الخونة - تنتهى أسرار
الدولة ، إذا سرق غيرهم درهما عوقب عليه ، وأقصى عن وظيفته ، ويسرقون الأموال
الطائلة فيزدادون من الأمير قربا ، ومن السلطة تمكنا :

وإننى احتلت بغرناطة فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها وهم يخضون وهم يقضون
وهم يلبسون رفيع الكسا وأنتم لأوضاعها لابسون
وهم أمناكم على سرهم وكيف يكون خثون أمين
ويأكل غيرهم درهما فيقصي ، ويدنون إذا يأكلون
وبعزف للأمير على إيقاع ديني ، ويلمح إلى ما اتبع اليهود من وسائل للسيطرة عليه ،
فقد ناهضوه إلى ربه ، فلم ينكر ذلك عليهم ، ولا منعهم منه ، وهم أغرقوه في المنع
الحسية ، وأسكروه بها ، فما يسمع معها ولا يبصر :

وقد ناهضوكم إلى ربكم فما تمنعون ولا تنكرون
وقد لابسوكم بأسماهم فما تسمعون ولا تبصرون
ويتجاوز الجانب الديني ، إلى ما يحسه شخصا ، يثير فيه روح الغيرة . قال اليهود يأكلون
خير ما في غرناطة ، وقصر الوزير رئيسهم يطاول قصر الأمير ، صفاء رخام وغناء حدائق ،
والمسلمون واقفون ببابه ، ينتظرون قضاء حوائجهم ، ويضحك منهم ومن دينهم :

وهم يذبحون بأسواقها وأنتم لأطرافها آكلون
ورخّم قردُهم داره وأجرى إليها نير العيون
فصارت حوائجنا عنده ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا فلأنا إلى ربنا راجعون
وكان باديس نها إلى المال بخيلا ، فأثار فيه الرغبة إلى المزيد من الثراء ، ودعاه إلى
أخذ أموالهم فهو أحق بها ، والاستيلاء على قصورهم وفيها كل طريف وتالد :
ولو قلت في ماله إنه كمالك كنت من الصادقين
فبادر إلى ذبحه قربةً وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رجليه فقد كثروا كل علق ثمين
وفرّق عداهم وخذ ما لهم فأنت أحق بما يجمعون
ثم يقدم تبريراً خلقياً وفقهياً له ، ولكل نائر ، فقد نكث اليهود العهد ، وخانوا
الأمانة ، وتجاوزوا حد الذمة ، وأخذوا ما ليس لهم ، وكانوا البادئين بالعدوان ، فليس في
قتلهم أي غدر :

ولا تحسبن قتلهم غدره بل الغدر في تركهم يعشون
وقد نكثوا عهدنا عندهم فكيف تلام على الناكثين
وكيف تكون لهم ذمة ونحن خمول وهم ظاهرون
ونحن الأذلة من بينهم كأنا أسأنا وهم محسنون
حتى إذا انتهى من عرض قضيته بكل جوانبها ، ختم قصيدته مطمئناً إلى النصر ،
متفائلاً بالفوز ، لأن الله مع قومه :

وراقب إلهك في حزبه فحزب إله هم الغالبون
اعتمد أبو إسحاق على أدوات كثيرة لكي يحقق الغاية من قصيدته ، كان يعرف أن
الجنود ، وهم الذين اصطفاهم أصلاً بالحديث ، من بربر صنهاجة ، ولعل بعضهم جاء
إلى غرناطة من قريب ، وهؤلاء الأفارقة ليسوا مهينين للأشعار الرقيقة ، وحظهم من
العريية متواضع ، وكل ما يستطيعونه أن يدركوا الغاية منها فحسب ، وكل نصيبهم من

المعجم اللغوي العربي الألفاظ ذات الدلالة الدينية ، « ومع ذلك فليس مهماً : سوف يتعد الشاعر في هذه المناسبة عن الكلمات الغامضة ، والبحور المعقدة ، وعن الرموز الشعرية ، وعن الأوصاف والأقوال المكرورة في مصنع الشعراء . فليأخذ من العربية أشد الكلمات قوة وصلابة ، الألفاظ التي يمكن أن يفهمها كل مسلم قادر على قراءة القرآن ، وأن يجمعها في تراكيب سهلة غير معقدة ، وأن يرمى بها في مقاطع عادية ومؤثرة ، كالخطوة العسكرية ، وأن تكون في بحر المتقارب . والأفكار ؟ . . لا شيء أكثر مما هو ضروري : الإشارات القرآنية التي تجعل من الله شريكاً فيما يمكن أن يحدث . ولكن في مقابل هذا ، جاء بكثير من الصور الدقيقة : هؤلاء اليهود الذين كانوا من قبل يبحثون في الزبالة عن خرقة مهترئة يكفنون بها موتاهم ، أصبحوا الآن يقتسمون غرناطة وأعمالها فيما بينهم ، يقبضون الجبايات ، ويتأنقون في اللباس ، ويدبحون في الأسواق ، ورخم يوسف قردهم داره ، ويردف كل قولة مما سبق بنقيضها الملائم لها : وأنتم السادة الصالحون ترتدون وضيع الثياب ، أنتم المساكين الجوعى ، وهم يسرقونكم ، وأنتم على أبوابهم تتسولون ، ويذكر الملك في خشونة غير صريحة بأن يحترم مبادئ القرآن الكريم ، ولكنه يثير العامة ، ويدفع بهم إلى القتل والنهب (٣٣) .

رفع أبو إسحاق قصيدته إلى باديس فلم يرتج منها ، وكانت ثقته في يوسف لا حد لها ، ولكنها أثارت عاصفة من الحماسة بين البربر ، فأقسموا على القضاء على الوزير اليهودي ، وحملت الرياح أبيات أبي إسحاق إلى كل أركان المدينة ، وعكف عليها الناس ينسخونها وينشدونها ويترنمون بها ، ويتحينون الفرصة ليجعلوا من أفكارها واقعا . وجاءت اللحظة ! فقد دعا يوسف ليلة السبت لعشر نخلون من صفر ٤٥٩ هـ - ٣٠ من ديسمبر ١٠٦٦ م ، أقواماً من عبيد الأمير قد عاقدوه واتفقوا معه ، وبعضهم في السر يشناه ، وأعلمهم باتفاقه مع ابن صمادح ، صاحب المرية ، وأنه وارد عليهم ، وأخذ يعدد لهم ما سوف يقطعهم من قرى فحصى غرناطة ، فسأله واحد ممن أضمروا له الشر : « قد علمنا هذا ، فأخبرنا عمن أعطاك حق هذا المنح ، أهو مولانا حي أم ميت » . فرد عليه بعض

حاشية اليهودى ، ووثقه على قوله ، فأنف ذلك العبد . وخرج فاراً على وجهه وهو سكران ، يصيح بالناس ويقول : « يامعشر الناس من سمع بالمظفر قد غدره اليهودى ! وهذا ابن صمادح داخل فى البلدة » . وباديس فى هذه الحال منغمس فى بطالته ، عاكف على شرابه ، وتسامع الناس بالخبر أجمع عامتهم وخاصتهم ، وأتوا القصر عازمين على قتل اليهودى ، فتحيل على المظفر حتى أخرجه إليهم ، وقال : « هذا سلطانكم حى ! » ورام الرئيس تسكينهم فلم يقدر ، بدأ الناس يتناشدون قصيدة أبى إسحاق فاتسع الخرق على الراقع ، وهرب اليهودى بنفسه إلى داخل القصر ، فاختنى ، زعموا ، فى بيت فحم ، وسودّ وجهه حتى لا يتعرف إليه أحد ، ولكنهم ظفروا به وقتلوه ، وصلبوه على باب مدينة غرناطة . وبعدها تدفقت الجماهير على الشارع ، تتغنى بقصيدة أبى إسحاق ، وأحالوا السيف على كل يهودى ، ونهبوا متاجرهم ، وحصلوا على عظام أموالهم ، واقتحموا بيوتهم وأخذوا ما بداخلها ، وأشعلوا النار فى هذه وتلك ، وقتل فى هذا اليوم ما يقرب من أربعة آلاف يهودى ، وأفلت من المذبحة زوجة يوسف وابنه ، هربا إلى مدينة لوشة ، وكان على الذين بقوا على قيد الحياة أن يبيعوا أملاكهم ، وأن يرحلوا عن غرناطة ، ولم تقم لليهود بعدها فى هذه المدينة قائمة (٣٤) .

يقول المستشرق الإسبانى الكبير إميليو غوسية غومث : « لعل الشعر الأندلسى لم يعرف أبداً البساطة عارية كما عرفها فى هذه القصيدة ، وفى الوقت نفسه لم يرقصيدة مثلها ، يلفها مثل هذا الإعصار من المشاعر : لقد اجتاحت أنغامها - حية متوهجة - أعماق المدينة ، مع زفير النيران ، وحشيرة الموتى » (٣٥) .

هل كانت قصيدة أبى إسحاق السبب المباشر للثورة ؟ . . ذلك ما يراه ابن الخطيب ، فى كتابه الإحاطة ، فهو يقول صراحة : « وكان مهلك هذا اليهودى بسبب شعر حفظ عنه ، يحرض صنهاجة عليه » .

(٣٤) انظر : الإحاطة ، ج ١ ص ٤٤٨ - ومذكرات الأمير عبد الله ، ص ٥٤ - البيان للغرب ، ج ٣ ص ٢٦٦ - دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا ، ج ٢ ص ٣٦٦ . الترجمة الأسبانية .
(٣٥) مع شعراء الأندلس والمتن . ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي ، ص ١٠٦ .

ويذهب إلى هذا الرأي عدد كبير من الباحثين الأوربيين . والحق أن قصيدة أبي إسحاق كانت سبباً بين أسباب أخرى كثيرة تجمعت لتؤدي إلى الثورة ، ولعلها -- إذا شئت -- كانت من أقوى هذه الأسباب ، فيما يتصل بتحريض الجماهير ، والدعاية ضد الوزير ، وهي على التأكيد السبب المباشر الذي أشعل النار في الحطيم ، وهو ما يمكن أن نستخلصه من روايات عدد من المؤرخين عرضوا للحادث غير ابن الخطيب ، وبلغت النظر أن بعضهم لم يشر إلى أبي إسحاق ، وبخاصة الأمير عبد الله ، في كتابه البيان ، ونشر بعنوان مذكرات الأمير عبد الله ، وكان حفيداً لباديس نفسه ، فقد التزم الصمت المطبق إزاء أبي إسحاق ، رغم أنه أمدنا بتفصيلات وافية عن هذه الأحداث .

ومهما يكن فإن هذا الانتصار الساحق لا بد أن يكون قد أدخل البهجة على الشيخ الفقيه في أيامه الأخيرة ، فقد توفي بعد ذلك بقليل ، في نهاية العام نفسه ، أي في سنة ٤٥٦ هـ = ١٠٦٧ م .

حفصة بنت الحجاج

يمثل الدور الذى لعبته المرأة فى الأندلس فى جوانب الحياة المختلفة ، وفى مجال الإبداع الأدبى بخاصة ، جانباً مشرقاً من تاريخ الحياة العربية هناك .

كانت الحضارة مصقولة ، وللشعر منها جانب متميز ، ولم تجد القوافى تربة خصبة خارج مهدها فى الجزيرة العربية ، كما وجدتها فى هذه البقعة الأوربية النائية ، تقع فى أقصى شمال غرب الإمبراطورية الإسلامية ، أهلها لاتينيون أو قوط ، أو ينتمون فى أجناس أخرى بائدة ، ولغتهم مستعربة ، ومع ذلك أخذ الرحالة القزوينى بما كانوا عليه من سهولة فى قول الشعر ، « وأى فلاح يحترث بأثوار فى شلب ، يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من المعانى » .

كان الشعر أنشودة الجمام بعد التعب ، يقوله الأمير والعامل على السواء ، بعض الأمراء قاله على نحو متفرق ومتفاوت ، وبعضهم - كالمعتمد ابن عباد - تميز فيه ، وكانت حياته نفسها قصيدة ، مأسوية النهاية . وكان الحكم المستنصر خليفة مثقفاً وشاعراً مقلاً ، يدع سكنه فى غزوة ، ويحن إلى « صبح » حبيبته وحظيته ، ثم زوجه من بعد ، فيترنم بالأبيات الرقيقة التالية ، معزياً نفسه :

عجبتُ وقد دَعَتْها كيف لم أمتُ وكيف انشئتُ عند الفراق يدي معي
فيا مقلتي العبرى عليها اسكبي دماً ويا كبدي الحرى عليها تقطعي
وقاله أناس حظهم من الثراء محدود ، ومن المجد متواضع ، ومن عراقة النسب لا شيء ، وتومئ ألقابهم التى وصلتنا إلى الكثير من هذا ، كابن اللبانة ، أى التى كانت تباع اللبن ، ومهجة بنت التيانى ، أى الذى كان يبيع التين ، وابن السقاط ، أى الذى

كان يبيع السقط من المتاع ، وغالب بن رباح الحجام ، ومهنة الحجامة لا تحتاج منى إلى تفسير ، وآخرون غيرهم كثيرون .

وكان للمرأة حظ وفير منه ، وهى ميزة فاق بها الأندلس غيره من أصقاع الإمبراطورية الإسلامية ، ولقد أوقف المقرئ التلمسانى فصلا كاملا من كتابه « نفح الطيب » على شاعرات الأندلس ، ولو أن ما أورده عنهن كان مقتضبا للغاية ، رغم أنه عد منهن خمسا وعشرين شاعرة ، وإذا كن فى جملتهن شاعرات مجيدات ، فى ضوء القليل الذى وصلنا من شعرهن ، فبينهن من بلغت فى مجال الإجابة شأوا بعيدا ، ومن فاقت الشعراء المحترفين ، وقد قدم المقرئ لحديثه عنهن بقوله : « وإذ وصلت إلى هذا الموضع من كلام أهل الأندلس ، فقد رأيت أن أذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتى هن اليد الطولى فى البلاغة ، كى يعلم أن البراعة فى أهل الأندلس كالغريزة لهم ، حتى فى نسايتهم وصيانتهم » .

من بين اللاتى ذكرهن المقرئ شاعرتان تأتيان فى المقدمة ، براعة فى عالم الشعر ، وتميزا فى دنيا الناس ، وتحررا من مواضعات المجتمع . أما أولاهن فكانت أميرة وابنة خليفة ، وسارت بأخبارها الأيام شاعرة رقيقة ، وعاشقة جريئة ، ونالت من الشهرة فوق ما تمنى ، وما سبقت فيه معاصريها من الشعراء الرجال ، لأنها اقتحمت عالم المجد عن طريق الحب ، ولم تترك له الكلمة أو البيت أو القصيدة فحسب . وكان لنا معها إلى جانب ابن زيدون روميو وجوليت العريين ، وتلك هى ولادة بنت المستكفى .

وأما الثانية فهى حفصة بنت الحاج الركونية ، ولم تنحدر من بيت ملكى ، وكانت أديبة شاعرة ، وجمعت بين « الجمال والحب والمال » . ورغم أنها لم تحظ فى عصرنا الحديث بما حظيت به ولادة دراسة وشهرة ، لم تكن على أيامها دونها ، كانت ملء السمع والبصر ، تقول الشعر ، وتجهر بمكنون الهوى ، وترد نبدوات الأدب ، وتواجه حولها ضواغط الحياة والتقاليد ، وغطى حديثها على شاعرة أخرى معاصرة لها ، رقيقة ولطيفة ، وتلتقى معها فى أكثر من مترع ، وهى نزهون بنت القلاعى . وإن كانت هذه

تكبرها عمرًا بسنوات قليلة ، وقد فاقتها حفصة ، وفاقت الجميع في الحقيقة ، في أن ماروى لها من شعر ، على قلته ، يفوق ما روى لأية شاعرة أخرى .

ولم تكن حفصة شاعرة مجيدة فحسب ، وإنما لعبت دورًا سياسيًا هامًا تجاوز العقيدة والقول إلى المشاركة في التدبير والثورة ، وأسهمت ، إن لم نقل دبرت ، في مؤامرة سرية أوشكت أن تعصف بسلطان الموحدين في الأندلس . وكانت على صلة وثيقة بعدد من كبار الساسة ، ومن رجال المجتمع في غرناطة حيث تقيم ، وفي مراکش عاصمة الموحدين حيث استقر بها المقام أخيرًا .

وهي إلى جانب أخريات قليلات يمثلن ظاهرة فذة في تاريخ المرأة المسلمة لا في الأندلس وحده ، وإنما على امتداد دولة الإسلام ، فهي لا تدين بشهرتها للثراء الواسع الذي كانت عليه ، ولا إلى الحسب الرفيع الذي تُنسب فيه ، ومن المؤكد أن كثيرات غيرها من نساء عصرها كن على مستواها مالا وجاهًا وحسبًا ، إن لم نقل يتفوقن عليها ، وإنما يعود تقدير التاريخ لها ، إلى أنها امرأة ذات كلمة قوية في مواجهة رجال أقوىاء ، وبعض ما في شعرها من صراحة يمثل على غيرها خطرًا يودي بالحياة . إننا معها بإزاء امرأة غير قعيدة البيت ، ولا مهیضة الجناح ، ولا خفيضة الصوت ^(١)

وإلى جانب هذا التمرد الاجتماعي فإن مؤرخ الأدب لا يمكن أن يمر بها عابرًا ، وهو شيء لم يستطع القدماء أن يفعلوه ، وإذا تجاوزنا المقرئ التلمساني ، ولم يكن أندلسيًا أصلاً ، ولا معاصرًا لأيام الإسلام في الأندلس ، لأنه مغربي ولد في تلمسان ، وأمضى حياته في القاهرة ، وفوق ثراها لقي الله ، وفي مقابرها استقر إلى الأبد ، فجاء حديثه عنها مقتضبًا وموجزًا . فإن ابن الخطيب ، وكان مواطنًا لها ، وجاء بعدها بقرن من الزمان ، وكان صائب الرأي ، مسئول الكلمة ، يقول عنها : « أدبية أوانها ، وشاعرة زمانها ، فريدة الزمان في الحسن والظرف ، والأدب واللوزعية » ، ويقول عنها أبو القاسم الملاحى ، وهو مؤرخ غرناطى : « كانت أدبية نبيلة ، جيدة البديهة ، سريعة الشعر » .

(١) انظر كتابنا : « دراسات عن ابن حزم وكتابه طرق الحليمة » . الفصل الخاص « المرأة في قرطبة من خلال طرق الحليمة » .

ويقول عنها ابن دحية في كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » : من أشرف غرناطة ،
رخيمة الشعر ، رقيقة النظم والنثر .

دخلت حفصة التاريخ بمواهبها ، وبما كانت عليه من جمال وفصاحة ، في المقام الأول
لأن حياتها اكتسبت طابعا مأسوياً ، فقد توزع قلبها رجلان ، كلاهما هام بها حباً ، وتنافساً
في الاستئثار بها ، وكان أحدهما أميراً أندلسياً صغيراً يملك ، كأي حاكم صغير ، حق
الموت والحياة على رعاياه .

ولا يقدم لنا المؤرخون معلومات وفيرة ، بل ولا حتى قليلة عن طفولتها وصباها ، وكل
ما نعرفه عنها أنها كانت تعيش في غرناطة ، وتتسب في أسرة بربرية ، لم يهتم بها أصحاب
التراجم ، وكل ما يذكره ابن دحية عن أيها أنه كان غنياً ، ومن أعيان المدينة . ويبدو لنا
من نسبة الركوني أنه ليس من غرناطة أصلاً ، وإنما جاءها ، أو أسلافه من قبل ، من قرية
صغيرة تدعى ركانة Requena ، على بعد ٦٩ كيلومتراً إلى الشرق من بلنسية ، وهي
منطقة ذات طبيعة صحراوية ، وخضرة ممتدة ، كانت ولا تزال .

ولا نعرف متى ولدت ، غير أننا لا نستطيع أن نذهب بهذا التاريخ إلى أبعد من عام
٥٣٠ هـ - ١١٣٥ م ، ومن الواضح أنها ولدت في غرناطة ، وفيها أمضت شبابها ،
وكانت غرناطة في أيامها الأولى تحت حكم المرابطين .

وكغيرها ذهبت إلى المدرسة ، أو جاءها المعلمون إلى البيت ، وكان للمدرسة الابتدائية
في الأندلس مفهوم أفضل مما كان عليه الحال عند المشاركة ، فبينما هؤلاء يأخذون أطفالهم
بالحفظ دون فهم ، كان الأندلسيون يهيئون تلاميذهم فيها للفترة اللاحقة ، فهم يقرأون
 ويفهمون ويحفظون ، ويجمعون بين القرآن والشعر واللغة ، أي أن الجانب الأدبي من
التعليم لم يكن مهملاً .

وكان الهدف من تعليم البنت في الأندلس ، كما هو الحال في جميع البلاد المتحضرة ،
أن تصبح معه لطيفة محببة إلى النفوس ، ولترقية عقلها ، وتكوينها في الأدب بعامة ، وفي
الشعر والموسيقى بخاصة ، وليس في الحساب أن تصبح معه عاملة ، أو أن يكون طريقها
للعيش ، وكان ذلك متاحاً لها حتى دون تعليم . ويمكن القول بأن الزاد الثقافي الذي

عاشت عليه حفصة طفولتها وصباها يدخل في نطاق الأدب بمفهومه في العصر الوسيط ،
 أى الإللام من كل شيء بطرف ، أوهى الثقافة كما نراها الآن ، وقد حدد لنا ابن دحية
 دورها في هذا المجال فهو يقول : « إنها كانت تنشد الشعر ، وتكتب النثر في رشاقة » ، ولم
 يصلنا من نثرها شيء لتؤكد من قولة صاحب « المطرب في أشعار أهل المغرب » .
 ومنها يكن من شيء فقد جاءت حفصة إلى الحياة والمرأة الأندلسية تعيش فترة زاهرة ،
 جاء بعضها إرثاً من عصر الطوائف ، حين شاعت الحرية ، ومس خيرها ، أوجى
 شرها ، الناس جميعاً ، وجاء بعضها اكتساباً من عصر المرابطين ، وعلى غير ما يظن عامة
 الناس ، احتلت المرأة في أيامهم ، وهم بدو قدموا من الصحراء ، ورجال دين محافظين ،
 مكانة أعلى مما تحتلها في أى مكان آخر ، فكانت عندهم بمستوى المرأة في الأندلس ،
 أوجى أرق شيئاً ، والدور الذى لعبته زينب النفاوية الهوارية ، زوجة يوسف بن
 تاشفين ، وإحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة ، في دولة المرابطين لا يقل أهمية
 عن الدور الذى قامت به السيدة « صبح » على أيام الحكم الثانى زوجها ، أو هشام المؤيد
 ابنها ، أو عن الدور الذى قامت به اعتماد الرميكية في دولة المعتمد بن عباد . وقد
 أدى ذلك إلى معارضة عنيفة من جانب الفقهاء ، وهم الذين ألحوا على يوسف بن تاشفين
 كى يبتى في الأندلس ويزيح ملوك الطوائف عن عروشهم ، وهم الذين كانوا وراء سقوط
 دولة المرابطين عندما لحظوا أن النساء يلعبن فيها دوراً أكبر مما يجب ، ومما يراد منهن ،
 وحين جاء الموحدون على أنقاضهم حدثت ردة ضد حرية المرأة ، وإن لم تستطع أن تأتى
 عليها تماماً في الأندلس على الأقل .

هل يمكن القول بأن هذا التطور كان له تأثير على نفسية حفصة ؟ .

على أية حال نحن نلمح أنها ، وبرضى والدها ، كانت تتمتع بحرية كاملة ، وأن
 والدها كان سعيداً بأنها تستخدم مواهبها ، وتعبر عن ذات نفسها ، ولا عليه بعد ذلك أن
 يرضى الآخرون أو يغضبوا .

* * *

عاصرت حفصة كل الحن التى تعاورت غرناطة ، من سقوط دولة المرابطين إلى قيام

دولة الموحدين ، وما يصيب المدن خلال هذه الأحداث من فقدان الأمن ، وشح الحياة ، ولم تعرف المدينة هدوءًا تزدهر معه من جديد إلا بانتصار الموحدين نهائيًا ، واستقرار دولتهم بها ، عام ٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م ، وليس ثمة شك في أن أحداث الحروب ، وما يصحبها من فتن كقطع الليل ، تركت في نفسها وهي الأدبية الأريية ، الذكية الفطنة ، رقة في الشاعر وعمقًا في الإحساس ، واحتقارًا للحياة ، وجراحة على المواقف .

وفي هذه الفترة ، وعمرها يتأرجح حول العشرين ، سوف تلتقي بفتى من بني سعيد ، وهي أسرة عريقة ، تقيم في قلعة تحمل اسمها على مقربة من غرناطة ، وشهرت بالعلم والأدب والثراء ، وسوف يدخل التاريخ معها تحت اسم متميز أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد . ولا نعرف كيف التقيا ، ولا أين ؟ ، فما أسهل أن يلتقي شاعر وشاعرة في مجتمع يطرب للشعر ، ويحل الشعراء ، ويهزه الإنشاد الجميل . وكان أبو جعفر إلى جانب أنه شاعر رقيق ، وأديب ناثر ، صاحب لمه وحياة وفلسفة تتم عن أبيقورية متمكنة . وحين استقل أبوه بقلعتهم في الفترة بين سقوط المرابطين وقدم الموحدين ، اتخذه وزيرًا ، واستنابه في أموره ، فلم يصبر على ذلك ، واستعفى فلم يعفه ، وعتب عليه أن يركن إلى الراحة في مثل هذه اللحظات الحاسمة ، فكتب إليه الابن شعرًا :

مولاي ! في أي وقت	أنال في العيش راحة
إن لم أنلها وعمرى	ما إن أنار صباحه
وللملاح عيون	تميل نحو الملاحه
وكأس راحي ما إن	تمل مني راحه
والخطب عني أعمى	لم يقترب لي صاح
وأنت دوني سور	من العلا والرجاحه
فأغفني وأقلى	مما رأيت صلاحه
ما في الوزارة حظ	لمن يريد ارتياحه
كل وقال وقيل	من يسطيل نباحه

أنسى أتى مستغيثاً فاترك - فديت - سراحه
فلما قرأ أبوه الأبيات رأى ألا فائدة في أن يكلفه بما ليس مهياً له ، فوقع على ظهر
ورقته : « قد تركنا سراح أنسك ، وألحقنا يومك بأمسك » .

كان أبو جعفر شاعراً فناناً لم يخلق للإدارة أو الحكم ، أو الحرب والطمع ، يمضى مع
لذاذاته دون قيد ، ويستجيب لرغائبه حتى الثمالة ، ويكره أن يرى نفسه أسيراً في وظيفة ،
ولكن . . . قد تجنى على المرء مواهبه ! . ذلك أن الأمر لم يكده يستقر للموحدين ، ويرسل
الخليفة الموحدى في مراکش ابنه السيد أبا سعيد أميراً على غرناطة ، حتى يطلب هذا ،
إرضاء لأهلها ، وضماناً لولائهم ، وزيراً منهم ، من خيرة بيوتاتهم ، فلا يجد غير أبي جعفر
صاحبنا ، فولاه الوزارة ، أو الكتابة بلغة تلك الأيام ، وحاول أبو جعفر أن يستعفى فلم
يسمع له ، فضاق بالمنصب ، وكره أن يكون كاتباً لمن يرى نفسه خيراً منه ، وطوى نفسه
على مضض .

كان عسيراً أن تصفو الحياة بين أمير قادم من الصحراء ، جافى الطبع ، بدوى
الشمائل ، وبين شاعر غزل رقيق الحواشى ، صдах النغم ، يطرب لكل فائن ، وتهفو نفسه
لكل جميل ، وبدأ ما أضمره أبو جعفر في نفسه سرّاً مكتوماً ينضح في شعره .

خرج ذات ليلة مع رفقة له ، في رحلة صيد ، وكان اليوم غائماً وبارداً ، ولما أشتد
البرد مالوا إلى خيمة حارس البستان ، وجعلوا يصطلون ويشربون على ما اصطادوا ،
فحملت أبا جعفر بقية من سكر على أن يصف يومه ، ويوح بما في طوايا نفسه :
ويوم تجلّى الأفق فيه بعنبر من الغيم لُذنا فيه باللّهُ والقنصُ
وقد بقيتُ فينا من الأمس فضلةً من السكر تُغرينا بمشّهب الفرصُ
ركبنا له صُبحاً وليلاً وبعضنا أصيلاً وكلُّ إن شدا جُلجلُ رقصُ
وشُهْب بُزاةٍ قد رجمنا بشُهبها طيوراً يُساغ اللّهُ إن شكتِ الغصصُ
وعن شَفَقِ تُغرى الصباح أو الدجى إذا أوثقت ما قد تحرك أو قصُ
وملنا وقد نلنا من الصيد سؤلنا على قنصِ اللذاتِ والبردُ قد قرصُ

ثم يختم الأبيات بقوله :

فقل لحريصٍ أن يراني مقيِّدًا بخدمته لا يُجعل البازُ في القفص
وما كنتُ إلا طوع نفسي فهل أرى مطيعاً لمن عن شأوٍ فخريّ قد نقص
فكان من حفظ هذين البيتين ، ووشى بهما إلى أمير غرناطة ، فعزله عن منصبه أسوأ
عزل .

* * *

لم يكن جمال حفصة وحده هو الذى شد إليها قلب أبي جعفر ، فلا شك أن غرناطة
كانت حافلة بالجماليات ، أولئك اللاتى وصفهن لنا لسان الدين ابن الخطيب بعد قرنين
من الزمان بأنهن « جميلات ساحرات ، ناعمات الأجسام ، مرسلات الشعور ، نقيات
الثغور ، طيبات النشر ، خفيفات الحركة ، نبيلات الكلام ، حسناوات المحاورة ، يعنين
بزيتن عناية بالغة » . وإنما كانت تتمتع إلى جانب جمالها بمزايا عقلية وعاطفية فائقة ،
شدت إليها انتباه هذا الرجل المتحضر الرقيق ، لقد كانت شاعرة عذبة ، وفتاة جريئة ،
ووجدت فيه قى أحلامها ، أدبا وثراء ، وعراقة أسرة ، وإقبالا على الحياة ، فهدت له
حبل الهوى بلا موازية ، تود أن تراه فتعرض عليه أن يجيئ ، فإن لم يفعل ذهبت هى ،
وتصف جمالها ، وتلح عليه : أنا فى انتظارك يا جميل (٢) !

وبدأت أشعارها تتردد فى المجالس ، وداخل البيوت وراء الأسوار ، وتحفظها الفتيات
يجدن فيها أنفسهن أو ما يطمحن إليه ، وأصبحت الشاعرة سيدة مجتمع مرموقة ، تطلب
منها الأوانس أن تخط لهن فى دفاتر ذكرياتهن شيئا يحتفظن به ، على نحو ما يفعلن اليوم مع
كبار الفنانين . وتسألها فتاة من أسرة عريقة أن تكتب لها شيئا ، فتخط لها بيتين من الشعر ،
تمدح فيهما جمال السائلة وجسبها ، وترجوها أن تصفح عن رداة خطها وكلمتها (٣)
لا نعرف كثيرا عما كان يجرى بين شاعر وشاعرة ألف بينهما الحب ، وربطت بين قلوبهما
الصبوة ، وهو أمر بدهى ، غير أشعار متفرقة هنا وهناك تومئ إلى أن الصلة بينهما كانت
قوية ، وأن حفصة كانت تتحمل مسئوليتها كاملة لإزاء حبها ، وعبرت عن جوانب منها كما

(٢) الأبيات رقم ١ ، من ديوانها الملحق بهذه الدراسة . (٣) البيان رقم ١٥ .

لم تعبر عنها أية شاعرة غربية أخرى ، ونعرف من أشعارهما أنها باتت مع أبي جعفر في بستان بحور مؤمل ، على مقربة من غرناطة ، وهو ضاحية سراة القوم ، « على ما يبيت به الروض والنسيم ، من طيب النفحة ونضارة النعيم » . فلما مضت كتب إليها أبو جعفر يذكرها ويتنظر ردها ، ولكن حفصة لا تشاركه تفاؤله ، إنها تعرف بغريزة الأنثى أن الناس غيرى من حبيها ، وأن حسن الظن ليس رشداً ، وهذا المعنى ترد على رسالته شعراً^(٤) .

لقد عرف الأدب العربي المرأة مطلوبة لا طالبة ، وموصوفة لا واصفة ، مهبط آمال الشعراء ، ومناط غايتهم ، غير أن الأدب الأندلسي تميز بخاصية أن تكون المرأة من الشاعر ، أو من المحب بعامة ، ما كانه الشاعر أو المحب منها في المشرق ، تبوح بمكنون قوادها ، وتسترجع لحظات صفوها ، وتتغزل فيمن تحب ، ولا تتردد في أن تصف قبله لأبي جعفر في شعر رقيق صريح ، بأنها رشفت معها ريقاً أرق من الخمر ، وهي تقول ذلك عن تجربة ، لا تدعيها ولا تكذب فيها ، ولا تنتزعها من الخيال^(٥) . وتغار على حبيها وتصف لنا غيرتها في بيتين من الشعر ، هما من أجمل ما عرف الأدب العربي تصويراً لهذه الفكرة ، فهي تغار عليه من الرقيب ، ومن نفسه ، وزمانه ومكانه ، ولا تجد له مكاناً تصونه فيه ، إلى يوم القيامة ، غير عيونها^(٦) .

* * *

لكن ترنيمة الحب ووصله لم تدم لهما صافية ، اقتحم عليها بلا إذن عالم حبيها الجميل أمير غرناطة ، السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن ، ومعه سلطان الحاكم ويطشه ، ولا أستبعد أن يكون هواه لحفصة رغبة مكتومة في أن يكيد لأبي جعفر ، فلم يكن للأمير في مجال الشعر العاطفي ما يشده إلى هذه الشاعرة الغردة ، ولم يكن له في مجال الفكر ما يعجبه من آرائها المتحررة ، وكان له في سيل الجوارى المتدفق على غرناطة مندوحة إلى الأنثى لو أراد .

(٤) أبيات أبي جعفر وأبياتها في القطعة رقم ٢ من الديوان الملحق بالدراسة .

(٥) الأبيات رقم ٨ في الديوان الملحق بالدراسة .

(٦) الأبيات رقم ٥ من الديوان .

ولا بد أن حفصة عانت كثيراً من ملاحقة الأمير ، خشية على أبي جعفر أكثر من خشيتها على نفسها ، فهي تعرف ما بينها ، تعرف ما يكنه الأمير لأبي جعفر من حقد ، وما تنطوى على نفس هذا من احتقار للأمير ، وما عليه الحياة في غرناطة من سهولة القتل والتآمر والتخلص من الأعداء ، وراودت نفسها ، وابتعدت عنه قرابة شهرين لا يراها ولا تراه ، واستبد به الشوق فكتب إليها ، دون أن يذكر اسمها ، ولكنه يتاجى حبيباً ، وليس غيرها له ، لقد برح به الشوق ، وثقل عليه الصبر ، وطال ليله ، ويستنجزها أن تفي بما وعدت اليوم لا غدا ، وترسل إليه ، تبدى رأيا وتعتذر ، وتعتب عليه أن يتحدث عن السأم والملل ، وألا يدرك عذرها ، وسبب انقطاعها (٧) .

وتقع حفصة بين أمرين أحلاهما مر ، وأيسرهما عسير ، أمير يلاحقها بكل ما في قدرته ، ويطوقها بكل ما في سلطته ، وشاعر غزل رقيق الحواشي ، تسعد معه ، وتساقيه الهوى ، وتحقق ذاتها إنثى وإنسانة ، وتحاول أن ترضى الأمير ، وأن تكتب إليه شاعرة ، وفي الوقت نفسه تتجافاه عاشقة ، تكتب إليه تهته في يوم عيد ، تناديه « يا ابن الخليفة » ، وتومئ إليه في كلام خبيء يفهم على أكثر من وجه ، وهي التي اعتادت أن تكون صريحة لا تلمح ولا تكني ، بأن العيد أتاه ، ومعه من يهوى منيا راضيا ، ليعيد ما انقضى من لذاته وتصرم ، نعم ابن الخليفة يهوى ، ولكن أين هي من هذا الهوى ، صممت تماماً (٨) .

ونحتاج أبا جعفر نوبة من قلق ، والحب احتواء ، والعاشق غيور ، فيقول لها محقراً شأن الأمير : ما تحبين في هذا الأسود ، وأنا أقدر أن أشتري لك من سوق العبيد عشرة خيراً منه . وتبلغ قولته الأمير ، أو هكذا توقع أبو جعفر ، فاستشعر النهاية ، وأصبح موزع القلب ، خائفاً مضطرباً ، يتوقع المهالك في كل خطوة ، ويبحث عن الأمن بأي ثمن ، وصور لنا مأساته هذه أبلغ تصوير :

من يشتري مني الحياة وطيبها ووزارني وتادبني وتهذبني

(٧) أبيات أبي جعفر ، وردتها عليه في الديوان الملحق بالدراسة ، رقم ٤ .

(٨) الأبيات ، رقم ١٤ .

بمحلّ راعٍ في ذرى ملمومة زويت عن الدنيا بأقصى مرتب
لا حكم يأخذه بها إلا لمن يعفو ويرؤف دائماً بالمندب
فلقد سئمت من الحياة مع امرئ متغصّب متغلب مترتب
الموت يلحظني إذا لاحظته ويقوم في فكري أوان تجنّب
لا أهتدي مع طول ما حاولته لرضاه في الدنيا ولا للمهرب
وينتهر الأمير فرصة تمرد محمد بن مردنیش في شرق الأندلس ، وانضمام أحد أفراد
أسرة بني سعيد إليه ، وهو عبد الرحمن بن عبد الملك ، فيلقى عليهم القبض جميعاً ، ومن
بينهم أبو جعفر ، وقتله صبراً في مدينة مالقة عام ٥٥٩ هـ - ١١٩٨ م ، وحزنت حفصة
عليه ، لبست السواد علانية ، وبكته جهرة ، ورثته في أبيات حفظ لنا التاريخ ثلاثة
أبيات منها (٩) .

وعجز السيد أبو سعيد أن يجد إلى قلبها طريقاً ، وضاعت هي بالحياة في غرناطة ، وقد
شهدت مصرع حبها ، فرحلت إلى مراكش عاصمة الموحدين ، ولقيت الخليفة ،
واستنشدتها شعرها ، فأنشدته أبياتاً ثلاثة تطلب فيها الأمان والمأوى ، فحقق لها ما
أرادت ، واختارها أستاذة لبناته ، وأمضت بقية حياتها في مراكش ، وفي عاصمة
الموحدين لقيت الله آخر عام ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م ، أو أوائل العام الذي تلاه ، وبذلك
طويت صفحة جميلة من أروع صفحات الحب في تاريخ الأدب العربي .

* * *

تدور قصائد حفصة حول التعبير عن مشاعرها ، ويحيى تعبيرها واضحاً صريحاً ،
لا إيماء فيه ولا تورية ، تدعو حبيبها أن يزورها ، فإن لم يستطع زارته هي ، ولا تردد في
أن تصف بعض جمالها ، وأن ثغرها عذب ، وشعرها مرسل ، وتحاف العذال والوشاة ،
لأن الحب العظيم يثير من سخائم النفوس الأرضية بقدر ما يعظم ويسمو ، وهي في هذا
على النقيض من أبي جعفر نفسه ، إنها بحاسة الأنثى تشك وترتاب ، وهو في جرأة الرجل
المحب مع لحظاته الحلوة له الساعة التي هو فيها ولا يفكر في غد .

ولا بأس أن تعاتب أبا جعفر بأبيات من شعرها ، وهو في رفقة من أصحابه يسكرون ،
ترسل بها وتنتظر ، ، وهرع إليها تغمره الغبطة ، فقد رأى الأبيات بقلبه قبل عينه ، وتأملها
بعاطفته قبل عقله . وكما عتبت ولادة من قبل على ابن زيدون أنه مال إلى جاريتها
السوداء ، وكان للسوداوات نصيب من غاية العشاق وكن هدفاً ، تعتب هنا على أبي جعفر
أنه علق بجارية سوداء أيضاً . ولكن شتان ما بين حب حفصة وكله ورقة ودل ، وبين عتب
ولادة وفيه تعال وخشونة ، ذلك أن حفصة كانت تحب أبا جعفر حقاً ، أما ولادة فكانت
تحب نفسها أولاً ، فيها أرى ، فهي متعالية ، عنيفة ، تتصرف كأميرة ، حتى حين تعاتب
حباً لها (١٠) .

وتصوير حفصة للجارية السوداء فيه ظرف ورقة ، فهي ظاهراً لا تسيء إليها ، وفيها
وراء اللفظ مباشرة قالت كل شيء ، فالجارية السوداء مثل الليل ، وهي حديقة خالية من
النوار والزهر .

وفي صورها الشعرية لا تخرج عن المألوف في الشعر العربي بعامة ، ولكنها تتكأ على
الطبيعة دائماً ، كبقية شعراء الأندلس من معاصريها ، فالرياض مهبط لقائها مع حبيبها ،
والنهر يصفق لحبها ، والقمر يغرد ، وإذا أرسلت سلامها إلى أبي جعفر نازحاً ، فهو
يفتح الكمام ، وينطق ورق الغصون ، ونلتقي عندها بما ابتدعه شعراء وطنها ، والمعاصرون
لها بخاصة ، من ألوان التشبيه الجديد ، حين خرجوا به من رتابته المشرقية ، ودفعوا في
شرايينه بدم جديد ، لم يتجاوزه تماماً ، ولكنهم جاءوا به في صورة مستحدثة مقبولة ،
فخذها ليس كالورد ، وإنما يفضحه ، وثغرها ليس كاللآلي ، وإنما يكشف زيفها . وتتكأ
على التراث ، فحبيبها جميل ، وهي بثينة ، ولحاظها سحر بابل ، ولها جيد الغزال (١١) .
وشعر حفصة جيد في مجمله ، موسيقاه رقيقة ، ووقعها جميل ، ولكنه فقير في الأفكار
عامة ، قليل الصور ، وما جاء منها كان بسيطاً ، وإن لاهم موضوعه ، وكان في مكانه
جميلاً .

(١٠) انظر الفصل الخاص بنونية ابن زيدون في هذا الكتاب .

(١١) الأبيات رقم ٧ من الديوان الملحق بالدراسة .

غير أن ما وصلنا منه قليل للغاية ، لا يتجاوز ثلاثة وخمسين بيتاً فيما وجدت ، عثرت عليها متناثرة في تحفة القادم لابن الأبار ، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد ، ورايات المبرزين له أيضاً ، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية ، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ، ومعجم الأدباء لياقوت ، ونفح الطيب للمقري ، واللاحق منهم ينقل عن السابق ، ويعيد في تصوري أن يكون هذا هو كل إبداع شاعرة عاشقة ومتحررة ، وكانت في سعة من العيش ، ومكانة اجتماعية مرموقة تحميها من الصمت ، ولعل أنانية الرجل ذهبت بالجانب الأكبر من شعرها حين صمت عنه ، أو لعل الأحداث والكوارث أودت به فيما بعد ، وربما يعود السبب إلى حفصة نفسها ، ففي غمار الأحداث التي ألت بها ، ففقدت حبيبها ، وهاجرت بعيداً عن وطنها ، إلى أرض لا تعرف فيها أحداً ، زهدت في أمسها كله ، وأجمل ما فيه شعرها ، وحياتها شاعرة . وأياً ما كان الأمر فقد ألحقت ما وجدت لها من شعر بهذه الدراسة تيسيراً للراغبين في قراءته أو دراسته .

○ ديوان حفصة :

١

أزورك أم تزور ؟

أزورك أم تزور فإن قلبي إلى ما تشتهي أبداً يميل
 فتغري مورد عذب زلال وفرع ذؤابتى ظل ظليل^(١٢)
 وقد أملت أن نظما وتضحى إذا وافى إليك بى المقيـل^(١٣)
 فعجل بالجواب فما جميل إباؤك عن بشينة ياجميل

(١٢) الفرع : الشعر التام - الذؤابة : شعر مقدم الرأس .

(١٣) المقيـل : القيلولة .

٢

لا تحسن الظن !

واتفق أن بات أبو جعفر بن سعيد معها في بستان بحور مؤمل ، على ما يبيت به الروض
والنسيم ، من طيب النفحة ونضارة النعيم ، فلما حان الانفصال ، قال أبو جعفر وكان
يهواها ، وكتب بها إليها بعد الافتراق ، لتجيبه على عاداتها في ذلك :

رعى الله ليلاً لم يُرْحَ بمذمم عشيّة وارانا بحور مؤمل
وقد خففت من نحو نجد^(١٤) أريجة إذا نفحت هبت برياً القرنفل
وغرد قمرى على الدوح وانثى قضيب من الریحان من فوق جدول
ترى الروض مسروراً بما قد بدا له عناق وضم وارتشاف مقبل
فكتبت إليه بقولها :

لعمرك ما سرّ الرياض بوصلنا^(١٥) ولكنه أبدى لنا الغلّ والحسد
ولا صفق النهر ارتياحاً لقربنا ولا غرد القمرى إلا لما وجد^(١٦)
فلا تحسن الظن الذى أنت أهله فما هو فى كل المواطن بالرشد
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه لأمر سوى كما تكون لنا رصد

٣

زيارة مفاجئة

كان أبو جعفر يوماً في منزله مع من يحب أن يخلى معه من الأجواد الكرام ، على راحة
سمحت بها غفلات الأيام ، فلم يشعر إلا بالباب يضرب ، فخرجت جارية تنظر من

(١٤) نجد وبحور المؤمل من أجمل ضواحي غرناطة الإسلامية ، ومسكن الطبقة العالية ، ومؤمل الذى ينسب إليه الحور كان مولد
لباديس بن حبوس أمير غرناطة .

(١٥) فى الإحاطة وصالنا .

(١٦) فى الإحاطة ولا مدح .

الضارب ، فوجدت امرأة ، فقالت لها : ما تريدین ؟ فقالت : ادفعی لسيدك هذه الرقعة ، فجاءته برقعة فيها :

زائرٌ قد أتى بجيدٍ الغزالِ مُطلعٌ تحت جُنْحِهِ للهِلالِ
بلحاظٍ من سحرِ بابلٍ صيغتُ ورُضابٍ يفوقُ بنتَ الدوالي^(١٧)
يفضح الوردَ ما حوى منه خدٌ وكذا الشجرُ فاضحٌ للآلى
ما ترى في دخوله بعد إذنٍ أوتراه لعارضٍ في انفصال
فعلم أنها حفصة ، وقام مبادراً للباب ، وقابلها بما يقابل به من يشفع له حسنه وآدابه
والغرام به ، وتفضله بالزيارة دون طلب ، في وقت الرغبة في الأنس به .

٤

لو كنت تعرف عذرى !

طلب منها أبو جعفر بن سعيد أن تلقاه ، فمطلته قدر شهرين ، فكتب لها :
يامن أجنبُ ذكرَ اسمه وحبِّي علامة
ما إن أرى الوعد يُقضى والعمرُ أخشى انصرامه
اليومَ أرجوكَ لا أن تكون لى فى القيامة
لو قد بَصُرْتَ بحالى والليل أرخى ظلامه
أنوحُ جداً وشوقاً إذ تستريح الحمامة
صبُّ أطالَ هواه على الحبيب غرامه
لمن يتيه عليه ولا يبرد سلامه
إن لم تُنبِلى أريحى فاليأس يثنى زمامه

(١٧) الدوالى : العنب الأسود ، وبت الدوالى لخم تأخذ من عصيره .

فأجابته :

يأمدعي في هوى الحسد من والغرام الإمامة
 أتى قريضك ، لكن لم أرض منه نظامه
 أمدعي الحب يثنى بأس الحبيب زمامه ؟
 ضللت كل ضلال ولم تُفدك الزعامه
 مازلت تصحب مذ كُتبت في السباق السلامه
 حتى عثرت وأخجلت بافتتضاح السامه
 بالله في كل وقت يبدى السحاب انسجامه
 والزهر في كل حين يشق عنه كمامه
 لو كنت تعرف عذري كففت غرب الملامه

٥

غيرة !

أغار عليك من عيني رقيبى ومنك ومن زمانك والمكان
 ولو أنى خباثتك فى عيوني إلى يوم القيامة ما كفانى

٦

تهنئة

وكتبت إلى أبي جعفر تهنئه ، وقد استوزره عثمان بن عبد المؤمن ملك غرناطة :
 رأست فإزال العداة بظلمهم وعلمهم النامى يقولون ما رأس
 وهل منك أن ساد أهل زمانه جموح إلى العليا حرون عن الدنس

٧

عتاب !

وكتبت إليه ، وبلغها أنه علق بجارية سوداء أسعت له من بعض القصور فاعتكف
 معها أياماً وليالي ، بظاهر غرناطة ، في ظل ممدود ، وطيب هوى مقصور وممدود :
 يا أظرفَ الناسِ قبلِ حالٍ أوقعه نحوه القدرُ
 عشقتَ سوداءَ مثلِ ليلٍ بدائعُ الحُسنِ قد ستر
 لا يظهرُ البشرُ في دُجَاها كلاً ولا يُبصرُ الخُفَرُ
 بالله قل لي وأنت أدري بكل من هام في الصُورِ
 من الذي هام في جنانٍ لا نور فيه ولا زهر
 فكتب إليها بأظرف اعتذار والطف أنوار :

لا حُكمَ إلا لأمرِ ناهٍ له من ذنبه، مُعتَذِرُ
 له محيّا به حياتي أعيذُ مداه بالسورِ
 كصحبة العيدِ في ابتهاجِ وطلعة الشمس والقمرِ
 سعدُه لم أَمِلْ إليه إلا أطرافاً له خبيرُ
 عدمتُ صُبحي فاسودَ عِشْقِي وانعكس الفكر والنظر
 إن لم تُلح يانعم روحي فكيف لا تفسدُ الفكر

٨

قبلة !

ثنائي على تلك الثنايا لأنني أقول على علم وأنطق عن خبرٍ
 وأنصفها لا أكذبُ الله إنني رشفتُ بها ريقاً أرق من الخمر

٩

إذا لم تستطع الزيارة

سار شعري لك عني زائراً فأعِزَّ سمعَ المعالي شَفَهَ^(١٨)
وكذا . الروضُ إذا لم يستطعْ زُورَةً أرسلَ عنه عَرَفَه

١٠

سلامٌ على نازح

سلامٌ يُفَتِّحُ في^(١٩) زهرة السكّامِ ويُنطقُ وُرقَ الغصونِ
على نازحٍ قد ثوى في الحشا وإن كان تحرم منه الجفونِ
فلا تحسبوا البُعدَ ينسيكُم فذلك والله ما لا يكون

١١

حبيبة ساهرة

سلو البارقَ الخفّاقَ والليلُ ساكنُ أظللُ بأحبابي يذكّرني وهنا
لعمري لقد أهدى لقلبي خَفَقَةً وأمطرني^(٢٠) مُنْهَلٌ عارضُهُ الجِفْنَا

١٢

أنت نجم !

ولو لم تكن نجماً لما كان ناظري وقد غبتَ عنه مظلماً بعد نوره
سلامٌ على تلك المحاسنِ من شجِرتِ تناءتْ بُعْمَاهُ وطيبِ سروره

(١٨) الشنف : القرط .

(١٩) في المغرب عن .

(٢٠) في المغرب أمطر عن .

١٣

رثاء وحداد !

هَدَدُونِي مِنْ أَجْلِ لِبْسِ الْحَدَادِ لِحَبِيبٍ لِي أَرَدُوهُ بِالْحَدَادِ
 رَحِمَ اللَّهُ مَنْ يَجُودُ بِدَمْعٍ أَوْ يَنْوَحُ عَلَى قَتِيلِ الْأَعَادِ
 وَسَقَتَهُ بِمِثْلِ جَوْدِ يَدَيْهِ حَيْثُ أَضْحَى مِنَ الْبِلَادِ الْغَوَادِ

١٤

تهنئة بيوم عيد

وَكُتِبَتْ إِلَى السَّيِّدِ أَبِي سَعِيدٍ (٢١) مَلِكِ غِرْنَاةٍ تَهْنِئَةً يَوْمَ عِيدٍ :
 يَا ذَا الْعُلَا وَابْنَ الْخَلِيفَةِ وَالْإِمَامِ الْمُرْتَضَى
 يَهْنِئُكَ عِيدٌ قَدْ جَرَى فِيهِ بِمَا تَهْوَى الْقَضَا
 وَأَتَاكَ مِنْ تَهْوَاهِ فِي قَيْدِ الْإِنَابَةِ وَالرِّضَا (٢٢)
 لِيُعِيدَ مِنْ لَذَاتِهِ مَا قَدْ تَصَرَّمَ وَانْقَضَى

١٥

غُضِي جُفُونُكَ !

وَسَأَلَتْهَا أُخْتُ الْوَزِيرِ أَبِي بَكْرٍ بَنُ يَحْيَى بَنُ مُحَمَّدٍ بَنُ عَمْرِو الْهَمْدَانِي إِلَى حَفْصَةَ أَنْ تَكْتُبَ
 لَهَا شَيْئًا بِخَطِّهَا فَكُتِبَتْ :

يَا رَبَّةَ الْحَسَنِ ، بَلْ يَا رَبَّةَ الْكَرَمِ غُضِّي جُفُونُكَ عَمَّا خَطَهُ قَلَمِي
 تَصَفِّحِيهِ بِلَحْظِ الْوَدِّ مَنَعَةً لَا تَحْفَلِي بِرَدَى (٢٣) الْخَطِّ وَالْكَلَمِ

(٢١) فِي الْمَغْرِبِ عَثْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ . (٢٢) الْبَيْتُ فِي الْمَغْرِبِ . (٢٣) فِي الْإِحَاطَةِ بِقَبِيحِ .

وَأَفَّاكَ مِنْ تَهْوَاهِ فِي طَرَعِ الْإِجَابَةِ وَالرِّضَا

١٦

أمنية

انشدت أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ارتجالاً بين يديه :
 ياسيد الناس يامن يؤملُ الناسُ رِفْدَهُ
 امن على بطرس^(٢٤) يكون لسلطان عمده
 نخط يمينك^(٢٥) فيه : الحمد لله وحده^(٢٦)

(٢٤) في التحفة بصلك .

(٢٥) في التحفة نخط يمينك .

(٢٦) الشطر الأخير من هذا البيت كان شعار دولة الموحدين .

ابن خاتمة

شاعر أندلسي من القرن الرابع عشر الميلادي

كتبت هذه الدراسة القيمة المستشرقة الأسبانية سوليداد خيبرت
فنيش ، الأستاذة بكلية الآداب بجامعة مدريد الآن ، مقدمة لترجمتها
لديوان ابن خاتمة إلى اللغة الأسبانية ، ونشره قسم اللغة العربية والإسلام
في كلية اللغات في جامعة برشلونه ، برشلونه ١٩٧٥ .

اسمه كاملا : أحمد بن علي بن محمد بن علي بن خاتمة ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف
بابن خاتمة ، وما وصلنا من أخبار تتصل بحياته قليل ، على الرغم من شهرته ، وتشهد بها
الإشارات الكثيرة التي نجدها عنه في مؤلفات معاصريه . وفي الحق فإن اسم ابن خاتمة
يتردد بكثرة غالبية في كتاب الإحاطة لابن الخطيب ، ومثله في كتابي المقرئ : نفح
الطيب ، وأزهار الرياض ، والشيء نفسه نجده في كتب التراجم الأخرى في عصره .
وأولى ترجمة نملكها له ، هي التي أوردها ابن الخطيب في كتابه الإحاطة^(١) ، ومع
ذلك ، وعلى الرغم من طولها ظاهراً ، لا نجد فيها معلومات هامة نوّدها ، ولا تعطينا
صورة حقيقية لشخصيته ، فهي مجرد مجموعة من الثناء العاطر ، تطرى أخلاقه ، وفضائله
ومؤلفاته ، ضائعة في غمام صور بلاغية معقدة ، تدعنا غير راضين . ومن المحتمل أن
الموقف السياسي الدقيق في الأيام الأخيرة لغرناطة بني نصر ، أدى إلى شيوع ذوق أدبي
يتميز بالغموض .

يقول ابن الخطيب في بدء الترجمة التي خص بها ابن خاتمة :

« من أهل المرية ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن خاتمة .

« هذا الرجل صدر يُشار إليه ، طالب متفنن ، مشارك ، قوي الإدراك ، سديد

(١) طبعة محمد عبد الله عنان ، الطبعة الأولى . المجلد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٤٧ - ٢٦٧ .

النظر ، قوى الذهن ، موفور الأدوات ، كثير الاجتهاد ، معين الطبع ، جيد القرينة ،
بارع الخط ، ممتع المجالسة ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، حسنة من حسنات
الأندلس ، وطبقة في النظم والنثر ، بعيد المرقى في درجة الاجتهاد ، وأخذه بطرق
الإحسان . عقد الشروط ، وكتب عن الولاة ببلده ، وقعد للإقراء ، مشكور السيرة ،
حميد الطريقة ، في ذلك كله » (٢) .

ويقول عنه تلميذه ، وجامع مؤلفاته ، وستحدث عنه فيما بعد ، أبو جعفر أحمد بن
زرقاله :

« فلم يخل كل عصر من شاعر يكون شعراء زمانه عيالاً عليه ، ويحتاج كل منهم إليه ،
تنجلي الأيام من نظمه بأنفس من حلا الليالي ، وتثبت في المعالي . وكان شاعر عصرنا
ببلدنا هذا - عصمه الله ! - الذي رفع شمس الأدب وضحاها ، ومهد أرض الشعر
ودحاها ، فتنفس عنه صبح البيان ، وانبجس من سحاب علمه قطره الهتان ، وتمت له
قلوب الأدب بحباتها ، وألقت إليه بأفذاذها وثباتها ، فجرى مع الإحسان في طلق فريد ،
وكان له فيه شأو بعيد ، شيخنا الأستاذ المتفزن الجليل ، ما عرف المثل ، مشيد بنيان
الأدب الذي أسس معالنه ، أبو جعفر أحمد بن خاتمة » (٣)

ويعترف ابن الخطيب بفضله في بيئة هوت ثقافياً ، ويصرح بذلك عندما يهdy إليه
هذين البيتين :

قسماً بالكواكب الزهر والزهر عاتمة
إنما الفضل ملّة خُتمت بابن خاتمة (٤)

وفي نهاية السطور التي خصه بها في كتابه الكتيبة الكامنة ، وهي تنضح ودّاً وإعجاباً ،
أطرى تبحره في العلم ، وقرنه بيسيويه في النحو ، وأشاد بمكانته الأدبية ، وكرر الفكرة
السابقة نفسها : « خبا بوفاته الكوكب الوقاد ، وألقى إلى الضالة المهمة المقاد ، واستولى

(٢) الإحاطة ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٣) كتاب رائق التحلية في فائق التورية ، مخطوطة الأسكوريال رقم ٤١٩ ، الورقة رقم ١١ أ .

(٤) الإحاطة ج ١ ص ٢٦٤ . والبيتان من بحر الحقيف .

من بعد اليقظة الرقاد ، واستعجل النقاد^(٥) .

وإذا تجاوزنا فقرات الثناء التي أطراه بها الذين ترجموا حياته^(٦) ، ولها ما يبررها تماماً حين ندرس مستوى مؤلفاته ، لا نجد أخباراً ، ولا معلومات محددة تصور لنا ما كان عليه في دنياه ، ولم يذكر لنا أى واحد منهم تاريخ ميلاده . ولكن بروكلمان ، وجيانجوس ، ودرنبرج في فهرسه ، حددوه بأنه عام ٧١٤ هـ - ١٣١٣ م ، على حين أن يونس بيوجيس حددته بعام ٧٣٤ هـ - ١٣٣٣ م ، وكلاهما خاطئ دون أدنى شك ، ذلك أن الديوان يحمل تاريخ ٧٣٨ هـ = ١٣٣٧ م ، وليس ممكناً أن مؤلفه أنشده وله من العمر أربعة أعوام ، ولا حتى أربعة عشر عاماً . وجاء الخطأ على التأكيد من الخلط بين تاريخ

(٥) طبعة احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ٢٣٩ .

(٦) المصادر التي تضمنت أخباراً عن ابن خاتمة ويمكن الرجوع إليها هي :

- ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ تحقيق محمد عبد الله عتات ، ص ٢٤٧ - ٢٦٧ .
- المقرئ ، نفع الطيب ، طبعة الشيخ محي الدين ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ٨ ، ص ١٣٩ - ١٤٨ .
- وأزهار الرياض ، القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٠ ، الجزء الأول ، ص ٢٣ و ٢٥ و ٢٦٥ .
- والجزء الثاني ، ص ٢٥٢ و ٢٥٤ و ٣٠٢ و ٣٠٥ و ٣٤٠ و ٣٤٦ ، والجزء الثالث ، ص ٢٠٢ .
- ابن الخطيب ، الكتبية الكامنة ، ص ٢٣٩ - ٢٤٥ ، طبعة احسان عباس .
- ابن القاضي ، درة البحال ، طبعة ١ ، س . علوش ، الرباط ١٩٣٤ ، ج ١ ، ص ٤٠ الترجمة رقم ١١٦ .
- الجزيري ، غاية النهاية في طبقات القراء ، القاهرة ، ١٩٣٢ ، ج ١ ، ص ٧٨ .
- أحمد بابا التبركتي ، نيل الابتهاج ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ ، ص ٧٢ .
- أحمد عيسى بك ، معجم الأطباء ، (ذيل عيون الأبناء) ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، ص ١١١ - ١١٣ .
- ابن الأحمر ، لثير فرائد الجنان ، طبعة رضوان الداية ، بيروت ، دار الثقافة ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، الترجمة رقم ٢٠ .
- خير الدين الزركلي : قاموس تراجم أشهر الرجال والنساء من العرب ، ج ١ ص ٩٨١ .
- بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ج ٢ ص ٢٥٨ ، والملحق ج ٢ ص ٣٢٩ .
- جيانجوس : تاريخ الممالك الإسلامية في أسبانيا ، لندن ١٨٤٠ - ١٨٤٣ ، ص ٣٥٨ .
- يونس بيوجيس : دراسة حياة وأعمال المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين ، مدريد ١٨٩٨ ، ص ٣٣١ .
- م . ف . أنتونيا ، ابن خاتمة المرني ورسائله عن الطاعون ، في مجلة « الدين والثقافة » ، مدريد ، أكتوبر ١٩٢٨ .
- ج . س . كولان ، بعض شعراء الغرب من العرب في القرن الرابع عشر الميلادي ، هيسبيريس ، المجلد ١٢ ، ١٩٣١ ، ص ١ - ٣٢ . والمجلد ١٢ ، ١٩٣١ ، ص ٢٤١ .
- ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، مخطوطة باريس ، رقم ٢٣٢٧ ، الورقة ٢١٠ .
- وذكر ناشر كتاب ابن الأحمر مصدرين لم أستطع الرجوع إليهما ، وهما : هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي ، ج ١ ص ١١٣ ، وشجرة النور الزكية ، لمحمد محمود مخلوف ، القاهرة ص ٢٢٩ .

ابن خاتمة شاعرنا وبين تاريخ أخ له أصغر منه ، يُدعى محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري ، أبو عبد الله ، وهو الشخص الوحيد من أسرة ابن خاتمة الذي نعرف بعض الأخبار عنه^(٧) . ويقول ابن الخطيب عن هذا الكاتب والشاعر المرنى الأخير إنه « تأدب بأخيه وتهذب ، وأراه في النظم المذهب ، وكساه من التفهم والتعليم الرداء المذهب ، فاقننى واقتدى ، وراح في الخلبة واغتدى ، حتى نبل وشدى ، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى ، وأما خطه فقيده الأبصار ، وطرفة من طرف الأمصار ، واعتبط يانع الشبيبة ، مخضر الكتيبة » . وهذا ما يفسر لنا الخلط الذي وقع في تاريخ الأخوين . لقد توفى محمد ضحية وباء الطاعون عام ٧٥٠ هـ - ١٣٥٠ م ، فإذا كان تاريخ مولده عام ٧٢٤ هـ فذلك يعنى أنه فارق الحياة وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، أو « اعتبط يانع الشبيبة » على حد تعبير ابن الخطيب . وقد أورد ابن الخطيب ، ومثله ابن القاضى ، بعضاً من قصائده ، تبلغ ثلاثاً عند الأول ، وواحدة عند الثانى ، وكلاهما يصرح بأنه تدفن فى ألمرية ، فى روضة بنى خاتمة ، فى روض الحوض .

وفىما يتصل بموته لا يوجد أيضاً تاريخ مؤكد ، فابن الخطيب فى الإحاطة ، آخر الترجمة التى خصه بها ، وكتبها له ولما يزل حيا وطبقاً لما يصرح به شخصياً ، يجعله يقع فى ١٢ من شعبان ٧٧٠ هـ - ٢٢ من مارس ١٣٦٩ م . وأحمد بابا التمكنى فى « نيل الابتهاج » ، ومثله أحمد عيسى بك فى معجم الأطباء ، يقولان اعتماداً على الحضرمى كمصدر لهما ، إنه توفى فى ٧ من شعبان ٧٧٠ هـ - ١٧ من مارس ١٣٦٩ م . وهو فى الستين من عمره تقريباً .

(٧) يمكن الرجوع إلى ترجمته فى :

● درة المجال ، ج ١ ص ١٩٤ ، الترجمة رقم ٥١٨ .

● نفع الطيب ، ج ٨ ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

● ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ، حيدرآباد ، ١٩٣١ ، ج ١ ص ٢٠١ ، الترجمة رقم ٤٠٩٥ . وفى هذه الترجمة لا يشير إلى لفظ ابن خاتمة ، وإنما جاءت تحت اسم محمد بن علي بن حامد الأنصارى ، أبو عبد الله المرنى ، ويقول انه ترى على يد أخيه أحمد ، واستطعت فى سهولة أن أعرف شخصيته ، فضلاً عن أن الأشعار المنسوبة إليه هنا هى نفسها الموجودة فى نفع الطيب ، وفى الإحاطة ، مخطوطة الاسكوريال الورقة ٥٤ ، ومخطوطة باريس ، الورقة ٤٧ ب و ٤٨ أ .

كيف نوفق بين هذا التاريخ وبين ما يقوله ابن الخطيب ؟ . ومن جانب آخر ، فإن الجزيري في كتابه غاية النهاية يوقعنا في اضطراب كبير عندما يصرح في ترجمته ، رقم ٣٩٥ ، وطبقاً لمعلومات حصل عليها من تلميذ لابن خاتمة نفسه ، يدعى : أبا عبد الله محمد بن ميمون ^(٨) ، أنه توفي في عام ٧٦٨ هـ ، أو ٧٦٩ هـ ، وله من العمر سبعون عاماً تقريباً . وهذا التاريخ يبدو غير ممكن إذا أخذنا في الحسبان قول ابن الخطيب ، أنه كان لا يزال حياً في ١٢ من شعبان عام ٧٧٠ هـ . وفيما يبدو فإن رواية الحضرمي أكثر احتمالاً ، ولو أن اليوم الذي حدده وهو السابع من شعبان لا يبدو محتملاً . وفيما يتصل بعمره ، يرى بعضهم أنه عاش ستين عاماً ، على حين يرتفع بها آخرون إلى سبعين ، ولا يمكن الجزم بأي منهما . ومن تاريخ جمع الديوان ، وهو ٧٣٨ هـ - ١٣٣٧ م ، يمكن القول بأن الأكثر احتمالاً أن ابن خاتمة رحل عن الحياة وهو في حوالى السبعين عاماً من عمره .

ويتحدث عنه ابن الخطيب في كتابه الكتيبة الكامنة ، وألفه بعد كتاب الإحاطة ، وقد فارق الحياة ، ونخصه بأبيات عرضنا لها فيما سبق ^(٩) .

كما رأينا ، في ضوء الأخبار التي أمدنا بها من ترجموا له ، وبالنظر إلى الموضوعات التي عالجها في مؤلفاته ، كان ابن خاتمة شاعراً وناثراً ومؤرخاً ، ورياضياً وطبيباً ، وكاتباً ومقرئاً ، وطبقاً لما أورده أحمد عيسى بك ، وأحمد بابا التمبكتي ، وكان له في المدينة مجلس يتوافد عليه عامة الناس ، وكان جميل الوجه ، سخياً مع أصدقائه ، لطيفاً في لقائه

. ٣٢٠

○ شيوخه :

أورد لنا ابن الخطيب أوفى قائمة بشيوخه ، وهم :

أبو الحسن ، علي بن محمد بن أبي العيش ، الأنصاري ، المري ، المتوفى عام

(٨) عن هذا الأديب والمقرئ والمحدث الغرناطي ، والذي توفي في اليمن عام ٧٩٠ هـ أو ٧٩٣ هـ ، بعد أن رحل وجمال في تونس ودمشق ومصر ، انظر : غاية النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .

(٩) ص ٢٣٩ ، الطبعة التي أشرنا إليها فيما سبق .

٧٤٠ هـ - ١٣٣٩ م ، وهو من مرسية ، وأقام في المرية ، عندما سقطت مدينته في يد النصارى . وتولى قضاء المرية ، وكان يشغله قبله أبو جعفر بن فركون القيسى ، من جلة العلماء ، وله مشاركة في علوم الفلسفة^(١٠)

أبو إسحاق ، إبراهيم بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن ، التنوخي ، ويعرف بابن أبي العاصي ، المتوفى ٧٢٦ هـ - ١٣٢٥ م ، أصلاً من جزيرة طريف ، ومن كبار القوم فيها ، رحل عنها عند استيلاء النصارى عليها في عام ٦٧١ هـ - ١٢٧٢ م ، وتحول إلى مدينة سبتة ، وورد الأندلس فاستوطن غرناطة ، وكتب في الجملة عن سلطانها . وتولى الإمامة والخطابة في مسجدھا الجامع ، عام ٧١٦ هـ - ١٣١٥ م ، وطبقاً لما أورده ابن القاضي بدأ يؤلف كتاباً عن الأسرة النصرية ، ولكنه توقف عن محاولته . وكان تقياً ، زاهداً في الدنيا ، مواسياً الفقراء ، « يتزاحمون عليه في طريقه ، ويتمسحون به ، ويسعون بين يديه ومن خلفه ، ويتزاحم مساكينهم على بابه ، قد عودهم طلاقة وجهه ، ومواساته لهم بقوته ، يفرقه عليهم متى وجدوه ، وربما أعجزوه قبل استواء خبزه ، فيفرقه عليهم عجيباً » . وفي عام ٧٢١ هـ - ١٣٢٠ م ، انتقل إلى المرية ، وكان إلى هذا شاعراً ، وأغلب شعره في الحكمة^(١١) .

محمد بن جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم بن حسن * القيسى ، الوادي آشي ، المتوفى عام ٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م ، تونسى المولد ، وحج إلى مكة ، وجان في البلاد المشرقية ، « ولقى أمة من العلماء والمحدثين ، وأصبح بهم شيخ وحده ، انفساح

(١٠) لمعرفة المزيد عن ابن أبي العيش انظر .

• درة الحجال ، ج ٢ ، الترجمة رقم ١٢٣٤ .

(١١) عن ابن أبي العاصي التنوخي انظر :

• درة الحجال ، ج ١ ، الترجمة رقم ٢٣٢ .

• الاحاطة في أخبار غرناطة ، طبعة عبد الله عثان ، ج ١ ، ص ٣٨٢ - ٣٨٥ .

• غاية النهاية ، ج ١ ، ص ٢٤ ، الترجمة رقم ١٠٠ .

• الكتيبة الكامنة ، ص ٣٢ .

• في الجزء الرابع من الاحاطة ، طبعة عبد الله عثان ، ص ١٦٣ ، حسان بدل حسن .

رواية وعلو إسناد» . وكان مقرئاً متمكناً ، أديباً متميزاً ، ورجلاً تقياً ، وحفظ لنا عنه ابن القاضى فى كتابه **درة الحجال** بيتاً من الشعر ، كان ابن عساكر الدمشقى يردده ، عندما ودعه وابن خاتمة فى المرية ، وكان الوداع ، طبقاً لابن خاتمة ، فى رابطة بالمرية تسمى « رابطة الوداع » . (١٢)

أبو القاسم ، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد القيسى ، ويعرف بابن شعيب ، من أسرة عريقة فى المرية ، وتولى الخطابة فى المسجد الجامع فى المرية ، وبها شغل منصب القضاء ، وقبل ذلك كله كان تقياً وزاهداً ، لم يفارق وطنه أبداً ، وكان مستقيم السلوك دائماً . (١٣)

أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ، أبو جعفر ، ويعرف بابن فركون ، توفى عام ٧٢٩ هـ - ١٣٢٨ م ، وهو من المرية ، ثم انتقل إلى غرناطة ، وهو من العائلات الشريفة ، ولذلك استحق لقب « القرشى » . وشغل منصب القاضى فى رندة ، ومالقة ، والمرية ، وأصبح خطيب المسجد الجامع فى غرناطة ، وظل فى منصبه هذا إلى أن عزل عنه بسبب الأحداث التى أدت إلى خلع نصر ملك غرناطة عن العرش ، وتولية حفيده إسماعيل الأول (٧١٣ هـ - ١٣١٤ م) مكانه ، وكان وفاؤه للسلطان المخلوع سبباً فى إبعاده عن المنصب ، ومنذ هذه اللحظة طواه النسيان . وقد عُرف بالفقه ، وكان شاعراً .

(١٢) عن ابن جابر ، وهو مؤلف كتاب معروف عن رحلته ، انظر :

- بونس يوجيس ، دراسة عن حياة ومؤلفات الجغرافيين والمؤرخين الأندلسيين ، الترجمة رقم ٢٧٩ .
- درة الحجال ، ج ١ ، الترجمة رقم ٥٢٧ .
- نفع الطيب ، طبعة محيى الدين ج ٨ ، ص ١٢٥ .
- جيانجوس ، تاريخ المسلمين فى الأندلس ، وهو الترجمة الإنجليزية للقسم الأول من نفع الطيب ، ج ٢ ص ٥٣٩ .
- غاية النهاية ، ج ١ ، ص ١٠٦ .
- الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٣٦٥ .
- ويقول العسقلانى أنه قام برحلتين ، وطبقاً لابن الخطيب مات ضحية الطاعون ، ويقول آخرون أنه مات شهيداً .
- (١٣) عن ابن شعيب انظر :
- درة الحجال ، ج ٢ ، الترجمة رقم ٩٧٥ ، والجزء ١ الترجمة رقم ٤٩٤ ، وهى خاصة بوالده .

مرتجلاً ، ومحباً للجمل ذات الكناية ، ويستخدم التورية عندما يتحدث إلى أصدقائه (١٤) .

محمد بن محمد بن سهل بن مالك الأزدي ، أبو القاسم ، ويعرف بالوزير ، توفي عام ٧٣٠ هـ - ١٣٢٩ م ، ويعرف بينهم ببني مالك الوزير ، وهو من غرناطة أصلاً ، ثم رحل إلى المشرق ، وتوفي إثر عودته من الحج ، وكان أديباً ، تقياً وزاهداً ، « لا يقبل من أحد شيئاً ويعطى كل شيء » (١٥)

أبو البركات ، ابن الحاج البلقيني ، توفي عام ٧٧٤ هـ - ١٣٧٢ م ، وكان قاضياً شهيراً ، ومؤرخاً وشاعراً ، وكان وثيق الصلة بابن خاتمة ، وارتبطت حياتها معا ، ودرست حياته على نحو مفصل في مقال لي نشر بمجلة الأندلس Al-Andalus المجلد الثامن والعشرين ، عام ١٩٦٣ ، الصفحات من ٣٨١ إلى ٤٢٤ .

ويذكر ابن القاضي أيضاً ، محمد بن محمد بن عبد الواحد ، أبو القاسم البلوي ، المتوفى عام ٧٤٧ هـ - ١٣٤٦ م ، كأستاذ لابن خاتمة ، وكان قاضياً لمدينة بيرة Vera ، ثم المرية ، ورحل حاجاً إلى مكة (١٦) .

وأخيراً ، يذكر ابن القاضي نفسه أستاذاً آخر لابن خاتمة ، هو : أبو عثمان ، سعد بن

(١٤) عن ابن فركون انظر :

● الاساطة ، ج ١ ، ص ١٥٩ - ١٦٣ .

● النباهي ، المراقبة العليا ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

● درة الحجال ، ج ١ ، الترجمة ٤٨ .

● نيل الابتهاج ، ص ٦٤ - ٦٥ .

● اللوحة البدرية ، ص ٥٠ - ٥٨ .

● الكتيبة الكامنة ، ص ١٠١ .

(١٥) عن ابن سهل انظر :

● درة الحجال ، ج ١ ، الترجمة ٥٢٥ .

● غاية النهاية ، ج ١ ص ٢٤٠ .

● الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ١٧٨ ، الترجمة ٤٨٣ .

(١٦) درة الحجال ، الترجمة رقم ٥١٥ .

أحمد بن ليون التجيبي^(١٧) . وقد خصه المقرئ . في كتابه **نفح الطيب** بصفحات طويلة نقلها نصاً عن ابن الخطيب ، وأورد له عددًا كبيراً من الأبيات والمقطوعات ، في الحكمة ، وخطرات فلسفية ، وتأملات في حوادث زمانه ومصائبه ، نقلها من مؤلفاته التي تتصل بهذه الموضوعات ، وعناوينها :

- ١ - كمال الحافظ ، وجمال الالفاظ ، في الحكم والوصايا والمواعظ .
 - ٢ - نصائح الأحباب ، وصحائح الآداب ، وهو موجز للكتاب السابق .
 - ٣ - أنداء الدائم في الوصايا والمواعظ والحكم .
- هذه الأشعار ، وترجم بعضها إلى الإسبانية من قريب إميليو غرسية غومث (الأندلس ، المجلد ٢٧ ، ١٩٧٢ ، ص ١ - ٧٥) ، تعكس شبهة قوية فيما يتصل بموضوعات وأسلوب القسم الرابع من ديوان ابن خاتمة . ومن جانب آخر ، نقرأ في السطور الأخيرة من الترجمة التي أوقفها المقرئ على ابن ليون ، أنه : أوقف مدائحه على الرسول فحسب . وهي نفس حال ابن خاتمة في القسم الأول من ديوانه ، وعنوانه « في المدح والثناء » ، وهو يضم قصائد في ذكر الله وشكره ، والثناء على نبيه فحسب . وكلا الأديبين من المرية ، وعاشا في عصر واحد ، وبنهلان في أسلوبهما من نفس المعين ، ويمكن أن نضعهما بين مجموعة من الشعراء والكتاب أعطوا هذه المرحلة الأخيرة من حياة الأدب الإسباني طابعه الأدبي المميز .

وكان لابن خاتمة جلساء وصدقات عديدة بين الشخصيات العاملة في بلاط غرناطة ، أو على صلة به ، وفضلاً عن ابن الخطيب ، وأشرنا إلى شواهد صداقته ومظاهرها ، وعن

(١٧) عن ابن ليون انظر :

- نفح الطيب ، ج ٨ ، ٥٨ - ١١٤ .
- درة البحال ، ج ١ ، الترجمة ٣٥٢ .
- وقد ألف ابن ليون كتاباً عن الفلاحة ، ترجمته الآنسة خواكيئا ايجواوس إلى الأسبانية وكان موضوعها للدكتوراة ، وابن ليون شخصية هامة بين أدباء مملكة غرناطة . وانظر عنه أيضاً :
- الكتيبة الكامنة ، ص ٨٦ - ٨٧ .
- نيل الابتهاج ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .
- ترجمته في مقال غرسية غومث المشار إليه ، في مجلة الأنندلس ، المجلد ٣٧ ، عام ١٩٧٢ .

أبي البركات ابن الحاج ، وعلى الترجمة له أوقفت مقالا كاملا ، وعنه أخذت الجانب الأكبر من الروايات المتعلقة بهما ، في لحظات كثيرة من حياتيهما ، فضلا عن هذين نذكر :

أبا عبد الله محمد بن جُزَى الكلبي^(١٨) ، من أشهر أبناء أسرة بني جُزَى العريقة ، فهو ابن أبي القاسم محمد ، الشاعر الذي وقف قصائده على مدح السلطان أبي الحجاج يوسف ، وقد استشهد الوالد في الواقعة الكبرى بطريف ، والتي تعرف في المصادر الإسبانية باسم معركة « سلا دو » ، عام ٧٤١ هـ - ١٣٤٠ م .^(١٩)

أبو عبد الله محمد بن جُزَى ، غرناطي ، وشاعر البلاط في غرناطة أولا ، ثم شاعر السلطان المريني أبي عنان في فاس من بعد ، وقد توفي في هذه المدينة عام ٧٥٨ هـ - ١٣٥٧ م ، وكان هو الذي حرّر رحلة ابن بطوطة ، سنة ٧٥٦ هـ = ١٣٥٦ م ، أى قبل عامين من وفاته . وليس هنا المكان المناسب لكي نفصل القول في محمد بن جُزَى

(١٨) انظر ترجمته في :

- نفع الطيب ، ج ٨ ، ص ٤٠ - ٥٤ .
- أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ١٨٩ - ٢٠٤ .
- درة الحجال ، الترجمة رقم ٧١٥ .
- الكنية الكامنة ، ص ٢٢٣ - ٢٢٨ .
- نثر فرائد الجان ، ص ٢٩٢ - ٣٠٦ .
- نيل الابتهاج ، ص ١٠٥ .
- بروكلان ، تاريخ الأدب العربي ، ص ٢٣٣ .
- بونس بيوجيسى ، دراسة ، الترجمة رقم ٢٨٤ .
- (١٩) درة الحجال ، الترجمة ٥٥٣ .
- نفع الطيب ، ج ٨ ص ٢٨ .
- أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .
- الكنية الكامنة ، ص ٤٦ - ٤٨ .
- الدياج ، ص ٢٩٥ .
- نيل الابتهاج ، ص ٢٣٥ .
- الإحاطة ، مخطوطة باريس ، الورقة ٦١ ب و ٦٢ أ .

وأخباره ، وهو شخصية بالغة الأهمية ، وقد لعب مع أخويه عبد الله^(٢٠) وأحمد^(٢١) دوراً باهرًا في الحياة الأدبية في مملكة غرناطة .

وقد أشار المقرئ^(٢٢) إلى الصداقة التي ربطته مع ابن خاتمة ، وأورد لنا رسالة وجهها هذا إلى ابن جزى ، تغلب عليها الصناعة اللفظية ، وتزاحم فيها الجمل ذات التورية ، وتستخدم أسلوبًا طالما استخدمه الأدباء العرب في كل العصور ، ولكنه وجد بين أدباء هذا العصر إقبالاً حميمًا . ويقول المقرئ ، إنه رد بها على قصيدة زائية كان ابن جزى قد بعث بها إليه ، ردًا على قصيدة تلقاها منه ، جاءت في قافية الراء ، وقد حرص ابن جزى على أن تجيء قصيدته خالية من حرف الراء تمامًا ، لأنه لم يكن يستطيع أن ينطقها صحيحة ، وكان يبدلها غنيًا . وثمة قصيدة أخرى توجه بها ابن جزى إلى السلطان أبي الحجاج يوسف^(٢٣) ، وتؤكد حكاية حرف الراء هذه ، لأن الشاعر استطاع أن يتجنب فيها ، وجاءت في أربعة وثلاثين بيتًا ، استخدام أية كلمة تجيء الراء بين حروفها . ومن جانب آخر ، فإن ابن الأحمر^(٢٤) ، وخص ابن جزى بترجمة مطولة ، أورد لنا رسالة كتبها هذا إلى لسان الدين بن الخطيب ، وليس فيها كلمة واحدة تجيء السين بين حروفها . فالأمر كما نرى ، ليس مجرد إبعاد حرف معين لا يستطيع الكاتب نطقه صحيحًا ، وإنما استجابة لذوق خاص ، مغرم بمثل هذه الغرائب ، والتي نجد لها شبيهًا أيضًا بين كثير من الأدباء الإسبان . ولنتذكر مثلاً أن كاستيو سلورثانو C. Solorzano

(٢٠) نفع الطيب ، ج ٨ ، ص ٥٤ .

● الكتيبة الكامنة ، ص ٩٦ - ٩٩ .

● نيل الابتهاج ، ص ١٢٩ .

(٢١) نفع الطيب ، ج ٨ ، ص ١٣١ .

● أزهار الرياض ، ج ٢ ص ١٨٧ .

● درة الحجال ، الترجمة ٨ .

● الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٦٣ - ١٦٨ .

● الكتيبة الكامنة ، ص ١٣٨ - ١٤٣ .

(٢٢) نفع الطيب ، ج ٨ ، ص ١٤٤ .

(٢٣) نفع الطيب ، ج ٨ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢٤) نثر فرائد الجنان ، ص ٣٠٣ - ٣٠٦ .

ألغى حرف R في روايته « مزرعة Laura » « La quinta de Laura » ، وأن نبريت ريبيرا Novarrete Ribera يستخدم حرف a في روايته الحسان الثلاثة Los tres hermanas ومثله صنع ثريتا دي أرو Zurita de Haro في روايته « فضائل تصنع الجوائز Méritos disponen premios ، وكان روبين داريو Rubén Darío مولعاً للغاية بتلاعب الألفاظ هذا ، وأن خردويل بونثيلا Jardiel Poncela برّح هذا الأسلوب المتكلف قائلاً : « كما يحدث في التطريز على الخيش ، حين تنزع بعض الزهور الحمراء أو الزرقاء ، وتصنع مكانها أخرى » ، وعن هذا العمل المسلي يقول كاتبنا نفسه : (حين تكتب قصة عادية ، ثم تحولها إلى قصة أخرى لا تضم حروف aes أو ies تكون كمن يستجيب لشعار التشجيع عند فنان السيرك : مزيداً من الصعوبة ! » .

هذا الأسلوب المتكلف ، كان اللعبة المفضلة ، فيما يبدو ، عند الأدباء الأندلسيين في القرن الرابع عشر الميلادي ، ولم يستطيع ابن خاتمة أن ينجو من تأثير هذه البيئة ، وفي الفصل الثالث من ديوانه يمكن أن نجد شواهد عديدة على هذا الأسلوب الأدبي (٢٤) .

ونذكر بين أصدقاء ابن خاتمة أيضاً : أبو القاسم عبد الله بن رضوان ، المتوفى ٧٨٠ هـ - ١٣٧٨ م ، وهو عالم مالقي ، وشخصيته متميزة في بلاط بني مرين ، وإليه أهدى ابن خاتمة ديوانه (٢٥) .

أما فيما يتصل بتلاميذه ، فلا نعرف منهم غير أسماء ثلاثة فحسب : أخوه محمد ، وأشرنا إليه من قبل ، وأبو عبد الله محمد بن ميمون (٢٦) ، وأبو جعفر أحمد بن زرقالة (٢٧) .

(٢٤) مثل هذه العرائب الأدبية ليست وفقاً على عصور الانحطاط ، والشاعر القرطبي العظيم ابن شهيد ، المتوفى ٤٢٦ هـ - ١٠٣٥ م . نظم أربعين بيتاً على البديهة . ليس فيها حرف يعجم أولها . (الحميدى . جذوة المقنيس . ص ٢٥٩ ، الترجمة رقم ٦١٣) .

(٢٥) عن ابن رضوان انظر فيما بعد . ص ١٢٤ الهامش رقم ٤٥ من هذا الكتاب .

(٢٦) انظر ص ١٠١ الهامش رقم ٨ من هذا الكتاب .

(٢٧) لم أستطع تحديد هوية تلميذ ابن خاتمة هذا . وهو الذي جمع مختارات تورياته في كتاب وصلنا بعنوان : « كتاب =

ولم أستطع أن أجد أخباراً تتصل بسلفه ، فليس لوالده ترجمة ، ولا لأجداده ، وقد استرعى انتباهي إشارة ربما تتصل بأسرته ، في مقال نشره خوسيه مارية كوسيو Jose M. Cossio في مجلة الأندلس ، المجلد السابع ، ١٩٤٢ ، الصفحات ٥٠ - ١١٢^(٢٨) ، وعنوانه : « الأسرى المسلمون ، في القرن الثالث عشر » ، فقد وجدت في هذا المقال اسم من يدعى ابن خاتمة من المرية .

تقول المخطوطة ، عندما بُيِّنَتْ كيف حصل مسلم من المرية على كل من بنيتو Benito ودومينجو Domingo :

« قبل أعياد الميلاد بثمانية أيام ، عام ١٣٢١ ، خرج من مرسية ، هو وميجيل ، ذهبا للصيد في البحر ، ومعهما حصانان ، وهما ذاهبان إلى وادي رولاق Rolac التقيا مع يوسف مقدم بيرة al mocadén de Vera ، وعرض لهم فرسان ورجالة من المسلمين ، فأسروا هذين المسيحيين ، وحملوهما إلى بيرة ، وباعوا بنيتو بأربعة دويل doble وربع ، وميجيل بأربعة دويل ، وحملوهما إلى المرية ، وباعوا بنيتو إلى مسلم آخر ، يسمى ابن خاتمة بأربعة دويل ونصف ، وهذا باعه إلى « أبو الحزم بخمسة دويل . . » .
وفي ضوء تاريخ الوثيقة من الممكن أن نقول إننا بصدد والد ابن خاتمة صاحبنا .

○ البيئة السياسية والثقافية :

كما رأينا جرت حياة ابن خاتمة بين أعوام ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ م و ٧٧٠ هـ =

= رائق التحلية ، في فائق التورية . وعن الشخصيات التي تحمل اسم ابن زرقالة ، أنظر مقال : مجموعة من التوريات لأبي جعفر أحمد ابن خاتمة في : « دراسات مستشرقية ، مهداة إلى ذكرى ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٦٢ ، ص ٥٤٦ .

(٢٨) وهويدرس كتاب ف . سبا ستان دي برجارة

وعنوانه :

Miraculos romanceados de Como sacô Sto. Domingo Los cativos de la Catividad et fizolos escribir Pero Martin monje del monasterio, P. 2.

الدويل عملة ذهبية كانت سائدة خلال مملكة غرناطة ، في الجانبين الإسلامي والمسيحي من الأندلس ، وتساوى الجنيه الذهبي في عصرنا تقريبا .
الترجم

١٣٩٦ م ، أو إن شئت شغلت قمة القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي . وكانت الأحداث السياسية في هذه الفترة من أشد أحداث المملكة النصرية اضطراباً ، وكان المناخ في غرناطة شديد الشبه جداً بما كان عليه في قشتالة نفسها (٢٩) .

وإذا ألقينا نظرة عجلة على تاريخ هذه الفترة وجدنا فيها : مملكة محمد الثالث وسياسة الاستعمارية ، وتدخل المرينيين ، ثم حكومة نصر (١٣٠٩ - ١٣١٤ م) ، واحتلاله مدينة سبتة ، حصار فرناندو الرابع في أيامه مدينة الجزيرة الخضراء ، واستيلاءه على جبل طارق ، وفي هذه الأيام أيضاً حاصر خاتمة الثاني مدينة ألمرية ، وهو حادث لا بد أن شاعرنا عرفه ولما يزل صبيّاً . وحكومة إسماعيل الأول (١٣١٤ - ١٣٢٥) ، والتدخل في سياسة الأميرين خوان وبدور الوصي على ألفونسو الحادي عشر . وعصر محمد الرابع (١٣٢٥ - ١٣٣٣ م) ، والذي اغتيل بعد أن احتلت قوات ألفونسو الحادي عشر جبل طارق ، والأحداث الهامة التي وقعت في سنوات أبي الحجاج يوسف (١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) ، ومحمد الخامس (١٣٥٤ - ١٣٩١ م) ، وأدرك ابن خاتمة سنوات ملكه في قمة نضجها . إنه العصر الذي حدثت فيه وقعة طريف ، أو معركة سلا دو كما تسميها المصادر الإسبانية ، وحصار جبل طارق ، وشهد موت ألفونسو الحادي عشر ضحية وباء الطاعون الذي وصفه لنا ابن خاتمة في رسالة من أشهر مؤلفاته . وشهد ألواناً من النضال ومن الاضطرابات ومن الرذائل فاض بها عصر محمد الخامس ، وقد عزله عن العرش أخواه إسماعيل ومحمد البرميخو (١٣٥٩ - ١٣٦٢ م) ، ونفى محمد الخامس إلى المغرب ، ثم عودته مع وزيره لسان الدين ابن الخطيب . كان عصر كفاح ومناخاً فياضاً بالانفعال . وفيه ارتفعت الحمراء ، وبنى بدور القاسي قصره Alcàzar في إشبيلية ، وبدأ الأدب الأندلسي على الرغم من توهج أشكاله اللامعة ، المطرزة بألوان البلاغة الفخيمة ، يأخذ طريقه نحو الانحدار والسقوط في وضوح ، وولد الأدب القشتالي ، وكات متأثراً

(٢٩) للمزيد عن مملكة غرناطة انظر الدراسة الممتازة التي قامت بها راشيل أرييه : أسبانيا الإسلامية في عصر بني نصر (١٢٣٢ - ١٤٩٢) ، باريس ١٩٧٣ . ولدراسة عصر محمد الخامس انظر : مملكة غرناطة في عصر محمد الخامس ، لأحمد مختار العبادي ، مدريد ١٩٧٣ .

بالأدب العربي على نحو قوى عميق ، ولدينا من أعلامه : كاهن هيتا ، وبيرو لوبث دى أباله ، ودون خوان منويل ، وسام توب دى كاريون* .

أين نضع ابن خاتمة في هذا المناخ السياسى والثقافى ؟ نحن نعرف عن طريق ابن الخطيب أنه كان يتردد على البلاط الغرناطى ، وكان ينظر إليه في عاصمة بنى نصر على أنه من خيرة الأدباء الذين ازدهروا في الأندلس ، ومع ذلك لا نراه أبداً يأخذ بأدنى حظ من السياسة العكرة في تلك الأيام ، وليس لدينا أية معلومات تجعلنا نشك في أن طموحاً ما كان يحركه أو وراء خطاه . ولكن ذلك لا يعنى أبداً أنه كان يعيش على هامش الأحداث . ولقد احتفظ لنا كل من ابن الخطيب والمقرئ^(٣٠) بالرسائل التى كان يتبادلها ابن خاتمة والأول منها . وهذه الرسائل يمكن أن تعد نموذجاً للبلاغة المتكلفة التى كان يستخدمها الأدباء على أيامه ، في هذا العصر ، وكان ابن خاتمة أحد أعلامه ، وفيها تجيء الأفكار والمعانى ضائعة في طوفان من ثراء اللغة ، وفيضان الصور ، وجموح الخيال . ونعرف من الذين ترجموا لحياته أنه تولى منصب مقرئ في جامع المرية ، وأنه كان كاتباً ، ويبدو أنه لم يشغل هذا المنصب الأخير لزمناً طويلاً ، وأورد لنا المقرئ أحياناً تتصل باعتزاله له ، يقول : « ومن نظمه وقد تخلى عن الكتابة ، وطلب إليه أن يعود فأبى وأنشد :

تَقْضَى في الكتابة لى زمانٌ كشانِ العبدِ ينتظر الكتابة

* لمعرفة كاهن هيتا انظر : د . الطاهر أحمد مكى ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الثانية ، ص ٣٤٢ وما بعدها ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٧ .

بيرو (أو بدرو) لوبث دى أباله (١٣٣٢ - ١٤٠٧ م) رجل دولة ، وأديب أسباني ، وله كتاب « تاريخ قصر Rimado de Palacio » .

خوان منويل (١٢٨٢ - ١٣٤٨ م) ، حميد الملك ألفونسو العاشر ، الملقب بالعالم ، وكان سياسياً وكاتباً ، ومن أشهر مؤلفاته « الكوندي لوكارنو » ، وهو مجموعة من الحكايات ، متأثرة بالأدب العربى في جانب منها ، وترجمة حرفية لنصوص عربية في جانب آخر .

سام توب ، يهودى ، كان ريانا ليهود كاريون ، وعاش في حاية بدرو الأول ملك فشتالة ، وألف : « أمثال خلقية ، أو نصائح ومواظ للملك بدرو » ، وهى في جملتها مقتبسة من العربية .

(٣٠) الاحاطة ، ج ١ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٢ ، ٢٦١ - ٢٦٨ . ونفع الطيب ، ج ٨ ، ص ١٤٥ - ١٤٨ .

فمن الله من عتق بما لا يطيقُ الشكرُ أن يملا كتابه
 وقالوا : هل تعود فقلتُ : كلاً وهل حرُّ يعود إلى الكتابه (٣١)
 كما يمكن أن نرى ، يبدو أن ابن خاتمة لم تكن لديه أية رغبة في أن ينضم أو يشغل أية
 وظيفة ، وتعكس قصائده النبرة نفسها ، فلا يطل من بينها ملق ولا مديح أبداً ، والهدف
 الجوهري منها دائماً الحصول على العطاء ، أو الوصول إلى مكان مرموق .
 والأخبار القليلة المتصلة بأحداث حياته ، تجيء ملفوفة في فيض جارف وقطيع من
 الصور البلاغية المعقدة .

وعندما نمضي مع ابن الخطيب بعد الحديث عن شيوخ ابن خاتمة ، نجد بعض
 الأشعار ورسالة كتبها هذا ، بعد زيارة حاشية السلطان للمرية ، وكان ابن الخطيب يرافق
 السلطان ، وعبر شاعر المرية عن بهجته بلقائه (٣٢) . وتحمل الرسالة تاريخ ١٠ من ربيع
 الأول ٧٤٨ هـ = ٢٠ من يونية ١٣٤٧ م ، وأورد ابن الخطيب بعدها طائفة من أشعار
 ابن خاتمة ، تبلغ في مجموعها إحدى عشرة بين قصيدة ومقطوعة ، وبعضها لا يوجد في
 الديوان .

ويشير ابن الخطيب بعدها كيف أن ابن خاتمة عقب انصرافه من غرناطة ، في بعض
 قدماته عليها ، حضر مجلساً في دار ابن الخطيب ، وكتب إليه ببعض الأشعار التي نظمها
 بعض من حضر المجلس . ولم يقل من هو هذا الشخص ، وقد يكون ابن خاتمة نفسه ،
 وفي هذه الأبيات يصف قصر ابن الخطيب في « عين الدمع » من غرناطة (٣٣) . وفي المكان

(٣١) الأبيات من بحر الوافر . ومثل هذه الأبيات نجدها لأستاذ أبي البركات البلقيني ، وترجمتها إلى الأسبانية ، انظر : مجلة
 الأندلس ، المجلد ٢٨ ، عام ١٩٦٣ ، ص ٣٩٧ .

وهذه الأبيات تتضمن تورية ، ويمكن أن تفهم على معنيين الكتابة ، وهي الوظيفة الإدارية المعروفة ، أو الاتفاق على أن يسترد
 حريته من كان رقيقاً مقابل شيء . ومن ثم فإن البيت الأخير يمكن أن يترجم في الأسبانية على ضربين ، يأخذ في كل مرة منها أحد
 المعنيين دون الآخر .

(٣٢) الاطاعة ج ١ ص ٢٦٠ ، نفع الطيب ، ج ٨ ص ١٤٧ .

(٣٣) عن رحلة ابن الخطيب إلى المرية رقة السلطان أبي الحجاج يوسف ، الذي خرج من غرناطة في ١٧ من محرم عام
 ٧٤٨ هـ = ١٣٤٨ م ، انظر : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ، نشرها أحمد مختار العبادي ،
 الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٢٧ - ٣٥ .

نفسه ، ومازلنا مع رواية لسان الدين بن الخطيب ، دُعِيَ إلى وليمة مع جماعة من الأصدقاء ، وكان من بينهم شيخه أبو البركات ابن الحاج البلقيني ، الذي اعتذر عن الأكل بأنه صائم ، قد بيته من الليل ، وحيثُ حضرت ابن خاتمة هذه الأبيات :
 دعونا الخطيبَ أبا البركاتِ لأكل طعام الوزير الأجلِ
 وقد ضمنا في نداه جنانُ به احتفل الحسنُ حتى كملُ
 فأعرض عنا لعذر الصيام وما كل عذرٍ له مستقل
 فإن الجنانَ محلُّ الجزاءِ وليس الجنانُ محلُّ العملِ

وعندما فرغوا من الطعام أنشد الأبيات شيخه ، فقال له أبو البركات : « لو أنشدتها ، وأنتم بعد لم تفرغوا منه ، لأكلت معكم برا بهذه الأبيات ، والحوالة في ذلك على الله تعالى » (٣٤) .

وفي نهاية القسم المتعلق بترجمة حياته أورد لنا ابن الخطيب رسالتين : إحداهما توجه بها ابن خاتمة إلى ابن الخطيب نفسه والأخرى ردّ من هذا عليها . وطبقاً لما يقوله ابن الخطيب نفسه ، كتبها ابن خاتمة بمناسبة عزم ابن الخطيب على الخروج من الأندلس متوجّهاً إلى الحج .

وهي رسالة طويلة متكلفة ، طافحة بالاستعارات والتوريات ، وفيها يحاول ابن خاتمة أن يثنى ابن الخطيب عن إصراره في الانقباض عن الخدمة ، والتهيه على السلطان والدولة . ويبدو واضحاً فيما نلاحظ هنا ، قلة غرام ابن خاتمة بالرحلات ، وسجل في بعض

= ● والواقع أن الأبيات لابن خاتمة نفسه ، وإذا لم يتضمنها الديوان الأصلي فهي موجودة في المصادر الأخرى ، وجاءت الأبيات ضمن رسالة توجه بها ابن خاتمة إلى لسان الدين بن الخطيب ، ومطلع الأبيات :

أقول « وعين الدمع » نصب عيوننا ولاح لبستان الوزارة جانب

وهي مقطوعة في سبعة أبيات ، انظر :

● نفح الطيب ، ج ٦ ص ٣٦ - ٣٨ ، طبعة عبي الدين .

● الكنية الكامنة ، ص ٢٤٤ طبعة احسان عباس .

● نيل الابتهاج ، ص ٧٢ - ٧٣ .

المترجم

(٣٤) الاحاطة ، ص ٢٦٠ - نفح الطيب ، ج ٨ ص ١٤٨ - رائق التحلية ، الورقة ١٤ .

المناسبات كراهيته للبعد عن وطنه « وما قارق ذوو الأحلام ، وأولو الأرحام ، مواطن
استقرارهم ، وأماكن قرارهم ، إلا برغمهم واضطرارهم » .

ونذكر أنه حاول أن يصرف شيخه أبا البركات عن رحلة له إلى المشرق^(٣٥) ،
ولا نعرف عنه أنه غادر الأندلس أبداً ، وعندما ترك صديقه ابن الخطيب الأندلس إلى
المغرب كتب إليه أن يعود إلى وطنه ، وبين هذا الأسلوب من البلاغة المتكلفة الغالية
الثقيلة ، التي تملأ كل الرسالة ، تلمع بعض جمل معبرة ، يحاول بها أن يقنع صديقه :

« إنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطاراز ملكها ،
وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على العموم
والخصوص ، ثم أنتم مدار أفلاكها ، ومر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان
إحسانها ، أو طب مارستانها ، والذي عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها ، فلديه محل
المشكل ، وإليه يُلجأ في الأمر المفصل . . » .

وبعد عدة جمل شجعه فيها على العودة ، بنفس الأسلوب المتكلف أيضاً ، أثنى على
الأندلس ، ومع أن ثناءه جاء موجزاً ، يمكن أن يضاف إلى النصوص التي تمثل « قومية
شعراء الأندلس » ، يقول :

« ومتى توازن الأندلس بالمغرب ، أويغوض عنها إلا بمكة أويثرب ؟ . ما تحت أديمها
أشلاء أولياء وعباد ، وما فوقه مرابط جهاد ، ومعاقدة ألوية في سبيل الله ، ومضارب
أوتاد ، ثم ييؤى ولده مبرأ أجداده ، ويجمع له بين طارفه وتلاده ، أعيد أنظاركم المسددة
من رأى قائل ، وسعى طويل لم يحل منه بطائل ، فحسبكم من هذا الإياب السعيد ،
والعود الحميد » .

ويبدو ابن الخطيب في رده ، وقد خاب أمله في العالم ، وأسلوبه في رسالته يطابق
الأسلوب الذي استخدمه ابن خاتمة تماماً ، واستهلها بهذين البيتين من الشعر :

لَمْ فِي الْهَوَى الْعَذْرَى أَوْ لَا تَلَمْ فَالْعَذْلُ لَا يَدْخُلُ أَسْمَاعِي

(٣٥) نفح الطيب ، ج ٧ ص ٤٠٢ ، رائق التحلية ، الورقة ٦ ب .

شأنك تعينني وشأني الهوى كلُّ امرئٍ في شأنه ساعي^(٣٦)
 أما فيما يتصل بدعوته كي يعود إلى الأندلس ، فلم يقتنع بها فيما يبدو ، يقول له :
 « وأما تفضيله هذا الوطن على غيره ، ليمن طيره ، وعموم خيره ، وبركة جهاده ،
 وعمران رباه ووهاده ، بأشلاء عبّاده وزهّاده ، حتى لا يفضلّه أحد إلا الحرمين ، فحق
 برئ من المين ، لكن للحرمين جنحت ، وفي جو الشوق إليهما سرحت » .
 والمعلومات المتصلة بترجمته ، والتي توجد في كتابه رائق التحلية في فائق التورية
 محدودة ، وقليلة الأهمية ، ومع ذلك أوردها فيما يلي ، حسب مجيئها في مخطوطتي
 الإسكوريال وباريس :

في الورقة ٣ ب و ٤ أ من مخطوطة الإسكوريال ، و ٩ من مخطوطة باريس خبر امرأة
 دخلت الحمام بدون مئزر ، فأمر القاضي أبو البركات البليقي بشقيفها ، فكتب إليه ابن
 خاتمة شافعاً* .

في الورقة ٤ أ من مخطوطة الإسكوريال ، ١٠ أ من مخطوطة باريس ، توجد أبيات
 من الشعر أشرنا إليها فيما سبق ، توجه بها إلى أبي البركات البليقي حين اعتذر عن الأكل
 معهم ، في روضة لسان الدين بن الخطيب ، ويزيد ابن خاتمة هنا ، أنها كانت بمناسبة
 إعذار الأمراء ، وأن ثلاثة من الأشخاص تجمعوا هناك : القاضي أبو البركات البليقي ،
 وأبو جعفر بن عبد الحق المالقي ، وابن خاتمة نفسه . وربما كان لهذا الخبر صلة بما أورده لنا
 ابن الخطيب في كتابه الإحاطة^(٣٧) ، عندما يقول : « دخل غرناطة غير ما مرة ، منها في

(٣٦) الإحاطة ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .

• من طريق الأمر أني قرأت الخبر ومعه الأبيات التالية ، وهي عذبة ورقيقة ، على الصفحة الأولى من مخطوطة « إيراد الآل من
 انشاد الضوال ، وإرشاد السؤال » لابن خاتمة ، أثناء اختلاقي إلى خزنة القصر الملكي في الرباط ، صيف عام ١٩٧٣ ، أعجبت
 الناسخ ، أو مالك المخطوطة لأدري ، وخشي نسيانها فسجلها ، والأبيات هي :

يا قاضيًا أصبح ذا سيرة بكل عدلٍ في الوري سارية
 سنحك في جارية ثقت ليست على حكم الهدى جارية
 وأعجب لا جاء به وقتنا مؤتزر يشفع في عارية
 والأبيات ليست في الديوان الذي نشره د. رضوان الداية .
 (الترجم)

(٣٧) ج ١ ص ٢٥٢ .

استدعاء شمال الخواص من أهل الأقطار الأندلسية ، عند إعدام الأمراء في الدولة اليوسفية ، أي أبناء السلطان أبي الحجاج يوسف ، في شهر شعبان من عام ٧٥١ - أكتوبر ١٣٥٠ م .

في الورقة ٤ أ من مخطوطة الإسكوريال ، ٩٠ ب من مخطوطة باريس ، يقول ابن خاتمة : أمضينا ليلة في غرناطة ، في دار الشريف النيل القاضي ، وعاء الحكمة ، وخطيب العاصمة ، وقدوة الخاصة ، ابن القاسم محمد الحسنى^(٣٨) مع أبي البركات البلنقى ، والقاضي أبي إسحاق بن شعيب^(٣٩) .

في الورقة ٤ ب من مخطوطة الإسكوريال ، و ١١ من مخطوطة باريس ، خبر عن طلب أبي القاسم بن رضوان من ابن خاتمة ديوان أشعاره .

في الورقة ٦ ب من مخطوطة الإسكوريال ، ١١ أ من مخطوطة باريس ، قصيدة توجه بها إلى القائد أبي عبد الله بن شعيب ، حين كان عاملا على قسبة ألمرية ، بمناسبة نزوله في بيت الفقيه الوزير ، والأديب اللوذعى أبي عبد الله بن جزي .

في الورقة ٦ ب من مخطوطة الإسكوريال ، ١٢ ب من مخطوطة باريس ، أبيات من الشعر ، حاول فيها ابن خاتمة أن يثني أبا البركات البلنقى عن رحلة عزم عليها إلى المشرق ، وكان ذلك في جمادى الثانية ٧٣٩ هـ = ١٣٣٨ م وقد غرقت السفينة التي خلفها أبو البركات دون رحلته ، ليلة إقلاعها من مرسى ألمرية .

في الورقة ٧ ب من مخطوطة الإسكوريال ، ١٣ أ من مخطوطة باريس ، بيتان من الشعر ، تضمنتا تورية ، يمكن أن تفهم على أنها إشارة إلى يوسف سلطان غرناطة . أما الأخبار المتصلة بشهرة ابن خاتمة العريضة خارج الأندلس ، فلدينا منها رواية ابن فضل الله العمري ، في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار^(٤٠) وهو خير نقلناه عن مقال للأستاذ كولان Colin بعنوان « بعض شعراء العرب في الغرب خلال القرن

(٣٨) عن أبي القاسم محمد الحسنى ، أستاذ ابن زمرك ، انظر : أزهار الرياض ، ص ٩ - ١٢ .

(٣٩) عن ابن شعيب ، انظر : ص ١١٠ ، الهامش رقم ١٣ .

(٤٠) مخطوطة باريس ، المجلد ١٧ ، الورقة ٢١٠ أ .

الرابع عشر الميلادى» ، فى مجلة هيسبيريس ، ١٩٣١ ، ص ٢٤١ ، يقول : أنشد أبو عبد الله شهاب الدين ، أحمد بن فضل الله العقيلي الجبورى ، قصيدة لابن خاتمة فى القاهرة ، على ابن فضل الله العمرى ، عام ٧٤٠ هـ - ١٣٣٩ م ، وقال له إن الشاعر لما يزل حياً ، غير أن العمر تقدم به ، ومع ذلك ، يمكن القول أن سن ابن خاتمة فى هذا التاريخ لم تكن تقدمت كثيراً ، لأنه كما رأينا ، توفى عام ٧٧٠ هـ - ١٣٦٩ م ، فى السبعين من عمره تقريباً .

مؤلفات ابن خاتمة

تميز أديب المرية الشهير بين معاصريه ، الذين احتراموه وأعجبوا به ، وترك لنا مؤلفات هامة ، تشي بمعارف متعددة الجوانب ، وتومئ إلى مستواه الأدبى واللغوى والعلمى ، وسوف نعرض لهذه المؤلفات فيما يلى :

○ المؤلفات التاريخية :

١ - تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد ، ومحتوى هذا الكتاب يمتد إلى حقل التاريخ والطب ، وفيه يدرس ابن خاتمة العدوى وأسبابها بعامة ومرض الطاعون الأسود الشهير ، الذى اجتاح مدينة المرية عامى ٧٤٩ و ٧٥٠ هـ = ١٣٤٨ و ١٣٤٩ م بخاصة ، حيث تسبب فى موت أعداد مريضة من السكان . وفضلا عن قيمة الكتاب من الوجهة الطبية ، له أهمية بالغة فيما يتصل بالمعلومات التى يقدمها عن مسقط رأس المؤلف . ولدينا مخطوطتان ، واحدة فى مكتبة دير الإسكوريال ، ورقمها فى فهرس ديرنبورج ١٧٨٥ ، والثانية فى المكتبة الإمبراطورية فى برلين . تحت رقم ٦٣٦٩ .

وقد قام الأستاذ المصرى طه دنانة بترجمته إلى اللغة الألمانية فى مجلة Arch. fur. Gesh. de Med. المجلد ٢٠ . عام ١٩٢٦ . ص ٢٧ - ٨١ . وعن النص الألمانى قام الصيدلى خوسيه فرنانديث مرتينيث ، من مدينة المرية . بترجمة الجانب الطبى

منه ، في مجلة « الحاضر الطبي Actualidad Medica » ، التي تصدر في غرناطة العدد رقم ٤٠٣ ، الصفحات ٤٤٩ - ٥١٢ ، والعدد رقم ٤٠٤ ، الصفحات ٥٦٦ - ٥٨٨ ، عام ١٩٥٨ .

٢ - مزية ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية . وهو مؤلف مفقود لسوء الحظ ، وكان مصدراً تاريخياً هاماً ، اغتنمه كل من ابن الخطيب ، وابن القاضي ، والمقرئ ، الذي يقول عنه إنه : « مجلد ضخيم ، تركته من جملة كتبي بالمغرب » ، والعثور عليه مهم للغاية . فربما قدم لنا معلومات عما كانت عليه الحياة في مدينة ألمرية في الأعوام الأخيرة من الحكم الإسلامي .

○ المؤلفات الأدبية :

١ - الديوان ، وترجمته الإسبانية بين يدي القارئ ، ومخطوطته في الإسكوريال تحمل رقم ٣٨١ في فهرسة ديرنبورج ، وله مخطوطة أخرى في الرباط ، في الخزانة العامة تحمل رقم ٢٦٩ ك .

٢ - كتاب رائق التحلية في فائق التورية . وهو مجموع من الأشعار لابن خاتمة ، تلقاها عنه سماعاً تلميذ له يدعى ابن زرقالة ، وجمعها في كتاب ، وتوجد له ثلاث مخطوطات : واحدة في الإسكوريال ، تحمل رقم ٤١٩ في فهرس ديرنبورج ، والثانية في المكتبة الوطنية في باريس ، تحت رقم ٥٧٤٩ ، في فهرس بلوشيه ، والثالثة في الخزانة العامة في الرباط ، تحمل رقم ١٨٢٦ ، في فهرسها الذي صدر عام ١٩٥٨ . وقد درست هذه المجموعة في مقال نشرته عام ١٩٦٢ ، الصفحات ٥٤٢ - ٥٥٧ . ونصها العربي أعدته كي ينشر كاملاً في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد^(٤١) .

٣ - الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل . وهو رسالة صغيرة ، في أسلوب

(٤١) هذا الكتاب ليس مجموعة من القواعد عن استخدام التورية ، كما هو عليه الحال في كتاب الصمدى : فض الختام عن التورية والاستخدام ، وإنما مجرد مجموعة من الأشعار التي تحتوى تورية . وهذا اللون من البلاغة أربى على غايته في هذا العصر . وثمة =

مسجوع ، للتمييز بين أعداء العشاق : الرقيب والواشي والعاذل ، مخطوطة هذه الرسالة في باريس ، تلى نص مخطوطة الكتاب رقم ٥٧٤٩ ، الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة ، وسبق أن نشرت هذه الرسالة ، وترجمتها إلى اللغة الإسبانية ، في مجلة الأندلس ، المجلد ١٨ ، عام ١٩٥٤ ، والصفحات ١ - ١٦ .

○ مؤلفات لغوية :

إيراد اللآل ، من إنشاد الضوال ، وإرشاد السؤل . وهو كتاب اختصر فيه الدراسات اللغوية التي قام بها قبله الزبيدي ، أبو بكر محمد الحسن ، وابن مكى الصقلي ، وشرحها محمد بن أحمد بن هشام السبتي ، ونظمها محمد بن هاني اللخمي السبتي ، وقد طبعها وشرحها كولان في مجلة هيسبيريس ، المجلد الثاني عشر ، ١٩٣١ ، ص ١ - ٣٢ ، ونشرها ثانية أخيراً الدكتور إبراهيم السمرائي في بغداد ، في كتابه : « نصوص ودراسات عربية وأفريقية » * .

ويذكر أحمد بابا التنبكي ، في كتابه نيل الابتهاج كتابا آخر لابن خاتمة في النحو ، أعطانا اسمه ، وهو : إلحاق العقل بالحس في الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس ، ولكننا لا نعرف عنه شيئاً .

○ مخطوطات الديوان :

عندما بدأت عملي لأقدم رسالتي للدكتورة ، لم يكن بين يدي غير مخطوطة وحيدة

= مؤلف معاصر لابن خاتمة هو : إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم النعمري ، أبو القاسم ، من غرناطة ويعرف بابن الحاج ، وألف كتابا بعنوان : مثال القوانين في التوربة والاستخدام والتضمين ، طبعا لابن الخطيب في كتابه الاحاطة ، ج ١ ، ص ٣٥٥ ، والمقرى في نفع الطب ، ج ٩ ص ٣١٥ . ويذكر الزركلي في كتابه الأعلام كتابا أخرى للنعمري ، وليس من بينها هذا الكتاب ، ج ١ ص ٣٢ . « الواقع أن ما نشره كولان . وما أعاد نشره الدكتور إبراهيم السمرائي ، هو تلخيص كتاب ابن خاتمة ، قام به شخص مجهول ، أما كتاب ابن خاتمة نفسه فلما ينشر ، ويملك كاتب هذه السطور مخطوطتين مختلفتين للنص الأصلي ، يقوم بالمعارضة بينها ، لتحقيق الكتاب ونشره . (المترجم)

معروفة لديوان ابن خاتمة ، توجد في مكتبة دير الإسكوريال ، وتحمل رقم ٣٨١ في فهرس ديرنبورج ، ولم أكن أعرف يومها أنه توجد له مخطوطة ثانية في أى مكان آخر. وخلال المهرجان الثقافى الإشبانى الإسلامى الذى عقد فى مدينة بلنسية ، فى ديسمبر من عام ١٩٦٥ ، أتيت لى الفرصة أن أعرف العالم المغربى السيد - محمد بن شريفة ، الذى تكرم فأنبأنى بأنه توجد فى الخزانة العامة بالرباط نسخة أخرى من ديوان ابن خاتمة ، لما تضم إلى فهارسها. وبفضل معاونته ، وأمين الخزانة العامة ، السيد - عبد الله الرقراقى ، استطعت أن أحصل على صورة « ميكروفيلم » من هذه المخطوطة ، وأن أعرضها بمخطوطة الإسكوريال قبل أن أبدأ فى نشر الديوان .

فلننظر الآن إلى مميزات كل واحدة من المخطوطتين : مخطوطة الإسكوريال ذات قيمة لا تقدر ، لأنها فيما يصفها ديرنبورج ، فى الجزء الأول من فهرسه ص ٢٥١ ، بخط الشاعر نفسه . والحق أن عنوان الكتاب ينبىء بشيء من هذا فهو : « من شعر كاتبه عبد الله أحمد بن على بن محمد بن خاتمة ، لطف الله به » . ولا يوجد اسم لناسخ فى أى مكان آخر من الديوان ، كما هو الحال فى معظم المخطوطات التى نسخها غير مؤلفيها ، وأخيراً فإن المؤلف يختم مجموعته الشعرية بهذه الكلمات :

« انتهى التقييد ، والحمد لله حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، مولانا محمد المصطفى ، وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وعلى يدى ناظمه عبد الله المستغفر لذنبه : أحمد بن على بن محمد بن خاتمة ، لطف الله تعالى به ووفقه ، وذلك بمدينة ألمرية ، حاطها الله تعالى ، بتاريخ أخريات سنة ثمان وثلاثين وسبعائة » . كل ما معنا إذن يشير إلى أن ابن خاتمة نفسه ، هو الذى سطر صفحات ديوانه ، الذى توجد مخطوطته فى مكتبة الإسكوريال .

ويقول ديرنبورج فى الوصف الذى قدمه للديوان ، إننا بصدد كتاب يعود إلى أيام شببية ابن خاتمة ، لأن هذا ولد فى المرية عام ٧٢٤ هـ - ١٣٢٣ م ، وهى معلومة اعتمد فيها على جيانجوس فى ترجمته لنفح الطيب ، ج ١ ص ٣٥٩ . وسبق أن تحدثنا عن الخطأ

الذى وقع فيه بعض الذين ترجموا للشاعر ، حين خلطوا بين مولده ، وتاريخ أخيه محمد ، كما أشار إلى هذا ب . مرتينيث أنتونيا^(٤٢) .

وتتكون مخطوطة الإسكوريال من ٦٠ ورقة ، وفي الصفحة ١٦ سطراً ، في خط مغربي كُتِبَ في عناية وجمال ، وفي حالة جيدة بعامة ، باستثناء الجانب الأعلى من الصفحات ، والسطران الأولان منها استهلكا في العادة تماماً ، في الجزء الداخلى منها ، وكان من الضروري إعادة بناء الكلمات والجمل في كثير من الحالات . ويجب أن أشكر الباحث المصرى ، العالم الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى على مساعدته القيمة في إعادة البناء هذه ، وفي تفسير بعض الكلمات ، خلال إقامتى في الإسكوريال . وهذه المخطوطة مضبوطة بالشكل كلها تقريباً ، وعندما نسختها احتفظت بالشكل على نحو ما كتبه المؤلف نفسه ، ولا بد أن النص روجع بمحضره أيضاً ، ففي مرات عديدة نجد على الهامش : بلغت القراءة والسماع .

ومن المهم أن نأخذ في الحسبان طريقة التشديد التى تستخدم في المخطوطة ، فإلى جانب حذف السكون من اللام في أداة التعريف حين تسبق الحروف الشمسية ، والاستعاضة عنها بالتشديد ، يحافظ ابن خاتمة على إدغام النون حين تسبق حروف اللام ، والميم ، والواو ، والباء ، ويحدث الشيء نفسه في الكلمات ذات التنوين . وهكذا نجد في الموشحة الرابعة ، في البيت الثانى ، من أغصان الدور الأول : « مرّائق الزهر » ، وفي الموشحة الثانية ، في الدور الخامس البيت الثانى من الأغصان نجد : « صب متيم » ، وفي الموشحة الثانية ، الدور الرابع ، البيت الثانى من الأغصان نجد : « عودّه » بدل « عن وده » ، ونجد في القسم الأول ، في القصيدة الرابعة ، البيت الأول : « يامغيث » بدل « يامن يغيث » ، وغيرها . والشيء نفسه يحدث مع الأصوات اللثوية ، سواء خرجت من أول اللسان أو من بين الثنايا ، مثل ما نجد في الموشحة العاشرة ، في البيت الثالث من المركز : « قَتَجَلَى » بدل « قد تجلى » .

ولمعرفة قواعد الكتابة ، وظاهرة الإدغام في القرآن الكريم ، يمكن العودة إلى كتاب :

(٤٢) ابن خاتمة المرقى ، ورسالته عن الطاعود . نخلة الدين والثقافة . أكتوبر ١٩٢٨ ، ص ٦٨ - ٩٠ .

« دراسة في فقه اللغة العربية Traite de Philologie Arabe » لمؤلفه هـ. فليش ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٨٤ - ٨٥ - ٨٥ و ١٣٩ وما بعدها . وأيضاً : « بحث في الأصوات العربية Cours de Phonetique » لمؤلفه ج كانتنو ، ونشر في باريس عام ١٨٦٠ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

ومخطوطة الديوان التي في مكتبة الإسكوريال في مجلد وحدها وتجليدها فخيم . أما مخطوطة الرباط ، ولم أر منها غير « الميكرو فيلم » ومصورها ، فتحمل رقم ٢٦٩ ك ، فهرس الخزانة العامة ، طبقاً لما أعلمني به السيد الرقراق ، وأجهل ما إذا كانت في مجلد مستقل ، أو في مجموع تكون جانباً منه ، مع مخطوطات أخرى ، ولو أن ترقيم الصفحات يشير إلى أنها في مجلد مشترك مع غيرها لأن صفحاتها تحمل الأرقام من ٢٨٦ إلى ٣٩٧ ، ويبدو أن الصفحة الأخيرة من « الميكرو فيلم » آخر صفحة في المجلد أيضاً ، لأن عليها تقييدات تضم أبياتاً لشعراء مختلفين ، بينها للممتبي ، وتنتهي بمصطلحات أعجمية للأشهر ، وكما ترى لا صلة لذلك كله بديوان ابن خاتمة .

وكتابة المخطوطة واضحة ، وخطها مغربي ، وينقصها الضبط بالشكل ، وكل صفحة تجيء وسط إطار من خطين .

والمخطوطة في حالة جيدة ، وأتاح لي هذا أن أقوم بمعارضة مستأنية بينها وبين النسخة الأخرى ، فتبينت الكلمات المطموسة ، وصححت الكلمات الخاطئة ، وتأكدت من القراءة المشكوك فيها مما يوجد في مخطوطة الإسكوريال التي عرضت لها من قبل . ومخطوطة الرباط شبيهة تماماً بمخطوطة الإسكوريال ، وتبدو صورة دقيقة من النسخة التي كتبها المؤلف . والاختلافات التي وقعت عليها سجلتها في هامش النص العربي ، وتعود في أحيان كثيرة إلى أن الناسخ لم يستطع أن يتبين كلمة مطموسة أو غير واضحة في مخطوطة الإسكوريال . وتوجد هذه الاختلافات في بعض الموشحات بخاصة ربما لأن الناسخ لم يستطع أن يفهمها جيداً . ومخطوطة الرباط على الرغم من أنها في حالة جيدة ، حفظاً ووضوحاً ، أدنى مرتبة من مخطوطة الإسكوريال ، لأنها لا تعدو أن تكون نسخة من الأصل ، ومن ثم تتناثر فيها بعض الأخطاء .

والفقرة التي ينتهى بها الديوان ليست كاملة ، تنقصها الجملة التي يقول فيها ابن خاتمة إنه جمع ديوانه في ألمرية عام ٧٣٨ هـ ، ونقرأ بدلا منها : « رسوله وآله وصحبه وسلم . يوم الأحد ، الخامس والعشرين من ربيع النبوى ، سنة أربع وتسعين وتسعمئة . (٩٩٤ هـ - ١٥٨٦ م) »

ولا تحتوى اسم الناسخ ، والمخطوطة - كما نرى - ليست إلا نسخة نقلت بعد قرنين ونصف من الزمان على جَمْع الديوان . ولا نعرف من خطها ، ولا أين ، ولا لمن ، ومهما يكن فإن العناية التي رافقتها تومىء إلى الشهرة التي نالها شاعرنا بين مسلمى شمال إفريقيا ، وأنها استمرت قرناً كاملاً من الزمان بعد انتهاء « حرب الاسترداد » في شبه الجزيرة ، والاختلاف بين المخطوطتين أشرت إليه في نسختي العربية من الديوان .

○ محتوى الديوان :

يبدأ الديوان بمقدمة مسجوعة ، نموذج في أسلوبها ، وفيها يزهو المؤلف بمعارفه اللغوية ، وتراء معجمه ، ورقة استعاراته ، وتكون جملة غير متناسقة في ألوانها البلاغية ، ومن الصعب ترجمتها إلى لغة أخرى . ولكثرة صورها ، وعذوبتها الحقيقية لا يمكن أن تتجاوز اللغة التي كتبت فيها .

ويشير المؤلف في المقدمة إلى أنه جمع الديوان استجابة لرجاء صديق طلب منه هذا ، ولم يذكر لنا اسم الصديق ، وفكرت في البدء أن الأمر يمكن أن يكون مركباً من تلك المراكب التي يستخدمها أشباه الشعراء أحياناً ، ولكنى وجدت خبراً في كتاب آخر للمؤلف نفسه ، توجد مخطوطته في الإسكوريال^(٤٣) أيضاً ، أكد لي أن هذا الديوان كان هدية حقاً إلى صديق لابن خاتمة ، ونستطيع الآن تحديد هويته ، والخبر في هذه المخطوطة يقول^(٤٤) .

(٤٣) فهرس ديربورج ، رقم ٤١٩ ، الورقة ٤ ب ، وهو كتاب رائق التحلية .

(٤٤) أى مخطوطة « كتاب رائق التحلية في فائق التورية » ، وعن هذه المخطوطة انظر مقالى الذى نشر في « دراسات مستشرية

مهدة إلى ليني برؤفسمال » ، باريس ١٩٦٢ ، ص ٥٤٣ - ٥٥٧ .

«كتب إلى الفقيه الأجل ، رئيس الكتاب ، صاحب القلم الأعلى بالديوان السلطاني بالمغرب ، أبو القاسم ، عبد الله بن رضوان»^(٤٥) ، وهو يومئذ بالمرية ، يستدعى ديوان نظمي ، ووجه بها مع رجل ممن تقلد حفاظة الديوان الاشتغالي^(٤٦) ، مورياً بذلك^(٤٧) :

ديوانُ نظمكَ مطلبِي فامنحْ به لأرى انتظامَ الحسنِ بالإحسانِ
ولقد علمتُ بأن قصيدَكَ حفظُهُ فبعثتُ نحوكَ حافظَ الديوانِ
وعلى هذه الأبيات رد ابن خاتمة بأبيات مثلها ، أرسلها صحبة الديوان الذي سلمه إلى الرسول :

يامهدياً ريحانتين أنالتا بصرى وسمعى بهجةً ولساني
مستدعياً نظمي وما نظمي لما يبدى ولو أني بديعُ زماني
إن كنت قد أهديتها روحاً فلا عجبُ جنانُ جاء من رضوان^(٤٨)
ومن الواضح أن الصديق الذي توجه إليه ابن خاتمة بقصائده كان كاتباً لأبي عنان ، وهو مالتى الأصل . ويتردد على الأندلس بكثرة ، وتربطه صداقة وطيدة بكبار الأدباء في بلاط غرناطة .
وأخيراً ، بعد أن عبر عن خوفه مما قد يكون في ديوانه من نقص ، أشار إلى الأقسام التي كسره عليها ، وهي :

(٤٥) أبو القاسم عبد الله بن رضوان ، المتوفى ٧٨٠ هـ ، أديب مالتى ممتاز ، وفقه من مألقة ، درس في تونس ، وتولى وظائف هامة في بلاط بني مرين ، انظر :

- المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٨ ، ص ٢١٤ - ٢١٩ - وأزهار الرياض ، ج ٢ ص ٣٤٥ ، وج ٣ ص ١٩٦ .
- ابن خلدون ، التعريف برحلته ، طبع ابن تاووت ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢٢ - ٥٥ والمقدمة ، ترجمة دى سنان إلى الفرنسية ، باريس ١٨٦٢ ، ج ١ ص ٢٦ .

(٤٦) الديوان الاشتغالي كما يقول دوزي في ملحقه للمعاجم العربية ، شيء يشبه الإدارة المالية .
(٤٧) التورية في كلمة حافظ ، يشير إلى المهمة التي يتولاها الرسول من جانب ، وإلى معنى من يحفظ من جانب آخر ، والأبيات من بحر الكامل .

- (٤٨) التورية في آخر كلمة «رضوان» . لأنها تشير إلى اسم الرسول ، واسم الملاك حارس الجنة .
- ترجمت الباحثة الفاضلة الدكتورة سوليداد «بديع زماني» إلى اللغة الأسبانية بمعنى «فريد عصره extra ordinario en mi tiempo» وهي ترجمة صحيحة ودقيقة ، لكنها تحتاج أيضاً إلى إشارة ، لأن ابن خاتمة يوري بها إلى «بديع الزمان» ، الكاتب والشاعر الشهير . (المترجم)

○ القسم الأول : في المدح والثناء ، وما ينتظم في سلوكه من التنبيه على مواقع الجود والنعماء .

○ القسم الثاني : في النسيب والغزل .

○ القسم الثالث : في الملح والفكاهات .

○ القسم الرابع : في الوصايا والحكم .

وأخيراً يقول : « وختمتها ببذرة من التوشيح ، الذي له في مضمار الأدب المجال الفسيح » .

ويتكون الديوان في جملة من ١٩٣ قطعة ، بين قصيدة ومقطوعة ، تضم ١٠٣٥ بيتاً من الشعر .

يتكون القسم الأول منها وهو في « المدح والثناء » من تسع قصائد ، وموضوعاتها دينية كلها ، ولا نجد بينها أية قصيدة تتصل بالسياسة ، أو مدح الملوك والعظماء على أيامه ، وإنما جاءت كلها في شكر الله ومدح الرسول . وإذا كان مدح الأقوياء ، والإشادة بآثرهم ، كان لها نصيب من الصدق أم لا ، أمراً شائعاً بين شعراء العرب في المشرق والمغرب ، فإن ابن خاتمة أراد قاصداً فيما يبدو أن يفلت من هذا الواجب . وليس هذا وقفاً على الديوان فحسب ، وإنما في قصائده المتناثرة بين المصادر الأخرى غير الديوان ، لا نجد أيضاً شيئاً يتصل بهذا الغرض . كيف استطاع ابن خاتمة أن يظل على هامش التيار العام ، على حين ألقت بنفسها بين طوفانه كبرى شخصيات العصر ، وكانت تربطه صلة صداقة وطيدة بالوزير لسان الدين بن الخطيب ؟ . لا نعرف لذلك جواباً دقيقاً ، ومع غيبة الأخبار عن تدخله في السياسة ، وابتعاده عن المناصب العامة ، على الرغم من المكانة التي كان يتمتع بها ، تجعلنا نرجع أنه تجاوز المطامح التي من هذا اللون ، وآثر أن يظل بمنأى عن كل ما هو بعيد عن الحياة الثقافية .

هذه القصائد التسع كلها مطولة ، وموضوعاتها دينية ، على نحو ما أشرنا ، وفيها يتجه الشاعر بشكره إلى الله ، ويمدح الرسول وصحابته ، ويكثر من الإشارة إلى الحج والأماكن المقدسة ، ونعلى الرسول . وهي موضوعات مطروقة كلها . وترد عند كثير من الشعراء في

مختلف العصور ، وبين معاصريه أيضًا نجد مثل هذه القصائد ، نجدها في أشعار ابن الخطيب^(٤٩) ، وابن زهر^(٥٠) ، وأبي البركات البليقي^(٥١) ، وغيرهم .

وكثير من أبيات هذه القصائد غامض ، وتعسر ترجمته ، بسبب لغته الصوفية والمجازية ، ومع أن كثيرين من معاصريه ، على نحو ما قلنا ، نظموا أشعارًا من هذا الطراز ، فقد لحظت أن شيخه أبا البركات البليقي كان أكثرهم تأثيرًا فيه . ومن المحتمل جدًا أن نجد عند كليهما ، الشيخ والطالب ، صدى أفكار الصوفي المرنى الشهير ابن العريف ، ولعلها ، كليهما ، كانا من أتباعه ، يسلكان طريقه ، ويتبعان مذهبه ، وقد حفظت لنا المصادر عنه قصائد مطولة في شكر الله ومدح نبيه^(٥٢) . ونجد في بعض قصائد ابن خاتمة الصوفية أبياتًا عذبة الجمال ، وأحيانًا ذات شبه كبير بقصائد الشاعر الصوفي المصري ابن الفارض^(٥٣) ، وعاش في القرن السابق على ابن خاتمة . وإلى جانب هذه الأبيات نجد أخرى أقل حظًا ، وأحيانًا تصبح قراءتها عبثًا ثقيلًا باهظًا .

وتأمل الطبيعة يحمل ابن خاتمة على أن يتغنى بنعم الله التي تتجلى من خلالها ، الطير تشدو على عرائس الأشجار ، والأوراق والأغصان تتجه إلى السماء ، وأشجار النيلوفر قبضت كفها خائفة ، وبسط السوسان يمناه راجيًا ، والزنابق تفتحت شواهد على نعم الله ، والبطاح كلها أبدع رسمها ناطقة بفضلها^(٥٤) ، وكل ما تلقى على البسيطة يدعونا إلى التأمل ، يقول في إحدى قصائده^(٥٥) :

فما خطباء العرب أفصح واعظًا من الطير يشدو لوفهمت المعاني

(٤٩) نفع الطيب ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ .

(٥٠) المصدر السابق نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٤٠ - ٤ .

(٥١) الإحاطة ، طبعة عنان ، ج ٢ ، ص ١١٠ ، القاهرة . وعن أشعار أبي البركات ، انظر مقال : أبو البركات البليقي ، في مجلة الأندلس ، المجلد ٢٨ ، ص ٤١٦ .

(٥٢) نفع الطيب ، ج ١٠ ، ص ٣٤٤ . وعن ابن العريف ، انظر : أسين بلانيوس ، ابن العريف وكتابه محاسن المجالس ، النص العربي وتعليق عليه ، باريس ١٩٣٣ .

(٥٣) عن ابن الفارض انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الرابع ، ص ٧٨٦ .

(٥٤) القسم الأول ، القصائد رقم ١ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ .

(٥٥) القسم الأول ، القصيدة رقم ١ .

ولا صفحات الهند أردعُ زاجرًا من البرق يبدو لو علمت النواها
ولا لطفُ الاحسان أحسن موقعًا من النور يذكو لو عرفت الأياديا
وأحيانًا يبكي ذلا وخوفًا وإشفاقًا وندمًا ، على مساوئ وخطايا زلت بها قدمه ، كما
فعل ابن الفارض من قبل ، ويشبه اللطف الإلهي بالخمر :

مشمولة نسجتها للشمال يدُ وأطفئها أكف اللطف في القدم
فألها غير روح الروح من قدح ولا لها غير سر السر من قدم
بيننا تُرى في أكف الشارين طلاً إذ تستحيل شعاعًا في حدودهم^(٥٦)

وقد فاض قلبه بحب الله ، فلا مكان لغيره فيه :

هياتَ عندي جوى لوفض بإبرة منه على الشهبِ ما دارت به الشهب^(٥٧)
وتبقى معنا دائماً ، ونحن نعرض للشعر العربي ، مشكلة الصدق ، مهما كان الموضوع
الذي تدور القصيدة حوله ، وهى مشكلة لما تحمل ، ولكن تدئين ابن خاتمة في حالتنا
هذه ، يبدو أنه يصدر عن قلب عاشق حقاً . ويمكن أن نقول مرة أخرى إنه الجو الصوفي
التقليدى الذى لف مدينة ألمرية ، قد تسرب إلى شعرائها في كل العصور .

وآخر قصيدتين في هذا القسم من التسميط ، والأولى منهما ، أو الثامنة في ترتيب
القسم إن شئت ، تخميس لقصيدة صوفى مشرقى شهير . هو الشيخ شهاب الدين أبى
عبد الله بن الخيمى ، المتوفى ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م ، وكان معاصراً لابن الفارض ، وأورد
قصيدته هذه ابن القاضى فى كتابه درة الحجال^(٥٨) ، ولها تاريخ مثير أشار إليه ابن
القاضى ، نقلاً عن ابن رُشيد ، ذلك أن ابن الخيمى ، كتب هذه الأبيات فى شببته ، ثم
تركها دون أن يتمها ، وقف عند البيت :

يا بارقاً بأعلى الرقتين بدأ لقد حكيت ولكن فائك السبب
ثم وضعها فى شق من جدار البيت الذى كان يسكنه ، ونسيها بعد ذلك ، ومضى

(٥٦) القسم الأول ، القصيدة رقم ٣ .

(٥٧) القسم الأول ، القصيدة السابعة .

(٥٨) المجلد الأول . ص ١٥٤ ، الترجمة رقم ٤٦٦ .

الزمن ، ثم جاء إلى الدار نفسها وسكنها أديب آخر : أبو المعالي نجم الدين بن إسرائيل محمد بن سوار الدمشقي ، المتوفى عام ٦٧٧ هـ = ١٢٧٨ م ، فأخذها وادعاها لنفسه ، وأنشدها جماعة من الرفاق كانوا يلتقون مع الصوفي الشهير ابن الفارض ، وبينهم ابن الخيمي ، الذي تمسك بأن القصيدة له عندما سمعها ، وحل المشكلة سألها ابن الفارض أن يكملها ، فلم يستطع ذلك إلا ابن الخيمي ، أكملها وجمع كل شطر من بيت إلى رصيفه في دقة ، ومنذ تلك اللحظة أصبح نجم الدين بن إسرائيل الدمشقي موضع السخرية ، أما شطر البيت : « لقد حكيت ولكن ... » فقد دخل التاريخ مثلاً .

ونجد هذه القصيدة أيضاً في المخطوطة رقم ٢٦٨ ، الورقة ١٣ ، في مكتبة مدريد الوطنية ، غير أنها تظهر في الفهرس بطريقة خاطئة ، وليس ثمة شك في أن اسم الشاعر المشرق فهم خطأ ، واستنتج جين روبلس Guillén Robles الذي وضع الفهرس أنه عمر الخيام ، وظهر التعريف بها في الفهرس على النحو التالي : « قصيدة معادلات لعمر بن إبراهيم الخيامي (رياضي وفلكي ومؤلف بعض الألواح الفلكية للتنجيم) . وهذه القصيدة خمسها أبو جعفر أحمد بن خاتمة الأنصاري » . وكما نرى ليست هناك قصيدة معادلات ، ولا صلة لها بالرياضيات ، وإنما هو مجرد تخمين قام به ابن خاتمة لتلك القصيدة المشهورة . والاختلاف بين النص الوارد في هذه المخطوطة والوارد في الديوان أشرنا إليه في مكانه من التحقيق ، ومثلها الخلاف في النص بين ما ورد في الديوان وفي درة الحجال . والقصيدة الأخيرة في هذا القسم مسطرة أيضاً ، ولكن ابن خاتمة لم يشر إلى اسم صاحبها ، ولم أستطع أنا الاهتداء إليه .

وكلتا قصيدتي ابن خاتمة ، فيما أرى ، متكلفة ، وتغلب عليهما الصناعة . أما القسم الثاني وأعطاه عنواناً : في النسيب والغزل ، فيضم تسعة وأربعين قصيدة ورتبها على حسب طولها ، الأطول فالأقل طولاً ، وبالرغم من العنوان الذي أعطاه لها ، يمكن القول أنها جاءت في الوصف أكثر مما هي في الغزل ، وأنها يمكن أن تؤلف جانباً من الغرض الذي اصطلح على تسميته بالوصف ، وفي رأيي فإن هذا القسم يجمع بين أقل القصائد جودة عند شاعرنا . وعبثاً نفتش خلالها عن آثار حب حقيقي أو تعبير عن ألم

صديق ، وإنما نجد ترديداً مكروراً ، حتى التخمّة ، للتعبيرات المطروقة ، كما لو أن الشاعر وهو ينظمها قد وقف جهده على ملء خانات مكلف بها .

وأحياناً يبرق اسم امرأة بين آونة وأخرى ، مثل : بنت المنصف ، أم العزيز ، مهجة^(٥٩) ، غير أنها فيما يبدو لي مجرد أسماء اختارها ليتلاعب بها في ذكاء ، أكثر منها أسماء لشخصيات وجدت فعلاً .

والوصف ، كما قلت ، هو ما يهتم به الشاعر أكثر من غيره ، سائراً على خطى شعراء بغداد « المحدثين » ، ويبدو أنه يهتم بالشكل أكثر مما يعنى بالمضمون .

وفي استعاراته وتشبيهاته يسير أحياناً على غير الطريقة التي سار عليها الشعراء قبله . فإذا كانت القاعدة العامة في التشبيه أن تشبّه الأدنى بالأعلى ، أو المجهول بالمعروف ، فنقول ثغر كالأقحوانة ، وأسنان كالماس ، وقد كفصن البان ، فابن خاتمة في بعض استعاراته يعكس الأمر ، فيجعل من المستعار له حقيقة ، ومن الحقيقة مستعاراً :

فاعتنتُ القضيْبَ منها قَواماً وارْتَشَفْتُ الرَحيقَ منها رُضاباً^(٦٠)

وفي هذا القسم نجد أيضاً إشارات إلى الحب العذري ، يقول :

كم قَتِيلٍ من عُدرةٍ وطَعِينٍ بين بِيضِ الطَلِي وسُوسِ العَيونِ
في حروبِها الكِماءُ ظُبَاءُ السُّخْدَرِ والشَّهْداءُ أَسْدُ العَرِينِ^(٦١)

والقصيدة الأخيرة في هذا القسم تسميط ، ولكن ابن خاتمة لا يشير إلى الشاعر الأصلي الذي نظم القصيدة ، واكتفى بأن يقول إنها « قطعة لأحد المشارقة » ، دون أن يسميه .

والقسم الثالث ، وأعطاه عنواناً : الملح والفكاهات ، هو والموشحات أهم ما في الديوان . ولهذا القسم فيما أرى أهمية خاصة ، لأنه يعكس لنا في وضوح الذوق الأدبي في الأندلس في القرن الرابع عشر الميلادي ، ونلمس منه الاهتمام البالغ ، والإصرار العنيد ،

(٥٩) القصائد رقم ٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .

(٦٠) القصيدة رقم ٢٩ من القسم الثاني .

(٦١) القصيدة رقم ٢٦ ، وعن الحب العذري انظر أيضاً ، في قسم الموشحات ، الأرقام ٧ ، ١٨ .

على استخدام الصور البلاغية المعقدة ، وفي هذا الميدان وجد ابن خاتمة مجاله عريضاً واسعاً ، وأخذ يحفظه منه حراً طليقاً ، وأظهر قدرته وتمكنه الكامل من فنه . على نحو لم يبلغه الشعراء الآخرون . كما سنرى فيما بعد .

يبدأ القسم بقصيدة عن « محاسن الشتاء وماله من الفضل على كل فصل » ، ويدعوه « سلطان الفصول » . وهي ذات قيمة كبيرة في مجال الوصف . واحدى قصائد قليلة تمدح هذا الفصل ، وجوه المتقلب البارد الممطر .

والقصيدة الثانية . وهي طويلة إلى حد ما ، إذ تبلغ ٢٧ بيتاً . تصف حفلة أقيمت في الأيام الأخيرة من شهر شعبان . ويدعوها « شعبانية » ، والأخبار التي وجدتها فيما يتعلق بمثل هذه الحفلات التي يطلق عليها اسم « شعبانية » قليلة ، وفيما يبدو كانت تتم في أبهة فخيمة وإبتهاج شعبي : يقول أ . ج . ونسينك في المقال الذي كتبه عن شهر شعبان في دائرة المعارف الإسلامية ، إن المسلمين يوقرون هذا الشهر من بين شهور العام ، ويدعونه « المعظم » ، وتقام فيه الصلوات ، وتعقد المجالس الدينية ، والحلقات والأذكار ، وبخاصة في يومي ١٤ و ١٥ منه . وفي بعض بلاد العالم العربي يبدو أنها تشمل آخره أيضاً ، احتفالاً بتوديع حياة البهجة ، والإقبال على طيبات الطعام قبل البدء في صوم رمضان . وفيما يتصل بالأخبار المتعلقة بهذه الحفلات في الأندلس وشمال إفريقيا ، لدينا ما قدمه لنا ليفي بروفنسال^(٦٢) متصلاً بتخفيف العقوبات ، والحفلات الدينية التي كانت تقام قبل أن يجيء رمضان بخمسة عشر يوماً ، ولكنها لا تشير إلى الأيام الأخيرة من شعبان . والشئ نفسه حدث مع ابن عبدون^(٦٣) ، فهو لا يعرض لنا في رسالته القضاء والحسبة كيف كان المسلمون في إسبانيا يودعون الأيام الأخيرة من شهر شعبان . ويصف برنوت Brunot في كتابه : « البحر في التقاليد وفي الصناعة عند السكان الأصليين في الرباط وسلا » باريس ١٩٢١ ، ص ٩٨ - ٩٩ . الحفلات التي تعقد في الرباط في آخر

(٦٢) تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ج ٣ ، ص ١٦٠ .

(٦٣) ليفي بروفنسال وغربية غوث : أنشيلبة في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي . رسالة ابن عبدون ، مدريد ١٩٤٨ ،

يوم من شعبان ، بأنها نوع من المهرجانات قبل الدخول في توبة الصيام ، وفي هذه الحفلات التي يشترك فيها كل الناس ، يجتمعون في الحدائق . وينشدون الأشعار . ويعزفون الموسيقى ، ويعبرون النهر ، ويتترهون على ضفافه ، وأيضاً يأكلون حتى التخمة . ولكنه في هذه الحالة يشير إلى يوم بعينه ، وهو آخر الشهر .

ويقول عنه هنري مرسية في كتابه «العربي تصورا L'Arabe par l'image» ، الرابط ١٩٥٥ ، ص ١٨١ - ١٨٩ . إنه يوم يحتفى به كثيراً في المغرب . وكان في الأصل يوماً يحتفى به الطلاب مع شيوخهم . وشخصيات أخرى محدودة العدد . فيجتمعون في روضة خاصة . حيث يستمتعون بكل المباحج خلال أيام لم يحدد عددها . قبل أن يبدأ شهر رمضان .

ولكن ابن خاتمة يبدأ قصيدته التي قدم لها بأنها : « في وصف شعبانية سنية . في روض مريع ، أتى عليها عنفوان الربيع » ، بيت يقول فيه : « أربعة أيام من الدهر حسبه بها من جملة العمر » . مما يوحي . فيما يبدو ، على الأقل في العصر الذي عاش فيه . بأن هذا الحفل كان يستمر أربعة أيام . وبالتأكيد توجد في المصادر العربية إشارات إلى هذه الأيام ، ومن المفيد أن نجمع هذه النصوص . لقد وجدت إشارة إلى ذلك في كتاب المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبار ، واختصره أبو إسحاق ، محمد بن إبراهيم البليقي^(٦٤)

في الترجمة التي خص بها أبو طاهر . إسماعيل بن مسعود الحشني الجبالي^(٦٥) ، يحكى هذا أنه « حضر مع جماعة من أصحابه ، فيهم أبو عبد الله بن زرقون ، منتزهاً في بعض الأعوام ، وفي عقب شعبان منه « فلما تملقوا بالطعام ، قال أبو الطاهر لابن زرقون : أجز يا أبا عبد الله . فقال :

حمدت لشعبان المبارك شبةً تسهل عندى الجوع في رمضان
كما حمد الصبّ المتيم زورةً تحمّل فيها الهجر طول زمان

(٦٤) طبعة إبراهيم الأبياري . القاهرة ١٩٥٧ .

(٦٥) المصدر السابق . ص ٢٢ وانظر أيضاً : معج الطيب . ج ٦ ص ٥٦ ، ج ٥ ص ٢٩٢ .

فقال أبو الطاهر :

دعوها بشعبانية ولو أنهم دعوها بشعبانية لشفاني (٦٦)
وفي قصائد الديوان الباقية نجد كثيراً من وصف الزهور ، وفيها يسير ابن خاتمة على
هدى مدرسة شرق الأندلس ، التي عبّد سبيلها كل من ابن خفاجة وابن الزقاق . ويشير
دائماً إلى تبادل بواكير الزهور بينه وبين أصدقائه الذين يرسلونها إليه دائماً رفقة أبيات من
الشعر (٦٧)

ومن أجمل أشعار هذا اللون ، المقطوعة الحادية عشرة ، وأرسلها إلى صديق له مع
باكورة ورد أحمر ، وفيها يقول :

حيثك بكرّ من بنات الروض أعجلها ابتكارُ
طلعت لغير أوانها فلذاك ما اصفر البهار
جاءتك منبئة بلقّب لال الربيع لها ابتدار
محفوفة بالآس منه على محاسنها خمارُ
فكأنما ما بينه خدّ أحاط به عذار

وثمة عدد من المقطوعات وقفها على « الخيري » ، وهي زهرة تعبق بأريجها ليلاً ،
بسبب حياؤها ، فيغشى حقول الكتان كالبحر ، والحدائق ، والحفلات ، وقر رمضان .
ولكن أوضح ما في هذا القسم ، وفي النصف الثاني منه إن شئت الدقة . أن الرغبة في
استعراض معارفه البلاغية ، فيما يبدو ، تسيطر عليه باستمرار ، من الاستعارات الغريبة ،
والجمل المسجوعة داخلياً ، واستخدام التصريح والتجنيس . وكل ذلك ، وهو ذكي
ومعقد في فن كتابة الشعر ، كان غاية شاعرنا فيما يبدو .

وبين أشعار هذا القسم تتميز المقطوعة رقم ٢٣ ، ويقول في مقدمته لها : « وفيه من
اللف والنثر ما يندر وقوع مثله في الشعر » . نحن في الحقيقة معه بصدد صناعة بلاغية

(٦٦) الأبيات من بحر الطويل ، وجاء لطف البيت من اللعب بالألفاظ بين شعبان وشعبان .

(٦٧) هكذا يمكن أن نجد ذلك في القطع أرقام : ٣ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

تستخدم في نظم الأشعار المتسلسلة والمتراطة ، وقد درسها الأستاذ دامسو ألوونسو Dàmaso Alonso . وتوجد لها أمثلة وفيرة في كل الآداب الأوربية ، وبخاصة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . وقد ضمّن دامسو ألوونسو مقاله البالغ الأهمية أمثلة عديدة لهذه الصورة البلاغية ، مأخوذة من الشعر العربي ، وقد ترجمها وعلق عليها إميليو غوسية غومث^(٦٨) . وهو ما يضع أمامنا مشكلة العلاقة بين أقدم القصائد التي تعرف « اللف والنشر » في الأدب السنسكريتي . وعند اللاتين في القرن الثاني عشر الميلادي ، وعند الإيطاليين والفرنسيين والإنجليز والإسبانيين ، في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . واحتمال أن ليس ثمة صلة بين الأدب السنسكريتي والأدب اللاتيني جعل الأستاذ دامسو ألوونسو يرى أن القصيدة العربية نفسها هي التي قامت بدور الناقل أو الوسيط . والمشكلة لما تحل ، ولكن الأمثلة التي قدمها لنا غوسية غومث دليل واضح على استخدام « اللف والنشر » في الشعر العربي على امتداد كل العصور . وهذه الأمثلة تضم أشعاراً لابن حزم القرطبي ، وابن حجب النعمان ، وابن خفاجة ، وحمدة بنت زياد ، وصالح بن شريف الرندي ، ويمكن أن نضيف إليهم ابن خاتمة ، ولو أنه لم يتجاوز الوجدتين في لفظه ونشره . ولكنها تضم عدداً من التشبيهات غير معروف نسبياً . وإذا كانت التشبيهات لا تتجاوز ستة أو سبعة عادة . فلدينا هنا حالة نادرة ، على نحو ما يصرح به الشاعر نفسه . فنحن نلتقي عنده بستة عشر ركناً على الأقل . يقول :

وخاطرة كالظبي ، في خطوها بُعْدُ تكاد أعاليها من اللين تنقُ
تمنيتها في حضرة وسط روضة ينم علينا من خائلها الند
فصدت وقالت : ما لطبعك قد جفا وأى رياض تبغى بعد ما أبدو
وفردوسها والقضب والعرف والندی وأوراقها والورق والكشب والرند
وحضرتها والراح والنقل والغنا ونرجسها والزهر والآس والورد
ثيابي وأعطافي ونشري ونعمتي وقرطبي وحلي والروادف والقند

(٦٨) دامسو ألوونسو فصل في أسلوب العصر الذهبي . اللف والنشر في الشعر ، مدريد ١٩٤٤ ، ص ١٥٢ - ١٥٦ ، وعن هذا الموضوع الهام ودرسه بتوسع انظر كتابه : ستة مرافق في التعبير الأدبي الأساني ، مدريد ، طبعة جريدوس ، ١٩٦٣ .

ووجهي وربقي والنهود ومنطقي ولحظي وثغري والغدائر والحد
إذا لحت لائح الحسن طراً وإن أغب فلا شجن يخفى ولا احسن يبدو
فنحن إذن بصدد جملة كبيرة من التشبيهات ، جاءت على طريقة اللف والنشر في
مجموعتين ، كل واحدة منهما في ستة عشر ركناً ، الأولى تمثل المشبه به ، والثانية تمثل
المشبه ، وجاءت محكمة التركيب في بنائها .

وقد أورد لنا ابن الخطيب ، في مؤلفه الكتيبة الكامنة^(٦٩) ، بعض أبيات الشاعر
إبراهيم القيقاطي ، المتوفى عام ٧٣٠ هـ = ١٣٢٩ ، وكان معاصراً لابن خاتمة ، تضمنت
من صور التشبيه على طريقة اللف والنشر المرتب ثمانية تشبيهات هي :

جبنٌ وشعرٌ ووجهٌ وقدٌ وخدٌ وطرفٌ وربقٌ وثغرٌ
صباحٌ وليلٌ وبدرٌ وغصنٌ ووردٌ وسحرٌ وخمرٌ ودرٌ
ونمضي مع هذا القسم الثالث ، فنجد في المقطوعات رقم ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ ، أمثلة
أخرى مثيرة ، لا تدخل في باب اللف والنشر ، وإنما هي من الصور البديعية التي تعرف
بالتجنيس^(٧٠) ، وهو : « بيان المعاني بأنواع من الكلام يجمعها أصل واحد من اللغة »
وهو قسمان : جناس مزاوجة ، وجناس مناسبة ، وهذا الأخير ألوان كثيرة ، اختار ابن
خاتمة من بينها تجنيس التصريح ، وهو : أن يقع الجناس بين الكلمة الأخيرة من المصراع
الأول والكلمة الأخيرة من المصراع الثاني في البيت ، فيعطيه جمالاً أكثر من الموسيقى
والإيقاع .

والمقطوعة رقم ٢٦ ذات أهمية كبرى ، فيما أرى . إنها تتضمن لونا من الجناس ،
ولكن ابن خاتمة قدّم لها بقوله : « وقال والتزم في قوافيه نوعاً من التجنيس » ، يقوم على
توافق الحرفين الأخيرين من الكلمة قبل الأخيرة من البيت ، مع الحرفين الأخيرين في آخر
كلمة فيه ، أو إن شئت مع حرف القافية ، والحرف الذي يسبقه . مثلاً : الوصال صالى .

(٦٩) طبعة دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٤ .

(٧٠) نمة دراسة عامة قام بها ب . دياث مانشو عن التجنيس ، في مجلة « سفراء » ، المجلد ٨ ، ص ٢٣٩ - ٢٢١ والمجلد ٩

للجمال مالى ، خبالو بالى* :

«بحقُّ فضِّلِ الرسولِ سُولىِ برِّدْ بروحِ الوصالِ صالى
سبِّى سنا حُسْنُكُمْ قِوَادى مالى وللجمالِ ، مالى ؟
ياظنِّى هَبْ لى رضاكَ على - أبرأ به من خبالو بالى
أُياستُ فيكَ العدولَ منى ترفُّعا عن مقالِ قالى
هل أقتنى فى الملاحِ لاحِ وأهينى فى العوالِ والى*»

والتشابه واضح بين مانسميه فى الإسبانية «الأشعار ذات الصدى Versos Comeco» وبين هذا اللون من الجناس ، وقد أشرت إلى هذا فى مقالى الذى ظهر فى مجلة الأندلس ، المجلد ٢٣ ، ١٩٦٨ ، ص ٩٥ - ١٢٢ ، بعنوان : «ألوان طريفة من الشعر الأندلسى» .

وقد أشار إميليو غوسية غومث فى المجلد الذى ظهر تكريماً لدامسو ألونسو^(٧١) ، إلى وجود «القافية الصدى» ، أو التجنيس الذى أشار إليه ابن خاتمة ، فى الشعر العربى ، وكان بصدد موشحة للشاعر الوادى آشى أبى الحسن بن نزار الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، وأعتقد أن أبيات ابن خاتمة هذه تجيء مثلاً أزيد على استخدام مثل هذا التجنيس بين الشعراء العرب . ما العلاقة بين الشعر القشتالى الذى تجيء «قافيته صدى» ، وهو كثير فى أدبنا ، واستخدمها شعراء كثيرون فى كل العصور ، مثل : خوان دى لا إنثينا ، ولوبى دى رويدا . وبلتساردى القصر . ولوبى دى ييجا ، وسور خوانة إنيس دى لاكروث ، وروبين داريو وغيرهم . وهذا اللون العربى من الجناس ؟ .

الآيات ليست فى الأصل لأنها لا تغنى مع الترجمة شيئاً . ولكن المثل فى العربة واضح ، ولنا بحث بها كاملة .

(للترجم)

(٧١) دراسات لغوية . المجلد الثانى . مدريد ١٩٦١ ، ص ٧٣ - ٧٩ .

● خوان دى لا إنثينا (١٤٦٩ - ١٥٣٩ م) . شاعر وكاتب مسرحى . وموسيقى ماهر ، يعتبر أب المسرح الأسبانى ، وتطور مسرحياته بعامة حول موضوعات دينية وريفية .

● لوفى دى رويدا (١٥٠٠ - ١٥٦٥ م) : ولد ومات فى أشيلية . وعمل ممثلاً ومؤلّفاً ومدير فرقة ، ولا تزال مسرحيته «سكة الزيتون» تتمتع بشعبية حتى اليوم .

● بلتسار دى القصر (١٥٣٠ - ١٦٠٦ م) : شاعر ذيق من أشيلية ، واشتهر بديوانه «عشاء ساخر» .

من الواضح أن هذه الصناعة ، وهى متكلفة ، وتنقصها العفوية ، تنافى طبيعتنا ، فيما يبدو ، ولكن إذ تأملناها من وجهة نظر أخرى يمكن أن نجد فيها جوانب من الجمال لا يتطرق إليها الشك ، لا يجب أن نبحت عنها فى المضمون ، ولا أن نفكر فى البلاغة ، وإنما يكفى أن نقرأها باللغة العربية فحسب ، وأن ننشدها ، حيث نجد هذا الجمال فى اللغة ، وفى رنة الصوت وفى الإيقاع ، وشبيه بهذا ما يحدث فى كثير من أشعار روبين داريو .

كل قصائد ، أو مقطوعات ، القسم الثالث تقدم فى مجموعها كثيراً من الطرائف والمفاجآت ، فالمقطوعة رقم ٢٧ تجمع من الحلى البلاغية بين « نوع من التجنيس ومعنى من التورية » ، وفيها دليل أزيد ، وهو الخلط بين نطق السين ونطق الصاد فى عربية أهل غرناطة :

وشادنٍ باكرَ الكتابَ محتضناً للوحي ، خاطراً فى صورة القنير
سألته : يا حبيبي ! ما بلوحيك ؟ قل فقال لى : إتنى فى « سورة القمر » !
أما المقطوعة التاسعة والعشرون ، فتقدم تركيباً بالغ الطرافة والإثارة ، فنحن معها بإزاء مقطوعة تتألف من ثلاثة أبيات ، وبعد كل بيت تسع كلمات متشابهات القافية عمودياً ، ومتساويات الإيقاع ، وتصلح كل منها أن تكون قافية للمقطوعة ، فالقافية الأصبلية فى النص هى الراء ، ولكنها يمكن أن تكون العين ، أو الحاء ، أو الباء ، أو الفاء ، أو الدال ، أو القاف ، أو الميم ، أو اللام ، أو النون ، تبعاً للفظ الذى نختار من الكلمات التى تلى كل بيت ، دون أن يضطرب البيت أو القطعة معنى ، أو قافية ، أو وزناً ، وبذلك يمكن أن تنشُد القطعة بعشر قوافٍ مختلفة :

●= لوى دى بيجا (١٥٦٢ - ١٦٣٥) : من كبار شعراء المسرح الأسباني ، بدأ حياته مقامراً ، وانتهى به الأمر راهباً ، وعاش حياة متواضعة ، وكتب مئات المسرحيات .

●سور خوانة (١٦٥١ - ١٦٩٥) : راهبة مكسيكية ، عالية الشعر ، حتى أنها استنحت لقب ، ربة الشعر العاشرة .

●روبن داريو (١٨٦٧ - ١٩١٦) : شاعر وناقد من نيكارجوا ، ابتدع ألواناً من النغم الجبرى ، وكان على رأس مذهب « الحداثة » ، وترك تأثيراً كبيراً فى الأدب المعاصر .

سبعٌ لىَ اليومَ أيا بُغيتى لم يَدُّ لىَ منظرُكَ الأقرُّ
الأبدع ، الأوضح ، الأعجب ، الأظرف ، الأسعد ، المشرق ، الأوسم
الأجمل ، الأحسن .

ماذا الجفاء ، الله فى مغرمٍ أدمعهُ من لوعةٍ تقطُرُ
تهمع ، تسفع ، تسكب ، تذرف ، تنفذ ، تدفق ، تسجم ، تهطل ، تهتن
أَيظهرُ البدرُ على بعدهِ وأنتِ بالقربِ ولا تظهرُ؟
تطلع ، تلمح ، تغرب ، تسعف ، تسعد ، تشرق ، تنعم ، تُفضل ، تُحسن
ثم نلتقى فى هذا القسم بموضوعات ظهور العذار ، وهو يتردد كثيراً فى شعر كل
العصور ، وعند كل الشعراء تقريباً ، وعن غلمان ليسوا فوق مستوى الشبهات ، ولا ينقصه
تخيل الصورة المحبوبة فى الحلم ، والوداع والهجر ، والعيون المراض موضع المدح أيضاً .
والمقطوعات من ٦١ إلى ٦٧ تصف طريقة طريفة فى الكتابة على الورق عن طريق
تفريغ الأحرف بالقطع ، ولمعرفة المزيد عن هذه الطريقة يمكن العودة إلى تعليق لى نشرته
فى مجلة الأندلس ، المجلد ١٤ ، عام ١٩٤٩ ، وإلى تعليقات أخرى تليه فى المجلدات :
١٥ و ١٦ ، وكان الأول منهما من تحرير المجلة ، والثانى بقلم الأستاذ المصرى جمال محرز .
وفيهما يرد كل ما نعرف عن هذه الطريقة فى الكتابة ، وكانت تستخدم فى المشرق والمغرب
على السواء ، خلال القرن الرابع عشر الميلادى ، وحتى فى إسبانيا المسيحية ، فى قصائد
شمطوب دى كريون^(٧٢) ونضيف إلى تلك المعلومات خبراً جديداً عثرت عليه ، وهو

(٧٢) انظر مجلة الأندلس ، المجلد ١٥ ، عام ١٩٥٠ ، ٤٩٨ - ٥٠٠ ، مقال : الرسائل القصصية والرسائل المحشية ، تعليق من
التحرير . ومقال الأستاذ جمال محرز . مزيداً عن الرسائل القصصية ، فى الأندلس ، المجلد ١٦ ، عام ١٩٥١ ، ٢١٩ - ٢٢٣ .
وفىها يتصل برسائل شطوب دى كريون القصصية ، فضلاً عن الأشعار من ٩١ إلى ١٠٠ ، من كتاب الأمثال الأخلاقية الذى
أشار إليه الأستاذ س . م . شترن فى تعريفه بطبعة جونثالث يوبرا ، وظهر فى مجلة ثقفة اللغة الرومانية ، انظر مقالاً لشترن نفسه بعنوان :
قصيدتان عبريتان . فى مجلة سمراد ، المجلد العاشر ، عام ١٩٥٠ ، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ .

ومن قريب نشر الأستاذ الدكتور ديات استيان كتاب : « القلم والمقص » من تأليف سام توب فى مجلة جامعة مدريد ، المجلد ١٨ ،
العدد رقم ٦٩ ، الصفحات ٦١ - ١٠٢ ، وهو مقال هام للغاية ، ويضم معلومات وافرة عن طريقة الكتابة بالمقص هذه .
أيضاً أخبرنى الأستاذ يهودا بى ريهوفور بأنه يمكن على دراسة قصائد سام طوب التى كتبت بهذه الطريقة ، وعن هذه الموضوعات
انظر أيضاً تعليق لى فى مجلة الأندلس ، المجلد ٣٣ ، عام ١٩٦٨ ، ص ٤٧١ - ٤٧٣ ، عن : الكتابة بالمقص فى بعض أشعار
الرساى ، ومقال عن أوتو كورث فى المجلد ٣٨ ، عام ١٩٧٣ ، ص ٢٤٣ .

قصيدة للشاعر البلسنى محمد بن غالب الرصافى ، المتوفى عام ١١٧٧ م ، وهى أقدم مالدينا عن شعراء إسبانيا الإسلامية ، وتوجد فى مخطوطة كتاب ابن عسكر : التكميل والإتمام لكتاى التعريف والإعلام ، ص ٢٦ (٧٣) .

وهذه الطريقة التى تتمثل فى تفرغ الأحرف ، فلا تصبح غير تجويف على الورق ، يمكن أن تستخدم لغايات مختلفة . فابن خاتمة يستعملها فى قصائد الغزل ، والكتابة تشبه المحبوب :

أجل عينيك فى وشى تعاین كتاباً والهواء له مداد
حكائى كاتى فى حالته لنا جسمٌ وليس لنا قواد
أما قصائد شمطوب دى كريون ، (الأمثال . طبعة جونثالث يوبرا ، الأبيات ٩١ - ١٠٠) ، فتجىء لغاية أخرى ، إنها طبقاً لما يقوله المؤلف نفسه ، كتبت على هذا النحو « لأنه لا يجب أن ينفق فيها مداداً » احتقاراً لمن توجه إليه ، ولكن الأسلوب واحد وليس ثمة شك ، أنها كتابة طريفة ، وزخرفة كتابية ، تخضع للعبة الكلمات وأدق التراكيب البلاغية . وفى القرن الرابع عشر الميلادى كتب أيضاً الخطاط المشرق جواد بن سليمان بن غالب اللخمى بطريقة قطع الحروف قصيدة لامية العجم للطغرائى الشهيرة ، وهى فى تسعة وخمسين بيتاً ..

والمقطوعات الثلاث الأخيرة من هذا القسم جاءت ألغازاً ، وهو غرض من الشعر كان يستخدمه شعراء المشرق والمغرب على السواء ، فى كل العصور ، ويصعب على فهمه ، ووقفت بجهدى عند حد نسخه ، فهو الغاز تقوم على تكوينات عديدة ، وعلى الحروف ، وحلها الآن يبعث على الحيرة .

أما القسم الرابع ، وهو فى الوصايا والحكم ، فيضم اثنتين وأربعين مقطوعة ، كلها

(٧٣) عن هذه التراجم المختارة لعلماء مالقة الكبار ، انظر مقال خواكين باليه ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ٣١ ، عام ١٩٦٦ ، ص ٢٤٣ - ٢٦٥ .

كذلك ، على نحو ما هو جارٍ في مثل هذا اللون من شعر الحكمة ، وتوجد له أمثال عديدة بين شعراء إسبانيا الإسلامية في القرن الرابع عشر الميلادي .

وليس ثمة شك في أن ابن خاتمة كان تحت تأثير اثنين من شيوخه : ابن ليون ، وأبي البركات البليقي ، والأول منهما ، ونحدثنا عنه فيما سبق ، ترك عددًا من المؤلفات في هذا الضرب من شعر الحكمة ، أورد لنا المقرئ شيئًا منها في كتابه نفع الطيب ، والتشابه بين الكثير من أشعاره وما عند ابن خاتمة واضح ، ونأخذ لذلك مثلاً ، يقول ابن خاتمة في إحدى مقطوعاته :

أنعم على من تشا فأنت حتمًا أميرُ
واحتج لمن شئت يومًا فما سواك أسيرُ
واستعن بالله عمّن تشاء أنت نظيره
فالمرء عبْدُ هواه يضسِرُّه أو يسجيره
ويقول ابن ليون (٧٤) :

مَنْ تفضّلت عليه أنت لا شك أميرُ
ومَنْ احتجّت إليه أنت بالرغم أسيرُ
ومن استغنيت عنه أنت في الدنيا نظيره

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن مقطوعات كثيرة ، يتشابهان فيها فكرة ، وحتى في التعبير أيضًا .

وأفكار بعض هذه النصائح والتأملات تتناقض ، كما يمكن أن نرى في المقطوعات ٣١ و ٣٤ و ٣٦ ، ومن ثم فنحن لا نعرف ما إذا كنا بصدد مجرد أشياء مطروقة ، وتكرر عادة فحسب ، بعيدة عن مشاعره الحقة ، أم أننا أمام رغبة مقصودة ، للتعبير عن قناعاته .

في حالة معينة ، يشير ابن خاتمة في القصائد التي ذكرناها إلى الرحلة ، وولتقى به في القسم الأول من الديوان يعبر عن رغبة قوية في رؤية الأماكن المقدسة وزيارة قبر النبي ،

ولا نعرف ما إذا كان صادقاً أم متخيلاً ، لأن الذين ترجموا له لا يذكرون أنه أدى فريضة الحج ، ولم يخرج حتى من الأندلس في أية لحظة ، وحركته لم تتجاوز غرناطة والمرية وما حولها من قرى صغيرة .

ولم يكن عزوفاً عن الحركة فحسب ، وإنما دفع شيخه وصديقه الحميم أبا البركات البلفيقي ، لكي يقعد عن رحلة كان قد اعتزم أن يقوم بها إلى شمال أفريقيا ، مردداً بعض أبيات له من الشعر^(٥٧) .

ولنقف قليلاً مع هذا التناقض في الأفكار ، يقول ابن خاتمة في المقطوعة رقم ٣٤ :
 جُلُّ في بلاد الله نحو العلا ولتجنب أهلك وأوطاننا
 فيبدق الشطرنج من فوره يعود بالتجوال فرزاننا
 وفي المقطوعة رقم ٣٧ يقول :

مثواك عِزُّكَ فاحذر أن تفارقه فغزة واغتراب قلما اتفقا
 أما ترى الشعر فوق الرأس محترماً فإن يزل عنه أضحي في التراب لقي
 ولا نجد في هذا القسم كثيراً من الأفكار الأصلية . ومن الصعب أن نلمح بينها شيئاً ذاتياً بحق ، وربما في المقطوعة الواحدة والعشرين . عندما ينصح باجتناّب الأقوياء .
 يمكن أن نربط بين هذه الأبيات وبين حياته . وجرت دائماً على هامش الطموحات السياسية ، ولو أنها في الوقت نفسه موضوع طالما طرقة الكثيرون من الشعراء ، يقول :
 خَفَ السلاطين واحذر أن تُلبسهم مادام أمرهم في الملك مضطربا
 إن الملوك بحار في خلائقهم ومن سما البحر في أهواله عطبا

وأخيراً ، يأتي الشاعر في نهاية الديوان بقسم أوقفه على الموشحات ، وجعلها خاتمة له ، وهي - فيما أرى - أفضل أشعار ابن خاتمة ، لموسيقاها الرائعة ، وعفويتها وطلاقتها . ويضم ثمانى عشرة موشحة .

وإيثار شاعرنا لهذا الجنس من النظم واضح ، ومن ثم نجده في فقرة أوردها المقهور في

كتابه أزهار الرياض . المجلد الثاني . ص ٢٥٢ وما بعدها ، نقلا عن « كتاب مزية المزية على غيرها من البلاد الأندلسية » ، عندما عرض لترجمة ابن عبادة القزاز ، الشاعر والوشاح الشهير ، والذي عاش في بلاط المعتصم بن صمادح أمير المزية . وهذه الفقرة بالغة الأهمية ، واتكأ عليها كل الذين يهتمون بدراسة الموشحات . وإذا رجعنا إلى نصي ابن بسام وابن سعيد المغربي ظهر لنا أن ثمة شخصين ينسب إليهما ابتداء فن الموشحات : محمد ابن محمود ، ومقدم بن معافى . وكلاهما من قبيلة ، وكلاهما ينعت بأنه ضريب (٧٦) . ويفخر ابن خاتمة بأن مواطنيه الأندلسيين ابتدعوا هذا النمط الشعري الجديد . ولا يخفى إعجابه به .

وبرهان آخر على تفضيله فن الموشحات نجده في هذه المجموعة منها ، ويضمها القسم الذي جاء به في آخر ديوانه . ولأن الخرجة أفضل ما في الموشحة ، وتجيء في آخر مكان منها ، وهى من الموشح « ملحه وسكره ومسكه وعنبره » ، فكذلك تمثل الموشحات من الديوان حين توضع في نهايته . محتفظاً للقارئ بمفاجأة مدهشة ، فريدة ورائعة . لن نحاول هنا شرح ما الموشحة ، ولن نتعمق في المشاكل المتصلة بينها ، لأن أستاذى العزيز إميليو غوسية غوث درسها بأدق وأوضح ما يكون ، وإنما سأقف بجهدى عند دراسة الموشحات التى جاءت في الديوان ، وسأصنفها تبعا لخواصها المميزة لها ، وموضوعاتها وخرجاتها .

يقول ابن خاتمة في المقدمة التى عرض فيها لأقسام الديوان : « وقد قسمتها أربعة أقسام ، قصد التنشيط والإيجام : القسم الأول فى المدح والثناء ، والقسم الثانى فى النسيب والغزل ، والقسم الثالث فى الملح والفكاهات ، والقسم الرابع فى الوصايا والحكم . وختمتها بنبذة من التوشيح الذى له فى مضمار الأدب المجال الفسيح » . يبلغ عدد موشحات الديوان ثمانى عشرة ، وكلها جاءت فى خمسة أغصان ، أو أدوار

(٧٦) انظر : عبد العزيز الأهوانى ، كتاب المقتطف من أزهار الطرف لابن سعيد الأندلسى ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ١٣ ، عام ١٩٤٨ ، ص ١٩ - ٣٣ . وكذلك س . م . شترن : الخرجة الأسبانية فى الموشحة الأسبانية العبرية ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ١٣ ، عام ١٩٤٨ ، ص ٢٩٩ - ٣٤٦ .

إذا شئت . للموشحة الواحدة ، وجاءت من بينها الموشحة الرابعة عشرة ، والسابعة عشرة بلا مطلع ، أو ما يطلق عليه في اصطلاح النقاد موشح أقرع . وأغلبها جاء على غير عروض البحور التقليدية المعروفة ، وقليل منها ، وبتحفظ في بعضها . يمكن أن يقال إنها جاءت فيها . وهي الموشحات رقم ٦ و ٧ و ١١ و ١٤ و ١٦ . فالموشحة السادسة جاءت في بحر الخفيف ، ولكن التفعيلات تتفاوت من بيت لآخر . وهو مالا يمكن أن يحدث في الشعر العمودي . والموشحة السابعة جاءت أغصانها في بحر المجتث . ولكن القفل والخرجة من الصعب ردهما إلى بحر . وجاءت كل من الحادية عشرة ، والثانية عشرة ، في مجزوء البسيط . أما الرابعة عشرة فوزنها بالغ الغرابة . لأن أغصانها ثلاثية . ومن بحر الطويل . أما الأقفال والخرجة فجاءا على وزن مختلفين . أربع مرات . والموشحة السادسة عشرة ممكن أن تكون من بحر المجتث فيما يتصل بالأغصان . ولكنني لست على يقين من الأمر كذلك فيما يتصل بالأقفال والخرجة . ولقد أشرت إلى قافية كل واحدة منها وإلى البحر الذي أعتقد حقاً أنها جاءت فيه . وطبقاً لنظرية إميليو غوسية فهو مت ليس بينها أية واحدة يمكن أن تكون من بحر الكامل . أو الوافر . مما يعنى احتمال الزيادة في المقاطع .

ولا تتناول الموشحات من الأغراض إلا الغزل والوصف فحسب . فليس فيها مدح . لا ديني ولا دنيوي . ولا هجاء . وأسلوبها خفيف . وموسيقى . وذو وقع جميل على السمع . وفيما يبدو وجد ناظمها مجاله واسعاً عريضاً . فمضى مع موهبته إلى غايتها . ونلاحظ أن الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة يتم فجأة في بعض الأحيان . ونجى جافاً . وفي بعضها الآخر لا نكاد نحسه . على نحو ما في الموشحات رقم ٢ و ٦ و ٨ و ٩ و ١٢ و ١٧ .

ونجى الخرجة في معظم هذه الموشحات عامية اللغة . ومن ثم ينقصها الإعراب . وتستخدم عدداً من تعبيرات اللغة الشعبية . وأشرنا إليها . ولا نجد بين خرجاتها ما جاء في اللغة الرومانشية . كما كان شائعاً في موشحات هذا العصر . ولو أننا نجد لهذه القاعدة استثناء . كما في موشحات ابن ليون . المتوفى عام ١٣٤٩ م . وجاء بها إميليو غوسية

غومث في كتابه : « الخرجات الرومانشية للسلسلة العربية في إطارها »^(٧٧) .
 ثمة خرجة واحدة فحسب لا أرى معناها واضحاً ، مما جعلني أشك في أنها تحوى بين
 مفرداتها لفظاً رومانثياً . ولو أن الأمر لا يتجاوز ، حتى هذه اللحظة ، مجرد الفرض ،
 أعني الموشحة الثالثة . ونص خرجتها :

ثوبك أحرز من الحبر فسقـد ملالي
 قال لي : خليني نفتصل في بلد رالي
 وأعترف بأنى لست على ثقة من أن ترجمتى لها دقيقة . أولاً لأن كلمة « حبر » .
 وأعتقد أنها تعنى هنا « مداد » ، إذا أخذنا في الحسبان أبيات الأغصان التى سبقتها ، والتي
 تقول :

وغزالر ماأجملة في تحلـيـه
 أخذ الطرس فصـلة ووشى فـيـه
 ومع ذلك ، فالمعاجم العربية تضبط الكلمة « حبر » . وهو ما يستحيل هنا . لأن
 القافية الأولى في كل الأقفال جاءت راء تسبقها فتحة^١ ، والشك الذى تولد عندى في
 هذه الخرجة . أجمله فيما يلى :

١ - ضبط كلمة حبر بدل حير .

٢ - تعبير « فقد ملالى » ، وترجمته : « إذن ما أجمله ! » .
 وضبط الكلمات في المخطوطة لا يدع مجالاً للشك ، ولكنى لا أجده فى المعاجم الفعل
 الثلاثى « ملأ » مزيداً بهمزة ، والذي يمكن مع التسهيل أن يفقد الهمزة الأخيرة منه .
 وبخاصة فى اللهجة العامية . وفكرت أيضاً فى أن تكون إملاء ولكن هذا المعنى لا يبدو لى
 معقولاً هنا ، هل يمكن أن تكون من الأصل نفسه . بمعنى « جعله يستمتع » ، ومن ثم
 يصبح معناها تمتع ، أو شئ شبيه بهذا ؟. إن معنى الخرجة فيما يبدو لى يلح على شئ
 كهذا .

(٧٧) مدريد . جمعية الدراسات والشر . عام ١٩٦١ . رقم ٢٠ ب . ص ١٩٧ .
 . حذفت هنا فقرة . لأنها مجرد ترجمة لأبيات العصر التى سبقت إلى اللغة الأسبانية .
 (الترجم)

٣ - نَفْتُصِل ، وجاء ضبطه هكذا ، بدل « نَفْتُصِل » ، ولم أجد أيضاً حلاً مرضياً للفعل « فصل » ، حين يحىء مزيداً بالهمزة والنون ، ولأن المعاجم تقدمه لنا مزيداً بالهمزة والتاء فحسب ، ولأن الصيغتين تشابهان في كثير من الأحيان في المعنى ، فقد ترجمتها « منفصلين » .

٤ - لفظ « بَلْدَرَانِي » ، وفكرت بدءاً في احتمال أن تكون مركبة من كلمتين : بَلْدَ وراني ، ولم أجد في هذا حلاً مرضياً . « وراني » يمكن أن تكون فعلاً لحقته ياء المتكلم ، بمعنى أكون ، في اللغة البربرية (٧٨) ، ولو أن استعماله أكثر شيوعاً أمام المضارع ، والاحتمال الأخير ، وارتضيته ، ولست مقتنعة به تماماً كما قلت ، أنها كلمة رومانية ، ويمكن أن تقرأ هكذا « بلندران Balandran » ، وطبقاً لمعجم مجمع اللغة الملكية فإن لفظ « بلندران » تعود أصوله إلى اللغة الألمانية القديمة ، ويطلق على « لباس سابغ وعريض ، مع معطف قصير على الكتفين ، يستخدمه رجال الكنيسة عادة » ويتحدث دوكانج Ducange في كتابه : « معجم لاتينية العصور الوسطى » عن استخدامه في القرن الثالث عشر الميلادي ، فيقول :

« فيما يتصل ببعض أنواع ملابسنا من البلندراس ، أو البلندران ، المقررة في نظام سان بندكتو ، في مقاطعة نربونة ، عام ١٦٢٦ م ، من المؤلم أن يستخدمها الجمهور ، وبخاصة ما كان منها أصفر اللون ، وقد أدا ان المجمع المسكوني لعام ١٢٥٤ م استخدام الجمهور لها ، وحرم ارتداء البلندران ، دون أية رقابة ، في تلك المقاطعة ، كملايس علمانية ، وليس كملايس دينية » .

فالكلمة ، فيما يبدو ، كانت جارية الاستعمال في اللاتينية الواطية ، وكانت تعني نوعاً من « المعاطف » لا يستخدمه رجال الدين فحسب ، وإنما يستخدمه عامة الناس أيضاً ، كعباءة تغطي ملابسهم وتحميهم ، وبهذا المعنى يمكن أن نفهمها ، وأن نترجمها ، ويصبح معنا في هذه الحالة كلمة رومانية ، هي الوحيدة ، فيما يبدو ، التي جاءت من هذه اللغة في خرجات موشحات الديوان .

(٧٨) برسنيه ، دراسة تطبيقية ونظرية في اللغة العربية ، الجزائر - باريس ١٩١٤ . ص ٣١ .

وخرجنا الموشحتين رقما ٥ و ١١ طريفتان ، وقد درسها إميليو غرسية غومث في كتاب «دراسات مهداة إلى مينينديث بيدال» ، المجلد الثاني ، ص ٣٩٧ - ٤٠٨ ، وهما دليل على وجود تلك الأغنيات الشعبية ، سواء أكانت في اللغة الرومانشية أم لا ، والتي بنى عليها الشعراء الموشحة ، ويبدو ذلك واضحا في هاتين الخرجتين أكثر من أى مكان آخر ، والمطابقة ، أو الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة متكلف ، ونلاحظ للوهلة الأولى ، أننا أمام جمع بين شيئين متناقضين .

والموشحة السادسة بالغة الأهمية للغاية ، فيما أرى ، إلى جانب روعة جملها . وهنا يبدو لي أن ابن خاتمة مؤلف الموشحة والخرجة على السواء ، فليس فيها جفوة ولا تكلف ، وحافظ على نفس الإيقاع . ولها ميزة واضحة استرعت انتباهي منذ اللحظة الأولى . فالتفعيلة الأخيرة من كل قفل تتكرر في بدء كل غصن يليها ، وتمثل حالة واضحة من «الشعر المترابط» ، ولا أعرف لها مثلا آخر شبيها بها في الشعر العربي ، ولكنها تكثر في الشعر القشتالي . وفي مقال الذى نشرته في مجلة الأندلس بعنوان : « بعض طرائف الشعر الأندلسي »^(٧٩) أشرت إلى عدد من أمثلة « القصائد المترابطة » التى توجد في « ديوان باينه El Cancionero de Baena ، والتقطت بعض الأشعار التى جاءت على هذا النمط في حمّد وشُكر « سانتا مريا » ، في ديوان كاهن هيتا » ، وكان معاصرا لابن خاتمة الذى يستخدم نفس طريقة الربط . ~~من~~ ثمة علاقة بين الذوق العام والنمط الشعري في هذه المرحلة الأخيرة من الحكم الإسلامى ، بين المسلمين الإسبان وبين إسبانيا المسيحية ؟ من المحتمل جدا أن يكون الجواب : نعم .

والموشحة الثامنة يدور موضوعها عن الحب بين المسلمين والمسيحيين ، وجاءت في أسلوب خفيف ، ينبض حيوية ، ويأخذ طريقه إلى الأذن بلا استئذان . لقد أتاح التعايش بين المسلمين والمسيحيين في كل العصور وجود هذا الشعر الغزلى ،

(٧٩) مجلة الأندلس . المجلد ٣٣ ، ص ٩٥ - ١٢٢ .

• لمعرفة صلة كاهن هيتا باللغة العربية ، يمكن الرجوع إلى كتابي : دراسات عن ابن خزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٣٤٢ وما بعدها . (المترجم)

وتحضرنا الآن أشعار يوسف الرومادى ، وابن الحداد ، والإشارات العديدة إلى التعايش مع المسيحيين وعاداتهم وحفلاتهم الدينية^(٨٠) ، وهنا ، فى هذه الموشحة ، يشير ابن خاتمة إلى غلام نصرانى ، ويمكن أن نشير ، وقليلًا ما نلتقى بمثل هذا الخبر الطريف ، إلى صعوبة فهم لغة الغلام المسيحى . أتراها مجرد خواطر أم أنها تعكس المناخ الحقيقى فى مملكة غرناطة ، وأنها لم تعرف ازدواجية اللغة . ممثلة فى العربية والرومانشية ، وكانت شائعة فى الأندلس فى عصور سابقة ؟ . إنها موشحة ، كما قلت فيما سبق ، من أرق موشحات ابن خاتمة ، وأعذبها موسيقا ، وألطفها وقعًا على السمع ، والتمهيد فيها ، أو إن شئت الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة طبعى تمامًا ، تقول الخرجة :

صُبِّىْ عَشَقْتُ رومى وَشْ نَحْفَظْ اللِّسانَ
السَّاعَ مَانْشَاكِلَ عَاشِقْ بَترجمان*

وقد ترجم إميليو غرسية غومث^(٨١) الموشحة الحادية عشرة ، إلى جانب الموشحة الخامسة ، وخرجتها كخرجة هذه ، أغنية شعبية جميلة ، أعطاه ابن خاتمة طابع الموشحة . ولكن التمهيد هنا ، أى الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة متكلف ، وغير طبعى ، ويشى بأن تغييرًا ما حدث عند الانتقال إلى الخرجة : لقد ظهر الرقيب ، وعندما رأى وجه المحبوب محمرًا ظنه فارق الحياة ، فعلا صوته صياحًا ، وشىء كهذا ليس مكانة المناسب هنا ، أو كما يعلق غرسية غومث : « جىء بها تشدها الخيول » ، ومع ذلك ، فمن الواضح أن الخرجة جميلة ، وذات إيقاع شعبى :

صُبِّىْ جُرْخُ فَالْتَّخِيلُ رَشْ أَلْسَحْبِقْ دَمُّ
بِالله يَاطِيرًا مَلِيحْ قُلْ الخَبْرُ لَأَمُّ

(٨٠) هنرى بيريس ، الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف ، باريس ١٩٥٣ ، ص ٢٧٣ - ٢٨٧ (الترجم)
• ترجمت الكتاب إلى اللغة العربية ، وسينشر قريبًا جدًا .
(٨١) دراسات مهداة إلى مينينديث بيدال ، المجلد ٢ ، ص ٣٩٧ - ٤٠٨ ، بعنوان : « إمكانية احتمال طراز ثالث فى الشعر الأندلسى » .
• رقم هذه الموشحة السابع فى الديوان الذى نشره د . رضوان الدابة ، والواقع أن الأرقام المسلسلة بها تكرر عند الرقم ٦ المكرر ولذلك تختلف فى كل الموشحات بعده (الترجم) .

ونجد في الموشحة الرابعة عشرة جانباً مختلفاً ، ولقد عنيت بدراستها في مقالى الذى أشرت إليه فما سبق ، وعنوانه : « بعض طرائف الشعر الأندلسي » ، إنه موشح أقرع ، أى جاء بلا مركز ، وكل غصن فيه يتكون من ثلاثة أبيات ، جاءت في بحر الطويل ، وجاء القفل في بيتين ، الأول منها في بحر الطويل ، أما الثانى فليس إلا ملحقاً من أربع تفعيلات ، هى تكرار للتفعيلة الأخيرة من بحر الطويل . أما الخرجة ، على نحو ما نرى ، فلا تخضع لأى بحر من بحور الشعر ، وإذا طبقنا عليها نظام التفعيلات فسنجد أنفسنا أمام لون من الأغنيات الشعبية لا تستقيم لأى وزن بعينه ، إذا فككنا بحر الطويل وهو يتكون من أربعة عشر مقطعاً ، في كل شطر سبعة ، فسنجد أن منه ستة مقاطع في الغصن ، ويتبعها اثنان . وبيت من أربعة مقاطع لكل قفل . ومن الواضح أن إيقاع الجانب الأكبر من الموشحات وموسيقاها تختلف كثيراً عما هى عليه في الشعر التقليدى ، ولو أنها ظاهراً يمكن أن تكون قد جاءت في بحر معين .

والموشحات الأربعة الأخيرة في هذه المجموعة ، ليست لها أى ميزة خاصة . وبانتهاء الموشحات ينحتم ابن خاتمة ديوانه ، بعد أن حقق رغبة صديقه التى أبدأها له ، طالباً منه « الإغضاء عند القضاء ، فقد انتظم بين قريحة متبددة ، واقتراحات متعددة ، وشبيهة بين الجذ والهزل مترددة » .

وبعد شكر الله ، والصلاة على نبيه وآله وصحبه ، يسجل تاريخ تدوين الديوان ، وأنه تم بمدينة المرية ، بتاريخ أخريات سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٧ م) ، على يدى ناظمه ، المستغفر لذنبه ، أحمد بن على بن محمد ابن خاتمة ، لطف الله به تعالى وفقه .

الأصول العربية

لفلسفة رايغوندو لوليو

● كتب المستشرق الاسباني الكبير ، العلامة خوليان ريبيرا هذه الدراسة لتشر في الكتاب الذي صدر تكريماً للعالم الاسباني مينينديث اى بلايو ، ج ٢ ص ١٩١ - ٢١٦ ، وصدر في مدريد عام ١٨٩٩ . وأعيد نشرها في كتابه « نبد ومقالات » ، ج ١ ص ١٥١ - ١٧٩ ، وصدر في مدريد عام ١٩٢٨ .

من بين أصعب المشكلات حلاً في تاريخ الفلسفة الإسبانية ، الأسلوب الغامض للفيلسوف رايغوندولوليو ، وتقنيته الغريبة ، ومنهجه غير المؤلف وتأكيده النادرة ، وكل ذلك مضافاً إلى عاداته في ألا يذكر مصادر مذهبه ، كان سبباً في أن أفكاره لا تفهم بوضوح كامل ، وليس من السهل أن نحدد بدقة أصول طريقته .

ولد لوليو في ميورقة ، بعد أن افتتحها خايمة ، وسط أسرة عسكرية ، كان ابناً لفارس رافق الملك في هذه الغزوة . ولا يمكن الظن بأن الجزيرة على أيامه هذه كانت تعرف دراسات مسيحية ذات تقاليد ، أو مدارس حسنة التنظيم ، يمكن أن يتعلم المرء فيها الفلسفة ، ولو أن مذهباً بالغ التعقيد كمذهب الفيلسوف ليس مألوفاً أن يظهر فجأة ، بطريقة عفوية ، ولا يمكن أن يحدث هذا في أي مكان من العالم . ومع ذلك ، وقبل أن يغشى هذا العالم المستنير مراكز المعرفة الإنسانية الكبرى ، ظهر في الأديرة ، وسط حياة رهبانية متقشفة ، وأذهل العالم يومها بمذهبه الجديد الرائع .

الذين يقتنعون في سهولة ، والذين يرضون بأي تفسير ، يستطيعون أن يستريحوا ، دون أن يواصلوا البحث العميق الجاد في إصرار ، يقبلون يقيناً أن لوليو عصامي علم نفسه بلا أساتذة ولا قراءة كتب ، وأن كل شيء عرض له جاءه فيضاً . ولكن أي شخص عاقل ،

متوسط الثقافة ، لا يمكن أن يرتضى هذه التفسيرات ، وبخاصة بعد أن ظهر ببراين واضحة جلية أن لوليو قال في مرات كثيرة ما قاله فلاسفة آخرون أقدم منه ، مسلمون أو وثنيون . وما كان في وسعهم أبداً أن يحظوا بنعمة الفيض .

والأخبار الغامضة التي لدينا عن أيام لوليو في شببته ، لا تهتم بطريقة واضحة عن سير دراسته . ولا كيف كانت الصلة ، أو تكونت الرابطة بين أفكاره . وكان علينا لكي نخرج من هذا الشك أن نلجأ إلى أسلوب آخر : أن نقارن بين أفكاره وأفكار الفلاسفة الذين سبقوه أو عاصروه . وبهذه الطريقة وحدها نستطيع أن نشير إلى ألوان من التوافق بينه وبين آخرين مشهورين جداً . وقد رأينا بعض أفكار أرسطوطاليس ، ودون سكوت ، وتوماس الإكويني . وآخرين من فلاسفة العرب أمثال ابن سينا وغيره ، تلمع بين آرائه وأفكاره . ومع ذلك ثمة مجموعة كبرى من أشياء غامضة ، وقدر كبير من بقايا أفكاره ، يجعله يبدو كظاهرة رائعة ومتميزة .

أيمكن أن يحدث أنه سار على خطى نماذج مجهولة ، وأن حديثنا عن أصالته الرائعة ليس إلا جهلاً منا بمصادر مذهبه ؟ . هل درسنا التيارات العربية بقدر كاف ، والتي يمكن أن تكون أثرت في فلسفة هذا العالم المستنير ؟ .

إن تربية لوليو العربية لم تجيء من ترجحات لاتينية رديئة ، كالتى كان يستخدمها بعض « المدرسين » على أيامه ، وإنما جاءت معاناة من قراءته النصوص العربية الأصلية مباشرة . إن الشهرة العالمية التي تمتع بها الفيلسوف الميورقي ، والمعرفة الواسعة التي كان عليها ، لا يمكن أن يبلغها دون أن يستخدم أدواتها المناسبة ، وبطريقة ماهرة ، ومن الضروري بمكان أن يعرف اللغة التي كتبت فيها هذه المواد ، ونحن نعرف عنه أنه لم يتعلم اللغة اللاتينية في المدارس . ويعترف صراحة بأنه لا يعرف قواعدها ، ويقول في مقدمة كتابه أسماء الله المئة : « إن رايموند يرجو الخبر الأب المقدس ، والسادة الكرادلة ، أن يترجموه إلى اللغة اللاتينية ، لأننى لا أستطيع ترجمته إليها ، إذ إننى أجهل نحوها » . ولم يستطع أن

يقوم بدراسات فلسفية في القطلونية^(١) ، وكانت لغته الأم ، والتي يتحدث بها ، ويكتب فيها ، لأن مثل هذه الدراسات لم تكن يومها تكتب في اللغات العامية ، وعلى النقيض من ذلك ، كان ممتازاً في اللغة العربية .

في ضوء هذا السلوك الخاص علينا أن نبحث عن أصول طريقته ، لأن دراساته العربية لم تكن سطحية كما قلنا ، ولا عادية في تناوله لها .

وإذا كان من الضروري أن نبرهن على الواقع ، فالقليل من الأخبار نلتقطها ممن كتبوا سيرته كافٍ ، وهي تقول إنه تعلم اللغة العربية من عبد مسلم ، متمكن الثقافة على نحو يتيح له أن يدير حواراً متصلاً مع لوليو ، وتذكر واقعاً أنه ألف كتابين باللغة العربية ، أولهما : « التأليف والتوحيد Teliph & el Ateuhid ، وكتاباً آخر يذكره ويلر Weyler ، وهو رسالته « التأمل » ، وأنه جادل في بجاية بالجزائر فلاسفة متمكنين ، وناقش في عناية خمسين عالماً عربياً . وكل ذلك لا يمكن أن يقوم به ، وهو لا يعرف غير لغته الأم ، ودون أن يعايش المصطلحات العلمية في اللغة العربية . وطبقاً لإشاراته في كتابه Desconort كان في معهد ميرامار يعلم صغار الرهبان اللغة العربية ، ولم يكن يقف بهم عند هذا الحد ، وإنما تجاوزها إلى معارف المسلمين ومناهجهم ، لكي يستطيعوا تحويل المسلمين عن دينهم بالحجة المقنعة ، لأن الإعداد العادي للمبشرين لم يكن فعالاً فيما يرى .

وفي كتابه « بلانكيرنا Blanquerna يقول : إن الإيمان ذهب إلى بلاد المسلمين ، وقد وجدت هناك رجالاً كثيرين علماء في الفلسفة ، وهؤلاء لا يأخذون بكل مافي الإسلام على ظاهره ، ولا يسلمون بسلطة الأولياء ، ولا يمكن - فيما يرون - أن تكون للمرء عقيدة حقة لا تعتمد على العقل ، وغير ذلك كثير . يقول : « والآن جاء الوقت الذي يقدر فيه الناس الأسباب المؤدية إلى النتائج ، ولهذا السبب نفسه نشأت العلوم الفلسفية والكلامية » .

١٠٠

(١) اللغة القطلونية إحدى اللهجات الرومانشية التي تفرعت عن اللغة اللاتينية في العصور الوسطى ، ويتكلمها شمال شرق أسبانيا ، وجزر البليار ، وما تزال هذه ومقاطعة قطلونية ، وعاصمتها برشلونة ، تتحدث بها حتى اليوم ، واللغة القومية فيها ، وهي إلى الفرنسية أقرب منها إلى الأسبانية ، بناءً وأصواتاً .
(المترجم)

وكان لوليو يضمّر حنّاناً ودوداً للمسلمين ، جاءه دون أدنى ريب من دراسة الكتب العربية ، ولا يمكن رده إلى الإحسان الرعوى الذى ينطوى عليه صدره ، وكان دائماً سخياً ونبيلاً ومسيحياً ، لأنه مزج فيه بين إعجابه الذاتى وبين علم المسلمين وفضائلهم ، وقرأ الفقرة التالية من كتابه « الكتاب السعيد فى عجائب الدنيا » وفيها يؤكد أن المسلمين أكثر عقلاً ، وأوسع فطنة من المسيحيين : « والسبب الذى يجعل المسيحي يهرم ويموت قبل المسلم ، أن المسلمين يطعمون الأشياء الحلوة ، دافئة وندبة ، أكثر من المسيحيين . والمسلمون يشربون الماء ، وهو يزيد من الرطوبة ، ولهذا يحتفظون بداخلهم رطباً على الدوام ، على حين يشرب المسيحيون الخمر ، وهى ساخنة وجافة ، فتزيد حرارتهم ، وتمتص ما بداخلهم من رطوبة » . ويتساءل فى كتابه « السعيد فى عجائب الدنيا » : « لماذا يصبح المسلمون أكثر فطنة بالطبيعة كلما تقدمت بهم السن ، والمسيحيون على النقيض ؟ . لأن الوحدة تترك الخمر واللحم بخاراً ، ويتناولها المسيحيون أكثر من المسلمين ، وهما يؤديان إلى تدمير الجسد ، ويضغطان على الفهم . أما الماء وهو بارد رطب فيلطف البخار ، ومع الرطوبة ترتفع رطوبة الدماغ ، ومع البرودة تهبط ، وبما أن الرطوبة خفيفة ، والبرودة فاحشة ، طبيعة ، فإن الدماغ البارد والرطب يمكن أن يكون أشد توافقاً لانسجام أبعثرته ، مما لو كانت متفاوتة . وللاحتفاظ بشبابهم عرف المسلمون كيف يرتدون الملابس الفضفاضة ، لأن الهواء مع الملابس الواسعة يستطيع أن يتعاون مع ظاهر البدن . ومن ثم يمكن للهواء الساخن أن يمتص البخار من الجسم عندما يريد أن يزيد من قوة الهضم . على حين أن الهواء البارد يقبض المسام ، فتطيل الحرارة الطبيعية داخل الجسم ، وتجعل قدرة الهضم أقل . ولهذا يحتفظ الرجل الشاب بنضرة الفتوة على نحو أفضل ، وتبدو الشيخوخة واضحة فى محيا الرجل العجوز » (٢) .

ولا يتوقف إعجاب لوليو بالمسلمين عند الجانب العلمانى ، إنما يمتد إلى التراث الدينى ولا يعرض لذلك كمثّل يثير به روح المنافسة عند المسيحيين ، وإنما يتجاوز الإعجاب فيحاول إدخاله فى المسيحية ، كتدريب عملى على التقوى .

(٢) الصديق والمحبوب ، ج ١ ، ص ٢٩٢

وهكذا دعا المسيحيين أن يضعوا اسم المسيح على رأس رسائلهم ، كما يضع المسلمون البسملة والصلاة على النبي (٣) ، واستنكر الفوضى التي تلاحظ في الكنائس المسيحية حيث يختلط الرجال بالنساء ، ودعا في كتابه بلانكيرنا Blanquerna ألا يسمح مستقبلاً بأن يختلط الرجال بالنساء في الكنائس ، وكان المثل الذي يضره المسلمون واليهود في الصلاة موضع تقدير منه ، « وإذا كان هؤلاء وأولئك غير مسيحيين ، وعلى خطأ ، وندين طريقتهم ، يلاحظون هذا النظام البديع وعرضون عليه ، فما أعظم السبب الذي يوجب علينا كمسيحيين أن نأخذ به ، وأن نحافظ عليه » .

ويقول أيضاً في كتابه بلانكيرنا ، واتخذ من اسم البابا رمزاً لشخصه :
 « سأل البابا كاردينالا : هل رأى أى مسيحي يبكي خشوعاً في قداسه ؟ . فأجابه : إنه لم ير أحداً يبكي . ولكنه رأى كثيرين ينامون . وقال البابا للكرادلة : يالللوعة ! كيف يقل خشوع المسيحيين في قداسهم ، على حين أن المسلمين ، وهم على خطأ ، يكونون في صلاتهم خشوعاً ، ويقومونها في ورع وتقوى . وفي الحال رد كاتبه في اللغة العربية ، وكان عند الباب ، فقال ، إن المسلمين يدعون إلى التقوى ، ويشيرون بأعجاز الجنة ، ويخوفون من عذاب النار ، ومن ثم يغشاهم الخشوع في صلواتهم ، ويبكون من التقوى التي تفيض بها جوانحهم ... » . ولهذا أصدر الحبر الأعظم أوامره بأن يتجول بعض الرجال الأتقياء . ومن تتسم حياتهم بالصلاح والتقوى والخشوع ، كل يوم في شوارع المدينة ، يعظون الناس ، يخوفونهم عذاب جهنم ، ويذكرونهم بالأعجاز السماوية ، لتكون حاضرة أمامهم في كل الأوقات (٤) .

وفي مقدمة كتابه أسماء الله المئة ، يعبر بوضوح عن رغبته في أن تمارس الكنائس يومياً إنشاد أسماء الله المئة ، موقعة وذات نغم ، على نحو ما يقرأ المسلمون القرآن جماعة في المساجد . ومن جانب آخر فمن المعروف أن أسماء الله المئة ، من بين الأوراد التي يرددونها المسلمون .

(٣) الصديق والحبوب . البيت رقم ١٥٦ .

(٤) بلانكيرنا . ج ٢ . ص ١٣٤ ، طبعة مجلة مدريد .

لا يظن أحد أننا نتصيد النصوص التي نخدم فكرتنا ، ونستطيع أن نبرهن بها على ما نقول فحسب ، وإنما لجأنا إلى كل المؤلفات التي استطعنا أن نحصل عليها ، وهي : بلانكيرنا ، والكتاب السعيد في عجائب الدنيا ، والأعمال الشعرية ، وغيرها ، ولم نلتق ولا مرة واحدة مع نصوص تفوح منها رائحة احتقار المسلمين ، إنه يتحدث عنهم دائماً في ودحون . ولكنه لم يتحدث أبداً بمثل هذه الروح عن محمد الرسول ، كان يراه مشغولاً عن أرواح كثيرة بائسة ، ولكن ذلك فيما يرى قضية شائكة جداً وخطيرة للغاية ، أن يتحدث بسوء عن الرسول وهو يحاول أن يصد المسلمين عن دينهم ، وجعل من ذلك هدفه الذي لا يغفل عنه طوال حياته .

وقد التقى لوليو مع مسلمين كثيرين ، ليسوا من العامة ، ولا من شخصيات الطبقة الدنيا ، أو أصحاب العادات السيئة ، وهم موجودون في كل الشعوب ، وإنما كانوا من الصفوة ، رجالاً فضلاء ، أتقياء من زهاد المسلمين ، وكان يطمح في أن يحول هؤلاء عن دينهم ، ولم تقع في خاطره أبداً الفكرة المكرورة ، والبريئة في الوقت نفسه ، والتي تفسر أصالة العقيدة الإسلامية بالبهجة المعنوية في قانونهم ، وغيبة الكبت في شهواتهم . وغيرها .

وكان ذلك واضحاً كل الوضوح ، وإلا فكيف نوفق بين موقفه هذا . والاعتراف الصريح بأن أجمل وأفضل مؤلفاته ، وتعتبر أروع ما كتب في التصوف الإسباني ، وأصلب أساس يقوم عليه ، كتبها تقليداً لما قام به الصوفية المسلمون ؟ ولقد ردد هو نفسه ذلك ، أكثر من مرة في كتابه بلانكيرنا يقول : « ورسول آخر من الكاردينال ، عبر إلى جانب من بلاد البربر (شمال أفريقيا) ، ورأى هناك كثيرين من الوعاظ والفقهاء يعلمون المسلمين القرآن ، ويحدثونهم عن مباحج الجنة ، ويدعونهم بالحكمة والموعظة ، وجميع الذين يستمعون إليهم تكاد أعينهم تفيض بالدمع خشوعاً ، وقد أعجب الرسول الوافد كثيراً بالتقوى التي عليها هؤلاء الناس ، وما تنضح به كلماتهم من خشوع وكل ما يدعون إليه خطأ كبير ، وعرف أن القدوة الجيدة التي هم عليها . والحياة التقية المخلصة التي يعيشونها ، ونفاذ الدعوة ، وحضور الدفعة ، مردها أنهم في وعظهم يشيرون إلى حياة كثير من الناس ماتوا

تقاة ، ولهذا السبب نفسه كان هؤلاء الناس يكون خاشعين .
 ووجدته أيضًا ، في كتابه « الصديق والمحجوب » يذكر أن الرجال الأتقياء ينشدون حبًا
 في الله ، وحبًا في الله أداروا ظهورهم لمباهج الدنيا ، ومضوا عبر العالم يعانون من الفقر
 ومن أشياء أخرى كثيرة^(٥) . وحينئذ فكر في أن يذهب إلى دير بلانكيرنا ويرجوهم أن
 يؤلفوا كتابًا يدرس حياة الرهبنة ، ومنه يتعلم الرهبان الآخرون ، ومعه يعرفون كيف
 يتأملون ، وكيف يصبحون خاشعين » .

وفي بلانكيرنا عزم على أن يؤلف كتابه الصديق والمحجوب ، وكلمة صديق عنده تعني
 أى مسيحي مؤمن وتقى ، والمحجوب الله إلهنا ، ثم يضيف : « وعلى حين كان يفكر في
 هذا ، في بلانكيرنا ، تذكر في إحدى المناسبات أنه كان بابا ، وذكر له مسلم بأن رجال
 الدين عندهم موضع التقدير والاحترام من الجميع ، وأنهم يسمون الصوفية أو المرابطين ،
 وتعودوا أن يكون كلامهم مزيجًا من أمثلة تحض على الحب ومن الحكم القصيرة التي تؤثر
 في الناس التقاة الخاشعين ، والذين يحتاجون إلى الشرح ، ومع الشرح يبلغ الفهم عندهم
 أعلى درجات التأمل ، وبارتفاعه تقوى الإرادة ، ويتضاعف الخشوع ، وبعد أن أخذ كل
 هذا في الاعتبار قرر أن يؤلف كتابه طبقًا لهذا المنهج^(٦) .

نقلنا كل النصوص السابقة رغم طولها ، لأننا نعتقد أنها ذات أهمية بالغة ، وكلها في
 مجموعها تؤكد الدقة والأمانة التي اتسم بها لوليو حين صرح بالمصادر التي ارتوى منها ،
 وهي حالة نادرة في كتبه ، وكان هذا الاعتراف الخيط القائد الذي هدانا في البحث عن
 نماذج التي احتذاها .

وبعد أن درست بعض كتب التصوف الإسلامية ، أصبحت مقتنعة بعمق بأن هذا
 الفيلسوف الميورقي الشهير ليس إلا صوفيًا مسيحيًا .

وإن مانجده عنده من ازدراء الهيئات الرهبانية ، والجماعات الدينية المنظمة ،
 واعتكافه وحيدًا ناسكًا متأملًا ليفرغ لخدمة « محبوبه » ، وتجوّاله فقيرًا ، عاريًا إلا من

(٥) بلانكيرنا ، ج ٢ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٦) ج ٢ ، ص ١٥٨ - ١٦٠ .

خرقة ، ينتقل من بلد إلى آخر ، يعظ الناس في الشوارع والميادين أحياناً ، في أسلوب خشن ، لا يفرق بين الكبير والصغير ، وتفكيره في أن يعزف بالبزق ليلاً ، فإذا سمعه الناس أخذوا في محاسبة نفوسهم ، متعرضاً لآتهامه بالحمق والجنون ، وتفرغه أحياناً للتبشير بالمسيحية في الجبال والوديان ، يمضى على « باب الله » الذي يقيم أوده ، أو اعتكافه في مغارة يستغرق في تأملاته ، منفرداً « بمحبوبه » ، بعيداً عن الوحدة التي يشعر بها وهو بين الناس وفي غمار المجتمع ، وكل ذلك كان يقوم به أعداد لا تحصى من المرابطين المسلمين على أيامه ، على امتداد شواطئ أفريقيا التي زارها .

وعقيدته الخاصة أن كل علم إشراف أو فيض من الله ، ويحيى دون وسيلة ثقافية ، وفيه يسبق الإيمان الفهم ، والحقيقة مبدأ مشترك بينهما ، ويصعد الفهم عبر سلم حيث الإيمان يسبقه ، وهذا يعتمد على ذاك للتعلم في الأسرار الإلهية ، والعلم هنا واحد والكل منسجم ، العالى والهابط ، الحسى والمعنوى ، وتضييق الخلافات الكبرى والتناقضات ، وكل هذا يقول به المرابطون المسلمون ويمارسونه منذ أعوام طويلة ، قبل أن يولد راييموندو لوليو .

وهذه التأكيدات الجريئة لها نكهة القول بأهية الكون أو « الطمأنينة » ، وفيها يؤكد أن « المحبوب والصديق » يصبحان في لحظة الشطح وحدة فعلية في جوهرهما ، مع نهج واضح في الوقت نفسه ، وقناعة عميقة ، بصحة العقيدة وصفائها . وبرايمونه « العقائدية الميتافيزيقية » هذه ، يراها بعض المؤلفين خليطاً غامضاً مما هو صوفي وعامى ، وبين ماهو مقدس وعلمانى ، بين ما يبدو حماقة وبين أرق الخواطر ، حجج لا يفهمها كثير من المسيحيين ، وتبدو في نظر لوليو واضحة تماماً ، وتلك التقنية الغريبة جداً ، وغير المفهومة أبداً ، والتي قيل عنها إننا فقدنا معها مفتاح ذكائه ، على حين أن كل الطعوم الغامضة لطريقته ، تقنية وفكرًا ومذهباً في القول ، جاءت من الصوفية المسلمين المعاصرين له . وثمة منهج تربوى خاص ، وكان تجديداً أدخله هذا العالم المستنير ، وطبقاً له كل شيء يُعلم شعراً ، حتى المنطق . وكل شيء ينشر نثرًا يتم عن طريق التصوير ، بعيداً عن النظريات البحتة ، والأفكار التجريدية ، وإنما يعرض مصوراً في جداول ودوائر

ومربعات ، وغيرها ، لكى يسلك سبيله عن طريق العين إلى ذكاء الجماهير ، وهو منهج خاص تميز به الصوفية المسلمون المعاصرون للولليو .



ولنبرهن على هذه الآراء ، ونظهر التشابه بين الأفكار والمواقف ، يمكن أن نمضى فى جمع الشواهد من حياة التجوال عند كثير من الصوفية الإسمان المسلمين الذين عبروا إلى شمال أفريقيا ، فى الفترة التى سبقت أيام لوليو مباشرة ، واشتهروا بذكائهم وتقواهم . فابن سبعين المرسى ، وكان مرابطاً وفيلسوفاً ، مضى يعظ فى الشوارع والميادين ، ويعلم الناس بالرموز والتمثيل ، ويستخدم فى أبحاثه عما وراء الطبيعة لغة حافلة بالأسرار والغموض وتخفى وراءها أفكاره الجريئة ، ولم تكن تسير فى الخط المحافظ دوماً . وابن هود الزاهد ، وهو من مرسية أيضاً ، وينتسب فى أسرة انحدر منها العديد من الشخصيات الهامة جداً ، راح يطوف العالم ناسكاً ، يلبس طرطوره الشهير ، ويرتدى زيه الغريب ، ويتميز بلحيته البيضاء الوقورة ، متقشفاً ، مستسلماً لإماتة النفس والمكاشفات الصوفية ، متأملاً دائماً ، وحزين أبداً ، ودامع العين باستمرار ، وأشعاره تودع على مئات الفراسخ أريج من يعتقد فى ألوهية الكون . أو الوادى آشى ، الششتري الشهير ، وقد أوتى الحكمة ، وجمهرة من الفقراء تتبعه ، زهاد فى ملابس رثة ، غائبين عن الوجود ، وهم مع أستاذهم ينشدهم موشحاته وأزجاله ، فى عفوية عذبة ، بالغة الروعة ، يتغنى فيها بأشواقه الصوفية ، والحلى ، أو أبو العباس ، وكلاهما من مرسية أيضاً ، وابن الفارض ، والعفيف التلمسانى ، وأبو مدين ، وآخرون غيرهم ، جماعات كاملة تتلاقى وتتكاثر شرقاً وغرباً ، تعيش الحياة نفسها ، وتمارس أفكاراً متشابهة .

ولكن بين هؤلاء جميعاً ، تميز شخص واحد بالمعرفة الواسعة ، وبالفلسفة العميقة ، إلى جانب أنه شاعر وصوفى ، وأستاذ عالمى ، وأعنى به محيى الدين ابن عربى ، وهو من مرسية أيضاً ، وحياته وآراؤه ومنهجه صورة مسبقة لحياة وآراء ومنهج الفيلسوف الميورقى . فلنحاول أن نستغل المعلومات الوفيرة ، المتناثرة فى مؤلفات ابن عربى الضخمة والمتصلة بحياته ، فى الفتوحات المكية ، ومحاضرات الأبرار ، وديوانه ، وكلها طبعت فى

القاهرة ، والأخبار المتصلة به ، في كتب من ترجموا له من المؤلفين أمثال : المقرئ التلمساني في نفح الطيب ، وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ، وابن القاضي في درة الحجال وغيرهم ، لكي نبني سيرة هذا الصوفي الإسباني المسلم ، ونرسم صورة موجزة لحياته في ضوء ما قدموه لنا .

فيما يقول ابن عري عن نفسه ، ولد في مرسية عام ٦٥٠ هـ = ١١٦٥ م ، في بيت حسب وتقى ، وكانت أسرته ميسورة الحال ، وجرت بين أسلافه أحداث ذات مواقف سريعة ومتقلبة ، انتهت بهم إلى حياة التقشف والعزلة والانزواء ، بعد حياة دنيوية عريضة ومرسلة ، وأحد أحواله ، يحيى بن يوجان ، ملك تلمسان ، استجاب يوماً لواعظ مرابطي خشن ، التقى به يوماً يمتطي صهوة جواده ، ويتجول في ضواحي المدينة صحبة رجال بلاطه ، ترحل من على الحصان ، وتزرع ملابسه الملكية ، وبدأ يبكي ، ثم ذهب بعد ذلك يخدم الله رفقة هذا الصوفي ، وفي الرباط كان يعيش على جمع الحطب من الغابات ، ويذهب به لبيعه في تلمسان ، فيجد من الناس التقدير والاحترام ، ويلتمسون منه البركة والدعاء .

وشيء شبيه بهذا دفع صاحبنا ابن عري إلى تغيير أفكاره وحياته ، وظل حتى في شيخوخته يذكر والأسى يملأ قلبه ، والندم يغشى جوانحه ، تلك الأيام البهجة من شبابه ، مرت دون أن يذكر اسم الله فيها ، وإنما قضاها في الصيد والقنص عبر وديان قرمونة . وبالملة دل ريو ، قريباً من إشبيلية ، على خيل والده ، رفقة بوازيه . وقد أمضى الأعوام الثمانية الأولى من طفولته في مرسية ، ثم انتقل والده إلى إشبيلية ، ولا يذكر من أيامه تلك إلا بعض الكلمات تخلفت في سمعه من خطبة الجمعة التي كان يلقيها إمام المسجد الجامع في تلك المدينة .

وعاش فترة شبابه في إشبيلية ، وككل الشبان على أيامه ، درس القراءات والأدب والتاريخ وغيرها ، وحرص أحد أعمامه على أن يدرس له الشعر ، وفي رحلة قام بها إلى قرطبة نظم بعض الأبيات بمناسبة زيارته لمدينة الزهراء ، وكانت يومئذ أنقاضاً ، وأصبحت مأوى للوحوش والحيات ، وعندما بلغ أشده عيّن كاتباً في حكومة إشبيلية .

ولا نعرف ما إذا كانت أمه التقية ، أو زوجه مريم ، أو كليهما وأسباب أخرى . نمت في أعماقه هذا الاتجاه الجديد ، ولكن من المؤكد أن أبا العباس المغربي ، وهو صوفي من إشبيلية ، قدم من الغرب Algarves في جنوب البرتغال ، كان أستاذه الأول في العلوم الإلهية ، وتعلم معه على هذا العالم الجليل رفاق آخرون من إشبيلية شاركوه هذا الاتجاه . وإجلالا له ، وتقديرًا لذكراه ، خصه فيما بعد بمؤلف تاريخي ، أورد فيه أخبار هذه المدرسة .

ويذكر ابن عربي بكثرة ، في كتبه التي وصلتنا ونعرفها ، أنه قرأ ودرس بعض مؤلفات الفيلسوف الإسباني ابن حزم ، وأنه استخدم « كتاب الأسرار » وكان متداولًا بين المدارس والفرق الإسلامية . على نحو ما كان عليه كتاب أرسطو ، إلى جانب رسائل أخرى لم تكن تنسجم تمامًا مع الاتجاه السني الرسمي ، ويذكر أيضًا بعضًا من الحوار أو الجدل الذي دار بينه وبين بعض المعتزلة والفلاسفة ، وخرج منها دائمًا منتصرًا بالطبع .

ومع ذلك ، كان اهتمامه الرئيسي في ذلك الوقت أن يتردد على الزهاد والمرابطين ، ومن الذكريات التي كانت تقع في خاطره دائمًا ، ويرددها في حنان ودود ، حياة وعادات نُونة فاطمة الإشبيلية الصوفية ، وكانت امرأة تقية صالحة ، والهة في حب الله ، وارتبط معها بأواصر الأخوة ، ولزمها سنين خادمًا ومريدا ، وشيّد لها بنفسه خصا من الأعواد ، اعتكفت فيه زاهدة ومسكينة ، وكانت العلاقة بينهما مثالا عاليًا للشرف والحب الصوفي ، ويذهب لزيارتها صعبة والدته ، وكان وجه هذه يحمر خجلا واستحياء عندما ترى وجنتى تلك المرأة متوردتين وبشرتها نضرة ، تبدو كفتاة في الرابعة عشرة من عمرها ، وبقي أن نعرف أن هذه المرأة على الرغم من فائض النعمة التي تبدو فيها ، وميعة الشباب التي تحتفظ بها ، بلغت الخامسة والتسعين من عمرها ، عبرتها صحيحة ، وأمضتها واعية .

وفضلا عن هذه العابدة احتفظ في ذاكرته بأخرى تسمى مرجانة ، وكان يدعوها « شمس خادمت الله وأم الفقراء » ، وثالثة من إشبيلية تدعى أم زهرة ، وبجمهرة لا تحصى من الزاهدات والصوفيات والعبادات ، اللاتي يملأن مدنا أخرى . ويذكر على

نحو أكثر إصراراً أستاذاً واحداً تعلمن عليه جميعاً ، وهو عبد الله الموروني ، ودرس عليه علم التوحيد .

وعندما بلغ سن الرشد ، وتسلح بقدر كاف من المعارف ، بدأ رحلاته ، فذهب إلى تونس ، ويذكر أنه نظم قصيدة في جامع الزيتونة ، وفيما بعد ، عندما عاد إلى إشبيلية ، فوجيء بأنهم يرددونها في أسواق إشبيلية منسوبة له ، دون أن يكتبها أو ينشدها أحداً . وذهب إلى فاس ، وفي مسجدتها الجامع تلقى الفيض الإلهي ، وفي جنة ابن حيون ، مهبط لقاء مريديه ، أثار العجب بينهم بما أظهره في أحاديثه من علم ، وعندما مر بمدينة سبتة درس في بيت زاهد كان تلميذاً للغزالي ، وصاحب مذهب وأفكار كان ابن عربي يحب أن ينظمها شعراً .

وقبل أن يتنبأ بالمهمة التي خصته بها السماء في المشرق ، تجول ثانية في تلك المدن وفي مدن أخرى ، فقد رأى وهو في التاسعة والعشرين من عمره في مدينة طريف ، وفي تلمسان حيث زار قبر عمه الموقر يحيى ، وأشرنا إليه من قبل ، وفي الثلاثين من عمره كان في تونس ، وبعدها بعام في فاس . وفي الثانية والثلاثين كان في إشبيلية ، وبعد قليل عاد إلى فاس ثانية ، وفي الخامسة والثلاثين شوهد في غرناطة وألمرية حيث ألف كتاباً رمزياً وموسيقياً ، وفي السابعة والثلاثين من عمره كان في مدينة مراكش .

وفي هذه المدينة الأخيرة تلقى دعوة من السماء بأن يذهب إلى المشرق ، حوّم فوقه ، في غرفته أو صومعته التي كان يلزمها ، طائر رائع الجمال ، أعلمه بالخبر . واستجاب لهذه الدعوة الكبرى ، ورحل إلى المشرق ، ومر بفاس وبجاية ، وفي هذه الأخيرة رأى حلماً عجيباً : أنه تزوج زواجاً صوفياً بكل نجوم السماء والحروف والبدور ، وعرض رؤياه هذه على من قصها على رجل عارف بالرؤيا ، فاستعظمها وقال : « هذا هو البحر لا يدرك قعره ، صاحب هذه الرؤيا يفتح الله له من العلوم العلوية ، وعلوم الأسرار ، وخواص الكواكب » ، وفي تونس ، المدينة التي شهدت ظواهر تقواه الخاشعة ، ذهب ليزور أخوته في كهف يقع وسط مقابر الجانب الشرقي ، وزار القاهرة ، ولا يحمل عنها ذكريات طيبة ،

فقد ثارت في وجه أفكاره ، وكان على شفا أن يقتل فيها متهمًا بالزندقة ، ومنها ذهب إلى مكة .

وفي عاصمة الإسلام تلقى النور الإلهي غامرًا ، وكان ذلك دافعًا له فيما بعد ، وبخاصة وهو يطوف بالكعبة ، إلى تأليف كتابه « الفتوحات المكية » ، وهو أروع كتبه ، وكان قد بلغ من العمر حينئذ تسعة وثلاثين عامًا . وفي الواحد والأربعين من عمره ظهر في بغداد ، وفي الموصل ، وبعدها بعام ظهر فيها حول أرمينية ، وذهب إلى نيفارقين ، وديار بكر ، وقونية ، وسيواس ، وغيرها . ومنها عاد إلى مصر ، والقدس ، وبغداد ، وبعدها بقليل رأى في ملطية في آسيا الصغرى ، وهي قرية كانت تحت حكم الإغريق البيزنطيين ، وفيها تزوج المرأة التي رزق منها بولديه ، وهما شاعران مشهوران . وفي الخمسين من عمره وجد في دمشق ، وفي حمص أجرى عليك الملك راتبًا يبلغ مائة بيزته^(٧) يوميًا ، وكان ابن عربي يوزعها بين الفقراء . وفي الثامنة والخمسين كان يقيم في حلب ، في بيت أهداه له حاكم المدينة ، وتصدق به صاحبنا ابن عربي على أحد المتسولين في الشارع ، وأخيرًا عاد إلى دمشق ، وله من العمر ثلاثة وسبعون عامًا .

هناك ، بعد أن كتب أهم مؤلفاته ، وهو الفتوحات المكية ، وسط فيض وكشف لا يتوقف ، تلقى خلاله علوم ما وراء الطبيعة إلهامًا ، في أشكال هندسية وتشخيصات جبرية ، ومات في الثمانين من عمره ، محترمًا بفضائله ، موقرًا لمواهبه . وحين كان يأخذ طريقه إلى الآخرة ، بدأ الطفل راجموندو لوليويتهته بين ذراعي الحاضنة في مدينة بالمة ، من جزيرة ميورقة ، وفيما بعد سوف يتجول رجلاً ، مبشرًا بالمسيحية ، في نفس الأمكنة التي مر بها ذلك الرابط الإسباني المسلم قبله بأربعين أو ستين عامًا .

كان ابن عربي في حركته الدائبة يحمل حياة سارحة ، يبدو معرضًا عن ضجيج الدنيا ، ويتخفى وراء مسكنته واعتكافه ، ورغم ذلك لم يكن مغموراً ولا مجهولاً في أي مكان ذهب إليه ، وتعود أن يقول عن نفسه إنه مجنون ، ورغم ذلك يربى مريديه ، ويحاضر إخوانه ، ويروض تلاميذه . وكان هؤلاء الفقراء الناسكون يمثلون حينئذ ، كما هو الحال في

(٧) البيزته تعادل الآن قرشا مصريا واحدا .

عصور تلت ، قوة هائلة في العالم الإسلامي ، يثيرون الشعوب ، ويدفعون الملوك ، كي يقاوموا المسيحيين ، ويكتبون لهم كي لا يسمحوا لهؤلاء الكفار أن يقيموا كنائسهم ، أو يدقوا نواقيسهم أو يرفعوا أصواتهم وهم يتظاهرون عبر شوارع المدينة في مواكبهم الدينية ، وكان ابن عربي في المشرق خلال الحروب الصليبية ، فأخذ يستنهض هم المسلمين كي لا يسمحوا للنصارى أن يختلطوا بهم ، وألا يزور أولئك هؤلاء ، ويكتب إلى المسلمين الذين يقيمون في بلاد الروم يحثهم أن يحافظوا على دينهم ، وألا يدخلوا في جدل مع المبشرين المسيحيين ، وهو شئ يعافه ، وإن مدح أحياناً الحوار مع بعض المسيحيين ، لأن هذا مما تقتضيه مثالية الفضائل الإسلامية ، وسمو عقيدته الدينية وصفائها ، وهي - فيما يرى - أكثر إقناعاً من الأديان الأخرى ، لأنها تؤمن بكل ماهو صالح في الإنجيل وصحف موسى .

وفي أواخر أيامه رأى الملوك تجله ، والشعوب توقره ، وأدرك التأثير الرائع الذي أحدثته أفكاره العميقة ، ونظرياته العلمية ، وأصبح الناس يحتفظون بكتبه ويقرأونها عبر كل البلاد الإسلامية . ومنذ قرنين فحسب ، ذهبت جماعة من علماء المغرب إلى سفح جبل قاسيون ، خاشعين راغبين ، لكي يصلوا في ضريحه ، ولا يزال هذا الصوفي الأندلسي الشهير موضع الإجلال والتقدير حتى يومنا هذا .

إن التشابه المثير في حياة كلا الصوفيين الإسبانيين ، المسلم والمسيحي ، يعود إلى خصوصيتهما الفكرية . لقد كتب ابن عربي ، ومثله في ذلك لوليو ، أكثر من أربع مئة مؤلف ، أو على الأقل هذا ما اعترف به نفسه في رسالة كتبها لابن السلطان الكامل . وهذا التشابه في السلوك يمكن أن يكون صدفة كله ، ولكن ما ليس سهلاً تفسيره عن طريق الصدفة البحتة ، أو الاتفاق العارض ، هو التشابه في نظامها ومبادئها ، ومنهجها . وطريقة عرضها لما يدعوان إليه ، وثمة موقفان ، أو ثلاثة ، بخاصة لها طابع شخصي ، ويشيران إلى العلاقة المباشرة الودود بين كليهما .

كتب ابن عربي مؤلفاته يبغي بها تربية المرابطين والعاكفين ، وإثارة الحمية في نفوسهم

حتى يصبح اسم الله موضع الإجلال في الأرض ، وليعملوا على بناء البشر وتهذيب أخلاقهم ، وأن يرتفعوا بفهمهم حتى يبلغوا الحقائق الإلهية . وإذا كان قد اهتم بالعلوم التي تستهدف أشياء دنيوية ، فلكى يعرف « المحبوب » على نحو أفضل ، فغاية العلم معرفة جوهر الحب الإلهي .

وابن عربي ، مثل لوليو ، يؤكد أن العلم واحد ، ويبحث عن الواحد ، والأشياء الموجودة ليست إلا كلمات الله ، الذي يرى صورته نفسها في المخلوقات ، كما أن المرء يرى صورته نفسها عندما يقف أمام المرآة .

ويرى ، ومثله في ذلك لوليو ، أننا يمكن أن نبليغ العلم عن طريق الإيمان ، وعن طريق الفهم ، ولكن قوة الروح أقوى من قوة العقل الطبيعية ، لأن الإيمان فوق الفهم والعقل ، ومصدر العلم نجى فيضاً لا تحصيلاً ، والعقل يحتاج دائماً إلى عون مافى براهنيه . وهذه لا تكون علماً حتى ولو استندت على الأسباب الضرورية ، أما الإيمان فضرورة بذاته ، ومن ثم يصلح أن يكون للعقل في البحث عن الحقيقة ، وبالإرادة نستطيع أن نبليغ علماً أسمى من علم الفلاسفة ، وما يعجز العقل الإنساني عن معرفته بطريقة الفكر النظري يكشفه الله لعباده إشراقاً ، لأن كثيراً من الأشياء تقع في الجانب الآخر من جبل المعرفة الإنسانية . والله يهب الحقائق العليا لأصحاب الإرادة ، أما القياس المنطقي فلا يكفي لما وراء الطبيعة أو العلم الإلهي .

وقد تلقى ابن عربي ، فيما يقول ، كل العلوم عن طريق النور الإلهي وحده ، ونفس الشيء يصرح به لوليو ، وعندما كان ابن عربي في إشبيلية تلقى المعرفة بالعلوم الطبيعية والفلكية ، بلا كتب ولا أساتذة ، وعرف الكيمياء ، كما يصرح . عن طريق الإلهام علماً موهوباً . ولهذا ليس من عادته أن يشير في كتبه كثيراً ، كما يفعل مؤلفون آخرون ، إلى العلماء أو المؤلفين . يقول ومثله فعل لوليو من بعد : « لسنا نحن الذين يشارون إلى كلمات هؤلاء ، أو أمثال أولئك ، وإنما نقدم في هذا الكتاب (أى الفتوحات المكية) ، وفي كل كتبنا ، ما منحنا الفيض الإلهي ، وما أمر لنا به الله » .

وأسلوبه متناسق مثل لوليو ، وبين العالم العلوي والعالم السفلي تطابق كامل فيما يرى .

وأشكال الأفلاك العليا مثل الأشكال السفلى الأساسية ، ويوجد تناسق كامل بين كل الأنظمة ، ما هو متصل بعلم الكائنات ، وما هو منطقي أو أخلاقي . وهكذا فإن الكائن الصافي ، والكائن غير الصافي ، وما ليس كائناً ، ويمكن أن يصبح كائناً ، أى الممكن ، كلها تتلاقى فى نظام آخر من التقدير مع الله ، والعدم والعالم ، واليقين ، والإنكار ، والشك ، والنور ، والضباب ، والشفق ، والسماء ، وجهنم ، والبرزخ^(٨) . وتناسق نظامه السابق يبلغ النهاية من الكمال ثابتاً وجسوراً فى وحدة الوجود ، ويحاول فى جراءة عظيمة ومنطقية أن يستدل عليها من عقائد الإسلام الأساسية ، وأن يستخرج حتى الحروف نفسها من النصوص القرآنية .

والشكل الذى استخدمه ابن عربى لكى يعرض أفكاره ، وما يمكن أن نطلق عليه منهجه التعليمى ، له مشابهاة لا شك فيها عند لوليو .

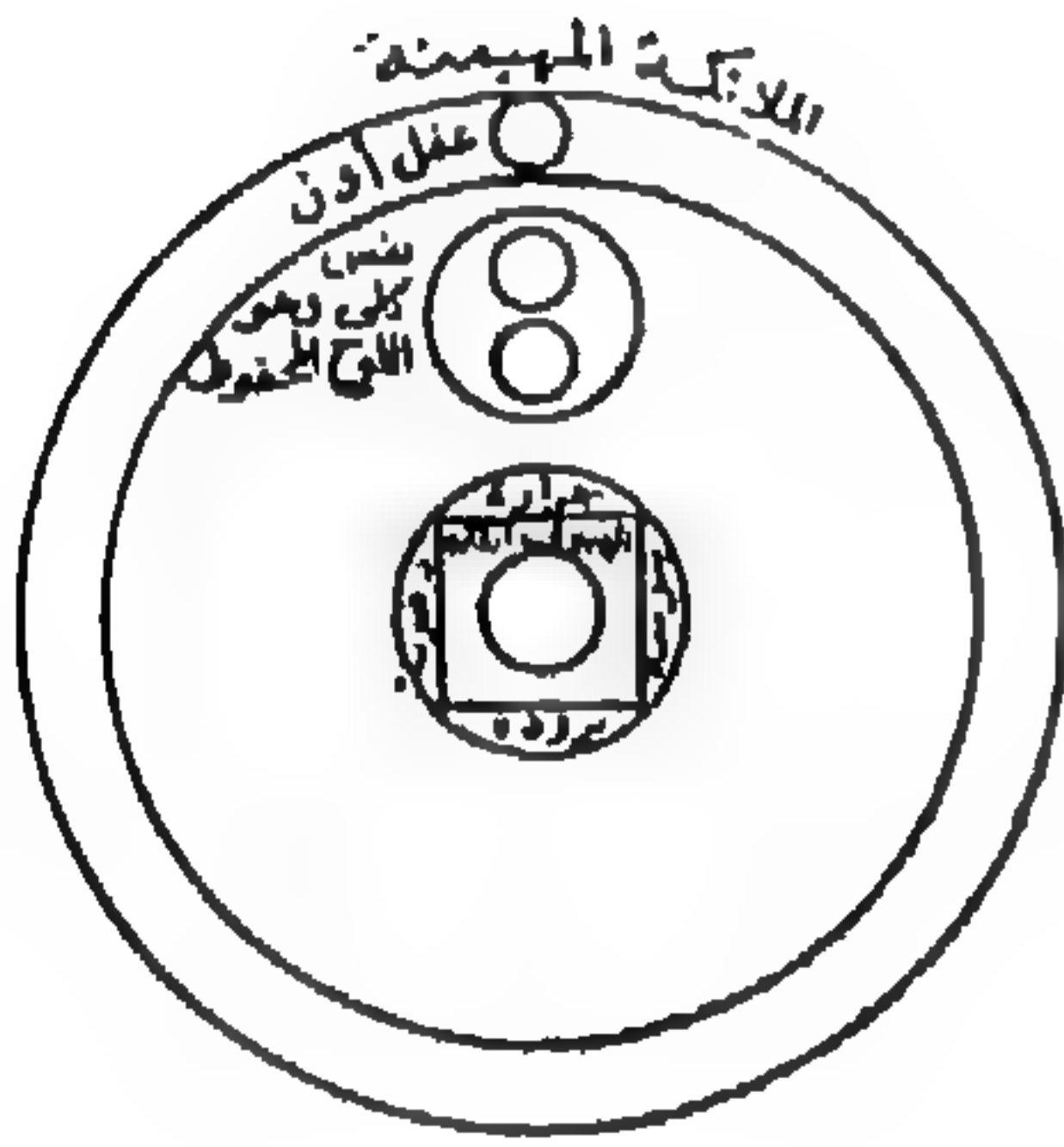
لقد نظم ابن عربى المواد المختلفة شعراً . مهما كان الموضوع جافاً ، وهذه الأشعار يمكن أن تتسم بالجفاف . نعم إيقاعها منضبط ، وموسيقاها واضحة ، ولكن ما فيها من الشعر قليل ، وكل ما هنالك أنه يستخدم نغم القافية وسيلة يعاون بها القارئ على أن يحفظ من الذاكرة ما يحاول أن يعرض عليه . إنها أشعار ميتافيزيقية صعبة الفهم ، حافلة بالمعاني ، ولكنه يكتبها فى سهولة منقطعة النظر ، ويبلغ به الأمر أن يعتقد ، حتى فى هذه ، أنها جاءتة إلهاماً ، لأنه ينظمها فى الحلم . ويتذكرها يقظاً ، وأحياناً يلاحظ عندما يستيقظ أنها تخرج من فيه آلياً . دون أى جهد ثقافى . كما لو كان ثمة شىء فى داخله يملأها عليه ، ونظمها فى كل الأنواع : شعراً وموشحة وزجلاً ، وفى كل البحور ، واستخدم فى قوافيها جميع الحروف . وتحس فى بعض قصائده الصوفية لوناً شعرياً واضحاً ومتميزاً ، ويتوجه فيها إلى الله محبوبه تحت رموز مختلفة ، وسوف نعرض لهذه الأشعار فيما بعد ، على نحو خاص .

ويلعب الجمّل السحرى دوراً عظيماً عند ابن عربى ، وتعود أن يخلطها فى كل أفكاره

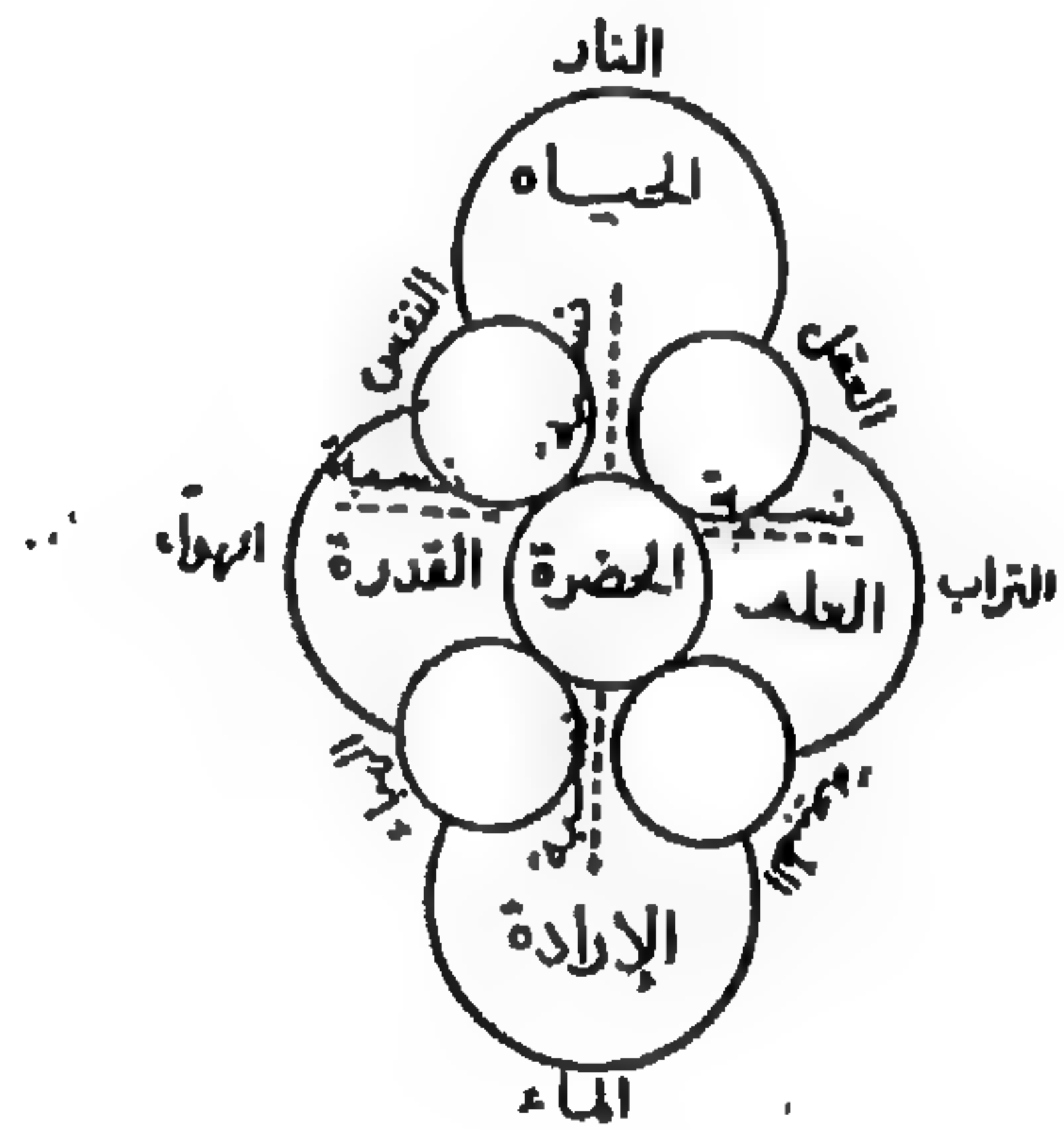
(٨) انظر : ميجيل أسين بلانيوس ، محي الدين بن عربى ، فى كتاب « نكرم مينتديث أى بلايو ، ج ٢ ، ص ٢١٧ -

٢٥٦ ، حيث يشرح بعض هذه المصطلحات .

تقريباً ، وبها يشرح أحياناً أشدها غموضاً وميتافيزيقية . ويؤمن بالفضائل الخاصة للحروف والأرقام ، ويستخدمها في مربعات كوسيلة تربوية . ويبدو لابن عربي ، ومثله لوليو ، أن كل شيء سهل الفهم عن طريق الرموز ، وتجسيمه عن طريق الرسم ، ويعرض العلم في أشكال رياضية ، ويشرحها مستخدماً المثلثات والمربعات ، وقد تداخلت في بعضها البعض ، والدوائر ومراكزها ، والمربعات داخلها ، وغيرها . وبعض هذه الأشكال قريب الشبه جداً بما عند لوليو ، وأحياناً تجيء في صورة دقيقة منها تماماً ، ومعها ندرك العلاقة الوطيدة بينهما ، كما لو أن أحدهما نسخ صورته من الآخر^(٩) .



شكل (٢)



شكل (١)

وتعرض لابن عربي مثل لوليو حقائق ما وراء الطبيعة ، وأخرى إلهية ، في أشكال محسوسة ، ويرى الله أحياناً في شكل نور بلا شعاع ، وفيه تذوب روحه ، على حين توجد في هذا ، في الوقت نفسه ، كل الأشياء بجواهرها التي تتكون منها ، وفي مرات أخرى كانت تعرض له ، كما لو كانت مركز دائرة ، يخرج منه ما هو ممكن في شكل شعاع ، وهناك بعيداً من المحيط ، يوجد المستحيل والعدم الخالص وغيرها . وهذه الأحلام المدهشة التي يراها في إلهامه ، كانت أشياء محسوسة . وليست عقلية ، وفي شكل حقيقي وليست مثالا .

(٩) انظر أسين بلاتوس في المصدر السابق : تصوير وتفسير دائرة الممكن ، ودوائر الأجاس والأنواع .

فلا غرابة إذن أن يضع في عدد من مؤلفاته بعض الرسوم ، يصور بها جانباً من أحلامه على نحو أكثر سهولة للناس من أصحاب الخيال^(١٠) .

وتقنية ابن عربي مثل تقنية لوليو ، صعبة وغامضة على الغرباء ، وإن شئت طبقاً لما يصرح به هو نفسه . إن علمه لا يمكن أن يخضع للتقنية ، ولا تكفي اللغة العادية لعرضه . وفما يتصل بالأشياء التي تتشابه يكفي أن يتفق الناس على أن يعطوا نفس الأسماء لنفس الأشياء ، أما العلوم الإلهية . ونجيته إلهاما ، فلا توجد لها مصطلحات لأن ما عند الله ليس له مثيل ؛ ولئن جانب آخر لا يحدث أبداً أن يظهر ماهو إلهي للشخص الواحد مرتين في الصورة نفسها ، وبالتالي من المستحيل أن توجد تقنية لتوصيله . وفضلا عن ذلك يحدث للصوفية ما يحدث للعشاق . حين يبلغ بهم هياج الشهوة مبلغه ، فيتحدثون مثل المجانين . بطريقة شاذة ومبالغ فيها ، لأنهم لا يستطيعون أن يتحكموا في إرادتهم ، ولا أن يقيسوا المدى الذي تبلغه ألفاظهم .



شكل (٣)

في ضوء ما فصلناه سابقا نستطيع أن نفهم موقف ابن عربي . وكان في نطاق الإسلام شبيهاً بموقف لوليو بين المسيحيين : ذاك مثل هذا كان عدواً متطرفاً وصريحاً لآراء ابن رشد الفلسفية ، والمفكرين الأحرار ، والذين يرفضون فكرة الإلهام والنصوص الدينية ،

(١٠) يقول ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية ، الجزء ٣ ، ص ٥٢٣ ، أنه ألف كتاباً بعنوان : انشاء الجداول والدوائر ، صور فيه العالم والحضرتين ممثلتين في أشكال العلم بها على صاحب الخيال ، إذ لا تغلو العقول من حكم الأوهام فيما تعلم أنه محال ، ومع هذا تنصوره ، ويغلب عليها حكم الوهم ، إذ لا ينضبط لها العلم بذلك إلا بعد تصوره ، وحيث تنضبطه القوة الحافظة ونحكم عليه القوة المذكورة .

والإيمان . ولكنه من جانب آخر كان يمضى بعيداً عن طريق الفقه الرسمى ، كما كان لوليو بعيداً عن الكنيسة الرسمية ، وكلاهما كان يحاول أن يصلح الناس ، وأن يهذب الأخلاق بوسائل تربوية غير حكومية .

وكان الصوفية يريدون أن يبعثوا النهج القديم من حياة الإسلام ، تلك الأيام التى تلت وفاة الرسول ، وكان لوليو يطمح أن يبعث نظام الأخبار من الرسل . ورجال الدين الرسميون فى كلا الدينين عاملوهما بكل برود ، واهتمهما دعاة العقل فى كلا الشعبين بالجنون ، وأنها دعاة يحلمون بالمدن الفاضلة .

وكان الفقهاء يقولون عن المرابطين إنهم يتحدثون كسكارى ، لغتهم غير مفهومة ، وألفاظهم ذات معنى حين تؤخذ مفردة ، ولكنها فى جملة لا تفهم ، ولا تعنى فى ظاهرها شيئاً . وعل النقيض ، كان تلاميذهم ومريدوهم يجدون فى الكلمات التى لا يفهمها الآخرون معانى خفية ورائعة ، وتعودوا أن يقولوا عن معارضيتهم إنهم ليسوا إلا رغبة أودخاناً سوف يذهب بهم الزمان .

يقول كمال الدين ، أحد كبار العلماء فى سورية : « يالهم من جهلة ! . يالهم من جهلة أولئك الذين يستنكرون بعض التعبيرات ، والكلمات التى يستخدمها ابن عربى فى كتاباته ، إنهم يجهلون معانيها لأنهم لا يملكون الذكاء الضرورى لفهمها ! . ليأتوا إلىّ ، سوف أحل لهم صعوباتها ، وأشرح لهم ما أراد ذلك الرجل العظيم أن يقول ، وبهذه الطريقة تبدو لهم الحقيقة واضحة ، ويمكن أن تزول همومهم الخاطئة » .

وقد سئل الفقيه زروق البرنوسى عن رأيه فى محبى الدين بن عربى فقال : « هو فى رأى أستاذ عالمى ، أراه شيخ العلماء ، أولئك الذين يعرفون كل شىء ، وفما يتصل باستقامة عقيدته يجب أن أعترف بأن الآراء لا تتفق فى هذا يراه بعضهم زنديقاً ، ويراه الآخرون ولياً ، ضربه الله مثلاً للمسلمين » .

« ويسألون زروقاً ، ومع أى الجانبين أنت ؟ فىجب : فيما يبدو ، القول بأنه زنديق مجازفة من جانبى ، والقول بأنه ولي مخاطرة ، وقد تودى إلى فضيحة بين الجهال . وهو ما يجب أن يراه الإنسان الحكيم فى مثل هؤلاء الأشخاص كلهم ، كابن الفارض ،

والششترى ، وابن أملة ، وابن سبعين ، والعفيف التلمساني ، وغيرهم ، ففي زهدهم حقائق تتصل بمذهب وحدة الوجود على التأكيد .

وباختصار يمكن القول بأن رأى المسيحيين فى أفكار راييموند لوليو ، لا يبعد كثيراً عن رأى المسلمين فى ابن عربى ، مع تفاوت بسيط لصالح الفيلسوف الميورقى . حين نتأمل جيداً كل ما سبق تسترعى نظرنا التشابهات الكثيرة فى الحياة ، والنظام ، والمنهج ، والموقف ، بين هذين الصوفيين الإشبانيين ، كل منهما فى نطاق الدين الذى آمن به ، الإسلام أو المسيحية .

وفضلاً عن هذه التشابهات ، وهى دلائل واضحة على علاقات مباشرة ، أو غير مباشرة ، بين محبى الدين بن عربى ورايموند لوليو ، استطعت أن أميز بعض الرموز ، وهى دليل واضح على وجود علاقة خاصة ، مباشرة وشخصية بين المذهبين ، وتؤكد - فيما أرى - أن لوليو يجب أن يكون قد انتفع إلى حد بعيد بكتب ابن عربى ، وهو ما يفسر لنا جانباً كبيراً من زهده ومن فلسفته .

بين أعمال لوليو المنظومة واحدة تحمل عنوان : « أسماء الله المئة » ، يقول المؤلف فى مقدمتها : « يقول المسلمون إن فى القرآن ٩٩ اسماً ، وهى أسماء الله الحسنى ، ومن يعرف الاسم المئة يعرف كل الأشياء ، ولهذا آلفت هذا الكتاب :

« أسماء الله المئة » ، وأعرفها كلها » . « وفى كل اسم من أسماء الله نظمنا عشرة أبيات من الشعر ، ويمكن أن ترتل فى الكنيسة على نغمات المزامير ، فلهذا السبب نظمناها ، لأن المسلمين يرتلون القرآن فى مساجدهم » . « وبما أن الله جعل للكلمات وللأحجار وللحشائش خاصية مميزة ، فكذلك مع أسمائه ، ولهذا أنصح بأن تذكر أسماء الله المئة كل يوم ، وأن تحملها مكتوبة معنا » .

كان فى ذهن لوليو ، كما نرى وكما يصرح به هو نفسه ، عندما كتب مؤلفه هذا ، أمثلة من التقوى الإسلامية يهدف إلى إدخالها فى المسيحية . وفضلاً عن هذا ، نلاحظ تأثير المذاهب الإسلامية فى أفكاره . فهو يتحدث عن أسماء الله الحسنى كما لو كانت تعويذة لها فضل وتأثير ، وهو شىء إسلامى تماماً .

ولست أعرف ، أنا على الأقل ، أن الفضائل الطبيعية أو المعجزة لأسماء الله الحسنى شائعة بين المسيحيين ، كما لو كانت أحجاراً أوحشائش لها قوة سحرية خفية . وعلى العكس كان المسلمون على الدوام يترتلون أسماء الله الحسنى ويتذكرونها ويحملونها معهم مكتوبة ، كتعويذة تقيهم كل مكروه .

وإذا كان لوليو حين ذكر هذه الفضائل لأسماء الله الحسنى ، قد سار على خطى مؤلف مسلم ، وهو شيء واضح ، فمن المؤكد أن هذا المؤلف هو محيي الدين بن عربي ، لأن هذا كتب عدة مؤلفات شعراً ونثراً تتصل بأسماء الله الحسنى ، وفي الجزء الأخير من مؤلفه العظيم الفتوحات المكية توجد رسالة مطولة ، كتبها شعراً ونثراً عن « أسماء الله الحسنى » ، على الرغم من الجدل الذي قام حول ما إذا كانت هذه الأسماء التسعة والتسعون مذكورة في القرآن أم لا .

وثمة ملمح خاص عن العلاقة الشخصية بين كلا المؤلفين يمكن أن نجدها فيما دعا إليه لوليو من أنه يجب إعادة تنظيم مجمع الكرادلة في روما ، وذلك في رسالته المسماة « بلانكيرنا » ، فجعل لكل كاردينال ، بما في ذلك البابا ، اسماً اشتقه من أبيات ترتيلة « المجد لله في الأعالي » ، وجعل لكل منهم رسالة يؤديها في الدنيا مشتقة من اسمه الذي اختاره له ، فهناك كاردينال يسمى « نحمدك » ، وآخر يسمى « نباركك » ، وهكذا . وفي النظام الداخلي للصوفية ، كما رآه ابن عربي ، نجد أشخاصاً موكلين بالوعظ وتربية المسلمين وهم الأقطاب ، ولفظ قطب ومعناه المحور قريب من لفظ Cardo أو Cardinis اللاتيني ، ومعناه قلب ، ومنه اشتق لفظ كاردينال . وكل قطب له لقب مقتبس لفظه من القرآن ، ومكلف بأن يعظ الناس بقلبه ، وأن يردده في الخافقين ، وأن يمارس في الوقت نفسه مهمة تتصل بما يعبر عنه في هذا النص ، فهناك قطب لقبه « لا إله إلا الله » ، وثان « الله محمود » وثالث « الحمد لله على كل حال » ، وغيرها^(١١) .

(١١) أشك في أن الصوفية ابتدعوا لفظ قطب ، ربما لم يصنعوا شيئاً أكثر من تقليد التنظيم العتيق في الكنيسة الكاثوليكية ، بطريقة خفية وغامضة ، لتعويض غيبة مثل هذا التنظيم في الإسلام ، واقترح لوليو فيما بعد ، متأثراً بالصوفية ، أن يبعث ما سبق للصوفية أن قللوا فيه المسيحيين ، وبعد كل شيء فن المعلوم أن التصوف الإسلامي وليد الأفلوطينية الجديدة للمسيحية .

اتفاق نادر وغريب : إن التجديد الذى أراد لوليو أن يدخله إصلاحاً فى المسيحية ، أطراه فى شكل شبيه له ، الصوفى المسلم ابن عربى .

ولكن الدليل القوى ، وفيما أرى يمثل البرهان الحاسم ، ويفوق كل ما أتينا عليه من مشابهات واتفاقات فيما سبق ، ماورد فى كتاب الصوفى لوليو : « الصديق والمحجوب » ، يقول ، على نحو ما رأينا فى نصوص سابقة ذكرناها : إنه وجد الناس فى جانب من بلاد البربر يحكون هناك أن الأتقياء يرتلون الأناشيد عن الله والحب ، ويسبحون عبر الدنيا ، يعانون المسكنة وأعمالاً أخرى كثيرة ، وأن هؤلاء الصوفية أو المرابطين تعودوا أن يرسلوا بعض الأمثال والحكم القصيرة التى يتطلبها أسلوبهم ، ويضيف لوليو : إنه ألف كتابه طبقاً لهذا المنهج .

ونجد أيضاً اتفاقاً بالغ الغرابة ، وهو أن ابن عربى عثّن كتاباً زهدياً خالصاً له : « ترجمان الأشواق » ، وصنّفه كما يقول فى المقدمة منه ، وفى أمكنة أخرى من كتابه « الفتوحات المكية » ، بأنه مجموعة من شعر العشق ، تشبه ما يقوله الحبيب فى محبوبة ، غير أن ألفاظه ذات معانٍ رمزية ، وكل المفردات المطروقة فى الشعر العربى من : الأطلال ، وأريج الزهور ، والقمر ليلاً ، والنجوم والبرق والرعد ، والصبا ، والروابي ، والحدائق ، والغابات ، والفتيات الكواعب والتماثيل الجميلة وغيرها ، لها معانٍ خفية ، وأن الصور الغزلية ، والصفات الغرامية ، تشير إلى الله ، والعلوم الإلهية ، ولفهمها يجب التعمق فيها ، والغوص إلى أبعد أغوارها ، وليس الوقوف عند ظاهرها وحده . وقد كره بعض الفقهاء هذا الشكل من الشعر الصوفى ، وصدّمهم أن تستخدم الأشعار الغزلية فى التوجه إلى الله ، والحديث عن الأشياء الإلهية . ولهذا وجد ابن عربى نفسه مضطراً إلى أن يؤلف كتاباً آخر أعطاه عنواناً : « ذخائر الأعلاق » ، وفيه عرض وشرح الغاية من كل لفظ أو تعبير أو تصوير ، وهى تفسيرات مفيدة لمن يقرأونها ، فيما يرى . لقد كانت تراويل الحب وقفاً على العاكفين أو خدام الله ، وهذه الكلمات الحنون تجعل من الإثارة المعنوية

عملاً جميلاً ومحبياً^(١٢)

وفضلاً عن هذا فإن العقيدة التي يضمها فيما يتصل بالحب الإلهي تفسر من بعيد مذهب وحدة الوجود ، الذي نلاحظه في صوفية لوليو . ويكرر ابن عربي في أكثر من مكان من مؤلفاته مذهباً مشابهاً نتبينه من فقراته التالية : « إن الغاية التي يؤدي إليها الحب الروحي هي المطابقة ، بأن تصير ذات المحبوب نفس ذات المحب ، وأن تكون المطابقة متبادلة ، فتصير ذات المحب نفس ذات المحبوب كذلك » . وهي فقرة تتفق تماماً مع ما يعرضه لوليو في بدء كتابه « الصديق والمحبوب » . فهما يتفقان كلاهما في الشكل ، وفي الخطوط العريضة للمعنى ، ويحملني هذا على الاقتناع بأن لوليو في مذهبه يتكأ على كثير من الأشياء عند محبي الدين بن عربي .

ربما كان من الأوفق طبعاً أن نجد كثيراً من جمل ابن عربي ، وفقرات من كتبه ، ترجمها لوليو ، ولكن الأمل في أن نجد شيئاً شبيهاً بهذا لا يجب أن يستولى على مشاعرنا ، لأن لوليو لم يهمل ذكر المصادر فحسب ، ولكنه ترك ماعوداً أن يفعله آخرون أحياناً . مثل : رايوندو مرتين . وألبرتو ماجنو ، وتوماس الأكويني ، وغيرهم . لقد حذف هؤلاء الأسماء . غير أنهم كانوا ينقلون فقرات الفلاسفة السابقين كاملة . وليس ثمة شك في أن لوليو درس كتب الصوفية ، وأطلع على علمهم وتمثل مذهبهم ، ولكنه فيما بعد ، مع كل هذه المادة التي تعلمها ، شكل طريقته ، وعندما كتب لم ينسخ عن آخر ، وإنما قال ما عنده ، كما لو كان له شخصياً . كيف استطاع أن يعتقد أنه ملهم ، على حين وهو يعرض مذهبه لم يتوقف عن نسخ النصوص العربية ؟. إن القول بأنه ملهم ، وأنه نقل النصوص العربية في الوقت ذاته ، لا يتسع لها معبد لوليو الأخلاقي . وإذا لم يذكر الأسماء ، ويحدد النصوص . فلأنه كان يعتقد أنه جاءته إلهاما .

باختصار ، كان من عادة لوليو ألا يذكر مصادره . وألا يترجم . وأعتقد أنه استخدم الوسيلة الوحيدة لكي يشير إلى انتماء طريقته الفلسفية ، بأن يقول إنه سار على

(١٢) إلى أستاذي العزيز فرانسيسكو قديرة يعود الفضل في الحصول على بعض الفقرات والملاحظات عن مؤلفات محبي الدين بن عربي ، من كتابه « ترجمان الأشواق » ، وأخذها مباشرة من النسخ المخطوطة التي تحتفظ بها مكتبة الاسكوريال .

خطى الصوفية ، وابن عربي من بينهم بالذات يفسر لنا أشياء كثيرة خاصة ، أصبحت من ملامح الفيلسوف المورقي . كالمبادئ الأساسية لمذهبه ، وسلوكه الخاص ، ورأيه العلمى ، ومنهجه التربوى ، وتقنيته ، وأخيراً صوفيته . وهو نفسه يعترف ، وذلك شىء نادر جداً . بالتقليد الذى اتبعه فى « الصديق والمحبوب » ، وهو نقطة الانطلاق فى الصوفية المسيحية .

هذه الملاحظة الأخيرة كانت ، كما قلنا فى ما سبق ، الخيط الموصل للبحث الذى حملنا على أن نلمح آفاقاً جديدة لم يكن يحلم بها أحد ، وفضلاً عن أنها تملأ فجوة جاءت حلاً « للاستمرارية » فى تاريخ فلسفة مثل فلسفة لوليو ، كان لها أهميتها على امتداد مئات الأعوام فى نطاق المسيحية . وقادتنا فى نهاية المطاف إلى أن نهتم بأن نخرج إلى الضوء أفكار بعض علماء ما وراء الطبيعة المتعمقين من المسلمين الإسبان ، ولا يتحدثون عنهم فى أوروبا غير القليل أوبالكاد . ويحتفظون بأكثر من مفاجأة للباحثين . هكذا كان أصحاب وحدة الوجود الذين ولدوا فى أرض مرسية ، مذهبهم فيما وراء الطبيعة كان صدها فى العالم الإسلامى أعظم رنيناً من مذاهب فلاسفة آخرين مشهورين جداً بين المسيحيين ، مثل ابن رشد ، وابن باجة ، وابن طفيل .

وفى هذه المفاجأة لاأحتفظ لنفسى بأكثر من « مجرد سائح » يجىء فى الطلبة ، ولكى نحمل القضية إلى نهاية سعيدة لاأعتقد فى نفسى أننى مؤهل لذلك بدرجة كافية ، وأدعها آملاً وسعيداً وراغباً لصديقى الدكتور ميغيل أسين بلاثيوس ، والذى سوف يقوم بها خيراً منى . فهو يملك الاجتهاد . والصبر . والحماسة العلية ، وتكويناً فلسفياً أصيلاً ، وقوة مثل هذه الروح . وليست جامدة ولا متعصبة ، يمكن مع المرونة الضرورية أن/تواصل ، بلا عنف . اكتشاف التفكير المعقد ، والمتنوى ، والدقيق ، والعميق ، لهؤلاء الصوفية المسلمين .

وبهذه الطريقة . وفى نطاق حقلنا . نحاول أن نكمل وصايا ونصائح بطل العلم الإسباني الممتاز . والذى أهدي إليه هذا المقال .

الشعر الأندلسي وتأثيره في الشعر الأوربي

● هذه الدراسة القاها المستشرق الاسباني الكبير أنخل جونثالث بالثيا محاضرة في المعهد الاسباني التابع لجامعة كولومبيا في نيويورك . ونشرت في « المجلة الاسبانية الحديثة » ، السنة الأولى . العدد الثاني . يناير ١٩٣٥ .
وتصدر عن المعهد نفسه .

سوف أتحدث إليكم عن المسلمين الإسبان ، وعن جانب من الثقافة الإسبانية الإسلامية ، ولعبا دوراً عظيماً وبالغ الأهمية في الحياة الأدبية للشعوب الأوربية . وأود أن أعرض عليكم بعض النظريات الجديدة التي انتهى إليها كبار الأساتذة من العلماء الإسبان ، حول نهج القصيدة الغنائية التي أنشدها المسلمون في وطننا ، ومعها سوف تعرفون أن الأندلس كان يستخدم في العصور الوسطى البعيدة لهجة رومانية في الحياة اليومية ، ذات أهمية كبرى في دراسات فقه اللغة الحديث وستعرفون عرضاً قليلاً من الجهد الذي يقوم به المستشرقون المعاصرون في إسبانيا الحديثة ، والازدهار الذي تشهده الجامعات الإسبانية ، وفيها لمعت أسماء : خوليان ريبيرا ، وأسين بلاثيوس ، ومينينديث بيدال ، وبهم عرفت قمة من الجهد ليس لها شبيه .

وأول ما يجب علينا ، قبل أن نقترح مجال تاريخ المسلمين في إسبانيا ، أن نسقط من اعتبارنا قولاً معاداً ، ظل يتردد على امتداد أعوام طويلة خلت ، فحجب واقع أولئك الرجال ، وشوه حقيقة كياناتهم ، وأشد هذه الأخطاء . ويأتى في المقدمة ، الاعتقاد بأن أولئك المسلمين كانوا جميعاً عرباً أرومة ، وأن إسبانيا العصور الوسطى كانت منقسمة إلى فريقين ، في مواجهة مستمرة ، وفي صراع لا يتوقف ، دون أن يعرفوا اتصالاً آخر غير الصراع اليومي ، وهي فكرة مطروقة ، وقول مكرور . وكان محبياً إلى خطباء القرن

الماضى ، والصورة المحيية لديهم عادة أن يضعوا الهلال فى مواجهة الصليب ، وقد احتجب الأول حين رفع الكاردينال مندوثا صليبه البطريركى فوق برج الشمع فى غرناطة ، فى الثانى من شهر يناير عام ١٤٩٢ ، ولكن الحقيقة التاريخية تختلف عن هذا كثيراً ، وفى ضوء ما عرفنا ، واقتنعنا به كلنا ، بعد الملاحظات البالغة الدقة التى انتهى إليها أستاذى خوليان ريبيرا .

لقد لاحظنا معه أن الفتح العربى لم يأخذ طابع الهجرة ، على نحو ما حدث فى غزو شعوب شمال أوربا البربرية . حين استقروا فى أنحاء مختلفة من الإمبراطورية الرومانية ، فقصوا عليها ، ومزقوها شرمزق ، وجاءوا إليها بأسرهم وعاداتهم ودينهم ، وعاشوا فيها زمناً دون أن يتأثروا فى شىء بما هو رومانى ، وأبقوا دائماً على عادات أجناسهم الأولى فى البلاد التى قدموا منها . ولكن المسلمين الذين جاءوا إلى إسبانيا لمساعدة آل غيطشة ، ضد لذريق آخر ملوك القوط ، كانوا عدة آلاف فحسب ، قد يبلغون العشرين ألف عدداً ، من العرب وبربر شمال إفريقيا . جاءوا على دفعتين ، جنوداً فى جيوش مقاتلة ، وحين ارتأى قوادهم فتح شبه جزيرة إيبيريا لحسابهم ، بدل أن يقنعوا بمساعدة أبناء غيطشة ، استقروا فى الأرض الإسبانية ، وكونوا بيوتاً فى بلادنا ، وتزوجوا فى أغلب الأحيان بنساء إسبانيات . ولدينا أخبار عديدة عن سيدات عديدات من عليا الطبقة الاجتماعية القوطية ، أو الإسبانية الرومانية ، تزوجن من مسلمين . ونجد لذلك مثلاً متميزاً فى زواج أيلة Egilôn أرملة لذريق ، وتكنيها المصادر الإسبانية بأمة عاصم ، من عبد العزيز بن موسى بن نصير ، ومارست على زوجها العاشق قدراً كبيراً من النفوذ والتأثير ، واستطاعت أن تشعل فى أعماقه نار الطموح إلى العظمة ، وحب الفخفة ، حتى أنه جرؤ على أن يفكر فى الاستقلال بالأندلس ، وأوشكت الأميرة أيلة أن تحرر وطنها من التبعية المشرقية ، وهو حلم أتت عليه خناجر المغتالين حين أنها حياة الأمير فجاءة وهو يصلى فى المسجد ، عقاباً له على اتهام كاذب ألصق به ، بأنه اعتنق المسيحية تحت تأثير زوجه . وامرأة قوطية أخرى ، كان أحفادها بدورا فى سماء الإسلام الإسباني ، وأعنى بها سارة القوطية ، كما تدعوها المدونات العربية ، وقد بلغت الخليفة الأموى نفسه فى دمشق ، دفاعاً عن حقوقها ، وحلت مشكلة

الإقطاعيات التي كانت بيد النبلاء الإسبان الأصليين ، ومن بين أحفادها المؤرخ الشهير ابن القوطية ، أحد المؤرخون الذين لحظوا آثار وجود حزب قومي في جنوب إسبانيا ، بين أولئك الذين اعتنقوا الإسلام من المسيحيين .

وحتى أمراء قرطبة الأمويين ينحدرون من أمهات إسبانيات ، ونعرف فيما يروى لنا ابن حزم المؤرخ ، أن أمراء العرش الأموي ، ابتداء من عبد الرحمن الداخل ، كانوا أبناء سيدات من شمال إسبانيا ، أغلبهن من الباشكنس ، أو الباسك في اللغة الإسبانية الحديثة ، وبلغ بهم الأمر أن جاء شعرهم أشقر ، وعيونهم زرق ، لأن الرجال منهم كانوا يفضلون هذا اللون فيمن يتزوجون من النساء . فإذا نظرنا إلى عبد الرحمن الناصر ، الخليفة القرطبي الشهير ، في ضوء هذه الاعتبارات ، وجدنا نسبه من ناحية الأب سلسلة متصلة من الأسماء العربية ، ومع ذلك ، فما يجرى في عروقه من الدم العربي قليل جداً ، لأن كل جداته كن إسبانيات . ونسبة الدم العربي فيه ، واستعير التشبيه البليغ الذي استخدمه ريبيرا ، « مثل أن تصب قليلا من الأنيلين في بركة ماء ، فليس ثمة شك في أن الماء سوف يأخذ لون الأنيلين ، ولكن طبيعة تركيبه الكيميائي لم تتغير جوهرياً » .

إذا نظرنا إلى الأحداث من هذه الزاوية الجديدة لا نستغرب التأثير الذي لعبه المولودون ، وهم الإسبان الذين اعتنق آباؤهم الإسلام ، في الحياة الاجتماعية ، فقد أخذوا بحظهم من الحياة العامة ، وأسهموا في تطور البلد أدبيا واقتصاديا ، وفي القرون الأخيرة من الحكم الإسلامي بدأت تتردد في المدونات العربية أسماء كثيرة ذات ألقاب إسبانية أصيلة .

وجود جنس إسباني واصل حياته في الأندلس الإسلامي دفعنا إلى التفكير في أن هؤلاء القوم واصلوا الحديث بلغتهم الأصلية ، وكذلك الذين جاءوا إليهم من شمال شبه الجزيرة لكي ينضموا إلى صفوفهم ، والنساء اللاتي انتهى بهن المطاف في قصور الخلفاء وكبار الشخصيات ، مثلهم في ذلك مثل الذين ظلوا في الجنوب واعتنقوا الإسلام دين الدولة الرسمي ، أو الذين آثروا أن يظلوا على دين أسلافهم فلم يفارقوا الكاثوليكية ، وتطلق عليهم المصادر الإسبانية اسم المستعربين Los Mozàrabes وظلوا يتحدثون في حياتهم

العائلية ، وقضاياهم اليومية ، لغتهم الأصلية ، أو يستخدمون ما يسمى بعامية أهل الأندلس ، وهى لهجة بدأ علماء فقه اللغة يدرسون خصائصها . ويقول لنا المؤرخون ، مثل الخشني فى كتابه *قضاة قرطبة* ، إنها كانت تتحدث فى داخل القصور ، وتفهم فى دور القضاء ، وكان الأندلسيون يفهمون النكات ، والتعبيرات غير المحتشمة التى تقال فيها ، وتحملهم على الضحك . وبتأثير من هذه اللغة ابتدع العروض الرومانى ، وسوف نتحدث عنه فيما بعد .

وجود لغتين يتحدث بهما الناس معاً فى الجانب الإسلامى من شبه الجزيرة ، أتاح الفرصة لطريقتين مختلفتين فى مجال الشعر الغنائى ، ومظهرين متباينين فى ثقافة إسبانيا فى العصر الوسيط ، فأصبحت مثلاً فريداً بين كل دول أوروبا ، فى هذا المجال ، وفى جوانب أخرى حيثما اتصل الشرق بالغرب^(١) .

لقد أغرم الإسبان بالأدب العربى ، لأن الطريق إلى الحياة الرسمية والوظائف العامة يبدأ من إجادة لغة القرآن الكريم ، ومع أنهم كانوا يبتدئون الدراسة بالفقه والسنة ، إلا أن منهج تعليم اللغة العربية المستعمل فى المشرق ، والمطبق فى إسبانيا الإسلامية ، أدى بهم إلى معرفة الشعر العربى وتذوقه ، والإعجاب به ، وهذا اللون من الشعر ، ونصفه بالتقليدى . يتركز فى السير على نهج القصيدة الجاهلية ، وهى أشعار لا يعلى عليها فيما يرى النقاد العرب القدامى . ومن الواضح أن تقديس هذه النماذج أدى إلى التكلف . ذلك أن الشعراء العرب كانوا ينظمون دائماً أشعارهم وفقاً لهذا المنهج التقليدى . « فكان على الشاعر الذى ينظم قصيدة وفقاً للطريقة القديمة أن يبدأ بذكر المنازل التى ظعن عنها أهلها ، ثم يتحسر ، ويرجو أصحابه أن يقفوا معه ، لكى يبكى ذكرى حبيب ومترل ، ورفاقاً رحلوا عن هذه الديار إلى منازل ومياه أخرى . وبعد ذلك يدخل فى قسم النسيب من قصيدته ، فيشكو آلام الهوى . ومن ثم يستلقت الاهتمام نحو شخصه ، ثم يصف رحلاته المجهدة . الفياضة بالمتاعب فى ربوع الصحراء ، ويتحدث عن نحول دابته من طول السرى ،

(١) يمكن الرجوع إلى الحدود التى توضح هذه الاتصالات فى المحاضرة التى ألقيتها عند اختارى عضواً بجمع التاريخ ،

ويعتدحها ، ويطنب في وصفها . ويختتمها بمدح الأمير أو الحاكم الذي ينشده قصيدته .
حتى يفوز بشيء من عطاياه» (٢) .

ودور الشعراء الذين يقلدون هذه النماذج الجاهلية يقوم على تعميق الخيال ، وإحكام الاستعارة ، وإعطاء الأفكار والصور المطروقة شكلاً جديداً ، وفي هذا المجال أبدعوا روائع حقيقية ، وكما استخرجوا من تاج العمود التقليدي ، ذى الأوراق الأقتشية ، أرق الزخارف التي تزين العمدان في حمراء غرناطة ، واستطاعوا من زخرفة أوراق الحشف البسيطة ، وكانت محبة إلى البيزنطيين ، أن يضعوا الرخام الرائع الذي يزين محراب مسجد قرطبة الجامع ، كذلك فعلوا في الشعر ، استخرجوا من تلك الزخارف الشعرية «الأرابيسكية Arabisque» ، وتشبه أن تكون قصور حمراء لفظية ، على حد تعبير أفضل المستشرقين الإسبان المعاصرين معرفة بالشعر الأندلسي ، إميليو غوسية غومث ، الأستاذ في جامعة غرناطة (٣) .

عالج الشعراء الأندلسيون كل موضوعات الشعر ، وتتاح لنا الفرصة هنا لإصلاح خطأ شائع أيضاً ، وهو اتهام عرب تلك الأيام ، ثم أحفادهم من بعدهم حتى يومنا هذا . بالشهوانية الجاسية في عواطفهم ، لأنهم ، ولم لا ؟ ، عالجوا الموضوعات العاطفية . ولا تنقصنا الأمثلة من شعراء كبار مشهورين ، عرفوا بغرامياتهم العنيفة ، سعداء أحياناً . وتعساء أحياناً أخرى ، وتركوا صدى قوياً دائماً في كتب التاريخ ، ومن أشعارهم التقط أصحاب كتب المختارات القصائد التي يتخذونها مثلاً . وليس أخلد في الأدب العربي كله من اسمي ولادة وابن زيدون .

يقول ابن زيدون في نونيته الشهيرة :

بُنْمَ وَبَنَّا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا

(٢) ر . باسيه : الشعر الجاهلي ، باريس ١٨٨٠ ، وانظر : جونثال بالثيا ، تاريخ الأدب الأندلسي ، برشلونة ١٩٢٨ ، من ٣٤ - ٣٥ .

(٣) كان ذلك حين ألقى الكاتب محاضراته ، وفيما بعد أصبح أستاذاً للأدب العربي في كلية الأدب بجامعة مدريد ، ورئيساً لمدرسة الدراسات العربية بها ، ورئيساً لتحرير مجلة الأندلس ، ثم سفيراً لوطنه في العراق ، ولبنان ، وتركيا ، وهو الآن في المعاش .
(المترجم)

يكاد حين تناجيكم ضنائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
 حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً . وكانت بكم أيضاً ليالينا
 إذ جانب العيش طلق من تألفنا وموردُ اللهو صاف من تصافينا^(٤)
 وقد ردت ولاذة على رجاء الحبيب هذا . في مناسبة أخرى ، بهذه الأبيات ، تدعوه
 إلى لقاء ، وتحدد له موعداً :

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكم للسرّ
 وبى منك مالو كان بالشمس لم تلج وبالبدر لم يطلع ، وبالنجم لم يسر^(٥)

ولا يزال المعتمد بن عباد ملك إشبيلية يتمتع بشهرة عريضة على امتداد العالم
 الإسلامى كله ، وكان يحب اعتماد الرميكية . وهى آخر شخصية لمعت من الجنس
 الإسباني الإسلامى ، وحين هبت العواصف عنيفة على ملوك الطوائف ، ووقعوا تحت
 تهديد ملوك الشمال المسيحيين ، وقوة هؤلاء كل يوم فى ازدياد ، وبخاصة بعد استيلائهم
 على طليطلة عام ١٠٨٥ م ، تلفت المسلمون نحو أفريقيا يطلبون العون من المرابطين . وقاوم
 المعتمد ، وأدرك واعيا الكارثة المدمرة التى يمكن أن تصيب الإسلام الإسباني من جراء
 التدخل الأفريقى .

وحين جاءت لحظة الاختيار لم ينس أنه إسباني . ولو أن المؤرخين العرب وضعوا على

(٤) كل تراجم الشعر الأندلسى إلى اللغة الأسبانية الواردة فى هذه الدراسة ، ستكون من عمل صديق وزميلي غوسية غومث ،
 وهو أقدر من غيره على ترجمة الشعر الأندلسى ، إلى لغتنا ، برعم صعوبته . وكتابه الشعر الأندلسى ، ونشر فى مدريد لأول مرة عام
 ١٩٣٥ ، أفضل مجموعة منه تعرفها اللغة القشتالية ، لقد عرف حقا كيف يهب الأشعار المترجمة روحا ، مما جعل ترجمته أعذب وأرق
 من ترجمة خوان باليرا الأنقة . ١- ترجمته لكتاب فون شاك الألمانى ، شعر العرب وهم فى أسبانيا وصقلية .
 • صدرت من كتاب غوسية فى الأسبانية طبعات عديدة ، ولا تتوقف طبعاته ، وترجم إلى اللغة العربية بعنوان : الشعر
 الأندلسى ، وصدر فى القاهرة لأول مرة عام ١٩٥٢ .

(المترجم)

(٥) الأبيات من ترجمة بوسى بيوحيس إلى الأسبانية ، وانظر كتابى : تاريخ الأدب الأندلسى ، ص ٦٠ ، الطبعة الأولى ،
 برشلونة ١٩٢٨ ، (ص ٦٩ من القطعة الثانية ، برشلونة ١٩٤٥) .

• لا أظن هذه الأبيات ردا على تلك ، لأن هذه تضح رغبة ، ونقص عن هوى مكنون . أما النوبة فقالها بعد أن انصرم ما بينه
 وبين ولادة من حب . من جاسها على الأقل . فكانت منه ذكرى آسية ، لعهد نقضى . وحب ولى

(المترجم)

فه الجملة الشهيرة ، قبل أن يشهد احتضار الإسلام في إسبانيا : « أفضل أن أرعى الجمال في أفريقيا على أن أرعى الخنازير في قشتالة » . ومن المؤكد أنه حين رأى المرابطون يغزون الأندلس لجأ إلى صهره ألفونسو السادس ^(٦) ، وكانت لحظة توتر فاجعة في حياة إسبانيا ، لأن قوات الملك القشتالي بقيادة ألبر هانس Alver Fànez . الساعد الأيمن للسيد القنيطور ^(٧) ، توجهت لمساعدة الملك الأندلسي ، ولكنهم هزموا في المدور قريبا من قرطبة ، ولم يعد ممكنا منذ هذه اللحظة أن يشهد الإسلام استقراراً في إسبانيا ، لأن توجيه الأمور فيها انتقل إلى أناس أفريقيين ، بعيدين عن جنسنا . ولا صلة لهم بتقاليدنا ، وأمضى الملك الشاعر التعس ما تبقى له من العمر سجيناً في أغمات ، بئس العيش . تهدد خياله الآمال في أن يعود إلى ملكه يوماً ، وهو أمل لم يتحقق أبداً .

يروى ابن اللبانة الشاعر أن رجلا من أهل إشبيلية كان يحفظ قصيدة المعتمد التي كتبها يستعطف بها أباه المعتمد ، لما فرط في أمر مألقة . وخذله أصحابه . فأخرج منها ، ولجأ إلى رندة ، فأقام بها مدة تحت موجدة أبيه ، والتي مطلعها :

سَكَنَ قَوَادِكَ لَا تَذْهَبُ بِكَ الْفَكْرُ مَاذَا يَعِيدُ عَلَيْكَ الْبُثْ وَالْحَذَرُ

« ثم خرج من بلده لنية منه إلى أقصى حى في العرب ، فأوى إلى خيمة من خيماتهم . ولاذ بدمه راع من رعائهم . فلما توسط القمر في بعض الليالي . وهجم السامر . تذكر

•

(٦) حين رفض المرابطون ترك الأندلس بعد انتصارهم الحاسم في معركة الزلاقة عام ١٠٨٦ م . حاول المعتمد أن يخالف ملك قشتالة ضدهم ، ولكن المرابطون انتصروا عليهم . وقتل بعض أبناء المعتمد وهم يدافعون عن ملكه . ونقل هو نفسه وما تبقى من أسرته إلى مراكش . وسجنوا في أعماق قريبا منها . وأثناء ذلك هربت زوجة أحد أبناء المعتمد ، مع أبنائها . والتجأت إلى ملاط ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وارتدت عن الإسلام ، وأصبحت زوجة له ، وأنجب منها ابنه الوحيد ملأخه ، وسوء يقتل فيما بعد . في معركة دارت بين أبيه والمرابطين . تلك هي الخطوط العريضة للقصة . ولكن الرواية الأسانية . الشعبية والرسومية والدينية ، والعلماء فيما بعد ، فرحوا بالخبر ، التقطوه وصاغوا حوله الأساطير : كنة المعتمد أصبحت استه ، ولم تهرب . وإنما أهداها المعتمد نفسه لألفونسو . لتكون عشيقته ، أو روجته في أحسن الأحوال . والحقيقة ما ذكرنا واسم هذه القصة سيدة . وفي المصادر الأسانية Zaida . ودرج الباحثون العرب على ترجمتها « زائدة » وفي نسو القوائم القصصية للفتن الأسانية والعربية . يجب أن تكون سيده . (المترجم)

(٢) لمعرفة المزيد عن السيد القنيطور والبرهانس . انظر كتاب : ملحمة السيد . دراسة مقارنة . الطلعة الثالثة دار المعارف القاهرة ١٩٨٣ .

الدولة العبادية ورونتها ، فطفق ينشد القصيدة بأحسن صوت وأشجاء ، فما أكملها حتى رفع رواق الخيمة التي أوى إليها عن رجل وسيم ضخيم ، تدل سيما فضله على أنه سيد أهله ، قال :

— يا حُضْرَى ! حياك الله ، لمن هذا الكلام الذى أعذوذب مورده ، واخضوضل منبته ، وتخلّت بقلادة الحلاوة بكره ، وهدر بشقشقة الجزالة بكره ؟.

فقال : « هو الملك من ملوك الأندلس يعرف بابن عباد » .

فقال العربى : « أظن هذا الملك لم يكن له من الملك إلا حظ يسير ، ونصيب حقير . فمثل هذا الشعر لا يقوله من شغل بشىء دونه » .

فعرّفه الرجل بعظم رئاسته ، ووصف له بعض جلالته ، فتعجب العربى من ذلك ثم قال : وممن الملك إن كنت تعلم ؟.

فقال الرجل : هو فى الصميم من لحم . والذؤاية من يعرب .

فصرخ العربى صرخة أيقظ الحى بها من هجعتة ، ثم قال : هلموا ، هلموا ! ، فتبادر القوم إليه ينثالون عليه ، فقال : يامعشر قومى ! ، اسمعوا ماسمعتة ، وعوا ماوعيته . فإنه لفخر طلبكم ، وشرف تلاصق بكم . يا حُضْرَى ! أنشد كلمة ابن عمنا . فأنشدهم القصيدة ، وعرفهم العربى بما عرفه الرجل به من نسب المعتمد ، فخامرتهم السراء . وداخلتهم العزة ، وركبوا من طربهم متون الخيل ، وجعلوا يتلاعبون عليها باقى الليل . فلما أرسل الليل نسيمة ، وشق الصباح أوكاد - أديمه ، عمد زعيم القوم إلى عشرين من الأبل فدفعها إلى الرجل . وفعل الجميع مثل ما فعل . فما كان رآد الضحى إلا وعنده هُنيدة من الإبل ، ثم خلطوه بأنفسهم ، وجعلوه مقر سرورهم وتأنسهم ^(٨) .

وشبيهه بمأساة المعتمد موت الشاعر الغرناطى ابن سعيد . ولا يزال صدى فاجعته فى ذكرانا ، فقد قتله ابن السلطان عبد المؤمن . فى منافسة بينهما على حب حفصة الركونية ،

(٨) أوحز الكاتب القصة إبحارا شديدا . وأتيت بها كاملة لما تنطوى عليه من دلالات . ونصتها فى الحلة السراء ، لابن الأبار .

وهي شاعرة ملهمة ، عرفت كيف تعبر عن عواطفها الجاححة . وغيرتها الحادة . في هذين البيتين من الشعر :

أغارُ عليك من عيني رقيبى ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أنى خباتك فى عيوني إلى يوم القيامة ما كفى
وربما كان ابن خفاجة شاعر جزيرة شقر ، من أهم شعراء الغزل الأندلسى ويدرس شعره الآن المشرق الفرنسى هنرى بريس . الأستاذ فى جامعة الجزائر ، ويتنظر العلماء بفارغ الصبر نشر ديوان الشاعر^(٩) ، استمع إليه يصور منظراً غرامياً :

غزاليةً الألاحظ ، ريميةً الطلى مداميةً الألى ، حبايةً الثغر
ترنح فى موشيةً ذهبيةً كما اشتبكت زهر النجوم على البدر
وقد خلعت ليلا علينا يد الهوى رداء عناق مزقته يد الفجر
ولا أستطيع مقاومة الرغبة فى أن أردد ترجمة خوان باليرا لهذه الأبيات من شعر ابن خفاجة ، وتنضح بشهوانية وثنية :

وليلٍ تعاطينا المدامَ وبيننا	حديثٌ كما هبَّ النسيمُ على الورْدِ
نعاوده والكأسُ يعبقُ نفحةً	وأطيبُ منها مانعِدُ وما نبدى
ونَقْلُ أقاحِ الثغرِ أوسوسنُ الطلى	ونرجسةُ الأجفانِ أووردةُ الخدِ
إلى أن سرتُ فى جسمه الكاس والكرى	وما لا بعطفيةٍ فمال على عضدى
فأقبلتُ أستهدى لما بين أضلعي	من الحر ما بين الثنايا من البردِ
وعايتُهُ قد سلَّ من وشى برده	فعانقتُ منه السيفَ سلَّ من الغمدِ
ليانَ محسٍ ، واستقامةً قامةً	وهزةً أعطافٍ ورونقٍ إفرندِ
أغازلُ منه الغصنَ فى مغرس النقا	والثمَّ وجه الشمس فى مطلع السعدِ
فإن لم يكنْها أوتكنْه فإنه	أخوها كما قدَّ الشراك من الجلدِ

(٩) لا أعرف أن هنرى بريس نشر ديوان ابن خفاجة كاملاً ، والطبعات التجارية مشوهة وناقصة ، والطبعة الوحيدة المتوفرة التى يمكن الاعتماد عليها هى التى قام بها السيد غازى ، الأستاذ فى كلية الآداب جامعة الاسكندرية . وبشرتها مشأه المعاف . الاسكندرية . ١٩٦٠ .

تسافر كلنا راحتي بجسمه فطوراً إلى خصرٍ وطوراً إلى نهد
فتهبط من كشحيه كفّ تهامة وتصعد من نهديه أخرى إلى نجد

ولكن ، أهذا كل شيء ؟ هل كانت مشاعر الإسبان المسلمين العاطفية على هذا النحو
فحسب ؟ ليس الأمر كذلك لحسن الحظ ، فتمة مشاعر أكثر سمو وروحية تغلب على
العلاقات العاطفية .

وخلال عهد الإمارة ، الأيام التي كان فيها الزعيم القومي عمر بن حفصون يهدد أمير
قرطبة من وكنته في قلعة بيشتر . كان سعيد بن جودي يمثل النموذج الصادق للفارس
العربي ، وتفرد في زمانه بالخصال العشر لا يدفع عنها ، ولا يكون فارساً كاملاً إلا من
اجتمعت فيه ، وهي : الجود ، والشجاعة ، والفروسية ، والجمال ، والشعر ، والخطابة ،
والشدة ، والظعن ، والضرب ، والرمية . وكان شخصيته متميزة ، كتلك الشخصيات
التي نعرفها في عالمنا الإسباني : بدرونيو ، ١٤٦٨ - ١٥٠٥ م ، البحار الذي رافق
كولون في اكتشاف شواطئ فنزويلا ، أو المؤرخ المغامر ديجودي باليرا ، ١٤١٢ -
١٤٩٢ م ، وغيرهم كثيرون أمثلة حية للفروسية المغامرة ، أو مثل السيد الإلهي
دون كيخوته ، وقد أحس مرة بأدق جراحات الحب .

وخلال عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن جاء ابن جودي ذات يوم إلى قرطبة ،
« وكان مع جزالته مستهترا بالنساء صبا إليهن . مقدما لهن على جميع لذاته » ، ودخل
المدينة من الباب الغربي . ومر بدار الأمير عبد الله ، الذي صارت إليه الإمارة بعد أبيه
محمد . « فوافقه يشرب في عليّة له بأعلاها ، مطلة على الطريق ، مع جارية له تسمى
جيجان ، كانت موصوفة في زمانها بالجمال والحسن والإحسان ، فإذا بها تغنيه ، وهو
يفديها ويستسقيها ، فأنصت للصوت وقد ذهب بلبه ، وعدل ناحيته يمتع سمعه ، ويلتمح
ساعة ، إلى أن لاح له معصم الجارية ، وقد مدت يدها بالكأس إلى مولاه ، فراقه
ما رأى من حسنها ، ووقعت بنفسه فهام بذكرها ، وأداه ذلك إلى البحث عن اسمها ،
فاجتهد في شراء جارية تحسنه بقرطبة ، نقر عنها ، وغالى في ثمنها ، حتى ملكها ، وسمّاها

جيجان ، اسم هواة تلك ، ونال منها لذته ، فلم تسله عن سميتها ، وهام دهرًا بذكرها ، وقال فيها شعرًا كثيرًا . منه قوله :

سمعى أبى أن يكون الروحُ فى بدنى فاعتاض قلبى منه لوعة الحزن
أعطيتُ جيجانَ روحى عن تذكرها هذا ولم أرها ولم ترفى
فقلْ لجيجانَ ياسؤلى وياأملى استوص خيراً بروح زال عن بدنى
كأننى واسمها ، والدمع منسكب من مقلتى ، راهب صلى إلى وثن

١ ونستطيع القول بأن هذه الحالة ليست نادرة ولا شاذة ، وندعم رأينا بما ورد فى كتاب ابن حزم المثير والطريف : طوق الحمامة ، ويمكن أن يقرأ فى أى من اللغات الأجنبية : الروسية ، أو الانجليزية ، أو الفرنسية ، أو الاسبانية ، أو الإيطالية ، ولغات أخرى ، إلى جانب اللغة العربية التى كتب فيها (١٠) .

مثل هذا الحب يمكن أن ندعوه بالعذرى ، نسبة إلى بنى عذرة ، وهى قبيلة عربية « يفضل الرجال فيها الحزن الحلو ، المستسلم المشوق ، للحب الإفلاطونى ، على العواطف الحادة للغرائز الحيوانية البهجة » ، ويعرفون كيف يموتون حباً ، قبل أن يدنسوا بالشهوة الملول المشبعة عرس الأفراح العفيفة » .

والأصول الفلسفية لهذه النظرية نجدها مبسطة فى كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني (١١) ، وتتكا كما يقول المستشرق الفرنسى ماسينيون على النظرية الإغريقية القديمة عن الحب ، ومؤداها أن الحب تعاسة مادية ، وقوة طبيعية ، لا مهرب منه ، أعمى ، لا عقل له ولا غاية ، ينظر إلى سفو كليس بنفس العين التى ينظر بها إلى إمدوقليس ، ولكنه حب طاهر ، على نحو ما فهمه وعاشه وتغنى به شعراء البدو الزاهدون

(١٠) فى الأصل إشارة فقط إلى الترجمة الانجليزية التى قام بها أ . ر . نيكل . الأستاذ فى المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو ، ولم يكن طوق الحمامة قد ترجم لغيرها من اللغات حينذاك .

(المترجم)

(١١) نشر نيكل مع إبراهيم طوقان ، القسم الأول منه ، شيكاغو ١٩٣٢ . ونشر القسم الثانى الدكتور إبراهيم السمرانى والدكتور بورى حمودى القيسى . بغداد ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م .

من قبيلة بني عذرة . ولكن هذه الفكرة ذات الأصل الإغريقي تمتزج بالتقاليد الإسلامية ،
والتي تنسب إلى الرسول قوله : « من حب ، فعف ، فمات ، مات شهيداً »^(١٢) ..
وكان هذا الحب العذري متأثراً على التأكيد بالنماذج المسيحية التي يمكن أن يراها في
حياة رهبان الأديرة على نحو ما لاحظ أسين بلاثيوس^(١٣) .

يمكن أن نشير هنا إلى أمثلة عديدة للحب الأفلاطوني ، أوردها ابن حزم في كتابه
طوق الحمامة ، وكان المؤلف نفسه يومها يمضي حياته كلها يستنشق أريج كلمة ، أو ابتسامة
عذبة من فتاة شقراء ، تربت معه طفلة في قصر أبيه ، ولم يستطع أبداً أن يثير اهتمامها به ،
لا في لحظات المجد التي بلغها بيتهم ، ولا في سنوات التعاسة التي انتهى إليها ، وحين أصبح
البؤس سيد قرطبة ، بعد فتنة البربر ، أناخ بكلكله في بيت الفتاة السيئة الحظ ، وأذبل
الحرمان مفاتيحها ، ولقد وجدها ابن حزم « قائمة في المأتم وسط النساء ، في جملة البواكي
والنوادب ، فلقد أثارت وجداً دفيناً ، وحركت ساكناً ، وذكرني عهداً قديماً ، وحباً
تليداً ، ودهراً ماضياً ، وزمناً عافياً ، وشهوراً خوالى ، وأخباراً بوالى ، ودهوراً فوانى ،
وأياماً قد ذهبت ، وآثاراً قد دثرت ، وجددت أحزاني ، وهيجت بلائلي . على أني كنت
في ذلك النهار مرزاً مصاباً من وجوه ، وما كنت نسيت ، ولكن زاد الشجي ، وتوقدت
اللوعة ، وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان كامناً قلباه مجيباً
فقلت قطعة منها :

يُبَكِّي لِمَتِ مات وهو مكرَّم وللحي أولى بالدموع الذوارف
فيا عجباً من آسف لا مرء ثوى وما هو للمقتول ظُلماً بآسف

أو قصة يوسف الرمادي ، شاعر بلاط المنصور بن أبي عامر ، وقد أحب مبهوراً فتاة

(١٢) ماسينيون . هوى الحسين بن منصور الخلاج . شهيد الإسلام الصوفي ، باريس ١٩٢٢ ، ج ١ ص ١٧١ - ١٧٤ .

(١٣) ابن حزم القرطبي ، ج ١ ، ص ٥٣ .

● ناقشت قضية الحب العذري وأصوله . ورأى أسين بلاثيوس في ذلك ، في كتابي : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق
الحمامة ، الفصل : « غراميات ابن حزم » ومشكلة الحب العذري في الأندلس ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٨٢ .
(المترجم)

جميلة يجهلها ، ورآها مرة واحدة ، ولكنى لن أمضى مع القصة إلى نهايتها^(١٤) ، وأرى من الخير أن نقرأ بعض المقطوعات الغزلية التى تعكس نظرية الحب العذرى ، على النحو الذى شاعت فيه عبر إسبانيا الإسلامية .

لنقرأ هذه الأبيات لشاعر مرسية أبى بحر ، صفوان بن إدريس ، وليكن عنوانها :

« مشهد حب » ! :

يا حسنه ،	والحسنُ بعضُ صفاته	والسحرُ مقصورٌ على	حركاته
بدرٌ لو أن البدرَ قيل له :	اقترح	أملأ ،	لقال : أكون من هالاته
وإذا هلالُ الأفق قابل شخصه	أبصرته	كالشكل	فى مرآته
والخالُ ينقطُ فى صحيفة خده	ماخطُ	فيها الصدغُ	من نوناته
صاحبته والليل يُدنى تحته	نارين	من نفسى	ومن وجناته
وضممته ضم البخيل لماله	أحنو	عليه	من جميع جهاته
أوثقته فى ساعدى لأنه	ظبى	أخافُ	عليه من فلتاته
وأبى عفاى أن أقبل ثغره .	والقلب	مطوى	على جمراته
فاعجبُ للتهبِ الجوانح غلةً	يشكو	الظما والماء	فى لهواته

أو هذه المقطوعة لابن فرج الجياني ، المتوفى عام ٩٧٦ م ، وصاحب كتاب الحدايق ، وهو مجموعة من المختارات الشعرية ضاعت ، ولم يصلنا منها إلا ما نقله عنها الآخرون ، وعنوانها « عفة ! » :

وطائعة الوصال عفتُ عنها	وما الشيطانُ فيها	بالمطاع
بدتُ فى الليل سافرة فباتتُ	دياجى الليل	سافرة القناع
وما من لحظة إلا وفيها	إلى فتن	القلوب لها دواعى
فلكتُ النهى جمحات شوق	لأجرى فى	العفاف على طباعى
وبتُ بها مبيت السقب يظما	فيمنعه	الكعام من الرضاع

(١٤) يمكن العودة إلى القصة فى كتاب طوق الحمامة ، ص ٤٠ . تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي . الطبعة الثالثة . دار المعارف . القاهرة ١٩٨٠ .

كذلك الروضُ ما فيه لمثلَى سوى نظر وشم من متاع
ولستُ من السوائِم مهملاتٍ فأتخذ الرياض من المراعى
ما أبعد هاتين المقطوعتين عن آيات ابن خفاجة السالفة ، تطفح شهوانية ، وتفيض
رغبة ! .

ولا أستطيع أن أمضى قبل أن أقدم لكم بعض المقطوعات الخمرية ، وكانت شائعة
بين شعراء الأندلس ، وفي الدراسة الموجزة التى قدم بها غرسية غومث لمجموعة الأشعار
الأندلسية التى اختارها وترجمها إلى الإسبانية ، يمكن أن نقرأ وصفاً مختصراً لحفلة شراب
جميلة ، « حيث قلب يدنو إلى قلب هوى ، وشفة توحى إلى شفة رشفاً » ، على حد تعبير
ابن هانى الإلبيرى .

ولا أود أن أغفل الشعر الوصفى ، أو أمضى دون أن أقدم له مثلاً ، لكنى ندرك المدى
البعيد الذى بلغه شعراء الأندلس فى وصف أدق الأشياء ، واللذات التى يضعون بها أمام
أعيننا أبسط الأمور .

لنقرأ كيف رأى أبو الحسن ، على بن حصن ، كاتب المعتمد بن عباد أمير اشبيلية ،
فرحاً من الحمام ، وكيف وصفه ، يقول :

وما هاجنى إلا ابنُ ورقاء هاتف على فتن بين الجزيرة والنهر
مفستق طوقٍ ، لا زوردي كلكل موشى الطلى ، أحوى القوادم والظهر
أدارَ على الياقوت أجفانُ لؤلؤ وصاغ من العقيان طوقاً على الثغر
حديداً شبا المنقار داج كأنه شبا قلم من فضة مدّ فى حبر
توسد من فرع الأراك أريكة ومال على طى الجناح مع النحر
ولما رأى دمعى مُراقاً أرابه بكائى . فاستولى على الغصن النضر
وحث جناحيه ، وصفق طائرا وطار بقلبي حيث طار ، ولا أدرى
وجعفر بن عثمان المصحفى ، الحاجب الوزير الشهير ، والذى لعب دوراً هاماً فى حياة

المتصور بن أبي عامر ، في خلافة الحكم الثاني ، وابنه هشام الثاني ، يصف سفرجلة على النحو التالي :

ومصفرة تختال في ثوب نرجس وتعبق عن مسك ذكي التنفس
لها ريح محبوب ، وقسوة قلبه ولون حب ، حلة السقم مكتسى
فصفرتها من صفرتي مستعارة وأنفاسها في الطيب أنفاس مؤنسى
فلما استتمت في القضيبي شباها وحاكت لها الأنواء أبراد سندس
مددت يدي باللفظ أبغى اقتطافها لأجعلها ريحاني وسط مجلسي
وكان لها ثوب من الزغب أغبر يرف على جسم من التبر أملس
فلما تعرت في يدي من لباسها ولم تبق إلا في غلالة نرجس
ذكرت بها من لا أبوح بذكره فأذبلها في الكف حر تنفسي
رقة عذبة ورائحة ، لم يبلغها أبداً أي من كتاب النثر المحدثين !.

ولكن هذا الشعر ما كان ممكناً أن يصبح شعبياً في إسبانيا لأنه متكلف إلى حد بعيد ، بالغ الرقة ، واسع الثقافة ، ومن ثم لم يستطع أن يمارس تأثيراً كبيراً على ما جاء بعده من آداب . ولكن ، لحسن الحظ ، ولد في الأندلس جنس غنائى آخر ، انبثق عن اللغة العامية ، وارتبط بعربية الشارع ، وباللغة الرومانشية وكانت تستخدم في الحديث اليومي ، وأصبحت لغة البيت ، وهو جنس بلغ من الحيوية والنضج حداً عالياً في شبه جزيرة إيبيريا ، وامتد تأثيره خارجها ، وهو اكتشاف يدين به العالم المثقف لفطنة العلامة أستاذى خوليان ريبيرا . ففي عام ١٩١٢ اختاره المجمع الإسباني عضواً به ، وكان بحثه الأول فيه عن ديوان ابن قزمان^(١٥) ، وفيه قدم براهين جلية على وجود لغة رومانشية كانت تتكلم في الأندلس ، وهى اللغة التى كتب بها شاعر القرن الثانى عشر الميلادى أزجاله . وهى ليست لغة الشعر المعروفة ، التى كان المؤدبون يلقنونها للدارسين ، وإنما اللغة الدارجة ، الجارية

(١٥) نفذت الطبعة الأولى من هذا البحث ، ثم أعيدت طباعته مع أبحاث أخرى للمؤلف في مختارات له ، صدرت في طلدين ، عمران : « بذر ومقالات » ، مدريد ١٩٢٨ .

على الألسن في قرطبة ، بما فيها من نكات سوقية ، وعبارات متبذلة ، ومعجم الساقطات في المواخير ، وألفاظ الطلاب التي يستعملونها في مباحثهم خارج الدرس ، ومفردات الأطفال حين يلعبون في الأزقة ، وفيها الكثير من المصطلحات التي يتعارف عليها أهل كل حرفة ، ولا تخلو كذلك من اللغو الفارغ الذي تحفل به أحاديث البيوت . وبعض مفردات هذه القصائد الزجلية ملتبطة حقاً من جمل موجودة فعلاً ، تتردد دائماً على السنة العامة ، وقد تكون مأخوذة من أغنيات أطفال لا تعنى شيئاً بالنسبة لنا الآن ، لأننا نفتقد مفتاح ترجمتها وتفسيرها .

انظر إلى إحدى هذه الأغاني المزدوجة اللغة :

أنا ، مطر . تان شلباطو ،

تان حزين . تان بناطو !

ترى اليوم وشطاطو .

لم نذوق فيه غير لقيمة^(١٦)

ليست الفرصة مواتية هنا ، لأضيف جديداً إلى ما جاء به ريبيرا من براهين ذكية ، دلت بها على أن هذا الجنس الشعري أندلسي المنبت ، ويعود إلى ما قبل القرن العاشر الميلادي . وأدلته مقنعة فكرياً ، ولكن النقاد وقد رأوا البناء العملاق الذي أقاموه حتى

(١٦) اعتمدت في كتابة هذه الفقرة على طبعة غرسية عومث لديوان ابن قزمان ، وهي أصح الطباعات وأدقها ، وتختلف اختلافاً بيناً عن غيرها ، ومعنى الكلمات الرومانشية الواردة فيها :

مطر *matre* ، ومعناها أم . تان *tan* عندما تكرر ، كما هنا ، معناها حين وحيناً ، أو كثيراً عندما نجى مفردة . وبناطو *penato* متألم أما كلمة شلباطو ، فيمكن أن تكون شيئاً للسحرية ، ويرى غرسية أنها قرية في صويناها من كلمة *chiflado* الأسبانية ، ويعتدل أن تكون هي . وهذه معناها : معتوه ، مجذوب ، وترجمة الأبيات في لغة عربية فصيحة ومعاصرة :

أنا ، يا أمي ، حيا شلباطو

وحيثاً حزين ، وحيثاً متألم .

ألا تزين اليوم لمويلا ؟

ولم أذق فيه غير لقيمة !

وانظر القصيدة كاملة في كتابنا ، شعراء الأندلس والمتنى ، وفيه دراسة موجزة عن ابن قزمان ، من ١٥١ - ١٧٥ ، وهو ترجمة لكتاب غرسية عومث . الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

(المترجم)

ساعتها ، لتفسير أصول الشعر الغنائى فى اللغة الرومانشية ينهار من أساسه ، يطالبون بالوثائق ، وبالشواهد التاريخية التى تبرهن على وجود هذا الشكل فى تلك العصور البعيدة . وظهرت الوثيقة ! وجدناها فى فقرة أوردها مؤرخ الأدب العربى فى الأندلس ، الشهير

الثقة : ابن بسام ، فهو يقول فى كتابه « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » :
« وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقتنا ، واخترع طريقته ، فيما بلغنى ، محمد ابن حمود القبرى الضرير^(١٧) ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعاريض المهمة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة ، دون تضمين فيها ولا أغصان » . « وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان إذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب » .

وعندما نسمع هذا رأى ، ويدل على احتقار ابن بسام للموشحات ، لأنها جاءت فى « أكثرها على الأعاريض المهمة غير المستعملة » ، وفيها ألفاظ عامية ورومانشية ، يرد فى خاطرناتعبيرالمركزسانتيانا Santillana الشهير ، عن الأشعار الرومانشية ومؤلفيها ، فهو يقول فى رسالته « مقدمة إلى مشير البرتغال » : « شعراء منحطون أولئك الذين ينظمون هذه الأغاني والأشعار الرومانشية ، بلا أدنى نظام ولا قاعدة ، وهى لا تبهج إلا أسافل الناس والطبقات المنحطة » . وكما أنه على امتداد القرون التى خلت ، لا أحد غير الموسوعيين والذين يعترفون الأدب يذكر شيئاً من أشعار سانيانا ، ونظمها على النهج الإيطالى أو الفرنسى ، على حين أن القصائد الرومانشية ظلت برهاناً خالداً على قيمة الأدب الإيبانى ، وتعتبر من مفاخر أمتنا فى البلاد المختلفة التى تتكلم اللغة القشتالية ، حدث الشئ نفسه فيما يتصل بالزجل ، فعلى حين أن القصائد ومقطعات الشعر العمودى الأندلسية التى اختارها ابن بسام لما تزل ترقد مطوية فى مخطوطات العصور الوسطى لا يذكرونها أحد ، انتشرت الموشحة والزجل على

(١٧) يرى بعض الباحثين أن ابن بسام ، أو ناسخ الذخيرة ، أخطأ فى الاسم . وأن صاحبه مقدم بن معافى القبرى . ويرى آخرون أنها شخصان وجد كلاهما ، ولكن المثير أن يكون كلاهما من قبيلة ، ويوصف بأنه ضرير ، وعاش فى الفترة نفسها . وينسب إليه ابتداء الموشحات .

امتداد العالم العربي كله (وما زالوا يتغنون بها في المغرب والجزائر ، وحتى في الهند) وعبر العالم المسيحي ، واستطاع أن يمس ، كما سنرى ، شكل الشعر الغنائي في اللغات الرومانشية ، لأن الشعب في كلا الجانبين ، العربي والمسيحي ، استولى على الطريقة الجديدة ، وجعل من نفسه سيداً لها ، ونقلها كل جيل إلى خلفه ، كشىء يكون جزءاً من روحه ذاتها .

طرفاً هذه الطريقة الجديدة هما الزجل والموشحة ، والزجل أشد بساطة ، وهو يتكون من أدوار ، وكل دور يتكون من مطلع ، أو مركز ، ومن ثلاثة أبيات ، أو أكثر ، متفقة القافية فيما بينها ، تسمى الأغصان ، وبيت آخر ، أو أكثر ، هو القفل ، وقافيته ووزنه من نفس قافية ووزن المطلع .

وأما الموشحة فنظم تكون فيه القوافي اثنتين اثنتين ، على هيئة الوشاح ، « كالعقد يتكون من صفيين من لآلى مختلفة الألوان » ، فالتسمية تشير إلى طريقة تأليف القوافي ، وفيما عدا ذلك تشبه الزجل تماماً ، فشكلها واحد ، وكل ما هناك أن الزجل يطلق على السوقى الدارج منها ، إذ لا بد أن يكون في اللغة الدارجة ، مما يتغنى به في الطرقات ، أما الموشحة فلا تكون إلا في العربي الفصيح ، ويمكن القول إن لفظ الموشحة يطلق على المذهب من الزجل ، الذى تستعمل فيه الفصحى ، أو ينظم في أسلوب أرفع من أسلوب الأزجال . والمثل التقليدى للزجل نجده في « أغنية التلامذة » لكاهن هيتا ، وهو :

Sennores, dat al escolar,

Que vos vienne demandar.

Dat Lymosna é rracion

Paré por vos oracion,

Que Dios vos dé salvacion

Querid por Dios á mi dar.

ساذن، أعطوا التلميذ،

الذى جاء يطلب منكم.

أعطوه صدقة صلاه،

فهو سيصل من أجلكم،

ويدعو الله أن ينجبكم،

انريدون أن نعظوما لى

El byen, que por Dios feciéredes,

La Lymosna, que á mi diéredes,

Quando deste mundo saliéredes,

Esto vos avrá á ayudar.

وماصم من خير لله،

وماعطي من صدقة لله،

وعندما ندعوى هذه الدنيا،

فكل ماصم سيكون له عزيكم.

وفضلاً عن هذه الأزجال ذات الطراز البسيط للغاية ، ويتكون كل دور فيها من المركز ، وثلاثة أبيات هي الأغصان ، وبيت رابع هو القفل ، فهناك أزجال كثيرة تستخدم القوافي الممكنة في أغصانها ، ولكنها تحترم نظام القفل في كل دور دائماً ، كقاعدة أساسية في هذا النظام ، ومن ثم يمكن أن تكون لدينا النماذج التالية :

○ أدوار خماسية تكون قوافيها على هذا النحو : أ أ ب ب ب أ ج ج ج أ أ إلى آخر الزجل .

○ أدوار سداسية تكون على هذا النحو : أ ب ج د د أ ب ج إلى آخر الزجل .
○ أوسباعية تكون على هذا النحو : أ ب ج أ د د أ ب ج أ إلى آخر الزجل .
ومع ذلك ، يمكن القول أن الطابع الشعبي لهذه الأزجال ، وأشير إلى أزجال ابن قزمان بخاصة ، رغم قالبها المبتكر ، يدل على أنها نظمت ليتغنى بها الشعراء الجوالون في الأسواق ، والمتسولون في الشوارع والطرقات ، والمحتالون في الحوارى والأزقة ، وأصحاب المجون والخلاعة ، و « النسوان والسكرى والسكران » ، على حد تعبير ابن سناء الملك .
وهي ليست مما يتغنى به الإنسان منفرداً ، « وإنما ينشدها الناس جماعة في الطرقات بصوت جهير ، وسط جمهور يتجمع أفرادهم حول المنشد ، حيث ينشدون المركز جماعة عقب كل فقرة يلقيها ، وتصحب ذلك كله آلات الموسيقى كالعود والناي والطنبور والدف والصاجات ، وربما تخللها الرقص » .

وأوزان هذه الأغاني ، على الرغم من أنها مشتقة من تفاعيل العروض الشعرية التقليدية ، لا تلتزم بقواعد النحو ، وألفاظها من الدارج الذي لا يعرف حركات الإعراب ، ولا يخضع النطق بقوافيها لشرائط التقفية المعروفة في الشعر الفصيح ، ولا يفوتنا أن نشير إلى ابن قزمان كان يستعمل دائماً الصوامت Consonants بطريقة أكسل مما نجده في الأشعار الأوربية القديمة .

ويكون المركز عادة مما يثير انتباه السامعين ، ويجذب أسماع الجماهير ، حتى يصغوا إلى الأغنية وهم راغبون ، ونجى غزلاً ، أو دعوة إلى الشراب ، مثل قول ابن قزمان :
أياماً ملاح ، شرط الخلاعة خزيت أم الذي يعمل صناعة

وقوله في زجل آخر :

نعطى ثيابي وننفق مالى فسالشراب السبالى

ويسمى ابن قزمان الجزء الأول من كل زجل : « التغزل » ، وهو مطلع الزجل الذى يومىء إلى موضوعاته ، « ولا بد أن يكون فى أمر عام أو تقليدى ، وينبغى أن يصاغ فى قالب سهل خفيف فكاهى ، ويغلب أن يكون موضوعاً جنسياً أو خمرياً أو سخرية من المجتمع ، ولا يجىء جازحاً ولا مثيراً ، وإنما مبتدلاً لا تحفظ فيه » . ويعالج الغزل بطريقة لا صلة لها بالطابع العربى المشرق . فلا أبلى ولا تجوال ولا قفار ، ولا أثر للحياة البدوية الطاعنة ، ولا ذكر للديار التى هجرها أهلها ، ولا يشير إلى أى من موضوعات تاريخ العرب . ولا يذكر الإسلام إلا فى مواضع قليلة ، ويكون ذلك عادة عند تعرضه للفقهاء والأتقياء . وهو ينال منهم فى غير حياء ، ويركبهم بألوان من السخرية ، فإذا ذكر شهر رمضان والصيام سخر من الصائمين ، وأطرى المفطرين والمقبلين على الخمر واللواط . وهو لا يذكر الدين إلا فى ثلاثة مواضع أو أربعة خلال أزجال المديح ، ويجىء هذا التوقير منه وهو فى معرض السخط على نصارى الشمال^(١٨) .

« أما القسم الثانى من الزجل وهو المسمى « بالمديح » ، فيتبغى فيه ابن قزمان بفضائل من يهدى إليه الزجل . ثم يختتمه بطلب معروف أو عطاء » .

وفى يومنا هذا تقدمت كثيراً الدراسات التى تهدف إلى جمع المادة التى تساعد على معرفة هذه الطريقة الأندلسية ، وفى العام الماضى نشرت مدرستا الدراسات العربية فى كل من مدريد وغرناطة النص العربى لديوان ابن قزمان^(١٩) فى حروف لاتينية ، وترجمتا جانباً

(١٨) أوجر الكاتب هذه الفقرة . وآثرنا نقلها بالتفصيل من كتابه الأدب الأندلسى ، الفقرة ٥١ ، الطبعة الثانية ، برشلونة

(المترجم)

١٩٤٥ .

(١٩) نشر غوسية غومث ديوان ابن قزمان من جديد . وجاءت طبعته فى ثلاثة مجلدات ، نشرتها دار « حريدوس » فى مدريد ، عام ١٩٧٢ . وقد شغل الديوان خمسة . وشره فى حروف لاتينية مع ترجمته إلى الأسبانية ، المجلدين الأول والثانى ، وأودع المؤلف آراءه وأفكاره ودراساته المجلد الثالث . ومع أنه لا يمكن التسليم بكل ما قال من الجميع ، إلا أن تحقيقه لنص الديوان جاء عملاً ممتازاً ، وبالتالي ألقى ستار النسيان على كل ما سقه من محاولات .

(المترجم)

كبيرا من أزجاله ، وليس كلها ، إلى اللغة الإسبانية ، لأن ترجمتها عسيرة للغاية .



نحن إذن إزاء واقع تاريخي لاشك فيه ، وهو وجود طريقة شعرية غنائية شعبية منذ القرن التاسع الميلادي ، انتشرت في العالم الإسلامي منذ العصور الوسطى حتى يومنا هذا ، لأن أصحاب الزجل والموشحات كانوا يمثلون اتجاهًا ، ورغم أن عددًا منهم لا بأس به عرف بقدرته على نظم الشعر التقليدي ، وله فيه قصائد معروفة ، أو كتب مؤلفات بالعربية الفصحى ، إلا أنهم صاغوا قصائدهم في هذا قالب الجديد ، لما يتميز به من حيوية بالغة القوة ، احتفظ بها إلى يومنا في اللغة العربية ، كما يقول خوليان ريبيرا ، فلا يزال يستخدم في المغرب ، وفي كل شمال إفريقيا ، وحتى في مصر ، وفي الحفلات الدينية في فارس والهند ،

وحتى المدائح النبوية جاءت في نفس العروض ، ومن نفس القافية ، التي صبت فيها أغاني الخلعاء في شوارع قرطبة ، حين يرسلون في الهواء الجارى خطراتهم غير المحتشمة ، خلال القرن الثاني عشر الميلادي .

وبعيدًا عن عالم الإسلام ، في إسبانيا وفي أوروبا ؟. لقد أصاب ريبيرا كبد الحقيقة حين دعا إلى الاهتمام بهذه الوقائع الجديدة ونحن نبحث عن أصول الشعر البروفنسالي ، ولو أن الدوائر العلمية تلقت يومها فكرته في برود وفتور ، لأن من الصعب جدًا أن نشد الأفراد إلى خارج ما تعودوه ، بعيدا عن « الروتين » ، وأن ندفع بهم في طرق جديدة . يتطلب السير فيها جهدًا كبيرًا ، وربما كان رأى الناقد الفرنسي جان روا تلخيصًا أمينًا لما كان قد استقر عليه النقد الأوربي إذ ذاك . يقول : « جاء الشعر البروفنسالي منذ نشأته بعيدًا عن أى تأثير أجنبي ، لقد انبثق فجأة ، كزهرة انشقت عنها الأرض بلا ساق ولا جذور » . ويعتبر مينينديث إى بلايو الشعر البروفنسالي أصل كل الأشعار الرومانسية .

ومضت الأعوام الأولى ، والصمت يلف فكرة ريبيرا ، وبخاصة في المجالات المتخصصة ، وفيما بعد ، حين نشر نص ابن بسام الحاسم ، أخذت نظرية ريبيرا طريقها إلى كتب التاريخ المبسطة والموجزة ، ومن ثم بدأت تنتشر . دون أن تهتلى أوروبا عن

معارضتها العنيفة لها ، وسيكون قسوة منى أن أستغل صبركم ، وأمضى معكم في رحلة عبر الجدل الذي أثاره كتاب أمثال : رودريغيز لابالبا Rodríguez Lapalبا ، ونيكل Nykl التشيكي والمقيم في الولايات المتحدة ، وسيجيه Siger ، وسبانك Spanke ، وشلودكو Scheludko ، وغيرهم، ووجهة النظر التي قبلها كل من الإسباني مينينديث بيدال M. pidal ، والبرتغالية كارولينا ميكائيليس Carolina Michaelis وآخرون من علماء الدراسات الرومانية ، وأفضل أن أقدم لكم بعض النماذج من الشعر الذي جاء في قالب الزجل من الآداب الرومانشية ، لتحكموا في القضية بأنفسكم .

نجد مثلاً أن جيوم التاسع Guillaume IX ، كونت بواتيه ، ودوق أقيطانية ، تزوج عام ١٠٩٤ م من فيلييه ، أرملة شانجه ملك أرجون ، واشترك بنفسه في الحروب الصليبية عام ١١٠١ م ، وعاد منها بعد عام ، أى في سنة ١١٠٢ ، وتوفي عام ١١٢٦ م ، أو ١١٢٧ م ، ونظم في أواخر حياته أشعاراً في قالب الزجل ، ولو أنه أدخل تغييراً طفيفاً على الطريقة الأندلسية ، فجعل المركز في نهاية الغصن لا في أوله ، واعتبره قفلاً أو نهاية^(٢٠) ، وجعل قافية أول بيت من القفل ترد في نفس قافية البيت الذي قبل البيت السابق عليها ، وهذا الأمر الجانبي جعل العروض البروفنسالية يأخذ طريقاً مختلفاً . أنظر إلى الأغنية السابعة من ديوانه :

“Farai un vers, pos mi sonelh.
E'm vau e m' estauc al Solelh,
Domnas ia de mal conselh,
E sai dir cals:
Cellas C'amor de Cavalier
Tornon a mals.”

« سأنظم شعري مادمت حياً .
ممتطياً صهوة حوادي تحت ضوء الشمس
هناك نسوة كثيرات سيئات البية .
وأقول لكم من هن :
إهن اللال يزولن عشق الفارس
تأويلها سيئاً .

(٢٠) من الواضح أيضاً أن موشحات وأرحالا عرقية كثيرة جاءت أيضاً بلا مركز ، واصطلح النقاد القدامى على تسمية ما جاء كذلك « أقرع » في مقابل تلك التي تبدأ بالمركز . وتسمى « تام » أو « كامل » . كما أن بعض القصائد البروفنسالية جاءت أيضاً كاملة ، أى بدأت بمركز . كما نرى في المثال التالي .

وأشد وضوحاً القصيدة الثامنة في ديوانه ، وجاءت ثمانية المقاطع ، وفيها يشير إلى تجديده :

..Farai chansoneta nueva..	سأنظم أغنية جديدة،
Ans queu vent ni gel ni plueva	قبل أن تعصف الريح، وسقط الجليد، ويطل المطر،
Ma donna m'assai em'prueva.	فسيدى تلمس وتبلو،
Quossi de qual guiza l'am,	لتعرف كيف أحبا،
E ja per plag que m'en mueva	ومهما ضاعفت أذى،
No'm solvera de son liam.	لن أفك نفسي من وثاق حبها.

وفي قصائد شعراء التروبادور الآخرين ، مثل : موان دى مونتودون . Moine de Montaudon وكلمة موان تعنى راهب ، وج . رينولد G. Raynold ، وج . بحريت G. Magret . ومركبرو Marcabru نجد أشعارا جاءت في القالب الذى صاغ فيه أشعاره كونت بواتيه ، وظل نظام هذا الطراز من الشعر الأندلسى ، وأعنى به الزجل والموشحات ، باقياً في صناعة الألحان الموسيقية خلال العصور الوسطى ، ولا سيما في هذا النوع من الألحان المعروف بالرونندو rondô ، وفي الأغاني الشعبية الفرنسية ، مثل : « التعسة في زواجها La mau mariée » ، « ووردة دنكرك La Reuse de Dunkerk » ، بل إن هناك مقطوعات فرنسية راقصة شاعت بين الناس في القرن السابع عشر ، سارت كلها على طريقة عرفت باسم « الرونديه Le Rondet » ، أى التوبة ولا تزال تذكرنا حتى اليوم ببحور الزجل الأندلسى .

ولابد أيضاً أن بعض الأغاني الشعبية القطلونية تتصل ببحور الزجل الأندلسى ، مثل هذه الأغنية ، وجاءت تحت عنوان : « La llebre » :

“Dentre l'hort me'n son entrada,
i una llebre hi he agafada,
La flor del llinet
La flor del llinet m'agrada,
La flor del llinet.
Por la cua l'he agafada,
Si l'he uita a l'empallada,
tot tas tant me l'he manjada.”
La flor del llinet.....

وفما يتصل باللغة البرتغالية توجد أشعار جاءت في قالب زجلى في « ديوان الفاتيكانة Concioneros de la Vaticana »، وفي « مختارات برانكوتى "Colocci - Brancuti" » وتظهر أيضاً في قصائد فرنان فلهو Fernàn Velho شاعر من عصر الملك ألفونسو العاشر، الملقب بالعالم، وفي ديوان الشاعر بايوسواريز Payo Soarez وحتى في إنجلترا نلتقى بأغان شعرية قديمة، موجهة إلى العذراء، أو تقال في أعياد الميلاد، صبت في هذا القالب الشعرى الأندلسى، وحتى يومنا لا نزال نجد في الأغان الشعبية في إسكوتلاندة، وفي إيرلندة، رباعيات جاءت على نمط أزجال مسلمى الأندلسى.

وقد درس العلامة خوسية مياس فايكروسا José Millàs Vallicrosa الأستاذ في جامعة برشلونة، تفصيلاً وفي عمق، الصلات التي كانت قائمة بين الشعر الإيطالى في العصر الوسيط وبين أصوله الإسلامية، ووجد أن عروض القالب الشعرى المسمى « الكونتراستو Contrasto »، ومعناه الخصام أو الاختلاف يرجع إلى أصول فارسية، ويصاغ في قالب الزجل الأندلسى. ويرى أن الشعر الدينى الإيطالى في العصر الوسيط، والذي يطلق عليه اسم « المدائح Laudes »، وينظم في اللهجة الدارجة، على النقيض من التراتيل اللاتينية، ولم يكن الجمهور يفهمها، كان على صلة وثيقة بعروض الزجل الأندلسى. ونجد أفضل نماذجه عند جاكابون دى تودى Jacapone di Todi. صديق القديس فرانسيكو دى أسيس، فقد التزم قالب الزجل كاملاً أحياناً مثل :

«Dulce amor di povertade,
quanto ti degiamo amare!
Povertade poverella,
Umildade e tua sorella,
ben ti basta la sacodella,
e al bere e al mangiare».

« يا حبيب الفقر الرقيق،
كم ينبغي أن نحبك!
أيها الفقر المسكين،
إن الذلة أختك،
يكفيك طبق صغير،
للشراب والطعام».

وأحياناً أخرى يحور شكل الزجل الأندلسى، فيقسم البيت إلى أشطار، فيصبح ثمانى المقاطع، بعد أن كان رباعياً :

“O magioa virtuoso – retenutta battaglia
non e senza travaglia – per lo megio passare.
L'amor me costrenze – d'amare le cose amante
ne l'aomre e l'odio – de le cose blasmane
amare ed odiare – en un coragio stante
socce bataglie tante – non le porria stimare.”

وتبدو أوزان الموشحات والأزجال في الطراز الشعري الإيطالي المعروف بالبلاتا La ballata ، أي المرقصات ، وهو يمثل الشعر في أحسن صوره ، وبلغ قمة تطوره عند لورنزو دي مديتشي Lorenzo di Médicis والبوليز يانو El Poliziano ، وظلت طريقته مستعملة فنظمت فيها الأغاني الكرنفالية ، وهو طراز شعبي عني بنظمه الأدباء ، وإن كانت موضوعاته مما يوجه إلى العوام فحسب ، مثل أزجال ابن قزمان تماماً . ويظهر طراز الزجل كذلك في المدائح المقدسة ، التي تشبه المنظومات الإسبانية المعروفة باسم « المدائح الإلهية » ، وجاءت في قالب الزجل شكلاً وعروضا .

وأخيراً: فيما يتصل بإسبانيا ، احتفظت هذه بشكل الزجل حياً خلال العصور الوسطى . وفي العصر الذهبي للأدب الإسباني (القرن السادس عشر الميلادي) . ولقد حار علماء فقه اللغة زمناً في أوزان أغاني ألفونسو العاشر . أما الآن ، وبعد أن قام خوليان ريبيرا بدراسة موسيقاها على نحو رائع وخالد . فيمكن تفسيرها في ضوء الزجل الأندلسي ، قالباً ووزناً . فإذا كتبنا هذه الأغاني دون أن نقطع الأبيات إلى أشطار وجدنا معظمها من طراز الأزجال . وإن كان القفل ينظم على قافية سابقة مثل :

“Oimidades con pobreza, quer a Virgen coroada.
mas d'orgullo con requeza e ela muy despagada.
E desta razon vos direi un miragle muy fremoso.
que mostrou Santa Maria Madre do Rey glorioso.
a un creerigo que era le a servu deseroso.
e por en gran maravilla le foi per ela mostrada”

وترجمتها :

ان السيلة العذراء المتوجة تفصل التواصل مع الفقر،
على العرور مع العن : لأنها تحتقرهما احتقارا سادياً .
ولهذا سوف نقص عليكم معجزة بالغة الجمال،
صنعتها القديسة مارية أم الرب المحيد،
لرجل دين كان راغبا في خلعتها،
وقد صنعت العذراء هذه المعجزة لتريه اباعا

وقد رأينا فيما سبق كيف أن « أغنية التلاميذة » لكاهن هيتا جاءت في
قالب زجل ، وكان الشاعر يعرف الحياة الإسلامية جيدا ، ويعرف الآلات
الموسيقية التي يستخدمها المغنون العرب ، وكتب أحيانا أغاني مرقصة للمتبحرات
والراقصات الموريسكيات ، وثمة شعراء آخرون في « ديوان بائنة » . مثل :
ياسندينو Villasandino ، وخرينا Gerena ، وآخرون مثل خمينيث دي أوربا
Jiménez de Urrea ، وألبارث جاتو Alvarez Gato وستونييجا Stuniga ، والأغنيات
التي تضمها الدواوين الموسيقية . مثل « ديوان بلاثيو » ، ونشره برييري
Barbieri . وكلها تومئ إلى أصلها الأندلسي . استمع إلى أغنية المسلمات الثلاث
هذه :

"Tres moricas me enamoran :
en Jaén:

Axa y Fátima y Marién.

Tres moricas tan garridas,
iban a coger olivas,
y fallabanlas cogidas,

en Jaén:

Axa y Fátima y Marién.

Tres moricas tan lanzanas
iban a coger manzanas
y fallabanlas t omadas,

en Jaén:

Axa y Fátima y Marién.

Dijeles: Quienes Soies. Sonoras.
de mi vida robadoras?

ثلاث سليات عشقى

في حيان .

عائشة وفاطمة ومريم

ثلاث سليات رائعات المنة .

دهر يجبر الربود

فوجدنه قد حو

في حيان :

عائشة وفاطمة ومريم .

ثلاث سليات فاضلات المنة .

دهر يجبر الدلع .

فوجدنه قد حو

في حيان :

عائشة وفاطمة ومريم

قلت لهم : من أذن مانتبات

وقد سلبتى حيان .

– Cristianas, que eramos moras
en Jaén:
Axa y Fatima y Marién.

قلن مسيحيات وكن ملهمات
في جيان:
عائشة وفاطمة ومريم

إلى آخر هذه الأغنية ، ومامضى فقرات منها . وموضوعها وموسيقاها تعود إلى أيام
هارون الرشيد ، وظلوا يتغنون بها في إسبانيا حتى القرن السادس عشر الميلادى ، والتقطتها
السيدة كارولينا ميكائيليس في البرتغال في القرن التاسع عشر الميلادى .
وبعض مقطوعات الشاعر خوان دل إثنينا Juan del Encina الدينية جاءت في البحر
نفسه ، الذى جاءت فيه القطعة السابقة :

No te tardes, que me muero;
carcelero,
No te tardes, que me muero!
Apresura tu venida,
porque no pierda la vida.
que la fe no está perdida,
Carcelero,
No te tardes, que me muero.
sacame desta Cadena,
que recibo muy gran pena,
pues tu tardar me condena,
Carcelero
No te tardes, que me muero

لا تنب عني ، فإن أموت ،
يا سجانى ،
لا تنب عني ، فإن أموت ،
عجل بالهجر ،
حتى لا أفسد حياتى ،
وفيك لم يضع إيمانى ،
يلسجانى ،
لا تنب عني ، فإن أموت ،
فك عني هذه القيود ،
وفى قاسية ألامى ،
حين تغيب عني تقضى على .
يا سجانى ،
لا تنب عني ، فإن أموت .

وبعض أغنيات المهملد جاءت في نفس هذا قالب الزجل ، وكثير من الأشعار
الدينية التى تنشئ بمصاحبة موسيقى علمانية ، وظل هذا التقليد متبعاً حتى القرن السابع
عشر الميلادى ، وقد نظم الشاعر الإسباني كيبدو Quevedo بعض الأبيات يسخر فيها
من بعض السود ، وجاءت في قالب زجل ، وحتى الكاتب المسرحى كالديرون
Calderon في مسرحيته المأسوية الرائعة « حب بعد الموت » ، يرسل على السنة بعض
الموريسكيين الأنشودة التالية ، ذات الطابع الزجل الخاص الخالص :

Aunque en triste cautiverio,
de Alá por justo misterio,
Llore el africano imperio.
su misera ley esquiva
su Ley viva!
viva la memoria extrana,
de aquella gloriosa hazana,
que en la libertad de Espana.
a Espana tuvo cautiva
su ley viva!

وعلى الرغم من الأسر التبعي،
ولإرادة الله لنا عدلاً خفياً،
فإننا نكس الامبراطورية الأفريقية.
وما قدر عليها من شقاء
وليحى دين الله!
ولتحى الذكرى الرائعة،
لذلك العمل المجيد^(٢١)
التي جعلت من أسبانيا
أسيرة حريتها.
وليحى دين الله!.

باللحيوية الرائعة التي ينطوى عليها هذا النظام الشعري! ، لقد ظل يقاوم التلاشي على امتداد قرون وقرون ، وأصبح وسيلة للتعبير عن مشاعر شعوب مختلفة ، وفي لغات متباينة ، ويجب أن نضيفه إلى أبحاد الحضارة العربية الخالدة ، والتي امتدت إلى أوروبا عن طريق الإسبان المسلمين ، والتي لا تنحصر في مسجد قرطبة الرائع ، وأؤكد لكم أنه لا يوجد مسجد آخر يضاهيه أهمية وروعة على امتداد كل العالم الإسلامى الذى أعرفه مشاهدة من المغرب إلى أسطنبول ، ولا في منارة الخير الدا الجميلة في إشبيلية ، رمز الأندلس ، وإبداع مهندس مسلم يحمل لقباً إسبانياً ، وليس لها شبيه في الجمال والرقعة في كل العالم الإسلامى ، ولا أستثنى من ذلك منارة الكتبية الشهيرة في مدينة مراكش ، ولا في روعة قصور بني نصر الحاملة في غرناطة ، وليس للحمرء مثيل في كل المعمار المدنى القائم في العالم الإسلامى . وعندما نتذكر بناء هذه الروائع لا يجب أن ننسى أولئك الشعراء المغمورين والضائعين ، مثل مقدم بن معافى القبرى ، والذين أبدعوا لنا قالباً شعرياً يفيض بالقوة والحوية ، على نحو ما رأينا وحللنا في إيجاز . وفي كل الحالات عندما نتذكر التراث الذى أضافه الإسبان المسلمون إلى الحضارة الأوربية ، نشعر بالزهو لأن هؤلاء الذين خلفوا لنا هذه الروائع الفنية ، من الزجل والموشحات والنظريات الفلسفية التي تربي عليها المفكرون الغربيون ،

(٢١) يشير إلى فتح المسلمين لأسبانيا .

وكتب العلم والطب التي أسهمت في أن تجعل من الحياة الإنسانية شيئاً أجمل وأفضل ،
والذين بلغوا القمة بالحضارة على أيامهم ، وجعلوا من إسبانيا أرقى دول أوروبا ثقافة ،
هؤلاء كانوا أجدادنا ، من جنسنا ، وليس عدلاً أن نجردهم من إسبانيّتهم لمجرد أنهم كانوا
مسلمين .

رثاء المدن والممالك

في الشعر الأندلسي

○ أصول مشرقية :

بكاء المدن الزاهرة شعراً حين تأتي عليها الفتن المدمرة ، والممالك حين تذهب بها الثورات العاتية ، له أصول مشرقية ، أول ما نلتقى بها في تلك الدموع الغزيرة التي ذرفها الشعراء على بغداد أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون عام ١٩٧ هـ = ٨١٢ م ، حين حاصرها طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون ، ولاقت خلاله بلاء شديداً يعجز عنه الوصف ، وحين اقتحمها كان القتال يدور من شارع إلى شارع ، ولكي يقضي الجيش على المقاومة التي لقيها كان يدك أحياء برمتها ، « وكثر الخراب والهدم حتى درست محاسنها » ، واستحالت إلى إطلال ، ولم يكن لها في مدن العالم يومها نظير ازدهاراً وثراء وجمالاً . وقد بكأها عمرو بن عبد الملك الوراق ، ورد ما أصابها إلى العين :

من ذا أصابك يا بغدادُ بالعينِ ألم تكوني زماناً قرّة العينِ
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم وكان قريهم زيناً من الزينِ
صاح الغرابُ بهم بالبين فافترقوا ماذا لقيت بهم من لوعة البينِ
أستودع الله أقواماً ما ذكرتهم إلا تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهر وصدّعهم والدهر يصدّع ما بين الفريقينِ

وفيهما قال إسحاق بن حسان ، أبو يعقوب الخريمي . وهو من الفرس ، قصيدة طويلة في مئة وخمسة وثلاثين بيتاً ، وصف فيها ما حل ببغداد في نبرة آسية ، ولوعة صادقة ، صور خلالها الفتنة تصويراً دقيقاً مسهباً ، حتى لتبدو أمام العين ، حين قراءتها ، صور

التخريب والدماء والقتل والذعر الذى يتغشى الناس فى الطرقات ، وانتصر فيها بحكم
فارسيته للمأمون :

يابئوس بغدادَ دارَ مملكة دارتْ على أهلها دوائرُها
أمهلها الله ثم عاقبها لما أحاطتْ بها كبائرُها
رقَّ بها الدين واستُخفَّ بذي الـ فضل وعزَّ الرجال فاجرُها
وصار ربَّ الجيران فاسقُهم وابترَّ أمرَ الدروبِ شاطرُها
يُحرق هذا ، وذاك يهدمُها ويشتنى بالسَّهاب داعرُها
والكرخُ أسواقُها معطلةٌ يستنُّ شذائِها وعائرُها
أخرجت الحربُ من أساقطهم آسادَ غيل غلبًا قساورها
من البوارى تراسُها ومن الخو ص إذا استلأمتْ مغاورها
لا الرزقَ تبغى ولا العطاء ولا يحشرها بالعناء حاشرها

وبعد ذلك بثمانين عاماً ، أو بالدقة فى سنة ٢٧٧ هـ = ٨٩٠ م ، اقتحم الزنج مدينة
البصرة فى ثورتهم التى قاموا بها ، وقاوموا الدولة خلالها أربعة عشر عاماً ، وقام بها ضحايا
الاستغلال الذى مارسه زبانية الإقطاع تجاه المستضعفين الذين كانوا يعملون فى مناجم الملح
الواقعة فى نهر الفرات الأدنى ، فغرس السخط والحقد فى نفوسهم ، ونفوس من كانوا فى
مثل حالتهم ، وأرسلت الدولة الجيش لإخضاعها ، ولكن ظروف المقاطعة وكثرة
المستنقعات والترع جعلتهم ينتصرون على كل هؤلاء الجنود ، واعتنقوا مبادئ الخوارج التى
اعتنقها زعيمهم على بن محمد ، وكانوا يقتلون دون رحمة كل من يقع فى أيديهم من
الأسرى وغير المحاربين ، ويقدر عدد من ذهب ضحية وهدراً فى هذه الحرب بأكثر من
نصف مليون ، وعقب إحدى المعارك بلغ عدد الرؤوس التى لم تطلب من الكثرة حداً
جعل الزوج يفرغونها فى إحدى القنوات التى حملتها إلى البصرة ليتعرف عليهم أهلهم وأصدقاؤهم
وأصدقاءهم هناك ، ولقد هجر الناس البصرة وواسط والأهواز والأبلة ، ودمر الزنج
البصرة عن آخرها .

وقد وجدت البصرة في ابن الرومي الشاعر الذي ييكها ، فوصف غلبة الزنج عليها ،
والمآسى المروعة التي تعرضت لها ، وكعاداته يهتم بالوقائع . ويستقصي دقائق الأحداث
وتفاصيلها ، وقصيدته تبلغ الذروة إحكاماً في بنائها . وتسلسلا في أفكارها ، وكل بيت
يسلمك إلى ما بعده ضرورة ، وفيها يتحدث عن العذارى يتعرضن للإعتداء ، ويجعلن
أبكار تأكيداً ، وأن فضحهن كان جهاراً ، ووقف عند الاعتداء على الأطفال وقتلهم ،
والمح إلى القصور التي استحالت إلى تلال من الرماد والتراب :

زاد عن مقلتي لذيذ المنام	شغلها عنه بالدموع السجام
أى نوم من بعد ما حل بالبصرة	ماحل من هنات عظام
دخلوها كأنهم قطع اللي	ل إذا راح مد لهم الظلام
كم فتاة بخاتم الله بكر	فضحوها جهراً بغير اكتام
كم رضيع هناك قد فطموه	بشبا السيف قبل حين الفطام
بدلت تلکم القصور تلالاً	من رماذ ومن تراب ركام
صبحوهم فكابد القوم منهم	طول يوم كأنه ألف عام

وحين اجتاحت التتار مدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ - ١١٦١ م . وسحقوها في غير رحمة ،
وأثوا على الخلافة فيها إلى غير رجعة ، بكأها الشعراء ، بكوا المدينة والخلافة معاً ، ولكن
هذا الأمر جاء وقد استقر رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي على أصوله . ومن ثم فامر
أشعارها لا يعنيننا هنا .

هل جاء الأمر في الأندلس تقليداً لما جرى في المشرق ؟ لا أرى هذا ، وأكاد أقطع
بأن قصيدة الخريمي في فتنة الأمين والمأمون لم تبلغ الأندلس ، فصاحبها شعوى متعصب
لقومه وجنسه ، وإن سلمت عقيدته وحسن إسلامه ، فأدارت لها بغداد ظهرها ، على
ما في القصيدة من جبال وقوة ، ربما لأن الشاعر متعصب أولاً ، ومحاولة منها لنسيان الفتنة
ثانياً ، ولأم الجراح بين بني العباس ، فالقاتل والمقتول من أبناء هارون الرشيد ، ولعل
الدولة نفسها رأياً للصدع كانت تدفع الناس إلى نسيانها ، وليس صدقة فيما أرى أن

الخرمى ليس له ديوان كامل ، رغم رقة ما وصلنا من شعره وجودته ، وكان الطبرى ، وهو مؤرخ سياسى دقيق ، الوحيد الذى أتى بقصيدته فى الفتنة كاملة ، وأورد ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » أبياتاً منها ، وجاء الجاحظ بأبيات منها أقل فى كتابه « الحيوان »^(١) . وقصيدة هذا حالها فى المشرق بعيد أن تبلغ الأندلس الأموى وأن تؤثر فيه .

وبعيد أن يكون ابن الرومى بقصيدته وراء العاطفة التى تفجرت بين جوانح ابن حزم وصاحبه ، فستان ما بين الأمرين والمناسبتين . فذاك يبكى مدينة سمع بخرابها ولم يعيش فيها ، ولا تمسه محنتها من قريب ، وهذان يبكيان مهابط طالما ترددتا فى أرجائها ، وقصوراً طالما أمضيا أجمل الساعات بين قاعاتها ، وجنائاً نعما بوافر ثمرها ، ورطيب فيئها ، وجمال أشجارها ، إلى جانب أننى أشك كثيراً فى أن قصيدة ابن الرومى هذه عرفت مبكراً فى الأندلس ، لأن الشاعر نفسه أقل الشعراء تردداً فى أسماع الأندلسيين ، ولا يحىء ذكره فى مدوناتهم إلا قليلاً وعرضاً ، ومن خلال الحكايات القليلة التى شهر بها ، وارتبطت به متشائماً أو متطيراً ، أوحى يبلغ الدقة الكاملة فى التصوير ، مثل أبياته فى « صانع الرقاق » ، وأبيات أخرى شبيهة .

أما فى الأندلس فولد هذا الشعر بين الأحداث المتلاحقة ، ومن الصراع المستمر بين الأحزاب المختلفة التى قامت على أنقاض الخلافة المنهارة ، وبين الأندلسيين وغزاتهم من أفريقية ، وبينهم وبين النصارى فى شمال وطنهم ، ومهد له التغنى بحب الوطن قرية أوضيعة ، ومدينة أو عاصمة ، وكل الأرض التى جابها الشاعر حباً فى الرحلة ، أو طلباً للرفد والمتعة ، يصف ما على وديانها من زهر وثمر ، وما فى سمائها من برق وسحب ،

(١) انظر :

- تاريخ الطبرى ، ج ٨ ، ص ٤٤٨ وما بعدها ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، سلسلة ذخائر العرب ، دار المعارف بمصر .
- ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج ٢ ، ص ٨٥٥ ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٧٨ هـ ١٩١٧ م .
- الجاحظ ، الحيوان ، ج ١ ص ٢٢٥ وج ٥ ص ٢٠٤ ، تحقيق عبد السلام هارون .

وما يخرقها من بحيرات وأنهار ، وما يتحرك عليها من طير وحيوان ، وماله فيها من صداقات وذكريات ، ومجالس أنس وشراب . فإذا افتقد ذلك غريباً حن إليه ، وإذا ذهبت به الحرب بكاه ، وكان لنا مع هذه المشاعر شعر يرثى المدن الذاهبة ، والممالك الضائعة ، والأرض تسقط في يد العدو ، ويصور في جوى صادق فواجع المسلمين . وكان لنا في النثر الأدب الفاخر ، يبشر بتفوق الأندلس ، ويعدد سبقه ، يزهو بعلمه ، وما يضم من عظماء الرجال ، على نحو ما نرى في رسائل ابن حزم ، والشقندي ، وابن سعيد ، في فضائل الأندلس^(٢) .

فبكاء الممالك المنهارة ، والمدن الذاهبة ، فن أندلسي أصيل فيما أرى ، وجدت دوافعه في المشرق والمغرب على السواء ، وخص الأندلس ببعضها ، وتفرد بأنه جرى مع هذه الدوافع إلى غايتها ، فكان له معها قصيد رائع أحياناً ، ودون الجيد أحياناً أخرى ، تبعاً لثقافة الشاعر وطاقاته النفسية ، وحظه من تجارب عصره عمقاً واتساعاً . وكان وراء ذلك كله ما أسميه :

○ الوجدان الأندلسي :

في أعداد قليلة لا تتجاوز الخمسين ألفاً من العرب الخالص ، وضعفهم من البربر ، أزيد أو أقل شيئاً ، جاءوا إسبانيا فاتحين ، أو مهاجرين بعد الفتح ، بحثاً عن حياة أفضل ، أو حباً في المغامرة ، أو سعيًا وراء المجهول ، أو حالة يستهويهم الجديد ، أو رغبة في نشر الإسلام ، أو رباطاً في ثغوره دفاعاً عنه ، أو فراراً من اضطهاد سياسي أو قبل أو عقيدى يلاحقهم في المشرق ، وعلى هذه الأرض الأوربية استقروا ، وتزوجوا من إسبانيات ، وبدأوا يكتفون أنفسهم مع الواقع الجديد ، لم يتخلوا عن عاداتهم ودينهم ولغتهم ، ولكنهم أيضاً لم يديروا ظهورهم وقلوبهم وعقولهم لما وجدوا على هذه الأرض ، ولم تمض غير سنوات قليلة في عمر الشعوب ، حتى أصبحت العربية لغة كل القوم ،

(٢) الرسائل الثلاث توجد في كتاب نصح الطبيب للمقرئ ، ج ٣ ، ص ١٥٠ وما بعدها ، طبعة احسان عباس .

والإسلام دين الغالبية بينهم ، لم يفرضه سيف ، ولا أكرهت الناس عليه محاكم التفتيش ، وإنما استهوتهم فيه أشياء جميلة ، فقد كرم الإنسان ، وأعلى قدره ، واحترم إرادته ، فلا إكراه في الدين ، والناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

ويضغط الباحثون الأوروبيون ، في جانب كبير منهم ، على الدوافع الاقتصادية ، ودورها في دفع الناس إلى الإسلام ، ورغبة الإسبان في تحسين أحوالهم الاجتماعية ، وأن يأخذوا بحظهم من المناصب الإدارية ، وهى قولة فيها بعض الحق ، وفيها كثير من الباطل . أما الحق فالمناصب العليا في الجانب الأعظم منها كانت وفقاً على المسلمين ، ولكن .. كم يبلغ عدد هذه الوظائف في عاصمة كقرطبة ، تجاوز تعدادها في نهاية القرن العاشر الميلادى المليون نسمة ؟ . وأما الباطل فربط ارتفاع الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالإسلام ، فلا صلة بين الأمرين ، وبوسع أى فرد أن يملك الأموال الطائلة ، والثروات الضخمة ، والضياع الواسعة ، تاجراً أو مزارعاً أو صاحب صناعة ، دون أن يتوقف هذا على دينه فى شيء ، ولدينا شواهد عديدة فى كتب التاريخ على نصارى أغنياء ، ويهوداً يملكون دنيا عريضة من المال والعقار ، وسوف يضيق بها المسيحيون فيما بعد ، بدءاً من القرن الرابع عشر الميلادى ، ويفتعلون الكثير من الأزمات ليستولوا عليها ، تغريماً لهم أحياناً ، وتجريدهم منها مباشرة أحياناً أخرى ، وطردهم من الأندلس نهائياً فى نهاية المطاف .

على أية حال لا نكاد نبلغ القرن العاشر الميلادى ، حتى تنصهر كل العناصر الإسلامية التى سكنت شبه جزيرة إيبيريا ويتكون الوجدان الأندلسى المتميز شيئاً فشيئاً ، فتخف حدة القبلية ، وتأخذ العنصرية العرقية فى التلاشى ، وتبرز أشياء كثيرة تصبح مدعاة الفخر ، إلى جانب عراقة الأسرة ، كالثقافة الواسعة ، والكفاءة فى النهوض بالمناصب ، والشجاعة فى الحرب ، والنجاح فى معترك الحياة . نعم ظل المسلمون فى جانب ، وأهل الذمة من النصارى واليهود فى جانب آخر ، ولكن يجب ألا ننسى فى أية لحظة أن جل المسلمين كانوا من سكان شبه الجزيرة الأصليين ، قوطاً أو لاتيناً ، أو من بقية العناصر الأخرى التى

سبقتهم في الوجود . وأن الفوارق الدينية لم تكن دوماً حواجز حائلة بين الصلات الإنسانية المختلفة ، التي يفرضها التعايش ، ويتطلبها تشابك الحياة ، والتعاون والتكاتف على مواجهة صعابها ، وجعلها أقل عسرا ، وأسهل تناولا ، وبخاصة في المدن الكبرى ، وبين الطبقات الدنيا ، على حين ترتفع الثقافة بالطبقات الأخرى إلى ما فوق هذا الاختلاف ، ونعرف من اعترافات ابن حزم في طوق الحمامة ، وكان خصما لدوداً لكل ما ليس إسلاماً ، أن مكانه المفضل في مدينة ألمرية حين لجأ إليها ، كان دكان يهودى طيب وعطار^(٣) . وكانت حياة الناس في جملتها رضية ، وبخيرات وطنهم قانعون ، وإحساسهم بأن بلادهم تفوق جيرانها مدنية يشيع في نفوسهم الحب لها ، والحرص عليها ، على حين يثير في أعماقهم إدراك الخطر المحدق بها ، وبعدها عن مركز الإسلام ، خوفاً خفياً ، ومن ثم تولد بين أدبائهم ، من شدة ارتباطهم بها ، ما أسميه :

○ شعر الحنين :

ولست أزعـم أنه وقف على الأندلسيين دون المشاركة ، فقد كنت ، وما زلت ، أرى أن المقدمات الطللية إلى شعر الحنين أقرب منها إلى الغزل أو النسيب^(٤) ، ولكن حنين الأندلسيين جاء خاصاً ، وصادقاً ، ومتميزاً ، وكثيراً ، وازدهر حين ضاع من أندادهم في المشرق بين صخب الحياة في المدينة ، وعمق إحساسهم به كثرة رحيلهم ، داخل الأندلس نفسه ، أو خارجه إلى بلاد بعيدة ، وراء الأفضل من العيش ، أو لمجرد الرحلة ، فهم في حنين دائم إلى حياة جميلة فارقوها ، ولذا ذات متنوعة عاشوا عليها ، وأناس يضطرب مع ذكرهم القلب ، وطبيعة تهفو لجمالها النفس .

أمضى المعتمد بن عباد أياماً من فتوته عاملاً على شلب Silves^(٥) أيام أبيه ،

(٣) انظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، طبعة دار المعارف بتحقيقنا ، ص ٣٥ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ .
 (٤) انظر كتابنا : امرؤ القيس ، حياته وشعره ، ص ١٥٤ وما بعدها ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٩ .
 (٥) هي الآن مدينة صغيرة في جنوب البرتغال ، قريبا من شاطئ المحيط ، تتبع محافظة الغرب algarve ، وكانت أيام الحكم الإسلامي قاعدة كورة أكشونية ، وسقطت في أيدي النصارى عام ١١٥١ م .

وهي مدينة حباها الله من جمال الطبيعة الشيء الكثير ، على مرمى البصر من المحيط الإطلنطي ، ذات « بسائط فسيحة ، وبطائح عريضة ، ولها جبل عظيم منيف ، كثير المسارح والمياه » ، تعلوه أشجار التفاح ، وتتضوع منه روائح العود ، « حسنة الهيئة ، بديعة البناء ، مرتبة الأسواق ، وأهلها وسكان قراها عرب من اليمن وغيرها ، وكلامهم بالعربية الصريحة ، وهم فصحاء يقولون الشعر ، وهم نبلاء خاصتهم وعامتهم » ، وكانت للمعتمد فيها خلوات ولهوات ، « فهي ملعب شبابه ، ومألف أحبابه ، عمر لجودها غلاما ، وتذكر عهودها أحلاماً ، وكان قصر الشراحيب من معالمها ، ويصفه ابن خاقان بأنه « متناه في البهاء والإشراق ، مباه لزوراء العراق » ، فلما تولى الملك بعد أبيه ، عام ٥٤٦١ = ١٠٦٩ م ، اختص بها أحب شعرائه إليه إذ ذاك ، أبا بكر محمد بن عمار ، فوجهه إليها متفقداً لأعمالها ، فلما ودعه أهاجه الشوق ، وغلبته الذكرى ، ودعا شاعره أن ينقل إلى مرابعها تحيته :

ألا حيّ أوطاني بشلبِ أبا بكر	وسهلنّ : هل عهد الوصال كما أدرى ؟
وسلمّ على قصر الشراحيب عن فتى	له أبداً شوقٌ إلى ذلك القصر
منازلُ آسادٍ وبيض نواعمٍ	فناهيك من غيلٍ وناهيك من خنجرٍ
وكم ليلة قد بت أنعم جُنْحها	بِمُخَصَّبَةِ الأردافِ مجدبة الخصر
وبيضٍ وسُمرٍ فاعلاتٍ بمهجتي	فعال الصفاح البيض والأسلِ السمر
ليالٍ بسد النهر لهواً قطعُها	بذات سوارٍ مثل منعطفِ البدر
نصت بردها عن غصن بانٍ منعمٍ	نضيرٍ كما انشق الكمام عن الزهر

ويحكى ابن بشكوال عن الشيخ أبي بكر بن سعادة أنه دخل مدينة طليطلة مع أخيه ، على الشيخ الأستاذ أبي بكر المخزومي ، قال : فسألنا من أين ؟ ، فقلنا : من قرطبة ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا منها ، فقال : قرباً إلى أشم نسيم قرطبة ، فقربنا منه ، فشم رأسي وقبله . وقال لي : اكتب :
أقرطبة الغراء هل لي أوبة إليك وهل يدنو لنا ذلك العهد

سقى الجانبَ الغربيَّ منك غمامةً وقعقع في ساحات دوحاتك الرعدُ
لياليك أسحارُ وأرضك روضةً وتربك في استنشاقها عنبرٌ وردُ

ويدع ابن زيدون قرطبة فأراً بحريته ، قاصداً إشبيلية ، ويمر في طريقه إليها ببطليوس ،
ويتوقف بها بضعة أشهر ، ويمر عليه عيد الأضحى وحيداً ، « وقد ثار به الوجد بمن كان
يألفه والغرام ، وتراءت لعينه تلك الظباء الأوانس والآرام » ، فذكر أعياده بها ،
ومتقلب نزهاته فيها ، ومضى يسترجعها مهبطاً وراء آخر :

خليلي لا فطرُ يسرُ ولا أضحي فإ حال من أمسى مشوقاً كما أضحي
لأن شافني شرقُ العقابِ فلم أزل أنخص بممحوض الهوى ذلك السفحا
وما انفك جوفى الرصافة مشعري دواعي بث تُعقب الأسف البرحا
ونهاج قصرُ الفارسي صباية لقلبي لا يألو زناد الأسى قدحاً

وأيام وصل بالعقيق اقتضيته فإن لم يكن ميعاده العيدُ فالفصحاً^(٦)
وآصال لحو في مسناة مالك معاطاة ندمانٍ إذا شئت أوسبها
لدى راكد تصبيك من صفحاته قوارير خضر خلتها مُردت صرُحا
معاهد لذات وأوطان صَبوة أجلتُ المعلى في الأمانى بها قدحاً
ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح تقضى تنائها مدامة نرُحا
مقاصير ملك أشرقت جنباتها فخلنا العشايا الجون أثناءها صُبها

ويرحل الجاتب أبو بكر محمد بن القاسم ، ويلقب « اشكهاذة »^(٧) ، وارتحل إلى
المشرق لما نبت به قرطبة ، عند قلب دولها ، وتحول ملوكها وخولها ، فجال في العراق ،
وأقام بخلب ، ثم غلبه الشوق ، وحن إلى وطنه وأهله ، وصور لنا المهانة التي يلقاها

(٦) الفصح عيد العنبر

(٧) « اشكهاذة » تعني في عامية الأندلس وشمال إفريقيا : ما هذا . ويبدو أنها كانت من لوازم أبي بكر فعرف بها ، ووردت في

« المغرب في حلى المغرب » لمحمد الدكتور شوقي صيف « اشكهاط » وفي الدخيرة لابن بسام ، جلد ١ ، قسم ١ ، « اشكياط » .
وكلاهما تعريف فيما أرى .

الغريب ، أى غريب ، ويدعو قومه إلى أن يتعظوا بما قاسى ، وأن ينأوا بأنفسهم عن هذه التجربة :

أين أقصى الغرب من أرض حلب	أمل في الغرب موصول التعب
حن من شوق إلى أوطانه	من جفاه صبره لما اغترب
جال في الأرض لجأاً حائراً	بين شوق وعناء ونصب
كل من يلقاه لا يعرفه	مستغيثاً بين عجم وعرب
لهف نفسي أين هاتيك العلا	واضياعاه وياغبين الحسب
والذى قد كان ذخراً وبه	أرتجى المال وإدراك الرتب
صار لى أبخس ما أعدته	بين قوم مادروا طعم الأدب
ياأحبائى اسمعوا بعض الذى	يتلقاه الطريد المغترب
وليكن زجراً لكم عن غربة	يرجع الرأس لديها كالذنب

اما الأديب الشاعر أبو الحسن على بن موسى بن سعيد ، متمم كتاب « المغرب فى حلى المغرب » ، فقد هاجر من وطنه ، صحبة والده . وأقام بمصر زمناً ، وامتزج بأدبائها وشعرائها ، ورحل إلى غيرها من بلاد المشرق ، وعاد إلى تونس ، ثم رحل منها ثانية إلى المشرق أيضاً ، وعاد فاستقر بها أخيراً إلى أن لقي الله ، وأعطانا صورة دقيقة للغريب حين يواجه عالماً جديداً عليه للمرة الأولى ، وبخاصة فى عاصمة كبرى كالقاهرة ، فهو يقول حين وردها :

أصبحت أعترض الوجوه ولا أرى	مابينها وجهها لمن أدريه
عودى على بدئ ضلالاً بينهم	حتى كائن من بقايا التيه
ويح الغريب توحشت الحاظه	فى عالم ليسوا له بشيه
إن عاد لى وطنى اعترفت بحقه	إن التغرب ضاع عمرى فيه

وفى القاهرة أيضاً حن إلى وطنه ، وأدركته وحشة قاسية ، تذكر معها ما كان يعهد بالأندلس من المواضع البهجة ، التى قطع بها العيش غصاً خصيباً ، وصحب الزمان يافعاً

ولبس الشباب قشياً ، وصور لنا هذا في قصيدة طويلة ، وازن فيها بين ماترك هناك وما يرى هنا ، وأتى على ذكر المعاهد التي خلف فيها جميل ذكرياته ، وبقايا من حياته ومن أحبائه ، وهي طويلة ورائعة ، أتى فيها على ذكرياته تفصيلاً في مدن الأندلس الزاهرة : إشبيلية ، والمرج ، وشتبوس بلد ابن عمار الشاعر ، والجزيرة الخضراء ، ومالقة ، ومرسية . ولقد تتكرر التجربة ، ولها في كل مرة مذاق خاص ، وتتشابه المهابط ، ولكل مهبط جمال متميز ، وفاق ابن سعيد أقرانه في أنه وقف عند كل ذكرى طويلاً ، فأعطانا لها صورة مجسمة ، لم يقف بها عند مجرد الحنين والشوق ، وإنما حرص على أن يقدم لنا كل دقائقها ، فالسواقي تنهادى ، والحمام تشدو ، وجماليات شتبوس يشرقن من النواقد ، وغناؤهن في جماله يكرهك على أن تسمع وإن لم ترد ، وفي عفوية آسرة يتمنى : « ليتني هناك ما زلت أذنب ، فالبلدة طيبة ، والله غفور رحيم ! » .

هذه مصرُ	فأين المغربُ ؟	منذ نأى عني	دموعي تسكبُ
فارقتَه	النفسُ جهلاً	إنما يُعرف	الشيء إذا ما يذهبُ
أين حمصُ ؟	أين أيامي بها ؟	بعدها لم ألقَ	شيئاً يُعجب
كم تقضى لي	بها من لذة	حيثُ للنهر	خير مطربُ
وحمام الأبيك	تشدو حولنا	والمثاني في	ذراها تصخب
أى عيشٍ قد	قطعناه بها	ذكره من كل	نعمى أطيب
ولكم بالمرج	لي من لذة	بعدها ما العيش	عندى يعذب
والسواعير التي	تذكّارها	بالنوى عن	مهجتي لا تُسلبُ
ولكم في شتْبوس	من منى	قد قضيناها	ولا من يعتب
حيث هاتيك	الشراحيبُ التي	كم بها من حُسن	بدر معصبُ
وغناء كل	ذى فقرٍ له	سامعٌ غضباً	ولا من بغضبُ
بلدة طابتُ	وربُّ غافر	ليتني ما زلتُ	فيها أذنبُ ^(١٨)

(٨) اجتزأنا من القصيدة بالأبيات السابقة ، ويمكن العودة إليها كاملة في نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٨١ - ٢٨٣ ، طبعة

هذه ملامح عامة ، غير مستقصية ولا مطبقة ، لجوانب من شعر الحنين ، ونلمح معها أنه لم يبدأ إلا بعد القرن العاشر الميلادي ، حين انصهر الأندلس في دولة ، ونما إحساس الناس بالوطن على مهل ، وهو شعر نظائره قليلة في المشرق . ولافت للنظر أيضاً أن العرب أو البربر الذين جاءوا إلى الأندلس واستقروا فيه ، لا نعرف لهم حتى ولا في الأعوام الأولى ، خارج التشبيهات المطروقة تجيء عرضاً ، شعرا يخنون فيه إلى أيامهم الأولى ، في مهابطهم التي قدموا منها ، هناك في شمال إفريقية ، أو مصر . أو الشام ، أو العراق ، أو الجزيرة العربية . ولا أعرف غير مقطعات ثلاث للأمير عبد الرحمن الداخل ، ومنها ما ينسب لغيره ، وجاءت كل واحدة منها في أربعة أبيات ، يتشوق إلى معاهد الشام في مقطوعة ، ويناجي نخلة في اثنتين ، وهو استثناء يدعم القاعدة ولا ينقضها ، فقد جاء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس مكتمل الوجدان والذوق ، ورأى نفسه وباعترافه غريباً على أرض الأندلس ، وما كان ممكناً أن يتأسى هنا عن أمسه هناك ، فقد خلف وراءه خلافة عظيمة انتزعت من بيتهم ، وانتهى به المطاف أميراً على مقاطعة من مقاطعات الخلافة ، محدودة المساحة والقدرة والمجد ، صنعها بيده ، وظلت مجهولة القدر والمصير حتى آخر أيامه ، فهي لا تعوضه ولا تنسيه أجمادهم هناك .

وقد تولد عن جمال الأندلس في جملته ، وحب الناس له في عاقبتهم وارتباطهم به وطناً حين يقيمون عليه ، واحتفاظهم له بذكرى حنون حين يفارقونه ، أن بكاءهم عليه ، حين يعرض له مكروه ، ينجىء حاراً صادقاً ومن أبعد أغوار النفس . ويمكن أن نجمل المكاره التي تعاورت الأندلس في هذا الجمال في ألوان ثلاثة : مدن خربتها الثورات والفتن ، وملوك أزاحهم المسلمون أنفسهم ، وبلاذ استولت عليها النصارى ، ولكل لون شعراؤه وطابع بكائه ، وكانت قرطبة عاصمة الخلافة ، وجوهرة مدن الأندلس ، أول مدينة أتت عليها الثورة ، وامتدت بها أعواماً ، وشاركت فيها كل الجماهير .

○ بكاء قرطبة :

حين تولى عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر الحجابة بعد أبيه ، واتخذ اسم المظفر

لقبالة ، وواصل سياسة والده ، وكان « الأندلس يشهد تغيراً جذرياً في حياته ، لقد حل الصراع الطبقي محل الصراع العنصرى . وظهرت اتجاهات جديدة في الدين والسياسة ، وطففت على السطح الظواهر العامة التى تسبق أية ثورة ظهرت قديماً ، أوحى فى أيامنا هذه ، التى ستودى بالخلافة بعد قليل : سخط عام وعميق ، وفساد حقيقى يمتد واقعاً أو تصوراً إلى الطبقة الحاكمة ، وثروات ضخمة تظهر فجأة دون مقدمات ، ولا يملك أصحابها من المؤهلات أو رأس المال شيئاً ، إلا صلات مريبة بالحكام ، أو من يتصل بهم من زوجات وبنين وبنات وموظفين . وشيوع من يحكمون فى الظلام ، أو من وراء ستار ، أو بالتعبير السياسى الحديث أولئك الذين يحكمون وليسوا مسئولين لا دستوراً ولا عرفاً ، ومكاسب قليلة ، براقة وخادعة ، تسكر الحاكم ، وتذهب بعقله ، وتغرس فيه الغرور بدل التأمل ، ومحاولات غير جادة وفاشلة لوقف ذلك كله ، ثم تنفجر الأرض عن تنظيم سياسى خفى ، يأتى بنظام جديد غير متوقع ، حتى لأولئك الذين يفكرون فى التغيير أو قاموا به »^(٩) .

ولم تطل أيام المظفر . شهد طلائع الثورة ، وإمارات التغير ، ورحل فى زهرة شبابه قبل أن يطحنه ثقلها عام ١٠٠٨ م ، وتولى الحجابة بعد أخوه عبد الرحمن الملقب « شنجول » ، فى سن طرية لا يتجاوز العشرين عاماً ، ويفتقد كل الخصائص والمزايا التى كانت لأبيه أو أخيه من قبل ، وحدث نفسه أن يصبح ولى عهد هشام الثانى ، فثار عليه أعضاء البيت الأموى وقتلوه ، وانفجرت الثورة ، واحتدم الصراع عنيفاً ومدمراً بين الفئات المتصارعة ، من عرب وبربر وإسبان ، وأمويين وشيعة ، وأتينا على أحداثها تفصيلاً فى كتابنا « دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة » ، واستمرت حتى عام ١٠٢٦ م ، وعبر أحداثها تعرضت العاصمة الجلييلة والجميلة لكل ألوان المهانة ، من الذبح الجماعى الشامل للشيوخ والنساء والأطفال ، والنهب والتدمير والحرائق . ومعها تحول أفخم ما عرفت أوربا والعالم على أيامها . وعلى أيامنا أيضاً ، إلى أكوام من الخرائب

(٩) د . الطاهر أحمد مكى ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، الطبعة الثانية ، القاهرة

والأنقاض ، وأنت على كل ضواحيها الجميلة ، بما فيها الزهراء والزاهرة ، ومات الناس جوعاً ، وفنيت المواشى ، وعمت البطالة ، وأغاض الشقاء الشامل كل بواذر الأمل ، وتكفل وباء بالطاعون بالقضاء على ما أفلت من هذه المحن .

خلال هذه الفتن أتى البربر على بيوت آل حزم في بلاط مغيث ، وترك ابن حزم نفسه العاصمة نجاة بشخصه ، حين انهارت مقاومة الخليفة الذي وقف إلى جانبه ، وعمل معه وزيراً ، فلجأ إلى المرية ، وبقي فيها فترة ، جاء خلالها من يحدثه عن قصورهم ، وما فعل الزمان بها ، فبكاها نثراً وشعراً ، وجاء نثره فيها جميلاً ، يعكس مأساته في صدق ، ويصور محنة العاصمة في دقة ، وينضح تشاؤماً وزهداً ، عرض لما كانت عليه بيوتهم وقرطبة إجمالاً ، وما انتهى إليه حالها ، في جمل قصيرة مزدوجة موجعة ، وتمثيل مجسم حزين الإيقاع ، تكاد معه ترى كل شئ وتلمسه ، وغلبت على أسمائه صيغة الجمع ، سالماً أو مؤثماً أو مكسراً ، واتكأ كثيراً على ما أسميه الطباق النفسي ، فهو يضع ما كان في مواجهة ما هو كائن ، بشراً ، أو حيواناً ، أو جماداً ، أو حركة ، إلى جانب الطباق بين المفردات^(١٠) .

والحق بنثره فيها قصيدة كاملة من الشعر ، اقتصر منها ناسخ طوق الحمامة على بيت واحد فحسب ، وجاء ابن الخطيب في كتابه «أعمال الأعلام»^(١١) بأبيات منها تبلغ العشرين ، لا ندرى معها إن كانت هذه هي القصيدة كلها أو جانب منها ، لأن ابن حزم طويل النفس في شعره عادة . والمعاني التي تتردد في الشعر هي نفسها التي جاءت في النثر ، مع تفصيل في هذه ، غير أنه أشار في الشعر إلى أنه ترك قرطبة مجبراً ، ولو استطاع لآثر أن تكون له قبراً ، ورد ذلك إلى القدر النافذ يمضي طوعاً أو كرهاً :

فيادارُ لم يقفرُكُ منا اختيارُنا ولو أننا نستطيعُ كنت لنا قبرا
ولكنَّ أقداراً من الله أنفذتُ تدمرنا طوعاً لا حلَّ أوقهرنا

(١٠) يمكن العودة إلى هذا النص في «طوق الحمامة» بتحقيقنا ، ص ١٢٦ و ١٢٧ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ .

(١١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ونشر باسم تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ص ١٠٧ و ١٠٨ ، تحقيق لينى بروفتال ، الطبعة الثانية ١٩٥٦ .

وحمل الأبيات تحيته إلى أهل قرطبة ، إلى أى مكان نرحوا ، ودعاهم إلى الصبر وإن كان طعمه مرًا :

ويادهرُ بُلُغ ساكِينها تحيَّتى ولو ساكنوا المروين أوجاوزوا النُّهرا
فصبرًا لسطوِ الدهر فيهم وحكمِهِ وإن كان طعمُ الصبرِ مستثقلًا مرًا
وأسلوب ابن حزم فى الشعر ، كأسلوبه فى النثر ، يقوم على الموازنة بين الأمس والحاضر ، ما كان لهم وما صاروا إليه ، وتميز بمناجاة الدهر ، وتمنى العودة ، ويكثر فيه من استخدام أداة النداء ، والطباق بين الألفاظ ، غير أن الصور الأدبية فى النثر أرق وأدق منها فى الشعر ، ربما لأنه فى النثر كان حرًا طليقًا ، فلما حاول أن يأتي شعرًا على ما قاله نثرًا وجد نفسه مقيدًا بالمعاني والأفكار والصور التى أبدعها فى هذا ، فهى فى النثر عفوية وفى الشعر صناعة ، وفقدان الحرية فى الفن ، وفى كل شئ فى الواقع ، فى أى جانب منها ، يفسد على الفنان إبداعه ويهبط به .

وثانى من بكى قرطبة وقد صارت أطلالا ، الشاعر الناقد ابو عامر بن شهيد ، المتوفى عام ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م ، وكان نداء لابن حزم ، ويكبره بعامين ، وتربطها صداقة وطيدة ، يدعمها التوافق فى المزاج ، والتقارب فى الأهواء ، ووحدرة الطبقة ، فكلاهما وزير وابن وزير^(١٢) ، ولكن ابن شهيد لم يفارق قرطبة كصاحبه ، وعاش نهاية أيام العاصمة عن قرب ، وشهد مأساتها كاملة ، وصوته لا يبلغ قرطبة من بعيد ، وإنما يصدر من أعماقها ، بين الأطلال وأكوام الخرائب ، وجاء صدى لهذا الواقع الأسيف كله ، وهو يتلفت حوله فلا يرى أحداً يستجير به ، فالناس جلهم قتلى ضمتهم القبور ، والقلعة الباقية توزعتها الطرق مولية ، وأين اليوم فى بلقعه ونحواته ووحدته من شمل جامع بالأمس ، وعيش أخضر ، وروائح يفتّر منها العنبر ، الأمن يلفها ، والقوم ينعمون بجبالها ، والقصور طيبة ومن فيها أجمل ، لقد نزلت بها النوى فدمرت المسكن والساكن ، وتغيرت الدنيا ومن عليها ، ولم يملك ابن شهيد غير أن يدعو لها بالغيث ينزل بساحتها ويحيى رياضها ،

(١٢) راجع نشاطها المشترك و قرطبة و كتابنا : « دراسات عن ابن حزم ، و كتابه طرق الحماة » ، ص ٧٦ ، الطبعة الثانية

وأن يجود الفرات ودجلة والنيل بساحتها ، ويأسي على ما كان من أيامها وظبائها وسلامها ،
وما علمت به من كرام وعلماء ، وأدباء وظرفاء ، وسراة ورواة ، مضى كل هؤلاء ، ولهم
جميعاً قلبه يتفطر :

ما في الطلول من الأحبة مُخْبِرُ	فمن الذي عن حالها نستخبرُ
لا تسألنَّ سوى الفراقِ فإنه	يُنبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمانُ عليهم فتفرقوا	في كل ناحيةٍ وباد الأكثر
جرت الخطوبُ على محل ديارهم	وعليهم فتغيرت وتغيروا
فلمثل قرطبةٍ يقل بكاءً من	يسكى بعين دمعها يتفجرُ
عهدي بها والشملُ فيها جامعُ	من أهلها ، والعيش فيها أخضرُ
والدارُ قد ضربَ الكمالُ رواقه	فيها ، وباعُ النقص فيها بقصر
ورياحُ زهرتها تلوح عليهمُ	بروائح يفتر منها العنبر . .
والقوم قد أمنوا تغير حُسْنها	فتعمموا بجمالها وتآزرُوا
يا طيبهم بقصورها وجذورها	وبدورها بقصورها تتخذِرُ
ياجنةً عصفتُ بها وبأهلها	ريحُ النوى ، فتدمرت وتدمروا
آسى عليك من السماء وحقُّ لي	إذ لم نزل بك في حياتك نفخر
يا منزلاً نزلت به وبأهله	طير النوى ، فتغيروا وتنكروا
جاد الفراتُ بساحتك ودجلةُ	والنيلُ جادها وجاد الكوثر
وسقيت من ماء الحياة غمامةً	نحيا بها منك الرياض وتزهر
أسنى على دارٍ عهدتُ ربوعها	وظباؤها بغنائها تتبختر
أيام كانت كف كل سلامةٍ	تسموا إليها بالسلام وتبدرُ
حزني على سرواتها ورواتها	وثقاتها وحجاتها يتكرر
نفسى على آلائها وصفائها	وبهاها وسنائها تتحسر
كبدى على علمائها ، حلماها	أدبائها ، ظرفائها ، تتفطر (١٣)

إذا وازنا بين ابن حزم وصاحبه ابن شهيد وجدناهما يتفقان في أشياء ويختلفان في أخرى ، فالأول لاذ بالصبر واتكأ عليه ، وتنضح أبياته زهداً وتشاؤماً ، ورد ما حدث إلى الدهر والقدر ، أما الثاني ، وهو ابن شهيد ، فلم يدع أصلاً إلى الصبر ، وإيقاعه ، مع ذلك ، هادئ مستسلم ، ورأى ما حدث جوراً من الزمان ، وعرض لما كان في المدينة من مجالس العلم ، والفن وألوانه ، ولم يشر ابن حزم إلى شيء من هذا . وبعمامة كان ابن شهيد ، وهو شاعر أصلاً ، أرق موسيقياً ، وألسن لفظاً ، وأوضح عفوية ، وكان في شعر ابن حزم ، وهو بعض مواهبه ، شيئاً من البطء والرتابة ، يوحى بأنه يتنزع أبياتها انتزاعاً ، فتجىء تجرها خيول على حد التعبير الإسباني ، ويتحرك معها ، أوبها ، داخل أسوار عالية لا يستطيع اجتيازها ، وكثرت فيها المحسنات اللفظية من جناس وطباق ، وهو أمر قل أن يجيء عفواً ، ولكن الحق أن كليهما كان يصدر عن عاطفة صادقة وقلب سليم ! .

كان بكاء ابن حزم وصاحبه مدينتهما الحلوة فاتحة رثاء كثير خُصَّتْ به ، حزین وعابر ، يحيى في أبيات قصيرة ، أو هذا ما وصلنا منه ، خطرات نفس مكلومة ، قبل لحظة المحنة ، كتلك الأبيات التي حفظها لنا ابن عذارى ، في كتابه « البيان المغرب » لشاعر مجهول لم يذكر اسمه ، يكي فيها عاصمة الخلافة :

أبكِ على قرطبة الزين فقد دهرتها نظرة العين
أنظرها الدهر بأسلافه ثم نقاضى جملة الدين
كانت على الغاية من حسنها وعيشها المستعذب اللين
فانعكس الأمر فما إن ترى بها سرورا بين اثنين
فاغد وودعها وسر سالما إن كنت أزمعت على البين

وهي أبيات فاترة الروح ، مجرد نظم دفع صاحبه إليه هول الكارثة ، فهو أصلاً ليس بشاعر . ونلتقي بشاعر مجهول آخر ، والرواية لابن عذارى أيضاً ، وهو يأخذ طريقاً مختلفاً عن صاحبه ، فهو يشمت في القرطبيين شمت المغيظ ، وينعى عليهم غفلتهم ، وماركنوا إليه من حياة الدعة ، وأنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، والأبيات قليلة فيما يبدو في بداية

الفتنة ، لأنه يعتب على مواطنيه كيف غفلوا عن حالهم ولن يتجهوا إليه ، ولو فعلوا لبكوا دماً ، ويدعوهم إلى تدبير الأمر لأن المحنة عمتهم جميعاً ، ولن تنقضى أبداً :

أضعتمُ الحزمَ في تدبير أمركمُ ستعلمون معاً عقيب البوار غداً
فلو رأيتم بعين الفكر حالكم بكيتمُ بدمٍ أن دمتمُ بدداً
لاكنَّ سبيل العمى أعمت بصائرکم فالبستم ثياباً للبلَى جدداً
يا أمةً هتكتُ مستور سوءها ماكلُ من ذلٍّ أعطى بالصغار يدا
في سورة الحشر آياتٌ مفصلة^(١٤) في شأنكم أنزلتُ لم تعدكم أحدا
نعم في الكهف العشرين خاتمة^(١٥) تقضى عليكم بالآ تفلحوا أبداً
فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملت جميعكم محنةٌ لا تنقضى أبداً
والآيات توحى بأن قائلها فقيه متوسط ، فهو يعطى الفتنة تأثيراً فقهياً خالصاً ، وعلى الرغم من جودة الأفكار لم يستطع أن يضعها في صورة جميلة أو إيقاع أخاذ ، ومعجمه اللغوي محدود ، حتى أن كلمة القافية في البيتين الأخيرين جاءت واحدة ، حروفاً ومعنى . وبعد انتهاء الفتنة بأعوام ليست دون الأربعين ، وخلال عصر الطوائف الذي قام على انقراض الخلافة ، جاء « باقعة عصره ، وأعجوبة دهره » ، الشاعر الرافض ، التأثير على واقع أيامه الفاسدة ، خلف بن فرج السميسر إلى قرطبة في تاريخ نجهله ، ولكنه ليس قبل عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م على التأكيد ، فوقف بأطلال الزهراء يناجيها ، ويستخرج العبرة مما آل إليه حالها ، ويبكى مجداً تليدا كانت تمثله ، وحياة عامرة كانت تصطبخب فيها :

وقفتُ بالزهراء مستعبراً معتبراً أندبُ أشتاتا
فقلتُ : يازهرا ألا فارجعي قالت : وهل يرجع من ماتا
فلم أزلُ أبكى وأبكي بها هيهات يُغنى الدمعُ هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى نوادب يندبن من ماتا

(١٤) يشير إلى الآية رقم ١٩ من سورة الحشر « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .

(١٥) يشير إلى الآية ١٠١ من سورة الكهف : « الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً » .

وحديثه عنها ، كما نرى ، على شاعريته حديث من يندب أطلالا ومجدًا تومىء إليه ،
ولأنه لم يشهد الأحداث نفسها لم يعرض لما أصاب الناس والحياة وقرطبة العاصمة ، ومن
المؤكد أنه عندما جاءها وجد الحياة دبّت فيها من جديد ، فعاد خرابها عمارا ، وارتفعت
أطلالها بيوتًا ، وإن لم تعد إلى ما كانت عليه حتى يومنا هذا ، أما الزهراء فظلت أنقاضًا لم
يرتفع فيها بناء ، ولا امتدت إليها يد إصلاح ، حتى سنوات قليلة خلت ، فقد أخذ
الإسبان ينفضون عنها غبرة الموت ، ويعيدونها حجرًا إلى حجر ، لمجرد رسم صورة ، ولو
باهتة ، لما كانت معالمها عليه .



تردد أفكار الشعراء في تناول المحنة وأسبابها بين السلبية والإيجابية ، بين الرضى المستسلم
والشماة المثيرة ، أو التأمل الهادئ ، وكلها تصدر عن نبع واحد ، فحين تحل الخطوب
الجسام بالشعوب المتحضرة تُفقد القدرة على التمييز الدقيق ، والتفكير المنطقي ،
فتعود إلى القلب بدل العقل ، وتفسر الأمر عن طريق العاطفة بدل الفكر ، وتركن إلى
أوهى الأسباب هروبًا من واقعها الأليم .

ولم يعرض أىّ منهم ، فيما وصلنا من شعر ، لعناصر الشر ورعوس الفتنة ، ولم ينحوا
باللائمة على أحد ، وبخاصة ابن حزم وابن شهيد ، وكلاهما شهد المأساة ، ولهما مقام
اجتماعى وسياسى ملحوظ فى العاصمة ، وشاركا فى أحداثها . أتراهم كانوا يحسون فى أعماقهم
بأن إلقاء المسؤولية على فريق بعينه فيه عدوان على الحق ؟ . وأن كل الذين فى قرطبة
مسئولون عما حدث ؟ . نحن نعرف أن ابن حزم ظل إلى آخر رمق فى حياته ، حتى بعد أن
ترك السياسة جانبًا ، وامتدت به الحياة طويلا ، يلتزم جانب الشرعية فيما يتصل بقضية
الخلافة ، فبقى على ولائه لبني أمية لا يحيد عنه ، ونعرف أنه كان جريئًا فى الحق ، يقول
ما يعتقد بصوت مرتفع ، ومضى يناضل وحيدًا ضد الجميع ، وضد كل شيء ، ولا يمكن
أن نعزو صمته إلى أنه مجاملة أو خوفًا من أحد . أما ابن شهيد فباح بالآلام من العاصمة
نفسها ، ومغامرة منه أن يدين أحدًا فى لحظة انزوى فيها القانون ، وحل مكانه الرعب

والفوضى ، والآخرون ، وهم مجهولون ، يبدو أنهم من غمار الناس ، ليست لديهم القدرة على إداة أحد ، فأثروا السلامة ، وردوا كل شيء إلى القدر .

وبعد نصف قرن من أحداث قرطبة ، سوف نلتقي بقصيدة ابن رشيق القيرواني ، في رثاء مدينته القيروان ، حين اقتحمها عرب صعيد مصر ، والذين عرفوا باسم الهلالية ، عام ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م ، بعد حصار لها دام أربع سنوات ، وصنعوا ما صنع جند طاهر ابن الحسين بمدينة بغداد ، أو الزنج بمدينة البصرة ، أو البربر بقرطبة . وهي قصيدة طويلة تبلغ خمسة وخمسين بيتاً ، تحدث فيها عن العلماء والزهاد والأئمة الذين ازدانت بهم مدينة القيروان أيام عزها :

كم كان فيها من كرامٍ سادٍ بيضُ الوجوه شوامخ الإيمان
متعاونين على الديانة والتقى لله في الأسرار والإعلان
وأئمة جمعوا العلوم وهذبوا سنن الحديث ومشكل القرآن
علماء إن ساءلهم كشفوا العمى بفصاحة وفصاحة وبيان

ووصف ما لحقها من الفظائع وكيف نقضوا العهود ، وخفروا الذمم ، وسبوا الحرم ، ونهبوا البيوت وما فيها ، وصور خروج الناس حفاة هارين يحملون أطفالهم :

فتكوا بأمة أحمدٍ أترامهم آمنوا عقاب الله في رمضان ؟
نقضوا العهود المبرمات وأخفروا ذمم الإله ، ولم يفوا بضمآن
فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا سبى الحرم وكشفة النسوان
والمسلمون مقسمون تنالهم أيدي العصاة بذلة وهوان
يستصرخون فلايغات صريحهم حتى إذا سئوا من الإرنان
فادوا نفوسهم فلما أنفدوا بما جمعوا من صامت وصوان
واستخلصوا من جوهر وملابسٍ وطرائف وذخائر وأواني
خرجوا حفاة عائدنين بربهم من خوفهم ومصائب الألوان

هربوا بكل وليدة وفطيمة وبكل أرملة وكل حصان
وبكل بكر كالمهاة عزيزة تسبي العقول بطرفها الفتان
وعرض لما أصاب مسجد عقبة ، وكان ثانی مسجد هام أقيم في إفريقية كلها ، ورابع
مسجد في الإسلام^(١٦) ، بناه عقبة بن نافع عام ٦٧٥ م ، وكيف توقفت الصلوات به ،
وما أصابه من محن تبعث الأسى ، وتثير الحزن في الناس كافة :

والمسجد المعمور جامع عقبة خرب المعاطن ، مظلم الأركان
قفر فما تغشاه بعد جماعة لصلاة خمس ولا لأذان
بيت بوحي الله كان بناؤه نعم البنا والمبتنى والبنى
أعظم بتلك مصيبة ماتنجلى حسراتها أوينقضى الملوان
وأفاض كثيراً في ذكر المحن التي حلت بالقيروان ، وجعلتها خراباً لقرون تلت ، وتمنى لها
أن تعود إلى سابق مجدها ، وطيب أيامها :

أترى الليالي بعدما صنعت بنا تقضى لنا بتواصلي وتدان ؟
وتعيد أرض القيروان كمعهدا فيما مضى من سالف الأزمان
ومن الواضح أن عاطفة الشاعر باردة ، وأسلوبه فيها ركيك يبلغ حد الإسفاف
أحياناً ، وتكاد أن تكون منظومة تاريخية ، ومرد ذلك فيما أرى ، أن ابن رشيق كان ناقداً
في المقام الأول ، فجاءت قصيدته تحمل سمات شعر العلماء والفقهاء من نظم وبرود
وتكلف .

غير أن القيروان الحربة وجدت من يكيها صادق اللوعة ، وفي شعر بالغ الروعة ، في
شخص ابن شرف القيرواني ، المتوفى عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م ، وكان صديقاً لابن
رشيق ، ورفيقاً ملازماً ، وغادر كلاهما عاصمة إفريقية بعد خرابها ، انتقلا إلى المهدية
أولاً ، وإلى صقلية من بعد ، وفي هذه استقر ابن رشيق ، وآثر ابن شرف أنه يدعها إلى
الأندلس ، وفيه أمضى بقية حياته جاءه على أيام ملوك الطوائف ، وأقام به عشر سنين

(١٦) أول مسجد أقيم في إفريقية . وثالث مسجد في الإسلام ، هو الذي بناه عمرو بن العاص في فسطاط مصر القديمة عام

موزع القلب والعاطفة ، حائر العقل والفكر ، وفيه وقبله قال شعراً كثيراً رقيقاً ضاع معظمه ، وكتب عشرين مقامة يعارض بها الحريري ، لم يبلغنا منها غير ثلاث : اثنتين في النقد الأدبي ، والثالثة جرت مجرى الهزل والمجون .

ومن بين ما وصلنا من شعره قصيدته في بكاء مدينة القيروان ، وهي من روائع الشعر العربي ، دقة تصوير ، وبراعة تعبير ، ورقة موسيقا . وصف فيها المدينة وقد لفها الظلام ، وأطبقت عليها الوحشة ، وعمها الصمت ، وخلت منها الحياة ، ومست المأساة حتى نجومها في أفق السماء ، فهي تتحرك ثقيلة الخطا ، بطيئة الحركة ، فاترة متوانية ، كأنما يتغشاها النعاس :

آو للقيروان ! أنة شجور من قوادٍ بجاحم الحزن يصلّى
حين عادتُ بها الديارُ قبوراً بل أقولُ الديارُ منهن أنلى
ثم لا شمعاً ، سوى أنجم تخطو على أفقها نواعس كسلى
بعد زهرِ الشماع توقد وقد وتمان الذبال تفتل فتلا
والجوه الحسان أشرف منهن ويفضلنهن معنى وشكلا

وفاق كل رفاقه من الشعراء ممن عبروا عن هذه الفواجع ، بأنه قدم لنا صورة مفصلة لواقع الهاربين من هذه المدن ، رجالها ونسائها ، شيوخها وأطفالها ، وقد سارت بهم الطرق ، وازدحمت بهم المسالك ، وتوزعتهم المآسى ، وتعرضوا للعدوان الوحشي ممن لا ضمير له ، ولا يرقب في العزل إلا ولا ذمة . خلفوا وراءهم ما يملكون من ثياب وأثاث وأموال ، وخرجوا فراراً لم يودعهم جار ، ولا حياهم قريب ، يلقون المذلة والهوان في كل بلد يملكون به ، أشرافهم يعملون أخس المهن ، ولأرذل الناس ، وليس هناك من يعزى أوبواسى ، أوعين على تجاوز المحنة . إنها صورة حية لواقع من نطلق عليهم في أيامنا هذه اسم « اللاجئين » ، في أى بلد ، ومن أى شعب :

بعد يوم كأنما حُشر الخلق حفاةً به ، عوارى ، رجلى
ولهم زحمةٌ هنالك تحكى زحمة الحشر والصحائف تلى
وعجيجٌ وضجةٌ كعجيج الخلق يسبكون والسرائر تبلى

من أيامي وراءهن يتامى
 وحصان كأنها الشمس حسنا
 فات كرسيا الجلاء فأضحت
 جار فيهم زمانهم وأولو الأم
 تركوا الربيع والأثاث وما يش
 لبسوا الباليات من خشن الصو
 نادبات : عفراء تسعد سعدى
 ليس منهن من يودع جارا
 كلهن اعتدى الفراق عليه
 فإذا الدهر ضمهم فرق الدهر
 من ثعابين حاملين نيوبا
 وشياطين راحين يلاقو
 فتعزى الظهور تعتل عتلا
 فإذا مطمع أصابه في أحش
 فإذا نجت المقادير منهم
 لقي الهون والمذلة أنى
 ليس يلقى إلا امرأ مستطيلا
 فتى أشرف البرية نفسا
 فهمو كل مانبت بهم أر
 مرقوا في البلاد شرقا وغربا
 لا يلاق النسيب منهم نسيبا
 ملثوا حسرة شجوا وشكلا
 كنفها الأطمار نجلاء ، كحلى
 فى ثياب الجلاء للناس تجلى
 ر فقروا يرجون فى الأرض عدلا
 قل لاحامل من الناس ثقلا
 ف ، وعاد النية فى الناس غفلا
 وسعاد تجيب بالنوح جملا
 لا ، ولا حرمة تشيع أهلا
 فاقتمن الجلاء حفلا فحفلا
 ر لهم غير ذلك النبل نبلا
 عصلا : ذابلا ونبلا ونصلا
 ن بجوف الفلا مساكين عزلا
 وتشق البطون تغسل غسلا
 ل قوم غموا بذلك كُلا
 راحلا بالخلاص يحمل رحلا
 كان فى سائر البلاد وحلا
 طالبا عنده حقودا وذحلا
 ناكسا رأسه يلاطف نذلا
 ض مطايا الفراق خيلا ورجلا
 يسكبون الدمع هطلا ووبلا
 يتعزى به ولا الخل خلا

هل يمكن القول بأن ابن رشيق وصاحبه ابن شرف فى قصيدتيهما احتذا أحدا
 الرجلين ، أبا شهيد أو ابن حزم ، وكلاهما تجاوزت شهرته حدود وطنه ، وكانت إفريقية

خلال عصر الطوائف على صلة وطيدة بالممالك التي ينحدر أمراؤها من أصول بربرية
 بخاصة ، أوجاءوا إلى الحكم بدعم منها ، ولم تتوقف الرحلات بين الجانبين ، قدوماً
 وذهاباً ، من مختلف الطوائف والطبقات ، أدباء وعلماء وجنوداً ، ومن عامة الناس ،
 رغم التفاوت الشديد بينه وبينها في الجودة والأسلوب والأفكار ؟ بلى .
 ولكن ، يمكن من جانب آخر أنها أيضاً جاءت وليدة تأثير مشرقى ، لأن أفريقية ظلت
 تلعب على امتداد العصر الوسيط دور الناقل ، ومركز الالتقاء بين الثقافتين المشرقية
 والأندلسية ، ولو أن القيروان في ثقافتها كانت أقرب إلى الأولى منها إلى الثانية ، وهو ظن
 يدعمه أن قصيدة ابن رشيق أقرب في أفكارها إلى قصيدة ابن الرومي منها إلى ابن حزم
 وصاحبه ابن شهيد ، على حين جاء ابن شرف نسيج وحده في جل أفكاره .

رثاء المدن والممالك

في عصر الطوائف

○ طابع عصر :

« كان أحسن الأزمان وأسوأها ، عصر الحكمة وعصر الجهالة ، عهد اليقين والإيمان وعهد الحيرة والشكوك ، أوان النور وأوان الظلام ، ربيع الرجاء وزمهرير القنوط : بين أيدينا كل شيء وليس بين أيدينا أى شيء قط ، وسبيلنا جميعاً إلى سماء عليين وسبيلنا جميعاً إلى قرار الجحيم . تلك أيام كأيامنا هذه التي يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علاتها ، وألا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات وآفات » . هذا هو عصر الثورة الفرنسية كما وصفه الكاتب الإنجليزي « شارلز دكنز » في بداية قصته « المدينتين » ، وليس أصدق منه تصويراً لعصر الطوائف في تاريخ الأندلس البعيد . لأنك « قد تنقل هذا الوصف إلى أمة غير الأمة الفرنسية ، وعصر غير القرن الثامن عشر للميلاد ، وأنت لا تخرج به عن زمانه ومكانه وفحواه ، إذ هو وصف صادق لكل عصر من العصور في « تواريخ الانتقال والاضطراب » . إنه عصر « لا يوصف في جملة جملته إلا بمثل هذا الوصف الغامض الجلى الذى كأنما يصف لك عصرين مختلفين لا عصرًا واحدًا متناسق الأوضاع والأحوال ، لأنه في الحقيقة عصران مختلفان أو عدة عصور مختلفات ، وإن اجتمعت في نطاق واحد من الزمان »^(١) .

كان عصر الطوائف أوان الحصاد لكل ما بذرت أيام الخلافة المجيدة ، وعصر الحجابة الزاهرة ، من جرائم الخير وعناصر الفلاح على السواء . وأثمر فيها الخطأ كما أثمر التوفيق ،

(١) اقتبست هذه الفقرة الجامعة من كتاب : ابن الرومي ، حياته من شعره ، لعباس محمود العقاد ، ص ١٠ - ٢١ ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٧ - ١٩٣٨ ، ولو أنه بصدد الحديث عن القرن الثالث الهجرى في دولة الإسلام الشرقية ، لأنها خير ما يعبر عن واقع الأندلس في القرن الخامس الهجرى .

وبلغت الغاية في الحالين ، وتوزعت خيراتها ، وشروورها أيضاً ، جماعات مختلفات من كل جنس ودين . ولقد أنهار صرح الخلافة الواحدة ، وانتثر عقد بلادها ، وتفرقت أيدى سبا . وقام على أنقاضها رؤساء طوائف العرب ، وأمراء الجماعات البربرية ، وفتيان صقالبة القصور ، وتقاسموا إمارات ، ومع التفرقة ضاعت القوة الواحدة الموجهة للسياسة الأندلسية العامة ، واختفى ما هو أخطر من ذلك ، وهو المثل الأندلسي الأعلى^(٢) . وظهر اليهود على المسرح السياسي ، ومكنوا لأنفسهم في إمارة غرناطة زمناً^(٣) ، وتغيرت الأمور حول الأندلس تغيراً حاسماً ، فقد استيقظت إسبانيا النصرانية ومدت يدها إلى أوروبا ، ونظم أهل المغرب أمورهم في صحرائهم وأقاموا لأنفسهم دولة ، وبين نارى النصرارى في الشمال والبربر في الجنوب وقف ملوك الطوائف ، وقد وهن أمرهم ، وأضعفهم التزب والبدخ ، لا يكاد سلطان أحد منهم يتخطى حدود بلده ، وكانت دويلاتهم أشبه بجمهوريات إيطالية في ثياب شرقية ، وسادت العصر كله روح من البدخ المسرف ، والإجرام السافر الذى لا يتورع عن شئ من المطامع والتزوات إلى الخناجر والسموم^(٤) . وبين صخب الحياة اللاهية ، وعريضة اللحظات الماجنة ، وغيبة الوعي بالغد والمصير ، استيقظ الأندلس كله على كبرى القوارع ، وكانت :

○ سقوط طليطلة .

قُدِّرَ لطليطلة أن تكون أولى المدن الكبرى الذاهبة ، ورغم أنها لم تسقط في حرب ، ولم يخسرها المسلمون في قتال ، إنما ذهبت نتيجة خدعة ماهرة من ألفونسو السادس ، واستسلام مهين من القادر يحيى بن ذى النون ، كانت الضربة القاصمة التى شالت بعدها كفة المسلمين ورجح جانب الكاثوليك ، وكانت محنة حقيقية لما تمثله طليطلة من ثقل في حياة الأندلس السياسية والحربية والشعورية ، كانت عاصمة أسبانيا على أيام القوط ،

(٢) غرسية غوث : الشعر الأندلسي ، ص ٣١ - ٣٢ من الأصل الأسباني ، وص ٤٣ - ٤٤ من الترجمة العربية .

(٣) أنظر الفصل الخاص بالقصيدة التى فجرت ثورة في هذا الكتاب .

(٤) غرسية غوث : الشعر الأندلسي ، ص ٣٢ ، الترجمة العربية ص ٤٤ .

وأحيط فتحها على يد طارق بن زياد بأساطير جميلة ، ذات خيال ممتع ، عما لقي فيها المسلمون من كنوز وثروات وسلاح ، ولم تفقد أهميتها حتى بعد أن أصبحت العاصمة قرطبة ، فتميزت كقاعدة حربية ذات ثقل ملحوظ في شمال الدولة الإسلامية ، وزادها قدراً ما تتمتع به من موقع استراتيجي ممتاز ، يتيح لها منعة طبيعية في وجه المغير ، كانت على قمة جبل مرتفع ، يطوقها نهر تاجه (تاخو Tajo في الإسبانية الحديثة) وتصلها بما وراءها قنطرة محصنة ، وعرفت إلى جانب ذلك بلبابتها الصلب متمثلاً في ثورات لا تنتهي ، وبلغت - كغيرها - قدراً عالياً من الرقي والتحضر ، وأخذت بحظ وافر من الثقافة ، وإذا كان حظها من الأدب متواضعاً فقد فاقت غيرها في التأليف العلمي ، ففيها عاش الزرقالي (أبو ابراهيم بن يحيى النقاش ٤٥٢ - ٤٧٢ هـ = ١٠٦١ - ١٠٨٠ م) أبرع من أنجب الأندلس من علماء الفلك ، وابن الفلد (أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير ٣٨٨ - ٤٦٦ هـ = ٩٩٨ - ١٠٧٤) أوسع أهل زمانه علماً بالطب ، وعرفت مؤرخين نابزين كصاعد الطليطلي (٤٢٠ - ٤٦٢ هـ = ١٠٢٩ - ١٠٦٩ م) صاحب كتاب « طبقات الأمم » ، ونحويين مجيدين كأبي الوليد القشبي ، وعدداً من أصحاب الوثائق والعقود المتمكنين كابن مغيث (أبو جعفر أحمد بن محمد ت ٤٩١ - ١٠٦٩ م) . وغيرهم .

وبقدر ما كانت تمثل كان تشاؤم المسلمين من سقوطها ، ولم تحفظ لنا كتب الأدب من رد الفعل المباشر عند الشعراء إلا أبياتا ثلاثة قالها الزاهد الفقيه أبو محمد عبد الله بن العسال (ت ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م) . حين تركها ورحل إلى غرناطة :

يا أهلَ أندلس حُثُوا مطيكمُ فما المقامُ بها إلا من الغلطِ
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحياتِ في سفت

وهو صوت غريب أجش في الأسماع ، لأنه بدل أن يبكي ما حل بوطنه يحذر الأندلسيين من الإقامة فيه ، ويدعوهم إلى الرحيل ، ولو فهمنا الأبيات على ظاهرها لقلنا

إنها تمثل موقفاً إنهمازيماً ، ولكن هذا اللون من التعبير السلبي يستهدف في الحقيقة المبالغة في النذر والتذكير .

يمكن تعليل قلة الشعر المروى في سقوط طليطلة بدءاً بأن الحرب كانت لا تزال سجّالا ، وأن المسلمين ثأروا لهزيمتهم في معركة طليطلة ، قبل مضي عام واحد بانتصار حاسم ورائع في معركة الزلاقة عام ١٠٨٦ م ، وأن الأمل في استرداد المدينة ظل قائماً ، كما أن الشروط التي تم تسليم المدينة في ظلها كانت - في مثل ظروفها - مشرقة ، فقد آلى ألفونسو السادس على نفسه أن يحافظ على حياة مسلمي طليطلة ، وحياة نساءهم وأطفالهم ، وألا يلحق ضرراً بأملأهم ، وتعهد بأن يسمح لمن يريد أن يخرج بالخروج ، ومن يريد أن يبقى بالبقاء ، ومن يبقى لا يطلب منه أكثر من دفع ضريبة الرأس ، ومن يهاجر يمكنه أن يعود في الحال ، ويسترد أملاكه معها عظم قيمتها دون معارضة ، كما أوجب أهل طليطلة إلى الضمانات التي طلبوها فيما يتصل بخيرية ممارسة شعائرهم الدينية والحفاظ على جامعهم الكبير .

لكن الكاثوليك ما لبثوا أن تنكروا لعهودهم ، فنقضوا المعاهدة لأسابيع من دخولهم طليطلة (٦ من مايو ١٠٨٥ م) ، فحولوا المسجد الجامع إلى كنيسة في يوليو من العام نفسه ، وحيل بين المهاجرين وبين العودة إلى ديارهم ، وضيق على المسلمين في أداء شعائرهم أولاً ، ثم أكرهوا عبي التكتلك فيما بعد حين أزفت شمس الاسلام الاندلسي على المغيب .

كان للأحداث التي وقعت بعد سقوط المدينة صدى أضحخ من الأحداث التي صاحبت السقوط ، بين سكان المدينة أنفسهم أو بين بقية مواطنيهم في حواضر الأندلس ، وعلى نحو خاص ما اتصل منها بالدين والعقيدة ، وكان لتحويل جامع طليطلة وهو الثاني بعد جامع قرطبة سعة وضخامة وأبهة وعمارا بالعلم والدرس رنة أسى حزينة ، ونحكي المقرئ أن الاستاذ الشيخ المغامى كان آخر مسلم وطئت قدمه الجامع ، لقد ذهب ليتزود منه ، « صار إليه وصلى فيه ، وأمر مريداً له بالقراءة ، ووافاه الفرنج هناك ، وتكاثروا عليه لتغيير القبلة ، وكلموا قالوا له : عَجَل ، أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل القراءة ، ثم قام

ما تهبب فصلى به ، ورفع رأسه وبكى الجامع بكاء شديداً»^(٥) .

ما حدث في طليطلة نجد صداه واضحاً في قصيدة وحيدة طويلة تبلغ اثنين وسبعين بيتاً ، حفظها لنا المقرئ كاملة ولم ينسبها إلى قائل^(٦) . ويبدوها الشاعر متسائلاً في عجب : هل في الأندلس من يقر هادئاً وقد ضاعت طليطلة ، فهد بضياها ركن الدين الحصين ، وتوالت بعدها النكبات والمصائب ، وأحس المؤمنون بالفرع حين علموا أن الغلبة كانت في جانب ألفونسو السادس :

لثُكُلِكَ كيف تبتسم الثغور سرورا بعد ما سُبِّتْ ثغورُ
أما وأبى مصاب هُدْ منه ثبيرُ الدين ، فاتصل الثبورُ
لقد قُصِمَتْ ظهور حين قالوا أميرُ الكافرين له ظهور
ويمضى في تساؤله : أليس بالمدينة شهم يقاوم الاحتلال ويحررها من العبودية ؟ لقد خضع الذين تعودوا النصر ، واستكان من كان في طبعهم النفور ، وهان القوم على أنفسهم ، وتساحوا في حرمتهم :

أليس بها أبى النفس شهمٌ يدير على الدوائر إذ تدورُ
لقد خضعت رقابٌ كنَّ غلباً وزال عتوها ومضى النفور
وهان على عزيز القوم ذل وسامح في الحرم فتى غيورُ
ويخلص من هذه المقدمة العامة ليعرض ماجرى في طليطلة نفسها ، لقد انتصر الكاثوليك واستولوا على المدينة ، ذات الحصون العالية ، تفوق ضخامة ومنعة إيوان كسرى والخورنق والسدير . كانت معقل الإسلام ومنار علمه ، فخبا ضؤوها وعادت دار كفر ، وأخرج سكانها المسلمون ، وحولت مساجدها إلى كنائس ، وعبثوا بحرائرها : طليطلة أباح الكفر منها حماها ، إن ذا نبأ كبيرُ
فليس مثالها إيوان كسرى ولا منها الخورنق والسدير
محصنة محصنة بعيد تناولها ، ومطلبها عسير

(٥) المقرئ ، نفع الطيب ، ٤/ ٤٤٧ طبعة احسان عباس .

(٦) المرجع السابق . ٤/ ٤٨٣ وما بعدها .

ألم تكُ معقلاً للدينِ صعباً فذلّله كما شاء القدير
وأخرج أهلها منها جميعاً فصاروا حيث شاء بهم مصيرُ
وكانت دارَ إيمان وعلمٍ معالمها التي طمست تنير
فعدتُ دارَ كفرٍ مصطفاةٍ قد اضطربتُ بأهلها الأمور
مساجدُها كنائسُ ، أى قلبٍ على هذا يقر ولا يطير؟
ويرد الأحداث إلى قلب الدهر ، يذكر ذلك في بيت واحد ، ثم يمضى ، لا يقف
عند الأمر ، ولا يجعل منه قضية يدور حولها ، وإنما يتجاوزها ليرد على الذين جعلوا الهزيمة
عقاباً من الله على معاص ارتكبتها أهل طليطلة ، وإنكاراً منه لواقع في حياتهم لا ترتضيه
الشريعة ، وحبته في الرد أن غيرهم أسوأ منهم ، وأشد فسقاً وفجوراً ، فإذا ارتضينا هذا
سبباً فعلينا أن نتوقع نفس المصير ، وفي قوله هذه يستهدف أمرين فيما أرى : الدفاع عن
قوم سقطوا في محنة الاحتلال ، فهم في حاجة إلى شيء آخر غير التقرير والذم ، وتذكير
الغافلين في بقية مدن الأندلس بما يمكن أن ينتهى إليه حالهم ، إذا واصلوا سيرتهم
العابثة ، وواصلوا مظالمهم وعصيانهم سراً وعلانية :

نذورُ كان للأيام فيهم يهلكهم فقد وفّت النذورُ
فلن قلنا العقوبة أدركتهم وجاءهم من الله النكير
فلنّا مثلهم وأشدّ منهم نجورُ وكيف يسلم من يجور
أنامن أن يحل بنا انتقامُ وفينا الفسقُ أجمع والفجور
وأكلُ للحرام ولا اضطرار إليه فيسهل الأمر العسير
يزول السترُ عن قومٍ إذ ما على العصيان أرخيت الستور
ويتنقل داعيا إلى سل السيوف لنصرة الدين والثأر للقتلى ، والموت دون حياة عزيزة
خير من الحياة في ظل عيش ذليل ، ويضيق بالصابرين على الثأر ، ويلوم القاعدين
دونه :

خذوا ثأر الديانة وانصروها فقد حامت على القتلى النصورُ
ولا تهنوا وسلّوا كل عَصْبٍ تهابُ مضارباً منه النحور

وموتوا كلكم فالموتُ أولى بكم من أن تُجاروا أو تُجُوروا
 أصبراً بعد سبيٍّ وامتحان يُلام عليها القلبُ الصبور
 ويصور قعود الناس عن الحرب ، ويتهمهم بالجن ، وأنهم أبقار تخور ، ترعدهم
 أخبار الهزائم وما يجرى لمواطنيهم في المدن التي سقطت في قبضة الكاثوليك ، ويتمنى لو
 كانوا أسوداً تزار وتخيف وترعب :

نخور إذا دُهِينا بالرزايا وليس بمعجبٍ بقرٍ يخورُ
 ونجبنُ ليس نزار. لو شجعنا ولم نجبن لكان لنا زئير
 لقد ساءت بنا الأخبارُ حتى أمات المخبرين بها الخبير
 ويعرض لمحاولات الإغراء المادية من جانب العدو وكيف استجاب لها من المسلمين
 الغنى والفقير ، فبقى بعضهم في أرض الكفر خزيان ينمى ثروته ، وجرى آخرون مع الخزي
 إلى نهايته فارتدوا عن دينهم ، وبلغ الحزن غايته حين أثر الجميع البقاء ، وحجتهم : إلى
 أين نذهب ؟ وكيف نترك بيوتنا وأموالنا وليس لنا وراء البحر دور ولا أموال ، ليست لنا
 هناك ضياع ننعيم بوارف أشجارها وطيب ثمارها ، ولا طبيعة فياضة يجالها من ظل وماء
 واعتدال هواء :

تجاذبنا الأعادي باصطناعٍ فينجذبُ المحولُ والفقيرُ
 فباقٍ في الديانة تحت خزيٍ تثبطهُ الشويهةُ والبعيرُ
 وآخرُ مارقٌ هانت عليه مصائبُ دينه فلهُ السعيرُ
 كفى حُزناً بأن الناس قالوا : إلى أين التحولُ والمسيرُ ؟
 أنتركُ دورنا ونفّر عنها وليس لنا وراء البحرُ دورُ
 ولا ثمَّ الضياعُ تروقُ حسنا نباكِرها فيعجبنا البكورُ
 وظلٌّ وارفٌ وخيرٌ ماءٍ فلا قرٌّ هناك ولا حرورُ
 ويؤكلُ من فواكهها طرىً ويشرب من جداولها نَميرُ
 ويورد الشاعر المجهول حجج أولئك القوم ، الذين آثروا عيش التخاذل ، وارتضوا
 حياة الدعة في ظل الاحتلال ، يؤدون الجزية للإسبان كل شهر ، ويدفعون عشر محصولهم

كل صيف وهم صاغرون . ويعاود الحديث عن تلاشي اليقين ، وذهاب الدين ، ورضا المسلمين بالرق ، ويكي ضياع دولة الإسلام ، ويندب الضائعين من أهله في بلاد الشرك ، ويحث المسلمين على القتال لأن الحزن لا يفيد ، والبكاء لا ينقذ ، ويندب رفاقاً حيارى خلفهم وراءه في طليطلة ، لا استقروا على البقاء ، ولا أقدموا على الهجرة ، وارتضوا أن يدفعوا الجزية ، وأن يؤدوا الضرائب ، عشر دخلهم كل صيف ، مادام الذين استولوا على المدينة يحمونها ، وأصبح المسلمون موالهم ، ولا يقنع بالندب والنوح وإنما يدعو إلى نبد السلم ، والدعوة إلى الحرب فهي وحدها التي تغسل عار الهزيمة ، وتجبر العظم الكسير :

يُودَى مَغْرَمٌ فِي كُلِّ شَهْرٍ وَيُؤْخَذُ كُلُّ صَائِفَةٍ عَشُورُ
فَهُمْ أَحْمَى لِحُوزَتِنَا وَأَوْلَى بِنَا ، وَهُمْ الْمَوَالِي وَالْعَشِيرُ
لَقَدْ ذَهَبَ الْيَقِينُ فَلَا يَقِينُ وَغَرَّ الْقَوْمَ بِاللَّهِ الْغُرُورُ
فَلَا دِينَ وَلَا دُنْيَا وَلَكِنْ رَضُوا بِالرَّقِّ يَا اللَّهَ مَاذَا رَأَاهُ وَمَا أَشَارَ بِهِ مُشِيرُ
مَضَى الْإِسْلَامُ فَابْكْ دَمًّا عَلَيْهِ فَمَا يَنْفِي الْجَوَى الدَّمْعُ الْغَزِيرُ
وَنَحْ وَانْدَبْ رَفَاقًا فِي فَلَاحٍ حِيَارَى لَا تَحْطُّ وَلَا تَسِيرُ
وَلَا تَجْنَحْ إِلَى سَلَمٍ وَحَارِبٍ عَسَى أَنْ يُجْبَرَ الْعَظَمُ الْكَسِيرُ
ويقارن بين موقف العدو وموقف المسلمين ، وكان نصيب أولئك الرشد ، وحظ هؤلاء عمى البصيرة ، وكيف يلقون منهم واحدا ويفرون عنه جمعا ، ويدعو المسلمين إلى الثبات عند اللقاء ، والصبر عند الشدة ، لأن كثرة العدد وحدها لا تغني شيئا . ويختم قصيدته يكي دولة الإسلام الضائعة في بطاح الأندلس ، ويندب أهله المضيعين في بلاد الشرك ، ويتمنى لو وجدت الجموع الحائرة قائدا مقتدرا . ينصح الرأي ، ويعطى المثل ، ويحسن الطعن ، ويتقدم عند اللقاء ، فإنه لكبير أن يكون سكان الأندلس إما قتيلا أو أسيرا :

أَنْعَمِي عَنْ مَرَّاشِدِنَا جَمِيعَا وَمَا إِنَّ مِنْهُمْ إِلَّا بِصِيرُ

ونلتقى واحداً ويفرّ جمعٌ كما عن قانصٍ فرت حميرُ
ولو أنا ثبتنا كان خيراً ولكن مالنا كرمٌ وخيرُ
إذا مالم يكن صبر جميلٌ فليس بنافعٍ عددٌ كثيرُ
ألا رجلٌ له رأىٌ أصيلٌ به مما نحاذر نستجيرُ
يكرّ إذا السيوفُ تناولتهُ وأين بنا إذا ولّتْ كرورُ
ويطعن بالقنا الخطّار حتى يقول الرمح ما هذا الخطيرُ
عظيمٌ أن يكون الناس طرا بأندلسٍ قتيلٌ أو أسيرُ

أكثر الشاعر من التنديد والتفريع في قصيدته ، ولكنه لا ينتهى بها إلى تشييط العزائم ،
أو إشاعة اليأس ، وإنما يهدف من ورائه إلى استنهاض الهمم وإثارة الحمية ، ودفع الناس
إلى التماسك والوقوف في وجه العدو ، ويختتمها وقد فتح لهم طاقة من الرجاء ، ويتفائل
بالنصر في أحلك ساعات المحنة ، مستمداً ذلك من إيمان بالله ، وثقته في نفسه وقومه رغم
تطامن البلايا :

ونرجو أن يتيح الله نصراً عليهم ، إنه نعم النصير

لم يورد أى من المصادر الأندلسية التى بين أيدينا القصيدة أو أبياتاً منها ، وانفرد المقري
بإيرادها كاملة ، على ما يبدو من أبياتها ، فى كتابه نفح الطيب ، ولم يصرح كعادته كثيراً
باسم المصدر الذى نقل عنه ، وقد تأملت الأبيات طويلاً ، وبدأ لى أن قائلها من طليطلة
قطعا ، واحد أكيدا ، فهى متساوية النغم والبناء والمشاعر ، يؤكد على بعض الأفكار
بتكرارها أحيانا ، لكن لا شىء فيها يمكن أن ينصرف إلى مدينة أخرى ، أو أضيف لها فيما
بعد .

الشاعر من طليطلة إذن ، شهد وقائع الأحداث الأولى على الأقل ، وفارقها قبل
التسليم النهائى فيما أرجح ، لأنه يصور لنا حالتها حينئذ تصوير خبير ، يتحدث عن الأخبار
الواردة على أهل طليطلة ، وعن بأسهم ، وطول انتظارهم للنجدات التى ياملونها ، وعن

سقوطها أخيراً . ويعتذر لأخوان له فيها بأنه إذا كان قد هاجر فهو حاضر معهم بأحزانه وأشجانه :

لئن غبنا عن الإخوان إنا بأحزانٍ وأشجانٍ حضورُ
ويلمح إلى ما كان لطليطة من دور ثقافي فيجىء تعبيره دقيقاً محدداً ، لا يقول إنها كانت منارة الأدب ، ولا مهبط الشعر ، ولم يكن لها هذا الدور ، وإنما يصفها بأنها كانت منارة العلم ، وحصن الدين ، ومهبط الإيمان ، وهي كذلك واقعاً . ويتحدث عن مناعتها الجغرافية ، ومعها كان الظن بأنها لا تسقط في يد غاز أبداً ، وأن العدو أرغم جانباً من أهلها على الهجرة ، وأن مساجدها أصبحت كنائس ، وأصاب كبد الحقيقة حين ألمح إلى محاولات العدو في اجتذاب سكان طليطة إليه بعد أن استولى عليها ، مما أوجزه المقرئ في جملة مبينة : « وبسط الكافر العدل على أهل المدينة ، وحَبَّب التنصّر إلى عامة طغامها ، فوجد المسلمون من ذلك مالا يطاق حمله » . ورغم تقرّيعه الشديد لأهل طليطة عد ماوقع نذراً من الأيام ، ولم يرجع به إلى غيبية مخزنة ، تصاحب دائماً فترات السقوط الفكرى ، والانحطاط العقلى ، وتجعل العصيان والفسوق وراء كل هزيمة ، دون تحليل النتائج وردّها إلى أسبابها العلمية المباشرة ، بل ودافع عنهم ، وذكر من جعل المعاصى سبباً ، وأن السقوط عقوبة ، بأن غيرهم يفعل مثلهم ، وأشد منهم ، وإذن فعليهم أن يحذروا لأن الدائرة سوف تدور عليهم إذا لم يفيقوا ويتنبهوا . وهو لا يضغط على هذا المعنى كثيراً كما نجد في القصائد الأخرى التى تجىء فيما بعد .

الشاعر أصيل في أفكاره وانجازه ، لأن قصيدته أول ما قيل في بابها ، وليس عالة فيها على أحد سبقه ، ولا تنسحب تجربتها على أحداث أخرى مماثلة أو مشابهة ، ونلمح فيها على استحياء تصويراً عابراً لداخله ، وتطل مشاعره الشخصية من بيت لا نجد له شبيهاً عند رفاقه من بعد ، فقد أهمه الأمر وكان له معه ليل كليل امرئ القيس أو النابغة من قبل :
يطول على ليلي ، رب خطبٍ يطول لهوله الليلُ القصيرُ
وهو متمكن من أدواته ، عروضاً ولغة ونحواً ، ليس في قصيدته اضطراب أو ركاكة ، ولا في إيقاعها تكلف أو إسفاف . ولكنه فيما يبدو ليس فنانياً هوايته الإبداع ،

ولا شاعرا صناعته القريض . وإنما يشغل الشعر حيزاً محدوداً من اهتماماته فحسب ، إلى جانب هموم علمية أخرى ، فصوره الشعرية قليلة ، وماورد منها جاء بسيطاً ساذجاً ، وهو يعتمد على ألوان التشبيه والاستعارات المألوفة ، إلى جانب المحسنات اللفظية ، ومن بينها الجناس بخاصة ، كاملاً أو ناقصاً ، ثم الطباق ، والموقف يستدعيه فنياً ، لأن المقابلة بين الفكرتين أو الموقفين تعطى التصوير الذى يهدف إليه بعدا ، والمعنى مزيدا من التأكيد . ومع غيبة الوثائق القاطعة باسم الشاعر إثباتاً أو نفياً ، آثرت أن أعتمد على الظن الراجح فى الوصول إلى قائل هذه الأبيات ، وقلبت الأمر على وجوهه ، وتتبع أخبار الشعراء فى طليطلة فى هذه الفترة فلم أجد من يمكن أن تنسب إليه هذه القصيدة غير أبى الوليد هشام بن أحمد الوقشى ، فقد عاصر هذه الأحداث ، وهو أصلاً من طليطلة وأعطانا ابن بشكوال خطوطاً عريضة لحياته ، وملامح من اتجاهاته ، تنبىء بأنه صاحب القصيدة ، وسنأتى على ذلك فيما بعد ^(٧) ، ويرجح بظنى أن المقرئ نقل له أبياتاً أخرى قصيرة ومتعددة ، فى مناسبات مختلفة ، وسنلتقى به مرة ثانية فى بلنسية ييكها فى قصيدة أخرى ، حين سقطت فى يد السيد القنيطور ^(٨) ، وتعرضت لمحنة شبيهة تماماً بما تعرضت له طليطلة من الحصار والتجويع ، وفى هذه المرة وصلنا اسمه محرفاً تماماً ، وتوصلنا إليه ، أما القصيدة نفسها فضاعت ، وصلتنا فى صورة طريفة . لا نظير لها فى تاريخ الأدب العربى ، مكتوبة بعامية أهل الأندلس ، وفى حروف لاتينية ، ومترجمة عن ترجمة الأصل إلى اللغة القشتالية ، وسوف ندرسها تفصيلاً فى فصل خاص : « مرثية بلنسية ضائعة » .

○ المعتمد يرثى دولته :

بدأت دولة العبابدة فى أشبيلية ، قبل أن ينتثر عقد الخلافة الأموية ، على يد القاضى أبى القاسم محمد بن عباد (ت ٤٣٣ هـ = ١٠٤٢ م) وثبتت أركانها على يد ابنه عباد الذى

(٧) انظر فصل : « مرثية بلنسية ضائعة » فى الكتاب ، ص ٢٧٨ .

(٨) أتينا على تاريخ السيد ، وما أصاب بلنسية على يديه تفصيلاً ، فى كتابنا : ملحمة السيد ، دراسة مقارنة ، دار المعارف ،

الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٨٣ .

تلقب بالمعتضد (٤٠٣ - ٤٦١ هـ = ١٠١٢ - ١٠٦٩ م) ، وكان متناقض المزاج ، يجمع بين الدهاء اليقظ ، والقسوة البالغة ، والإحساس الرقيق ، والعلم الواسع ، والذوق الرفيع ، إلى ذاكرة واعية وقريحة شاعرة ، وأحاط نفسه بهالة من الشعراء جعلت همها مديحه ، وأسرف في الانفاق فبدأ في هيئة خلافة من العظمة ، إلا أن ابنه المعتمد (٤٣٢ - ٤٨٨ هـ = ١٠٤٠ - ١٠٩٥ م) وقد خلفه على عرش أشبيلية احتل في دنيا الأدب والتاريخ مكانة أعظم من مكانة أبيه ، فقد فاقه في الشعر ، وبرىء من أوزاره في السياسة ، وكان يمثل الشعر خير تمثيل من وجوه ثلاثة : ينظمه على نحو يثير الإعجاب ، وكانت حياته نفسها شعراً حياً ، وكان راعي شعراء الأندلس أجمعين ، بل الغرب الإسلامي كله .

ظل سلطان المعتمد في ازدهار زهاء عشر سنين ، لكن سقوط طليطلة وضغط النصارى على أشبيلية وبقية الحواضر الإسلامية ، جعل ملوك الطوائف وعلى رأسهم المعتمد - يستنجدون بالمرابطين في أفريقيا ، وعبر المرابطون إلى الأندلس ، وانتصروا على النصارى في معركة الزلاقة ، لكنهم في نهاية الأمر انقلبوا على ملوك الطوائف أنفسهم ، وأخذوا يستولون على معاقلهم واحد إثر آخر ، وسقطت أشبيلية في أيديهم بعد كفاح مرير من المعتمد وأبنائه ، وقتل منهم المأمون والراضي ، ومن قبلهم الظاهر ، ومن بعدهم عبد الجبار ، ولما صار المعتمد في أيدي المرابطين « جُمع هو وأهله ، وحملتهم الجوارى المنشئات ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعد ما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم العمر ، والناس قد حشروا بصفى الوادى ، وبكوا بدموع كالغواذى فساروا والنوح يحدوهم ، والبوح باللوعة لا يعدوهم »^(٩) .

كان المعتمد في حياته شاعراً أكثر منه حاكماً ، إلا أن عراقة الأصل ، ونبل المحتد ، وحمية العربى ، تجلت واضحة في مواقفه من ضغط المسيحيين في الشمال ، فكان أول من اقترح دعوة المرابطين لمواجهة جيوش النصارى الزاحفة ، وحين خوفه المتفجعون بالفساد في

(٩) اس خاقان ، قلاتد العقيان ، ص ٢٣ .

وطنه بأنهم إذا جاءوا لن يرحلوا ، كانت قولته الشهيرة « رَعَى الجبال خير من رعى
الخنازير » ، وقاتل في معركة الزلاقة قتالاً محمومًا شجاعًا ، وسار إليها على رأس جيشه واثقًا
بالنصر ينشده :

لا بد من فرج قريب يأتيك بالعجب العجيب
غزو عليك مبارك سيعود بالفتح القريب
لله سَعْدُكَ إِنَّهُ نُكْسٌ على دين الصليب
لا بد من يوم يكو نُ له أخا يوم القليب^(١٠)

وألقي ألفونسو السادس ملك قشتالة بثقل جيشه كله على المعتمد ، لأنه وراء هذه
الحرب ، ومال عليه بكل جموعه ، وأحاطوا به من كل جهة ، وحمى الوطيس ،
واستحر القتل في أصحاب ابن عباد ، وصبر المعتمد صبراً لم يعهد مثله لأحد ، وعضته
الحرب ، واشتد عليه ومن معه البلاء ، وانكشف بعض أصحابه ، وفيهم ابنه عبد الله ،
وأثنى جراحاً ، وضرب على رأسه ضربةً فلقت هامته ، حتى وصلت إلى صدغه ،
وجرحت يمين يديه ، وطعن في أحد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس ، كلما هلك واحد
قُدِمَ له آخر ، وهو يقاسى حياض الموت ، ويضرب يميناً وشمالاً ، وتذكر ابناً صغيراً له ،
كان مغرمًا به ، تركه عليلاً في إشبيلية ، يكنى أبا هاشم :

أبا هاشم هشمي الشفار فله صبرى لذاك الأوار
ذكرت شخصيك تحت العجاج فلم يثنى ذكره للضرار

وحين أطبقت جيوش المسلمين مجتمعة ، من مرابطين وأندلسين ، على جيش ألفونسو
وأصحابه ، ونصرائه من كل بقية دول أوربا ، وصدقوا الحملة عليه ، « ولَّوْا ظهورهم ،
وأعطوا أعناقهم ، والسيوف تصفعهم ، والرماح تطعنهم ، وتفرق جيش ألفونسو شذر
مذر ، وغطت جثث جنوده ساحة المعركة ، فما يستطيع المرء أن يتحرك خلالها إلا على
الجثث خوضاً في الدماء .

(١٠) يوم القليب هو معركة بدر .

« ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس ، وهنئ بالفتح ، وقرأت القراء ، وقام على رأسه الشعراء فأنشدوه ، قال عبد الجليل بن وهبون : حضرت ذلك اليوم ، وأعددت قصيدة أنشدتها بين يديه ، فقرأ القارئ « إلا تنصروه فقد نصره الله » (١١) ، فقلت : بُعداً لي ولشعري ، والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به . لكن ابن تاشفين لأسباب سياسية إرتآها ، وليس هنا موضع مناقشتها ، قرر أن يزيح أمراء الطوائف عن عروشهم ، وبدأ بالمعتمد لأنه أعظمهم وأقواهم ، ولقرب عاصمته من عدوة المغرب ، وسهولة الوصول إليها إبحاراً ، ودافع المعتمد وبنيه عن ملكه ، وترامى على الموت بنفسه ، غير أن ذلك لم يحجده نفعاً ، وخرج الناس من منازلهم ، وقد شنت الغارة عليهم ، « يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى ، ورحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع ماله ، لم يصحب معه بُلغة زاد ، ولا بقية مراد » .

وأدرك المعتمد واعياً أن دولتهم انهارت ، وملكهم تلاشى ، وبدأ شاعراً يرثى ، ولا أقول يبكي ، مجداً ضائعاً ، في أبيات شرقت وغربت ، لأنها تصوّر المثل الأعلى في حياة العربي ، أميراً على عرش ، أو راعياً وراء قطيع : السمّ الذ مذاقا من الخضوع ، والشرف الرفيع لا يُسلب ، لم يتخلف عن القتال ، ولا ضنّ بنفسه عن الاستشهاد ، ولئن عاش بعده فلن له عمراً لم ينقض ، فما سار يوماً إلى معركة وأمل أن يعود منها حياً ، تلك هي أخلاقه ، وهي أخلاق أهله من قبل :

لَمَّا تَمَاسَكَتِ الدِّمُوعُ	وَتَنَبَّهَ الْقَلْبُ الصَّدِيعُ
وَتَنَاسَكَرَتْ هَمَمِي لَمَّا	يَسْتَأْمُرُهَا الْخَطْبُ الْفَطِيعُ
قَالُوا الْخَضُوعَ سِيَاسَةً	فَلْيَبْدُ مِنْكَ لَهُمْ خَضُوعُ
وَالَّذُ مِنْ طَعْمِ الْخَضُوعِ	عِ عَلَى فِى السَّمِّ النَّقِيعِ
إِنْ تَسْتَلِبُ عَنِ الدُّنَا	مَلِكِي وَتُسَلِّمُنِي الْجَمُوعِ

فالقَلْبُ بين ضلوعه لم تُسَلِّم القلبَ الضلوع
 لم أَسْتَلْبُ شرفَ الطبا عِ أَيْسَلْبُ الشرفُ الرفيع
 قد رمتُ يومَ نزالهم أن لا تَحْصُنْتِي الدروع
 وبرزتُ ليس سوى القمي صر على الحشا شيء دفع
 وبذلتُ نفسي كى تسي لَ إذا يسيلُ بها النجيع
 أجلى تأخرَ لم يكن بهوى ذلَّى والخضوع
 ما سرتُ قط إلى القتا لَ وكان من أملَى الرجوع
 شيمُ الألى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع

وحين انفضت المعركة ، وخسر كل شيء إلا الشرف ، تطلع فإذا ابنه سراج الدولة
 أبو عمرو قتيل ابن عكاشة في قرطبة ، وأبو خالد يزيد الملقب بالراضى قتله قورور اللمتوى
 غدرا برندة ، وأبو نصر الفتح الملقب بالمأمون قتيل في قرطبة أيضا ، وفي طريقهم إلى
 مقرهم النهائى أسرى ، لم تتوقف أمهم ، اعتماد الرميكية ، ولا أخواتهم بكاء عليهم ،
 وصور لنا حاله تكبله القيود وذل الأسر ، وحال زوجه يغلبها الحزن ، وترجرها التقوى ،
 وتذللها الذكرى ، وتفزع للبكاء ، وتصبر أحيانا ، وهى مضیعة بين تلاطم هذه
 العواطف :

يقولون صبرا لا سبيل إلى الصبر سأكى وأبكى ما تطاول من عمرى
 هوى الكوكبان : الفتح ثم شقيقه يزيد ، فهل بعد الكواكب من صبر
 ترى زهرها فى ماتم كل ليلة تخمشن لهفا وسطه صفحة البدر
 ينحن على نجمين أثلكن ذا وذا وأصبر ما للقلب فى الصبر من عذر
 أفتح لقد فتحت لى باب رحمة كما ييزيد الله قد زاد فى أجرى
 توليتما والسن بعد صغيرة ولم تلبث الأيام أن صغرت قدرى
 توليتما حين انتهت بكما العلا إلى غاية . كل إلى غاية يحجرى
 فلو عدتما لاخترتما العود فى الثرى إذا أبصرتمانى فى الأسر
 يعيد على سمعى الحديد نشيده ثقيلاً فتبكى العين بالحس والنقر

معى الأخواتُ الهالكاتُ عليهما وأمكنا الثكلى المضرمةُ الصدر
فتبكي بدمعٍ ليس للقطر مثله وترجرها التقوى فتصغى إلى الزجر
أبا خالدٍ أورثني الحزن خالداً أبا النصير مذ ودّعتْ ودّعني نصري
وقبلكما قد أودع القلبَ حسرةً تجددُ طولَ الدهرِ، تُكلُّ أبي عمرو
ودخل عليه ابنه أبو هاشم ، والأب «يرسف في قيوده ، ويتقلب في حديدته ،
فخنقت الطفلَ العبرةُ ، وكان أحب أبناء المعتمد إليه ، وأحظاهم على صغره لديه ،
فناجى القيد ، جعله شخصاً يخاطبه ويعتب عليه قسوته ، لقد شرب منه الدم ، وأكل
اللحم ، ويودّ أن يهشم العظم ، لا يبالي بطفل جاء يسترحمه ، ولا بأخيات له جرعهن
السم والعلقم ، من يعي تكاد دموع الحزن تذهب ببصره والصغير لا يفهم يلوذ بالرضاع :

قيدي ! أما تعلمني مُسلماً أبيت أن تشفقَ أو ترحمًا
دمي شرابٌ لك واللحمُ قد أكلته لا تهشم الأَعْظَمَا
أرحمُ طُفَيْلاً طائشاً لُبّه لم يخش أن يأتيك مُسْتَرْحَا
وارحم أخياتٍ له مثله جرّعتهن السمَّ والعلقما
منهن من يفهم شيئاً فقد خفن عليه للبكاء العمى
والغر لا يفهم شيئاً فما يفتحُ إلا للرضاع فما

وهي صورة بالغة الحزن ، جعل منها التشخيص شيئاً نحسه ونشعر به ، ويتسرب إلى
أعماقنا خفياً ، فيجسد التجربة أمامنا حية ، ويستل الدموع من أعيننا غزيرة ، كأننا نرى
المشهد أمامنا .

وقد أورثته قسوة المحنة ، وهول الاعتقال ، وفداحة الآلام تطوق بنيه بعد السعد ،
ويعانون المهانة بعد العز ، زهداً جليلاً ، وتأسياً نبيلاً :

أرى الدنيا الدنيّة لا توائى فأجملُ في التصرّف والطلاب
ولا يغررك منها حُسنُ بُردٍ له علماؤُ من ذهبِ الكُهابِ
فأولها رجاءٌ من سرابٍ وآخرها رداءٌ من ترابٍ

جاءت قصائد المعتمد في رثاء دولته ، وبكاء واقعه ، كثيرة وفريدة ، ولم يحدث قبله

أن فاضت ينابيع الشعر في أعماق أمير فصور لنا مأساته وأحزانه وآلامه وتأسيه ، وصاغ التجارب موحية مثيرة من واقعه ومآسيه ، كما صنع المعتمد ، في نبرة صادقة ، ومعاناة حقيقية ، وإيقاع حزين ، ولكنه في كل الحالات ينبض نبلاً ، وينضح بكبرياء عجيب .

« لم يكن المعتمد حاكماً عظيماً بحال ، فقد تولى مقاليد شعب أفسد الترف طبعه ، فلم يصرف شيئاً من العناية إلى أمور رعيته ، وترامى على ملذات نفسه ، ومن ثم كان عبء الحكم عليه ثقيلاً ، كان بطبعه ميالاً إلى الراحة ، تشغله تلك الأشياء الخارجية التي تشغل الفنانين وتتألف منها مسراتهم وشقاواتهم ، فكان ذلك مما حال بينه وبين القيام بأعباء الحكم على النحو المطلوب . لكن أحداً من الناس لم تنطو نفسه على قدر من الحساسية والفيض الشعري الدافق كالذي ضمته نفس المعتمد ، وأتفه الأشياء في حياته وكل متعه وأحزانه ، كانت تأخذ على الفور شكلاً شعرياً ، ويمكن كتابة تاريخ حياته ، أو على الأقل حياته الشعورية ، اعتماداً على شعره وحده ، على بوحات قلبه ، إنها طافحة بالحزن والابتهاج الذي يأتي ويذهب كل يوم مع إشراقة الشمس أو تلبد الغيوم . ثم إن القدر أراد له أن يكون آخر أمير أندلسي الأصل يحمل في جلال علم ثقافة فكرية وقومية قُدر لها أن تنطوي ويذهب أمرها تحت ظل المرابطين الذين فتحوا البلاد ، لقد أحاط به عطف خاص لأنه كان أصغر وآخر فرد من أفراد تلك الأسرة الكثيرة العدد . أسرة الأمراء الشعراء الذين حكموا الأندلس . لقد أسف عليه الناس أكثر مما أسفوا على أي شخص آخر دون استثناء ، تماماً كما يأسف الإنسان على آخر وردة في الموسم ، وآخر يوم جميل في الخريف . وآخر شعاع من أشعة الشمس الغاربة »^(١٢) .

○ ابن اللبانة يبكي دولة العباددة :

هذا الهبوط من السمو إلى الحضيض ، من سدة الملك إلى وهدة السجن . أثار كوامن الشعر في نفس شاعر المعتمد . أبو بكر محمد بن عيسى المشهور بابن اللبانة (ت ٥٠٧ هـ -

(١١١٣ م) (١٣) فبكى دولة العباددة فى شعر صادق طافح بالأسى . عدد فيه مآثرهم وما صاروا إليه . فى عبارة رقيقة . وتصوير دقيق ، خال من المبالغة والتهويل :

تبكى السماء بدمع رائج غاد على البهاليل من أبناء عبّاد
على الجبال التى هُدَّتْ قواعدُها وكانت الأرضُ منهم ذاتَ أوتاد
والراياتُ عليها اليناعات ذوت أنوارها فغدَّتْ فى خَفْضِ أوهاد
عَريسةٌ دخلتها النائباتُ على أساوِدٍ لهمُ فيها وآساد
وكعبةٌ كانت الآمالُ تعمُرها فاليومُ لا عاكفٌ فيها ولا باد
ياضيفُ أقفر بيتُ المكرماتِ فخذُ فى ضمِّ رحلك واجمعُ فضلة الزاد
ويساموئِلَ وادبهمُ ليسكنه خفَّ القطين وجف الزرع بالوادى
وأنتَ يا فارسَ الخيلِ التى جعلتُ تحتالُ فى عُدِّ منها وأعداد
ألَّتِ السلاحَ ، وخلَّ المشرقى فقد أصبحتَ فى لهواتِ الضيغم العادى
لما دنا الوقتُ لم تخلف له عدَّةٌ وكلُّ شىءٍ لمقياتٍ وميعاد

ثم يلتبس العذر لخلعهم . فقد خلع بنو العباس من قبل ، وكانوا أعز سلطاناً ، وأعظم ملكاً . فأقبرت منهم بغداد ، كما أقبرت من هؤلاء إشبيلية :

إنَّ يُخلعوا فبنو العباس قد خُلِعوا وقد خلتُ قبل حمصِ أرضُ بغداد
لكنه لا يطيل الوقوف بهذه المقارنة ، ولا يتجاوزها إلى غيرها ، وإنما يخلص إلى موضوع القصيدة نفسه ، فيصور مشهد ركوب بنى عباد السفن فى طريقهم إلى المنى ، لقد سيقوا إليها منظوماً بعضهم إلى بعض بالحبال ، وضمَّتْهم السفن فى جوفها كما تضم القبور أمواتها . كل الأحداث يمكن أن تنسى إلا ذلك اليوم ! ، ولقد رأى الناسُ وهم على

(١٣) ابن اللبانة ، نسبة إلى أمه وكانت تبع اللن ، ويقال له الداني نسبة إلى بلده دانية denia ، مدينة أندلسية على شاطئ

البحر الأبيض ، لترجمة حياته انظر :

- ابن سعيد المغربى ، المغرب ، ج ٢ ص ٤٠٩ وما بعدها ، تحقيق شوقي ضيف .
- المراكشى ، المعجب ص ١٤٧ وما بعدها ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ط . الأولى .
- ابن خاقان ، قلائد العقيان ص ١٥١ .

ضفتى نهر الوادى الكبير نساء المعتمد ، هن اللؤلؤ جلالا ورونقا وبياضا ، يشرين من نفس الكأس ، وقد سفرن من هول الفاجعة ، ومزقن وجوههن بأظافرهن من شدة الحزن :
 حموا حريمهم حتى إذا غلبوا سيقوا على نسق في جبل مقتاد
 نسبت إلا غداة النهر كونهم في المنشآت كأموات بالحاد
 والناس قد ملأوا العبرين ، واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أزياد
 حط القناع ، فلم تستر مخدرة ومزقت أوجه تمزيق أبراد

ثم يصف توديع الناس لهم على نحو من الصدق والدقة يخيل إلينا معها أننا نرى الناس يتراحمون على ضفتى الوادى الكبير ليروا السفن تبتعد عن الشاطئ بأصحابها وسط فيض هتون من العبرات :

حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مفداة ومن فاد
 سارت سفائنهم والنوح يصحبها كأنها إبل يحدو بها الحادى
 كم سال فى الماء من دمع وكم حملت تلك القطائع من قطعات أكباد

كان ابن اللبانة أصدق شاعر رثى دولة فى الأندلس ، ولم يتوقف بكاؤه لها بزوالها وفقدان الأمل فى عودتها ، وحاول أن يستخرج من مأساتها العظات والعبر ، يوقظ بها نائما أو يذكر غافلا ، وألف فى ذلك قاصدا كتابه « نظم السلوك فى مواعظ الملوك » ، وبقي حياته يتردد على أغصان حيث المعتمد أسير ، يمدحه ويواسيه ، ويبكى أيامه البوالى . وقال عن روحلته تلك ، إنها « وفادة وفاء لا وفادة اجتداء » ، وأشعاره فى الدولة العبادية كثيرة ، وكلها بمنزلة عالية ، وإذا كان المجال لا يتسع لأن نأتى عليها جميعها ، فإن نفسى لا تطاوعنى أن أمضى دون أن آتى على شئ من قصيدة مطولة منها . وقالها بعد أن أنفذ القدر سهامه ، وانتهى كل شئ إلى غايته ، فجاءت أقل صريحا ، وأهدأ نفسا ، وأعمق تأملا ، وأحفل بالحكمة والرضى ، فكل شئ مرهون بأوانه ، والدهر حول قلب ، ونحن بيده أحجار من الشطرنج يحركنا كيف شاء ، والعقل من ينفض يديه من الدنيا بعد أن رأى المعتمد فى سماء عزه ، ثم أتت عليه فهو فى حماة السجن والأسر . ويجمل ما حدث

لإشيلية بعده في بيت واحد من الشعر ، انطوى على مبالغة مقبولة : الأرض بعدهم
أقفرت والناس قد ماتوا :

لكيَّ شيءٍ من الأرض ميقاتُ وللمنى في منايها غاياتُ
والدهرُ في صفة الحرباء منغمسُ ألوانُ حالاته فيها استحالات
ونحن من لعبِ الشطرنج في يده وطالما قُمرتُ بالبيدِ الشاةُ
انفض يدك من الدنيا وزينتها فالأرضُ قد اقفرتُ والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الأرضي قد كتمتُ سريرةَ العالم العلوي أغمات

وفي عام ٤٨٨ هـ = ١٠٦٥ م ، تُوفى المعتمد بأغمات ، وورى التراب هناك ، ونودي
في الدعاء للصلاة على جنازته : « الصلاة على الغريب » ، وبعد أيام وافى قبره شاعره
المخلص أبو بحر ابن عبد الصمد ، « فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحىً ، وظهر كل
متوارٍ وضحا ، قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم واختيالهم بزيتهم وحلاهم ،
وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه ، وخر على ترابه ولثمه :

ملكُ الملوكِ أسامعُ فأنادى أم قد عدتكَ عن السماع عوادى
لما خلتُ منك القصور فلم تكنُ فيها كما قد كنت في الأعياد
قبَلْتُ في هذا الثرى لك خاضعاً وتخذتُ قبرك موضع الإنشاد

وهي قصيدة أطلال إنشادها ، فبكى وأبكى ، « وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل
ملك وجيش ، والأيام لا تدع حياً ، ولا تألوا كل نشر طيا ، تطرق رزاياها كل سمع ،
وتفرق مناياها كل جمع » . ومع ذلك بقيت مأساة المعتمد وإبائه حية في وجدان الأدب
العربي ، لم يقترب منها النسيان لحظة ، يرتادها القاص ، والشاعر والمؤرخ والمتذوق ،
يستلهمها إبداعاً ، أو يذرف عليها دمعاً ، أو يتخذها وثيقة . أو يتخذ منها محوراً لرواية
تدور حول أحداثها .

ونسى التاريخ بقية الملوك والطغاة ! .

○ ابن عبدون يرثى بني الأفطس :

وإلى الشمال من دولة العباددة فى إشبيلية Sevilla قامت مملكة بني الأفطس فى بطليوس Badajoz ، وكانوا يسابقون جيرانهم فى رعاية العلم ، وإشاعة الثقافة . والإغداق على الأدباء ، وبلغت المملكة أوجها على أيام المظفر ، محمد بن عبد الله ابن الأفطس ، وحكم فيما بين ٤٣٧ و ٤٥٦ هـ = ١٠٤٥ = ١٠٦٣ م^(١٤) وابنه المتوكل ، أبو محمد عمر ، وحكم من ٤٦٠ إلى ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ ، وإذا كان المعتمد وأبوه من قبل قد شهرا بالشعر ، فقد عرف المظفر بالعلم ، فكان راوية أدب ونحو وشعر ونوادر وأخبار ، وألف منها موسوعته المظفرى وجاءت فى خمسين مجلداً ، ورسخ ابنه المتوكل فى الشعر والنثر ، إلى شجاعة مفرطة ، وفروسية عالية . فكان لا يرغب الغزو ولا يشغله عنه شىء . وعرف بلاطهم - كبلات جيرانهم - عدداً كبيراً من الشعراء والكتاب ، كابن السيد ، وابن القبطورنة ، وابن سارة ، وابن البين ، وابن عبدون ، وابن عبد البر وغيرهم .

وكما جمع القدر بين الدولتين فى المترع ، ومواجهة زحف النصارى الداهم من الشمال ، والاستنجد بجيرانهم الأفريقين وأخوتهم فى الدين ، جمع بينهم فى النهاية التبعة ، فكان زوال ملك بني الأفطس - كبنى عباد - على يد المرابطين . وفى نفس العام ، وعلى نحو أشد قسوة وعنفاً إذ قتل المرابطون المتوكل ، ثم قتلوا ولديه الفضل والعباس من بعد ، قتلوا صبراً . وضربت أعناقهم فى غرة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م^(١٥) . وعندما طويت صفحة بني الأفطس قال فيهم ابن عبدون ، أبو محمد عبد المجيد

(١٤) حتى زمن قريب كان المعتقد أن المظفر حكم إلى عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م ، ولكن عثر أخيراً فى أسبانيا على عملة باسم ابنه وخليفته يحيى المنصور مؤرخة فى ٤٥٦ هـ = ١٠٤٥ م . فنصحنا تاريخ وفاته بما يتفق وهذا الاكتشاف الحديث .

(١٥) ذكر المراكشى فى كتابه المعجب ص ٧٥ أنهم قتلوا عام ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م وهو وهم منه وقد ذكر ابن الآبار التاريخ صحيحاً ، وعنه نقلنا ، فى كتابه الحلة السراء ج ٢ ص ١٠٢ .

قصيدته التي يصفها عبد الواحد المراكشي بأنها « أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت في الألباب فعل الخمر ، فجلت عن أن تُسامى ، وأنفت من أن تُضاهى ، فقل لها النظر ، وكثر إليها المشير ، وتساوى في تفضيلها وتقديمها باقل وجري »^(١٦) .

بدأ ابن عبدون قصيدته بمطلع تقليدى يشكو فيه الدهر الفاجع ، والدنيا الخادعة ، والليالى القلب ، فكم من دولة هيأت لها الأيام أسباب النصر والتأييد ، ثم كرت عليها فسلبتها كل ما منحت ، ولم تبق لها على خير :

الدهرُ يُفجع بعد العينِ بالأثرِ	فما البكاء على الأشباح والصورِ
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة	عن نومة بين نابِ الليث والظفرِ
فلا تغرنك من دنياك نومتها	فما صناعة عينها سوى السهرِ
ما لليالى ، أقال الله عثرتنا	من الليالى ، وخانتها يدُ الغيرِ
كم دولة وليت بالنصر خدمتها	لم تُبقي منها - وسل ذكراك من خبرِ

ومضى يذكر الدول والأسر والرجال الذين عدت عليهم صروف الليالى ، من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الفرس إلى اليونان ، فيشير إلى دارا والإسكندر ، وإلى طسم وعاد وجرم ، وإلى ترف اليمنيين وحضارتهم ، وأهداف المضربين وغاياتهم ، وإلى كليب ومهلل ، وامرئ القيس وأبيه ، وعدى بن زيد ومقتله ، وحرب داحس والغبراء ، وإلى يزدجرد آخر ملوك الفرس ، وهربه عن عرشه وقاعدة ملكه حين وطئ جيش سعد بن أبي وقاص أرض بلاده ، وإلى يوم القادسية وغزوة بدر ، ويشير إلى الكثيرين من صرعى المسلمين على امتداد تاريخهم ، كعمر وعثمان وعلى وغيرهم ، وإلى نكبة الأمويين ثم

(١٦) الوزير أبو محمد عبد المجيد ، من مدينة يابرة Evora ، كان شاعرا ناثرا ملح في بلاط بني الأفلح ، ودخل بعد ذهابهم في خدمة المرابطين . انظر ترجمته في :

- عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٦٤ وما بعدها .
- ابن الآبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ص ١٠٢ وما بعدها .
- ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٥١ .

وكان المراكشي ، من بين هؤلاء وغيرهم ، هو الوحيد الذى أورد القصيدة التي نحن بصددتها كاملة .

البرامكة من بعدهم ، والمستعين والمعتز من الخلفاء العباسيين ، ويختمها بالحديث عن مصرع المعتمد وبنيه ، وهو في ذلك كله لا يلتزم ترتيباً تاريخياً معيناً ، إنما يستشهد بما يقع في ذاكرته من معلومات وسيعة ، يمهّد بها للحديث عن نكبة بنى الأفطس ، معتذراً لهم أو عنهم ، ومتأسياً بما حدث لسابقيهم :

هوتُ بداراً . وفلّتْ غُربَ قاتله
واسترجعتُ من بنى ساسان ما وهبتُ
وألحقتُ أختها طسماً ، وعادَ على
وما أقالَتْ ذوى الهيئات من يَمَنِ
ومزّقتُ سباً في كل قاصيةٍ
وأنفذتُ في كليبٍ حكماً ورمّتُ
ولم تَرُدْ على الضليلِ صحتهُ
ودوختُ آلَ ذُيَّانٍ وإخوتهم
وألحقتُ بعدىً بالعراقِ على
وبلغتُ يزْجُردَ الصينِ واختزلتُ
وخضبتُ شيبَ عثمانٍ دماً وخطتُ
وليّتها إذ فدتُ عمراً بخارجةٍ
وما وفّتُ بعهودِ المستعين ولا
وأوثقتُ في عُراها كلَّ معتمدٍ
وروعتُ كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ
وأعثرتُ آلَ عبّادٍ لعاً لهمُ
وكان عَضْباً على الأملاكِ ذا أثرٍ
ولم تدغْ لبنى يونان من أثرٍ
عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ الميرِ
ولا أجارت ذوى الغايات من مُضَرٍ
فما التقى رائحٌ منهم بمبتكرٍ
مهلهلاً بين سَمْعِ الأرضِ والبصرِ
ولا نثتُ أسداً عن ربّها حُجُراً
عبساً ، وغصّتُ بنى بدرٍ على النهرِ
يدِ ابنه أحمرَ العينين والشعرِ
عنه سوى الفُرسِ جمعَ التلْكِ والخَزَرِ
إلى الزبيرِ ولم تَسْتَحِ من عُمرٍ
فدت عليّاً بمن شاءتُ من البشرِ
بما تأكّدتُ للمعتز من مِرَرٍ
وأشرقتُ بقذاها كلَّ مُقتدرٍ
وأسلمتُ كلَّ منصورٍ ومنتصرٍ
بذيلِ زبّاء لم تَنفِرْ من الذعرِ

وبعد هذه المقدمة الطويلة يبدأ الشاعر حديثه في رثاء بنى الأفطس ، فيلعن اليوم الذى ذهبوا فيه ، ويبكى من بعدهم الأدب والكرم والشجاعة والحدود لا تجد من يحميها ويدود عنها :

بنى المظفر . والأيام لا نُزِلَتْ مراحلٌ ، والورى منها على سَفَر
سُحِقًا ليومكم يومًا ولا حملتُ بمثله ليلةٌ في غابرِ العُمُر
مِنَ للأسرة . أو من للأعنة . أو من للأسنة يُهدِيها إلى الثغر
مَن للبراعة . أو من للبراعة . أو من للسماحة . أو للنفع والضرر
أو دفع كارثةٍ ، أو ردع آفةٍ أو قمعُ حادثةٍ تعيا على القُدَر

ويذكر فضل المتوكل أبو محمد عمر ، وابنيه الفضل والعباس ، وقد قتلهم المرباطون
حين اجتاحوا أرض بطليوس ، ويأسى على أيامهم الطيبة ، ويبكى فيهم الجلال والإباء
والوفاء :

وَبِيعَ السَّاحِ وَوَيْحَ البَّاسِ لو سَلِمَا واحسرةُ الدين والدنيا على عمر
سَقَتْ ثرى الفضل والعباس هَامِيَةً تُعْزَى إِلَيْهِمْ سَمَاحًا لا إلى المطر

.....
ومر من كل شيءٍ فيه أطيبةٌ حتى التَّمْعُ بالآصال والبُكرِ

القصيدة طويلة . تبلغ أبياتها خمسة وسبعين . وتتم عن علم واسع واطلاع متبحر .
ذلك أن ابن عبدون لم يقنع بأن يجعل من قصيدته مجرد صرخة حزينة . تعبر عن لوعة
صادقة . في أبيات ذات جرس جميل . وإنما جعل منها معرضاً لكبار الرجال الذين أحنى
عليهم الدهر . وعظام الدول التي عصفت بها يد الحدثان . في أسلوب صحيح يخالطه
تألق بين الحين والحين ، وهو يجهد القارئ ، ويبعث في نفسه الملل ، بما يلجأ إليه من
اللعب بالألفاظ ، وما يستخدمه من الأخيلة البعيدة التصور ، فهي ليست قصيدة تثير
كوامن المشاعر بقدر ما هي عرض موفق لعلم واسع مثقل بالزخارف والزينة ، وعندما نقارن
بين قصيدة ابن اللبانة في بني عباد ، وقصيدة ابن عبدون في بني الأفطس ، نجد الأولى
أحر عاطفة وأصدق مشاعر ، وعلة ذلك فيما يبدو أن ابن اللبانة كان يدين بحياته وشهرته
لبني عباد . فارتبط معهم شعورياً على نحو وثيق . أما عبدون فكان وزيراً متمكناً .
لا يدين بنجاحه لأحد . ولم يرتبط مستقبله بمستقبل الذين كان يعمل في بلاطهم . وآية

ذلك أنه دخل بعد ذهاب دولتهم . فى خدمة من ذهب الدولة على يديه . ومن قتل ممدوحيه : الأمير المرباطى سير بن أبى بكر .

وعلى الرغم من ذلك نالت قصيدة ابن عبدون شهرة غامرة ، وأصبحت مادة لشروح وتعليقات كثيرة ، أكبرها وأذيعها شرح عبد الملك بن عبد الله المعروف بابن بدرون من أدباء القرن السابع الهجرى . الثالث عشر الميلادى . وقد درس المستشرق الهولندى دوزى هذا الشرح ونشره فى لايدن عام ١٨٤٦ . كما طبعت القصيدة فى مصر بشرحها على نحو تجارى عام ١٣٤٠ = ١٩٢١ .

وفى نفس العام الذى أزاح فيه المرباطون دولة بنى الأفطس ، كان السيد القنيطور يقتحم مدينة بلنسية . عام ١٠٩٤ م ، وبقيت تحت حكمه أعواماً عانت فيها من الشقاء والذل ، ألواناً . مما عرضنا له فى كتابنا ملحمة السيد^(١٧) تفصيلاً ، ويحدثنا التاريخ الإسباني عن مرثية بليغة قالها شاعر عربى فى المدينة . ولكن التاريخ العربى . أو ما وصلنا من مصادره . صمت عنها تماماً . ولعلها ضاعت فى غمار الأحداث . ومن خلال المصادر الإسبانية أتينا على خبرها تفصيلاً وأفكارها تقريباً . وشغلت الفصل التالى كله .

(١٧) انظر : ملحمة السيد . دراسة مقارنة . الطبعة الثالثة دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

مرثية بلنسية ضائعة !

وجاء الدور على بلنسية !

أكبر مدن شرق الأندلس ، على البحر الأبيض المتوسط ، وأعظم مرافئ الأندلس الإسلامية ، وكانت كما يصفها الحجاري المؤرخ في كتابه « المسهب » : « مطيب الأندلس ، ومطمح الأعين والأنفس ، خصها الله بأحسن مكان ، وحفها بالأنهار والجنان ، فلا ترى إلا مياهها تتفرع ، ولا تسمع إلا أطيافاً تسجع ، ولا تستنشق إلا أزهاراً تنفح ، وما أجلت لحظك في شيء إلا قلت هذا أملح » وتميزت بديانها المثمرة ، ونخيرها الوفير ، ونظمها الدقيقة في الزرع والإرواء ، كانت مهبط كثير من الأسر العربية العريقة ، ومنتدى لجمع من الكتاب والأدباء والشعراء ، كابن الأبار وابن خفاجة وابن الزقاق . وسقطت رسمياً في يد السيد في ١٥ يونية ١٠٩٤ م ، وكانت قبل ذلك تحت سيطرته الفعلية . أو تحت حامية ألفونسو ملك قشتالة ، منذ دخلت في حوزة بني ذي النون أصحاب طليطلة عام ١٠٦٥ م . أي أن التاريخ بين سقوط طليطلة في يد ألفونسو ، وبلنسية في يد السيد لا يتجاوز تسعة أعوام .

وكانت النتائج التي أدى إليها سقوط المدينتين واحدة في مجال السياسة ، فبعد سقوط طليطلة عبر يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في المغرب مضيق جبل طارق ، ولأول مرة ، لكي يثار لذل المسلمين ، وبلغ بانتصاره في معركة الزلاقة على الجيوش المسيحية جاهاً ومجداً خالدين . وبعد سقوط بلنسية أحس بنفس المرارة التي أحس بها عند سقوط طليطلة ، وربما على نحو أعنف وأشد ، فحشد جيشاً من المغرب ، وكتب إلى قواده في مدن الأندلس ، أن يمدوه بما يستطيعون من المئونة والجنود ، وجاء الجيش وعلى رأسه أكبر قواده ، ابن أخيه سير بن أبي بكر بن تاشقين ، وحاصر بلنسية ، ودام الحصار طويلاً ، ونازل السيد في عدد من المعارك ، خسر بعضها منها وربح بعضها ، وأخيراً استطاع المرابطون

أن يحرروا المدينة في أوائل مايو ١١٠٢ م ، أى بعد ثمانية أعوام من احتلال السيد . ولقد عانى أهل بلنسية من أهوال الاحتلال ما لم يعانيه أحد قبلهم ، ذلاً وجوعاً واسترقاقاً ، ومع ذلك فإن سقوط بلنسية لم يكن له من الصدى بين الشعراء ما كان لسقوط طليطلة . وليس بين أيدينا من شعر في المصادر العربية ، يتحدث عنها ، ويعرض لما أصابها غير أبيات قليلة ، أربعة أبيات لابن خفاجة (١٠٥٨ - ١١٣٩ م) ، هي بالوصف الصق منها بالرثاء ، ويبدو صاحبها مسرفاً في الحياء والموضوعية ، لا تنضح بعاطفة ، ولا تتم عن تأثر ، ولا توحى بالمناسبة التي قيلت فيها ، وهي كما تصدق على بلنسية اجتاحتها العدو ، وعبث بجلال أهلها المسيحيون ، يمكن أن تنطبق على أية مدينة أخرى دهمها السيل أو عاثت بها الحرائق قدراً وعلى غير تدبير . وهي أقرب لأن تكون مقدمة طليطلة لقصيدة جاهلية ، تبكى رسوماً دوارس في صحراء مرملة ، من أن تكون رثاء لبلنسية ذات الجنان النضرة ، والحضارة الخضرة ، والمرفاً الزاخر بالحياة وبالناس :

عاثتُ بساحتك الظُّبا يادارُ ومحا محاسنك البلى والنارُ
فلذا تردّد في جنابك ناظرٌ طال اعتبارُ فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوبُ بأهلها وتمخّضت بخرابها الأقدار
كتبت يدُ الحدثان في عرّصاتها لا أنتِ أنتِ ، ولا الديار ديارُ

عجيب أن يكون ذلك رثاء ابن خفاجة لبلنسية موطنه ، وهو الذي وهب مغاني الأندلس شعره ، ووقف على تصويرها فنه ، وعب من لذاذتها حياته ، وتعلق بها أرضاً وماء ، وشجراً وسماء ! .

لكن مرثية أخرى أتصورها رائعة ، لأن صاحبها كان أديباً وشاعراً وعالماً ولغوياً ، ولأن مناسبتها كانت مثيرة وملهمة ، ضاعت في زحام الأحداث ولم يصلنا عنها شيء في المصادر العربية ، حتى ولا مجرد إشارة ، واحتفظت بها اللغة القشتالية نصّاً مترجماً إليها في أقدم مدوناتها .

كان دوزى (١٨٢٠ - ١٨٨٣ م) أول من وقعت عينه على هذه المرثية ، ذلك أن

المستشرق الهولندي العظيم عكف زمناً طويلاً على دراسة ما يسمى في اللغة الإسبانية باسم « المدونة الأولى للتاريخ العام Primera Cronica General » وكتبت فيما بين أعوام ١٢٦٠ و ١٢٦٨ م ، بإشراف ألفونسو العاشر ملك قشتالة ، والملقب بالعالم ، فلحظ أن الجزء الأخير من هذه المدونة ويختص بحياة السيد ، تتسم المعلومات الواردة فيه عن السيد وحصار بلنسية بالإطناب في سرد الحقائق ، والدقة في وصف البيئة الإسلامية في كبرى شرق الأندلس ، وهي خصائص تميز هذا الجزء عن بقية الأجزاء ، وانتهى في دراسته إلى أن الرواية الواردة عن هذه الفترة في « مدونة التاريخ لعام » نُقلت مباشرة من كتاب تاريخ لمؤلف مسلم من أهل بلنسية ، وكتبه في بلنسية نفسها ، في الفترة التي كانت فيها تحت حكم السيد أوزوجه دونيا خمينا ، ثم تتبع صلات القرى بين الأصل العربي والمدونة الأولى للتاريخ العام ، فوجد عبارات عربية التركيب ، في أكثر من مكان ، نقلها إلى اللغة القشتالية مترجم تنقصه البراعة ، قليل الدراية بالتركيب والتعبيرات التي كان يتوخاها المسلمون في الأندلس .

وتشير المدونة صراحة إلى اسم مؤلف تنقل عنه ، تسميه Abenalfarex ، وهو اسم لا يرد في أي من كتب التراجم الأندلسية . وقد انتهى دوزي ، ووافقه من بعد العالم الإسباني الكبير مننديث بيدال ، إلى أن صاحب الكتاب العربي الذي نقلت عنه المدونة هو ابن علقمة ، محمد بن الحلف بن الحسن إسماعيل الصدي ، ويكنى أبا عبد الله ، وتوفي عام ٥٠٩ هـ = ١١١٦ م ، وله أخبار وافرة ، فقد ترجم له ابن الأبار في تكملة الصلة (الترجمة رقم ٥١٤) . ولم يكن شاعراً متقدماً ، ولا كاتباً بليغاً ، غير أن أهم أثر ذكره من ترجموا له تاريخه في تغلب السيد على بلنسية وأسماءه : « البيان الواضح في الملم الفادح » وقد ضاع هذا الكتاب ، فلم يصلنا منه إلا ما نقلته المدونة عنه في اللغة القشتالية ، وإلا بضع صفحات نقلها عنه مؤلفون متأخرون .

لندع دوزي نفسه يقص علينا تجربته مع هذا النص ، يقول : « هذه المرثية ذات أصل عربي دون شك ، لأنها تحمل طابعاً خاصاً يجعل المرء يحكم عليها للوهلة الأولى بأنها تنتمي إلى الشعب العربي ، وفيما يبدو لي ، فإن ابن الأبار كانت عينه على نفس القصيدة

وهو يسجع مراثيته البليغة في بكاء بلنسية عندما سقطت في يد ملك أرجون .
 « جاءت المراثية في « المدونة العامة » مرفقة بتفسير ، وكان ألفونسو العالم مغرمًا بتأليف
 مقطعات من هذا اللون ، ويجوز لي أن أنسبها إلى واحد من الكيميائيين العرب ، وكان
 الملك يحب أن يحيط نفسه بعدد منهم ، وأن يعمل معهم في كتابة مؤلفات مختلفة . غير أننا
 نقرأ على رأس هذه القطعة العنوان التالي : « كلمات الحاجب الفقيه » ، مما يوحي بأنها
 ترجمة لأصل عربي . ويدل على أن ألفونسو كان يعرف من العربية ما يتيح له أن يترجم بدقة
 وبسرعة النصوص النثرية ، ولكنه لا يستطيع أن يفهم الشعر أو يترجمه بنفس المستوى
 ومن المؤكد أنه عندما وصل إلى هذه القصيدة ، وقد وجدها في تاريخ بلنسية أمر واحدًا
 ممن يعملون في بلاطه بترجمتها ، ولسوء الحظ فإن الذي وقعت عليه الترجمة لم تكن لديه
 أية معرفة بالشعر ولغته ، فلم ير في معانيها إلا مجرد إشارات غريبة وغامضة .
 « لم يعثر أحد بعد على النص العربي للمراثية ، ولكن المركز بيدال يعتقد أنه وجده ،
 لا في مخطوط عربي ، ولا في نسخة من المدونة العامة ، وإنما داخل كتاب
 ذي صبغة عالمية ، في ستة أجزاء ، ألفه خوان فرنانديث دي إرديا
 Juan Fernandez de Eredia ، ومخطوطة هذا الكتاب نسخت في Avignon
 خلال عام ١٣٨٥ م ، وتوجد الآن في مكتبة دوق دي أسونا Daque de Osuna ،
 وتضم إلى جانب النص الإسباني للمراثية نصًا عربيًا آخر ، كتب في حروف عادية ، وقد
 نشره بيدال ، واعتقد أن هذا النص العربي هو أصل المراثية ، وعده لونا من الشعر
 الشعبي » .

« وفي البدء اقتنعت بالفكرة ، وآمنت بهذا الرأي ، لأن وجود النص الأصلي للمراثية
 البلنسية سيكون برهانًا جديدًا على ما ارتأيته من أن أخبار المدونة العامة كانت مجرد ترجمة
 لكتاب عربي . ولكنني عندما تأملت الأمر في روية غيرت رأيي ، لأن النص الذي نشره
 بيدال لا يمكن أن يكون من القرن الحادي عشر ، لأنه كتب في عامية منحطة للغاية ،
 مليئة بالأخطاء النحوية والصرفية ، فهو يستخدم كلمة « متاع » بدلا من ضمير الملكية ،
 ومهما يكن من تسامح عرب الأندلس إزاء الشعر الشعبي ، كالأزجال التي أوردها كتاب

« المغرب في حلى المغرب » ، فلا يمكن أن ينتهى بهم الأمر أن يلغوا قواعد اللغة تمامًا في مثل هذا الشعر .

« ومن جانب آخر هذا النص لا يمكن أن يكون شعرًا لأنه ليس مقفى وقد لاحظ مالودى مولينا Malo de Molina وبحق ، أننا إذا اعتبرنا هذه العبارات شعرًا فإنها تنجى على بحور خاصة ، غير معروفة لنا ، لأنها لا تسير على أى من البحور العربية المعروفة لنا ، إني أعتقد أن هذه القطعة ليست شيئًا آخر غير ترجمة لنص إسباني ، تمت في نهاية القرن الرابع عشر ، وفي هدى من نسخة خوان فرنانديث يمكن القول أن الذى قام بها يهودى يعرف اللغة العامية على نحو متواضع ، من خلال رحلاته في العالم الإسلامى ، وإلمامه باللغات المتكلمة هناك »^(١) .

حاول مننديث بيدال (١٨٦٩ - ١٩٦٩ م) أن يدرس الأمر من جديد في ضوء معلومات جديدة ، ففي عام ١٨٥١ م أعلن المركز بيدال أنه يعكف من زمن على دراسة مخطوطة فريدة في مكتبة دوق دى أوسونا تضم النص العربى للمرثية ، في كلمات عربية وحروف لاتينية ، وقام من جانبه بنشر هذا النص غير أن التاريخ الذى أعطاه له كان خاطئًا ، ولأنه نشر النص اعتمادًا على مخطوطة وحيدة فقد جاء مليئًا بالأخطاء ، ولم يستطع المستشرق جيانجوس Gayangos رغم تضلعه في العربية أن يتغلب عليها ، وحاول مالودى مولينا من جانبه أن يكتبها في رسم عربى فذهبت جهوده هباء . وقد وجد مننديث بيدال أن النص الذى عثر عليه المركز لا يوجد في مجموعة التاريخ التى ألفها خوان فرنانديث ، والتي نسخت عام ١٣٨٥ م ، وإنما يوجد في مخطوطة أخرى ترجع إلى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى أيضًا . لقد شك دوزى في صحة وقدم النص العربى لأن العثور عليه لم يكن في مخطوطة عربية ، ولا حتى في نسخة « المدونة العامة » ، ومؤلفوها كما هو معروف كانوا يكتبونها وتحت أعينهم كتاب عربى يصف حصار بلنسية من قبل السيد ، ومن ثم فهم يعرفون نص المرثية . وقد وجدت -- أى مننديث بيدال -- أن المخطوطة التى ظنها

المركز جزءاً من تاريخ خوان فرنانديث ، ليست إلا مخطوطة « المدونة العامة » ، وقد بقي لنا منها القليل مما يشير إلى السيد ، وقد درست بقية مخطوطاتها ، وهما ثنتان ، فوجدت فيهما كليهما نص الميثية العربي ، والمادة المتعلقة بحصار بلنسية . أى أن الميثية توجد في مخطوطات « مدونة التاريخ » الثلاث : الأولى ويرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ومحفوظة في دير الأسكورريال . والثانية ، توجد في المكتبة الوطنية بمدريد ، وترجع إلى النصف الثاني من نفس القرن . ثم الأخيرة ، وتوجد في المكتبة الملكية ، ويرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الخامس عشر^(٢) .

وقفت القضية عند هذا الحد ، دون أن يتقدم أحد بالبحث خطوة أخرى إلى الأمام ، وكان أعقد ما واجه الباحثين معرفة الشاعر الذى أنشد الميثية ، أو تحديد شخصيته في القليل . لأن اسمه يرد في مخطوطات « المدونة » الثلاث بل وفي داخل المخطوطة الواحدة مرسوماً في كل مرة على نحو مخالف ، فهو Alfaraxi ، وثانية Alhugi ، وأخيراً Albataxi ، وهى أسماء مجهولة لنا تماماً ، وغير واردة فيما بين أيدينا من معاجم الأدباء والشعراء ، وكتب الأدب والتاريخ ، لكن الأسماء الثلاثة ترد دائماً مقترنة بأوصاف ثابتة ، فصاحبها فقيه وأديب وشاعر وفيلسوف ومؤرخ ولغوى ، فطن جيد الفهم والتفكير ، أحبه السيد وكان يُكثر من رؤيته ، وعينه حاكما على مسلمي بلنسية ، فوجد أهلها وحافظ على أموالهم .

إلى أن جاء العالم الإسباني الجليل ، المستشرق خوليا ريبيرا Julian Ribera (١٨٥٨ - ١٩٣٤ م) ، وهو أصلاً بلنسى ، فحل طلاس هذه المشكلة المعضلة وكانت وجهة نظره أن هذه الأسماء الثلاثة هى لشخص واحد ، وما بينهما من خلاف إنما هو تحريف من النساخ أو المترجم ، وهو أمر يحدث كثيراً للأسماء العربية ذات الشهرة ، في الكتب الإسبانية القديمة ، فبغداد Bagdad ترد مكتوبة Belcad ، وزبيدة Zobeide زوج هارون الرشيد ترسم Seleyde ومن الجائز أن يحدث هذا لأسماء أقل شهرة ، وأكثر صعوبة

(٢) Menéndiz Pidal: Sobre Aluacxi Y la elogia árabe de Valenicia, en " Homenaje a Codera", P. 393-409.

عند القراءة . ومضى يفتش عن شخص يجمع الصفات التي أشارت إليها « المدونة » ويرد اسمه بها محرّفاً ، وانتهى إلى أنه أبو الوليد الوقشي Abulgualid Aluacaxi نسبة إلى وقش Guacax قرية قريبة من طليطلة تحمل اليوم اسم Huecas وهو بتحريف بسيط يمكن أن يقرأ كما في « المدونة » . فالوقشي Alguacaxi يمكن أن تقرأ الوقشي Alguataxi أو البطشي Albataxi أو الوشي Alhugi أو حتى الفرشي Alfaraxi .

ويرى عكس دوزى ، أن النص الإسباني ليس ترجمة للنص العربي المرافق له ، وإنما هو ترجمة لمفهوم المراثية ، وأن النص العربي المرافق هو ترجمة للترجمة ، وبينى رأيه على أن النص العربي الذى فى « المدونة » ليس شعراً ، والثابت أن المراثية أنشدت من فوق أسوار بلنسية شعراً ، فضلاً عن أنه نثر ركيك للغاية لا يمكن أن يكون أسلوب كاتب عظيم كالوقشي ، بل ولا حتى أسلوب عادى ، وأن الترجمة الإسبانية جميلة ، وخالية من الاضطراب الموجود فى النص العربي . إن كل كلمة عربية وضعت تحت اللفظ المقابل لها فى اللغة الإسبانية حتى لو اصطدم هذا مع بناء الجملة العربية ، فمثلاً إذا كان الفاعل يسبق الفعل دائماً فى اللغة الإسبانية فهو كذلك فى الترجمة العربية على الرغم من أن النظم العادى للجملة العربية أن تبدأ بالفعل ثم يليه الفاعل ثم المفعول ، وبعض المعانى تقتضى دقة التعبير فى الإسبانية التعبير عنها بأكثر من كلمة ، فيترجمها فى العربية كذلك من غير ما ضرورة مثل y no Puede dar Flor يترجمها : « وليس تقدر تعطى نوار »^(٣) وهى عربية ركيكة للغاية لأن كلمة « لا يزهر » تعطى معنى الجملة كلها .

ومن الواضح أن الترجمة العربية قام بها رجل لا يحسن التحدث باللغة العربية ، ولعله كان كاثوليكياً استعان بمسلم يسأله عما يقابل الكلمات الإسبانية من أخرى عربية ، ويكتب ما يمليه عليه فى الحال ، أو لعل الكاثوليكى كان يعرف شيئاً من العربية : بعض الألفاظ ، وتركيب الجملة البسيطة ، وقام بالترجمة مستعيناً فى بعض الحالات بالقاموس ، والترجمة

(٣) انظر الفقرة رقم ١٠ من نص المراثية .

العربية فقيرة للغاية في القواعد واللغة ، ويستخدم المترجم للإضافة لفظ « متاع »^(٤) و « شوى » بدل قليل ، ولا يحسن من أدوات النفي إلا ليس ، ولم يستخدم ولا مرة واحدة أداتى النفي « لا » و « ما » ، مع أنها يستخدمان كثيراً في اللغة العامية ، ولا يعرف العطف بين الجمل ، وإنما يربط بينها على الطريقة الإسبانية .



في ضوء مخطوطات « المدونة » ، الثلاث قام السنيور ريبيرا بكتابة النص العربى المدون في حروف لاتينية بالحروف العربية على النحو التالى :

- ١ - بلنسية بلنسية جاءت عليك كسرة كثيرة أنت في وقت عن موتانك فإن كان يكون قدرك أن تفلت من هذا يكون عجباً كبير لمن يريك .
- ٢ - وإن أراد الله أن يعمل خيراً لموضع خص عن خير جاءك عن يعمله إليك إن كنت أبداً مليحة ومسرورة وبهجة فشئء كان أذكره المسلمين ويشوقه .
- ٣ - وإن أراد الله بالجملة أن كتخسر من هذه المرة يكون عن ذنوبك الكبار وعن الجسر الكبير الذى كان معك بتجبرك .
- ٤ - أوائل أربعة حجار كبار الذى كنت عليها مبنية هايريدوا يجتمعوا عن يعملوا عزاء عنك وليس يقدرُوا .
- ٥ - السور العظيم متاعك الذى بنى هؤلاء الأربعة حجارها يرتج . . . ويريد يقع أن قد خسر القهرة متاعه .
- ٦ - الأبراج العالية متاعك الملاح الذى ظهر من بعيد تسلى الفواد متاع أهلك شوى شوى تريد تقع .
- ٧ - الشرائف البيض متاعك الذى من بعيد كتشرق قد خسرت شرقها الذى كتظهر لشعاع الشمس .
- ٨ - الوادى المليح متاعك الكبير وادى الويار مع الأشياء الآخر الذى كنت منها جيد مخدوم قد خرج من عدو ويمشى ابن ليس كان ليمشى .

(٤) يساوى في العامية المصرية لفظ « بتاع » ومازال مستخدماً في المغرب والجزائر .

- ٩ - سوايك الصافية الذى كثير كنتفع أنت بها كترجعت منكدره وعن نقصان التنقية هي تمشى مال متاع حمى .
- ١٠ - الجنانك الملاح الفاكهة الذى عن حوليك السبع المسعور حفر له الأصول وليس تقدر تعطى نوار .
- ١١ - مروجك الملاح الذى يكون فيها النوار الكثيرة الملاح الذى كياخذ فيها أهلك سرور الكبير هي كانت يبت .
- ١٢ - مرسيك المليح الذى كياخذ أنت منه كرامه الكبيرة يكون ناقص متاع الملاحه الذى كانت تجى منه .
- ١٣ - واقطاع من الكورة الكبار الذى كتسمى سلطانه من قديم النار قد أحرقها وقد يصل إليك الدخان .
- ١٤ - ومرضك الكبير ليس يوجد بدوى والحكماء قد خسروا الياس من مرضك ليس يقدرُوا يدويك .
- ١٥ - بلنسية بلنسية هذا القول الذى قلت عليك قلتها بكسرة العظيمة ما فى قلبى . وتوجد فقرة منفصلة عن النص السابق ، ورسمها بحروف عربية على النحو التالى :
- ١٦ - إن مشيت شمالا يغرقى الماء الكثير إن مشيت يمينا يكلنى الأسد إن مشيت يمينا يمتنى البحر إن رجعت لخلقى يحرقى النار .
- بلنسية هذا قلت أنا لك إني ليس قدرت قلت لعاد الذى أخرب . . . (٥)

لم يكتف مؤلف « تاريخ إسبانيا العام » بالترجمة الإسبانية للمرثية الأندلسية ولا بترجمته ، وإنما أتبع كل فقرة إسبانية بشرح إسباني يوضح المقصود منها ، ولما كانت المرثية تنشر لأول مرة فى العالم العربى . وكانت ترجمتها العربية ركيكة وغير مفهومة ، فقد ترجمت النص الإسباني للمرثية مستعيناً بالشرح الإسباني على توضيح ما قد يكون غامضاً

من الإشارات ، دون تجاوز للنص نفسه ، لأن الشارح كثيراً ما يذهب إلى مفاهيم بعيدة غير مرادة من النص ، ويهمل أخرى واضحة فيه ، لأسباب تتصل باتجاهه السياسى وعقيدته الكاثوليكية :

- ١ - بلنسية ! . . . بلنسية ! . . . مصائب كبيرة تحديق بك ، أنت تحتضرين ، وإذا قُدر لك النجاة ، فسيراها عجباً من يعيش ويراك .
- ٢ -- وإذا أراد الله خيراً لهذا البلد ، فأملئ كبير أن يتولاك برحمته ، فلقد كنت دوماً موطن الجمال والسرمد ، حيث يعيش المسلمون جميعاً فى بهجة ومرتعة .
- ٣ -- وإذا أراد الله أنك تخسرين كل شئ هذه المرة ، فسوف يكون تكفيراً عن خطاياك الكبيرة واجترأتك الأثيمة . وما كنت عليه من تجبر .
- ٤ . العُمد الأربعة التى تنهضين عليها ، يريدون أن يجتمعوا ليهدموها فيحزنوك ، وما هم بمستطعين .
- ٥ . سورك العظيم الذى بنى مع العمد الأربعة ، ترتج حجارته ، ويريد أن يقع بعد أن تضعضع أساسه^(٦) .
- ٦ . أبراجك السامقة الارتفاع ، الرائعة الجمال ، والتى تلوح من بعيد فتدخل البهجة على قلوب أهلك . تقع شيئاً فشيئاً .
- ٧ . شرفاتك البيضاء . تشرق من مسافات بعيدة ، فقدت أمانها عندما بدت لأشعة الشمس .
- ٨ . نهرك الجميل الفياض . نهر الوادئ الأبيض ، وكل المياه الأخرى التى تسقيك بوفر . وتصدر عن ينبوع واحد . تمضى ولا تعود .
- ٩ . سواقيك الصافية التى ينتفع بها أناس كثيرون عادت كدرة ، لا أحد يعنى بنظافتها فتحولت إلى مياه حمئة .
- ١٠ . جناتك الجميلة . من حوائك مهملة ، عبثت الذئاب المسعورة بأشجارها فلم تعد تشمر شيئاً .

(٦) الفقرة لم ترد نرحمتها الأسانية فى النص الذى بين يدي فأصلحتها على مقتضى السياق .

١١ - مروجك الرائعة ، ذات الأشجار الجميلة الكثيرة المثمرة ، يجنى أهلك ثمارها في سرور ، عادت يابسة .

١٢ - مرساك الجميل ، الذي تشرفين به كثيراً أصبح عارياً عن الجمال ، خالياً من السفن الكثيرة التي تعودت أن تجيئ إليه .

١٣ - ضياعك الواسعة ، وكنت تسميها « سلطنة » التهمتها النيران ، ويصلك دخانها عالياً .

١٤ - لا يوجد دواء لمرضك العصي ، والأطباء يائسون . وليس في وسعهم أبداً أن يعيدوا لك صحتك كاملة .

١٥ - بلنسية ! . . . بلنسية ! . . . كل هذه الأشياء التي عدتها لك أو من بها ، قد قتلها وألم أسيف يملأ قلبي^(٧) .

لم تكن مرثية الوقشي الضائعة والمجهولة لدينا تماماً كذلك في عصرها . وإنما كانت بمضمونها وما أحاط بها من ملابسات متداولة بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، وليست « مدونة تاريخ إسبانيا » وحدها هي التي جاءت بها كلها أو بشئ من نصها ، إنما نجدتها شعراً إسبانياً كاملاً ودقيقاً ، في الأغنيات الإسبانية الشعبية ، وبدأت تزدهر في الجانب الكاثوليكي من الأندلس بعد سقوط بلنسية في يد السيد . وجعلت من شخصيته بطلا لا يقاوم ، تنسج حوله الأساطير وتحكي عنه المعجزات ، وهو شعر شعبي لا ينسب إلى قائل فرد . وليس له من صانع غير الشعب نفسه ، وحُفظ شفاهاً بالرواية على طريقة الشعر الجاهلي - عبر أربعة قرون كاملة ، وفيما صاغ حول بطولات السيد احتفظ لنا بنص المرثية الأندلسية شعراً بالإسبانية . وكانت الرواية الشعبية في احتفاظها بالمرثية الأندلسية مترجمة إلى القشتالية ، أصدق تعبيراً في المحافظة على روح الشاعر ، وأقرب إلى النص العربي متصوراً ، من النص النثري الذي جاءت به « مدونة تاريخ إسبانيا العام » ، وقبل

(٧) النص الأساني الذي قمت بترجمته لا يضم الفقرة السادسة عشرة ويوجد في :

Andrés Piles Ibáñez: Valencia Árabe, tomo I, P. 297 ss., Valencia 1901.

أن نقارن بين النصين . يحسن أن أورد النص الشعري مترجماً ، وقد عثرت عليه منزوياً ضائعاً في ديوان يضم قصائد شعرية تحمل اسم « ديوان السيد » :

١ . ٢ - بالنسبة ، بالنسبة !

٣ - إذا لم يحزن الله من أجلك ، وأنت دائماً أهل لأن تسودى ، فإن شرفك سيتضاءل ، ومعه الراحة والهدوء ، وقد تعودنا أن نستمتع بهما .

٤ : عمداً الرئيسية الأربعة . حيث ذهب المسلم ليجلس ، ويكي إن استطاع ، يريدون أن يجتمعوا ليهدموها .

٥ - أسوارك العالية . . . ما أقوى الذين فوقها ! ، كثيرون يقاتلونهم ، ورأيهم جميعاً يرتعشون .

٦ - قلاعك . وقد تعود أهلك أن يتأملوها من بعيد ، وجلالها الرائع الصافي . عودهم أن يتأسوا بها . تتهاوى شيئاً فشيئاً . دون أن يستطيع أحد إنقاذها .

٧ شرفاتك البيضاء . تلعب مثل البللور ، فقدت أمانها ، ومنظرها الجميل .

٨ - وهرج الفياض . نهر الوادي الأبيض . مع مياهك الأخرى ، تفيض من بنايعها .

٩ وجداء لك ذات المياه الصافية ، عادت كدرة إلى الأبد . وعيونك وبنابيعك جفت كلها .

١٠ - جناتك الخضراء المهسلة . لم تعد تثمر شيئاً ، وأشجارها وأعشابها رعتها حيوانات ضالة .

١١ مروجك . ذات المائة ألف زهرة ، لم تعد تعبق بأى أريج ، تتأثر ذابلة وفي عصبية ، بلا لون ولا رائحة .

١٢ الاستغلال الشريف لشاطئك وبحرك ، عاد ملؤه الأذى والفضيحة .

١٣ الجبال والحقول والوديان وقد تعودت أن تأمرها ، دخان حرائقها أصبح يعمى عينيك .

١٤ - داؤك عصي وخطير ، وأمراضك عديدة ، ويثس الرجال من أن يعيدوا إليك صحتك .

١٥ - بلنسية ! ، بلنسية ! لعل الله أراد علاجك ، وفي أحيان كثيرة يعرف سلفا ما نبكي منه نحن الآن^(٨) .

يتفق النصان ، النثرى والشعرى ، في المعنى العام ، ويكمل ، أحدهما الآخر في بعض التفاصيل ، فنص « المدونة » يرى أن ما أصاب بلنسية كان عقاباً لها من الله على ما ارتكبت من آثام ، وهو معنى تكرر في مرثية طليطلة التي وصلتنا مجهولة القائل ، ورجحت أنا اعتماداً على التحليل الداخلي للنص أنها للوقشي نفسه صاحب هذه المرثية ، وقد عرضت لها من قبل^(٩) .

وأغفل نص « المدونة » شجاعة الذين كانوا يقاتلون فوق أسوار بلنسية دفاعاً عنها وعرضت له « الأغنية » ، وأضافت أن مقاتليهم من أعدائهم كانوا يرتعشون على الرغم من كثرتهم ، وجعلت « المدونة » عبث الذئاب المسعورة سبباً في خراب البساتين ، أما الأغنية الشعبية فكانت أكثر واقعية ودقة فعزته إلى رعى الحيوانات الضالة الجائعة فقدت من يُعنى بها .

هل كان الوقشي وحده هو الذي رثى بلنسية ، أم أن آخرين شاركوه نفس الشاعر والأحاسيس ؟ ولماذا غفل التاريخ الأندلسي عن مرثياتهم جميعاً فلم يعرض لها من قريب أو بعيد ، على حين غنى بمرثيات أخرى كثيرة ضاعت أسماء قائلها أو طواهم النسيان ، بينما بقيت قصائدهم نفسها تتردد على كل لسان ؟

التعليل ، فيما أرى ، أن السيد لم يكن غازياً يخيف دولة ، وإن كان قاسياً يرهب مدينة ، لأنه لا يمثل أمة طامعة ، ومطامحه شخصية ومحدودة ، ورغم تحويله لمسجد المسلمين الجامع إلى كنيسة ، تحت ضغط راهب فرنسي متعصب . هو جيروم دي بيريجور فلم يكن هو نفسه يحيا حياة كاثوليكية ، وكان يتكلم العربية بطلاقة ، وبين يديه يتنافس

Romancero del Cid, 207, Barcelona 1884.

(٨)

(٩) انظر ص ٢٢٩ وما بعدها من هذا الكتاب

الشعراء مسلمون ومسيحيون كل بلغته ، ينشدونه قصائدهم التي يتغنون فيها بالحب العذرى ، وعلى الرغم من بطشه بعلية القوم فى بلنسية وقتلهم حرقاً ، كان خط سياسته الواضح يستهدف إرضاء العامة من سكان المدينة واحتواءهم إلى جانبه .

مثل هذا الاتجاه خفف من وقع أحداث بلنسية على المسلمين الأندلسيين خارج المدينة ، ولم يكونوا يرون فيه خطراً عاجلاً أو قائماً ، ومن ثم لا يحظى احتلال بلنسية إلا بإشارات بسيطة فى المؤلفات العربية العامة ، فبينما - مثلاً - يخص عبد الله بن زيرى ملك غرناطة ألفونسو السادس فاتح طليطلة بصفحات ضافية لا يشير إلى فتح السيد لبلنسية إلا فى سطور قليلة^(١٠) لكنه بالنسبة إلى أهل بلنسية نفسها كان خطراً ماحقاً ، فقد لاقى الناس جميعاً خلال حصاره لها أهوالاً من العذاب ، ولقى خاصتها بعد الفتح ألواناً من الذل ، ومن هنا كان أهل بلنسية وحدهم هم الذين بكوها ، وضاع بكائهم فيما ضاع من مؤلفات تدور حول محنة المدينة وسقوطها .

وإذا كانت المصادر العربية ، دون استثناء ، لا تشير إلى القصيدة من قريب أو بعيد ، فالمعلومات التى لدينا عن الشاعر منشد القصيدة ، بعد الاهتداء إليه ، جد شحيحة . وربما كانت أفضل ترجمة له بين أيدينا تلك التى أوردها ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » ، فهو القاضى أبو الوليد هشام بن أحمد الوقشى ، ولد فى بلدة وقش عام ٤٠٨ هـ = ١٠١٦ م ، من محافظة طليطلة ، وتوفى فى دانية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، جنوبى بلنسية ، عام ٤٨٩ هـ ، ١٠٩٦ م . وكان « أحد رجال الكمال فى وقته باحتوائه على فنون المعارف ، وجمعه لكليات العلوم » ، « ضليعاً فى النحو واللغة ومعانى الأشعار ، وعلم العروض وصناعة البلاغة ، شاعراً متقدماً حافظاً للسنن وأسماء نقلة الأخبار ، بصيراً بأصول الاعتقادات وأصول الفقه ، نافذاً فى علم الشروط والفرائض ، متحققاً بعلم الحساب والهندسة ، مشرفاً على جميع آراء الحكماء ، حسن النقد للمذاهب » .

وكان فى بلنسية عندما احتلها السيد ، وتولى رئاسة القضاء على أيامه ، وتخرج على يده

(١٠) عبد الله بن زيرى ، مذكرات الأمير عبد الله ، صفحات ٦٩ وما بعدها وص : ١٥٧ . طبعة دار المعارف ، بتحقيق لى

جلة من تلاميذ بلنسية وما صاقبها . وكانت له مكانة ملحوظة في المدينة ، لما اتسم به من فضائل أوجزها ابن بشكوال . وقد استطاع أن ينال ثقة السيد وأن يكون موضع تقديره ، ولعل ما كان بين القائد المحتل والقاضي المسلم من ود وتجاوب ، لم يقع عند كثير من المسلمين موقع الرضا ، ولربما كانت الصلة بينهما عاملا من عوامل ضياع شعره وخبره ، ذلك أننا نجد في نهاية ترجمة ابن بشكوال إشارة غامضة لا تفصح عن شيء ، ولكنها تلقى على سلوك الرجل ظلا غير صاف ، يمكن أن يفسر في ضوء ما نعرفه عن علاقته بالسيد ، يقول : « وقد نُسبت إليه أشياء ، والله أعلم بحقيقتها ، وسائله عنها ، ومجازيه بها » . وربما كان مفيدا أن أُلح إلى أن « المدونة العامة » ، وهى فى غير ما نقلت عن المؤلفات العربية تفيض بالخرافات والأساطير ، أفاضت الثناء على الرجل ، وجعلت منه إنسانا ممتازا ودودا ، أخذ بالكاثوليكية فاعتنقها ، وزادت فجعلت منه راهبا لجأ إلى دير كاردينيا ، قريبا من برغش ، وحيث كانت زوجة السيد وبناته من قبل ، وتفضلت عليه باسم مسيحي ، هو خيل دياث Gil Diaz ، ودفن هناك فيه بجوار فرس السيد الشهير . ويقول مينديث بيدال « إن هذا الخبر أسطورة خالصة ، لأن الوقشى توفى مسلما ، ودفن فى بلد مسلم ، وفى تاريخ معلوم للجميع » ، وكان له فى دانية قبر معروف يُزار من قبل أصدقائه وعارفيه .

شعر الاستصراخ والاستغاثة

عادت بلنسية من جديد إلى يد المرابطين ، ولاية أندلسية مسلمة ، وبذهاب هؤلاء ومجيء الموحدين أصبح الأندلس الإسلامي جزءاً من إمبراطوريتهم الشاسعة ، تمتد من طرابلس في الشرق إلى مشارف المحيط الأطلسي ، ومن لشبونة إلى السنغال ، وكان ذلك يلقى على كواهلهم أعباء ثقلاً في الدفاع عن هذه الإمبراطورية المترامية ، وكانت الأندلس من بين مقاطعاتهم أضعف الجبهات وأحفلها بالخطر ، تماسكت بعد توضحيات كثيرة أيام خلفاء الموحدين الثلاثة الأول ، ثم تداعت أيام الرابع منهم ، محمد الناصر بن أبي يعقوب يوسف المنصور ، الذي تولى الخلافة من ١١٩٩ إلى ١٢١٥ م وظهر هذا التداعي في صورة انهيار سريع بعد معركة العقاب^(١) وكانت قاصمة الظهر لدولة الموحدين في الأندلس والمغرب معاً ، فقد خسر المسلمون المعركة ، وحصد الموت أبرياء المقاتلين والمتطوعة ، وبلغ الشهداء عدداً لم تعرفه أية معركة أخرى في تاريخ الإسلام ، حتى أن السائر في ريف المغرب كما يقول ابن أبي زرع كان يقطع المسافات الطويلة دون أن يرى رجلاً ، لأن زهرة الرجال راحت صرعى ذلك اليوم الأسيف .

ويبدو أن الدهول تغشى عقول المسلمين بعدها ، وقد استحسن المقري ، في كتابه نفح الطيب ، أبيات أبي إسحاق إبراهيم بن الدباغ الإشيلي ، لأنها تصور هذه الحالة أفضل تصوير :

وقائلة أراك تطيل فكراً كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر في عقاب غدا سبباً لمعركة العقاب

(١) معركة العقاب وتسمى في الأسبانية معركة Las Navas de Tolosa كانت بين الموحدين وجيوش الكاثوليك مجتمعين من ملوك قشتالة وليون ونبرة وأرجون ، تساعدهم قوات أجنبية ، وكان البابا وراء ترتيب الخطة وجمع كلمة هؤلاء الملوك ومدعم المساعدة ، كما بارك الجيوش الذاهبة إلى ساحة القتال ، وقد جرت المعركة في ١٦ يولية ١٢١٢ م .

فما في أرض أندلسٍ مُقامٌ وقد دخل البلا من كل باب
 بعد معركة العقاب تقاسم ملوك الكاثوليك جبهات الأندلس ، وكان شرقيه من
 نصيب خاتمة الأول Jaime I (جاقمة في المصادر العربية) الملقب بالكونكستادور
 El Conquistador أى الفاتح ، فقد احتل جزر ميورقه ومنورقة وإيبسة ، ثم اتجه
 بعدها إلى بلنسية ، ورابط قريباً منها في عام ٦٣٤ هـ = ١٢٣٧ م ، وأحس أبو جميل
 زيان أميرها أنه لن يستطيع الثبات وحده . فقرر إرسال سفارة إلى أبي زكريا الحفصى
 صاحب أفريقية ، أى تونس الحالية ، يطلب منه العون والنجدة ، وندب لها ابن الأبار
 (أبا عبد الله بن أبي بكر القضاعي)^(٢) . الشاعر والأديب والمؤلف ، صاحب كتاب
 « الحلة السراء » و « تكملة الصلة » و « تحفة القادم » وغيرها .

آثر ابن الأبار أن يكون حديثه عن بلده وطلب الغوث من صاحب أفريقية شعراً ،
 وأفرغ في قصيدته كل ما يملك من شاعرية وفن ليشير بخوة الأمير ، وليبرهن في نفس الوقت
 على أن ما في الأندلس من شعراء ليسوا دون الآخرين قامة . وحتم موضوع القصيدة ألا
 تكون كالمرأى السابقة فأولئك سيكون فحسب ، أما هو فيبكي ويستنجد ، ومن ثم بدأها
 بدعوة حارة إلى الأمير الحفصى أن يدرك الأندلس بجيوشه ، وأن يعينه على النصر في
 معركته . وأن ينقذ دولة الإسلام فيه مما تعانیه :

أدركُ بخيلك خيلَ الله أندلساً إن السبيل إلى منجاتها درساً
 وهبٌ لها من عزيزِ النصر ما التمت فم يزلُ منك عز النصر ملتمساً
 بالجزيرة أضحى أهلها جزراً للحادثات وأمسى جثها تعساً
 وبعد هذه المقدمة القصيرة بدأ يقدم صورة لما يجرى في أرض الجزيرة بعامة : طوقت
 المصائب أهلها ، وأحالت جدهم تعاسة . وتقاسم الروم عقائلها . وعرض لما يجرى في
 بلنسية وقرطبة بخاصة ، مما يئيت كل غيور كمدداً . لقد حل بها الشرك ، ورحل عنها

(٢) انظر ترجمته في

● المقرئ ، نفع الطيب . ج ٢ ص ٥٨٩ - ٥٩٣ . طبعة احسان عباس .

● ابن شاعر الكتني . فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٤٥٠ . القاهرة ١٩٥٣ .

الإيمان ، وحولت مساجدها إلى كنائس ، وخلفت فيها دقات الأجراس نداء المؤذن ، ولم تعد موضعاً للعلم والمدارسه وبكى حدائقها المورقة ، ومرباعها النضرة ، وأيامها الخوالى :

تقاسم الروم .	لا نالت مقاسمهم	إلا عقائلها المحجوبة	الأنسا
وفي بلنسية	منها وقرطبة	ما ينسف النفس أو ما يتزف النفسا	
مدائن حلتها	الإشراك مبتسماً	جدلان ، وارتحل الإيمان مبتسماً	
باللمساجد	عادت للعدا بيعاً	وللنداء غدا أثناءها جرساً	
لطف عليها	إلى استرجاع فائتها	مدارساً للمثاني أصبحت درساً	
كانت حدائق	للأحداق مونة	فصوح النضر من أدواحها وعسا	
فأين عيش	جنيته بها خضرًا	وأين عصر جليته بها سلسا	

ثم عدد ما فعل الطاغية بأرضها ، ليجعله تمهيداً لدعوة الأمير الحفصى إلى الإسراع في عونها : وأن يعي بها من معالم الإسلام ما طمس الأعداء ، كما أحيا دعوة المهدي في أفريقية . ونصر الحق فيها . وقام بأمر الله غير متردد ، وانتصر على دعاة التجسيم ، ويصف رحلته إليه عبر البحر عجلاً . رغم الأنواء والأمواج ، ويعدد مآثر الأمير ، ويمدحه بما كان يوصف به قرناؤه في ذلك الزمان من عزيمة وعدل وإحسان وشجاعة ، في أبيات طويلة تجاوز ثلث القصيدة :

محا محاسنها	طاغى أتيح لها	ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا
نحلا له الجو	فامتدت يدها إلى	إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
وأكثر الزعم	بالتثليث منفرداً	ولو رأى راية التوحيد مانبسا
صلى حبلها	أيها الموفى الرحيم فما	أبقى المراس لها حبلاً ولا مرسا
وأحيى ما طمست	مها العداة كما	أحييت من دعوة المهدي ما طمسا

هذه رسائلها	تدعوك من كذب	وأنت أفضل مرجو لمن يشا
وافتك جارية	بالنجح راجية	منك الأمير الرضى والسيد الندسا
خاضت خضارة	يعليلها ويخفضها	عبابه فتعاني اللين والشرسا

وربما سبحت والريح عاتية كما طلبت بأقصى شدة الفرسا
توم يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص مقبلة من تربه القدس
ملك تقلدت الأملاك طاعته ديناً ودنيا فغشاها الرضا لبسا

ويختتمها منادياً الأمير بأن يقدم ، ففي إقدامه حياة الأندلس ، وإن يرسل لها الجيوش
ويطهرها من الشرك ، ويقتص من ملوكها «الصفير» ، ويومئ إليه أن تكون الجبهة
الشرقية في الأندلس مقصد عونه - وكانت هناك جبهات أخرى كثيرة تحتاج إلى هذا
العون - ومن يدري فلعل نهاية الأعداء تكون على يديه :

يا أيها الملك المنصور أنت لها علياء توسع أعداء الهدى تعبها
وقد تواترت الأنباء أنك من يحيى بقتل ملوك الصفير أندلسا
طهر بلادك منهم أنهم نجس وأوطى الفيلق الجرار أرضهم
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت هم شيعه الأمر وهي الدار قد نهكت
فاملاً هنيئاً لك التأيد ساحتها جرداً سلاهباً أو خطية دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادى قد أتى وعسى (٣)

كان ابن الأبار في قصيدته صادق العاطفة ، يتحدث عن وطنه الكليم ، ويستحث
بالكلمة المنغومة أميراً بعيداً لينقذه ، فجاءت أفكاره مرتبة ونظمه محكماً ، وإن شابه شيء
من صنعة تتمثل فيما تناثر بين أبياته من ألوان البديع ، وخالف من قبله في أشياء اقتضتها
طبيعة الموقف ، فلم يعرض لما درس من ممالك وديار وأمم على طريقة ابن عبدون ، ولم
يجعل الغزو عقاباً لأهلها على معاصي اقترفوها كما صنع رائي طليطلة من قبل ، والوقشي في
رثاء بلنسية على أيام السيد ، ولم ينح على أهله باللائمة ، يتهمم بالقيود ويصممهم

(٣) يوجد النص الكامل للقصيدة في : المقرئ ، نفح التليب ، ج ٤ ص ٤٥٧ وما بعدها .

بالجن ، لأن ذلك لا يخدم هدفه من إثارة الأمير ودفعه إلى نصرته الأندلسيين ، ولأن بلنسية لم تكن سقطت بعد في يد الكاثوليك .

وزاد على سابقه ففصل ما أجملوا ، ولم يقنع بالحديث عن المساجد التي أصبحت كنائس ، وإنما تحدث عن الأجراس التي خلفت دقاتها في المساجد أصوات المؤذنين ، ونعى - وهو الأديب الشاعر - حلق العلم التي توقفت فيها ، وكانت عامرة بالشيوخ والطلاب ، وتشير قصيدته إلى معنى جديد هو تأكيد وشائج القرى والتضامن بين الأندلس والمغرب ، وحق المستضعفين منها أن يطلب العون من الآخر كلما ضيم أو حاق به الخطر . ومن القصيدة كلها يبدو الجزء الخاص بمدح الأمير الحفصي - ويشغل من أبياتها الثلث تقريباً - حافلاً بالصناعة ، واضح التكلف ، لا ينبض بأية أحاسيس حقه أو مشاعر صادقة ، وما كان يتأتى لابن الأبار أن يسلك غير هذا النهج ، فهو غريب عن تونس ، قليل العلم بأحوال أميرها ، لا يعرف من أمره شيئاً ، ولا يربطه به من الود والأحداث ما يثير ويلهم ، ولم يكن وراء رحلته مطاعم شخصية تعود عليه بالنفع وتسوق إليه شياطين الشعر ، وإنما كان رسول وطنه أجاد في تصوير حاله ومأساته ، فلما تجاوزها إلى الأمير قال عنه ما يمكن أن يقوله أى شاعر عن أى أمير ، فهو طلق الحيا ، ماضى العزيمة ، كأنه البدر ، عادل ، محسن ، مبارك هديه ، نور الله بالتقوى بصيرته ، وطهر سيفه ، وصاغ من ساطع النور جواهره . ولعل ابن الأبار عبر البحر طالباً النجدة وهو كاره في دخيلة نفسه ، لأن هذه الفترة من حياة الأندلس كانت قمة ازدهاره الثقافي والعلمي ، فامتلاً الأندلسيون بها زهواً وأنفة وتكبراً ، وأحسوا أنهم أعلم من غيرهم وأقدر ، وأولى بالتكريم ، وأجدر بالعون من غير طلب له ولا إلحاح فيه .

هزت قصيدة ابن الأبار من الأمير عطفه ، وحركت جنانه ، ولشغفه بها وموقعها من نفسه أمر شعراءه بمجاوبتها ، وحقق ابن الأبار هدفه من إنشادها ، فقد تحمس الأمير الحفصي لمعاونة شركائه في الدين ، فأرسل إلى بلنسية أسطولاً مشحوناً بالمال والعتاد والأقوات ، ووصل الأسطول أثناء حصار المدينة ، فحاول النزول في «جراو» ، موضع قريب من بلنسية ، في الرابع من محرم عام ٦٣٦ هـ = ١٨ من أغسطس ١٢٣٨ م ، ولكنه

وجد الموضع حافلا بجند الكاثوليك فأرسل قائد الحملة أبو يحيى بن أبي حفص عمر الهنتاني المعروف بالشهيد إلى أبي زكريا الحفصي يعلمه بالحال ، واتجه هو بالسفن إلى دانية وأرسي فيها في الثاني عشر من محرم ٦٣٦ هـ = ٢٦ من أغسطس ١٢٣٨ م ، وترك لأهلها الطعام والسلاح اللذين كانا يحملهما ، وعاد بالمال لأنه لم يجد مستولا يتسلمه .

استمر حصار بلنسية قائماً ، وكل يوم يزداد ضراوة حتى « نفدت الأقوات واستولى الجوع وضعفت القوى وأكلت الجلود والزقوق » ، وتغشى المسلمين بأس قاتل ، فرأى أبو جميل زيان أمير بلنسية أن يفاوض خاتمة الأول على تسليم المدينة ، وكان رسوله وكاتب العقد هو ابن الأبار ، ونص في الاتفاق على أن يتسلم الملك الكاثوليكي - أو الطاغية كما ينعت ابن الأبار - المدينة سلماً لعشرين يوماً ، ينتقل أهلها أثناءها بأموالهم وأسبابهم . « وأبتدىء بضعة الناس وسُيروا في البحر إلى نواحي دانية ، واتصل انتقال سائرهم برّاً وبحراً ، ودخلها الروم صبيحة الجمعة السابعة والعشرون من صفر ٦٣٦ هـ = سبتمبر ١٢٣٨ م .

وذهبت ، وربما إلى الأبد ، درّة مدن الأندلس ، وكبراها على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

لكن أمل المسلمين في النصر لم يذهب بضياح بلنسية ، فبقى من الشعراء من يستنهض عزائم المسلمين في الأندلس وفي الشمال الأفريقي لاستردادها ، وحفظ لنا المقرئ واحدة من قصائد هؤلاء الشعراء ، طويلة النفس مجهولة القائل ، توجه بها صاحبها إلى أبي زكريا عبد الواحد بن أبي حفص أمير تونس الذي أنشده ابن الأبار قصيدته السابقة ، وهي في تسعين بيت ، وحين درست النص للمرة الأولى انتهيت إلى أن قائلها واحد ، وأن مناسبتها كانت بلنسية ، فالشاعر لا يشير إلى غيرها من نكبات المسلمين العديدة ، التي صحبت أو سبقت سقوط عاصمة شرقي الأندلس وكبرى مدنه ، ثم رجحت على استحياء أن تكون لابن الأبار نفسه ، لتوافق النغم ، وتقارب الإيقاع . فالمناسبة واحدة ، وتوجهها بالنداء إلى رجل واحد ، ومطلع هذه قريب من مطلع تلك ، ونداءات الاستغاثة ، وصيحات الاستنفار قسمة بين القصيدتين ، غير أنني ، في غيبة الشواهد الحاسمة ، لم أقطع بهذه

النسبة . وفي إحدى زيارتي للمغرب ، وترددى على خزانة القصر الملكي الحافلة بكل جليل ونادر من التراث الأندلسي ، اطلعت على مخطوطة ديوان ابن الأبار ، وهى فريدة ووحيدة ، وكانت مجهولة تماماً حتى زمن قريب ، وحين تصفحتها عثرت فيها على القصيدة نفسها كاملة ، وإذن فهى له فعلاً ، ومثله ، ومثلها ، لا يسقط اسمه من الذاكرة فى سهولة ، ولعل وراء إهمال المقرئ نسبتها إلى صاحبها سبباً آخر غير النسيان .

توجه ابن الأبار فى مطلع قصيدته هذه ، وأراها تالية لتلك تاريخاً ، إلى الأمير الحفصى بأن الأندلس تناديه وتأمل أن يستجيب لها ، ويحطم ما بها من طواغيت الصليب ، إنها تستصرخه النجدة وتنتظر من فرسانه مدداً تدفع به أرزاءها ، وأن بلنسية على نأيتها عنه داره ، يرجو المتخلفون بها نصرته ، كما وجد النازحون من أهلها عنده المأوى :

نادتك أندلسُ قلبٌ نداءها	واجعل طواغيت الصليب فداءها
واشدّد بحلبك جُردَ خيلك أزرها	تردد على أعقابها أرزاءها
هى دارك القصوى أوت لايالة	ضمنت لها مع نصرها إيواءها
وبها عبيدك لإبقاء لهم سوى	سبل الضراعة يسلكون سواءها
دفعوا لأبكار الخطوب وعونها	فهم الغداة يصابرون عناءها

ثم يتجه إلى الأمير ، ويمهد لذلك بيت واحد يقول فيه ، إن مصير الإسلام فى الأندلس إلى زوال إذا لم تسعد بفتح جديد يعيد لها ما فقدت ، وأن آمالها تعلقت ببيحي يبقى للإسلام بها حياته ، وعليه أن يستجيب لندائها :

تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا	لم يضمن الفتح القريب بقاءها
طافت بطائفة الهدى آمالها	ترجو بيحي المرتضى إحياءها

ومن الأمير إلى حديث طويل عن بلنسية وما يثيره تذكورها من أحزان وأشجان ، وقد حال الكاثوليك بين أهل المدينة ومعاهدهم التى شبوا فيها ، ومساجدهم ذات المدارس

العامة بالعلم ، وقد أصبحت كنائس تدق أجراساً ، ومصانعها المعطلة تبدو مع الصباح متوقفة خاوية كما لو كان الليل يلفها :

إيه بلنسية ! وفي ذكراك ما يمرى الشئون دماءها لاءها
كيف السبيل إلى احتلال معاهد شب الأعاجم دونها هيجاءها
بأى مدارس كالطلول دوارس نسخت نواقيس الصليب نداءها
ومصانع كسف الضلال صباحها فيخاله الرأى إليه مساءها

ويصف حال الكاثوليك فى بلنسية ، ويقول للأمير إنه سبق أن سمع أنباء بلنسية ، ولكنه يعيدها عليه لعل فى ذلك إنقاذا لبنيها ، ثم يدعو إلى أن يجرد سيفه لفتحها وإخراج الأعداء منها :

عجباً لأهل النار حلوا جنةً منها تمد عليهم أفياءها
مولاي هاك معادة أنباءها لتتيل منك سعادة أبناءها
جرّد ظباك لمحو آثار العدا تقتل ضراغمها وتسبب ظباءها

ثم يتوجه إلى المسلمين جميعاً فيما وراء البحر يدعوهم أن يهبوا لنصرة الأندلس ، فإن العدو يطوقها من أطرافها يبغي الاستيلاء عليها كلها ، وأن استرداد بلنسية وبالتالي شرق الأندلس الشمالى ، يجعل من البحر الأبيض بحيرة عربية :

هبوا لها يامعشر التوحيد قد حان الهبوب وأحرزوا عليها
أولوا الجزيرة نصرة إن العدا تبغى على أقطارها استيلاءها
نقصت بأهل الشرك من أطرافها فاستحفظوا بالمؤمنين نماءها
خوضوا إليها بحرها يصبح لكم رهوا وجوبوا نحوها بيداءها

ويتقل إلى مدح الأمير ، فانتظاره ترقب للفرصة السانحة ويبشر الأندلس الصابر المنتظر بمجيئه ، وأن شفاءه سيكون على يديه ، ويعدد مآثره على نحو ما عهدنا فى قصيدته الأولى : فنوره يضىء الدنيا ، وقوته تخضع لها الملوك الجبابرة ، ويده قابضة على البسيطة ، وأن الأرض والزمان ضاقا عن جلاله ، وهو أعلى من النجوم ، راسخ كالطود ، كريم كالغيث ، نبيل المحتد :

ونحسبها أن الأمير المرتضى مترقبٌ بفتوحها آناها
 بشرى لأندلسٍ تحب لقاءه ومحب في ذات الإله لقاءها
 ملك أمدّ النيرين بنوره وأفاده لألاؤه لألاءها
 وسع الزمان فضايق عنه جلاله والأرض طرا ضنكها وفضاءها
 كالطود في عصف الرياح وقصفها لا رهوها يخشى ولا هوجاءها
 ويختم القصيدة معتذراً للملك بأن أنعمه لا تحصى ، وفضائله لا تعد ، وأن القوافي
 تقف دون تصويرها عاجزة ، ويأمل منه أن يصغى إليها ، وأن يغضى عن هفواتها :

صفحةً جميلاً أيها الملك الرضى عن محكماتٍ لم نطق إحصاءها
 تقف القوافي دونهن حسيرة لا عيها تُخفى ولا إعياءها
 فاعل علياكن تسامح راجياً إصغاءها ومؤملاً إغضاءها

والقصيدة طويلة ، في تسعين بيت ، كثيرة الصناعة من جناس وطباق ، يمل الإنسان
 قراءتها ، واعتمد ابن الأبار في أغلب معانيها على قصيدته الأولى ، واستخدم الكثير من
 إلفاظها ، مثل : مولى ، ورحيم ، وعقائل ، والمدارس ، وحشاشة ، وغيرها ، وزاد
 معاني قليلة اقتضتها طبيعة الأحداث نفسها ، فهو يستحث الأمير الحفصى النصر ،
 ويشكر له إيواء النازحين من بلنسية بعد أن استولى عليها خاتمة الأول ، ذلك أن أسراً
 أندلسية عريقة ، بعيدة الأثر في تاريخ الأندلس السياسى والثقافى قد نزلت أرض تونس
 بعد ضياع مسقط رأسهم ، فوجدت كثرتهم من أهله برا وعطفاً ومواساة ، واضطربت
 الأمور بآخرين فكان حظهم تعساً ، وإقامتهم ضيقاً ، وأشار إلى مصانع بلنسية وقد توقفت
 فشابه صباحها مساءها ركوداً وصمتاً ، وأبرز فكرة أن العدو لن يقنع ببلنسية ، وإنما يطمع
 فى غزو الجزيرة كلها ، وأن إنقاذها منه يبدأ باسترداد ما استولى عليه .

لم تؤد استغاثة ابن الأبار الثانية إلى شئ ، ولا نسمع له بعدها شيئاً عن وطنه ، ويبدو
 أن اليأس أو الخوف ، أو هما معاً ، سيطرا عليه ، فترك الأندلس نهائياً ، ورحل إلى
 تونس ، ولمع فيها كاتباً وشاعراً ومؤلفاً ، وكانت خاتمة حياته مأساة قاصمة ، فقد حيكت

حوله الدسائس ، ووشى به إلى الأمير ، وحكم عليه بالموت قعصا بالرماح ، وسط محرم من سنة ٦٥٨ ، ثم أحرق شلوه ، وأحرقت معه كتبه وأوراق سماعه ودواوينه .

كان سقوط بلنسية من بعد طليطلة بداية انحسار الإسلام أمام جحافل الكاثوليكية الزاحفة من الشمال ، تدعمها المساعدات الأجنبية من كل العالم المسيحي ، ومن ورائها البابا بكل تعصبه ونفوذه وهيبته ، فانهارت الجبهة الشرقية وبدأت قواعدها تسقط واحدة وراء أخرى ، فسقطت مرسية Murcia عام ٦٤٠ هـ - ١٢٤٣ م ، وجيان Jaén وشاطبة Jativa في ٦٤٤ هـ - ١٢٤٦ م ، ولم يكن حظ وسط الأندلس خيراً من شرقية ، فسقطت قرطبة Cordoba ، عاصمة الخلافة القديمة في يد فرناندو الثالث Fernando III وبعدها أصبح الطريق مفتوحاً أمامه إلى إشبيلية Sevilla كبرى مدن تلك الجهة ، وعاصمة الدولة على أيام المرابطين والموحدين ، فحاصرها براً وبحراً ، فانهارت أمام الجوع واستسلمت في ٢٢ من ديسمبر ١٢٤٨ = ٦٤٥ هـ ، وباستيلائه عليها ، إلى جانب قرطبة ، استحق من مواطنيه لقب القديس El Santo ، وهكذا لم يأت منتصف القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، حتى كانت معظم بسائط الأندلس وقواعده الهامة قد سقطت في قبضة الدول الكاثوليكية ، خلال ظروف دامية من المحن والاختلافات والفوضى والشقاء ، وانكشيت رقعة الإسلام في الأندلس ، وكانت تضم على أيام المنصور العظيم ثلاثة أرباع الجزيرة ، إلى حيز ضيق يقع في أواسط جنوبي الأندلس ، فيما بين نهر الوادي الكبير Guadalquivir والبحر في الأندلس ، واستطاعت في كنف المحنة وغمر الفوضى أن توطد دعائمها وأن تطاول التلاشي أكثر من مائتي عام .

وخلال حركة الجزر هذه توقف شعر الاستصراخ أو كاد ، وحل مكانه نثر مسجوع سخيف ، يفتعله الكتاب في الرسائل الرسمية ، طافح بالزينة المفتعلة ، والصناعة المنهكة ، لا يحرك مشاعر ولا يثير انفعالا ، ولا يحسن تصوير الأحداث ، وانكفأت مملكة غرناطة على نفسها تواجه مصيرها بمفردها ، فالمغرب ليس أفضل حالا ، ومصر الساعد في لحظات الشدة لكل العالم الإسلامي خرجت من الحروب الصليبية منهوكة القوى ، ومالبث اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة إليه أن أتى على ازدهارها

الاقتصادى ، وخلا الجو لصغار الأمراء العابثين فى مملكة غرناطة ، يتعاونون مع العدو .
 ويتآمر الابن على أبيه ، والأخ على شقيقه ، ويتقاتلون بجيوش أجنبية ، ويدفعون الجزية
 لأعدائهم عن يد وهم صاغرون ، نعم نلمح بينهم واحدا أو اثنين يبرقان وسط الظلام
 الغامر ، فيحييان موات القلوب ، ويجددن غائر الأمل ، ولكن إلى حين ،
 وهيهات !

وإذا لم يستصرخ الشعراء من حولهم من المسلمين يأساً أو احتقاراً أو جهلاً ، فقد
 وجدت المحن نفسها وكانت فادحة وقاصمة ، من يخلدها فى شعر مُبَلِّغٍ حزين ، وكان
 شاعر النكبة بحق هو : أبو البقاء الرندى ، وسنأتى على حياته ، وندرس نونيته فى الفصل
 التالى .

أبو البقاء الرندى ونونيته فى رثاء الأندلس

○ عصر وشاعر :

جاء أبو البقاء مع آخر أيام الموحدين فى الأندلس ، وعاصر وقعة العقاب^(١) المشثومة على حد تعبير المقرئ ، وجرت عام ٦٠٩ هـ = ١٢١٢ م ، وترد فى المدونات الإسبانية تحت اسم Las Navas de Tolosa ، وكانت هزيمة الموحدين فيها ساحقة ، وأدت إلى طردهم من الأندلس بعد أن ضعفت قوتهم ، وعجزوا عن حمايته ، وتراجعوا أمام النصارى فى شماله ، وتركت صدى أليما على امتداد العالم الإسلامى كله ، وكانت فى حقيقتها لقاء بين المسيحية والإسلام .

كان الجيش المسيحى فيها بقيادة ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، ويضم جنودا من أرجون بقيادة ملكها ، وجاءت نبرة بملكها أيضا ، والبرتغال بفرق من فرسان المعبد ، إلى جانب جماعات من الصليبين الفرنسين والإيطاليين ، ومن وراء هؤلاء جميعا البابا إنوسينسيو الثالث ، يشجع ويخطط ، يهب اللجنة ، ويمنح البركات . وكان يقود الجنود المسلمين الملك الناصر بنفسه ، محمد بن المنصور ، أمير الموحدين ، وبلغ عددهم ستة مئة ألف ، فداخله الإعجاب بكثرة من معه ، وأخطأ التدبير ، فكانت الدائرة عليه ، وخلا بسببها أكثر المغرب من السكان ، واستولى النصارى على أكثر الأندلس ، ولم ينج من الست مئة ألف مقاتل غير عدد يسير جدا ، وعاد الناصر بعدها إلى مراکش ، وفيها مات كمدًا عام ٦١٠ هـ - ١٢١٤ م ، « ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة محمد » .

كانت الهزيمة ساحقة إذن ، وحاول المؤرخون المسلمون أن يتبينوا أسبابها علميا ، فردها

(١) مكان قرب حصن سالم بين جيان وقلعة رباح

عبد الواحد المراكشي في كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » إلى اختلاف قلوب الموحدين ، لأن الأمير تأخر في دفع مرتبات الجند ، وخصوصاً في هذه السفرة ، فخرجوا إلى الحرب وهم كارهون « فبلغني من جماعة منهم ، أنهم لم يسلوا سيفاً ، ولا شرعوا رمحاً ، ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال ، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم ، قاصدين لذلك ، وثبت أبو عبد الله هذا (يريد الناصر أمير الموحدين) في ذلك اليوم ، ثباتاً لم ير لملك قبله ، ولولا ثباته لاستؤصلت تلك الجموع كلها قتلاً وأسرًا .

ويردها الحميري في كتابه « الروض المعطار » ، والمقري في كتابه « نفح الطيب » ، إلى أن الأمير أخطأ التدبير حين أساء إلى الأندلسيين ، وهم العارفون بقتال الإفرنج ، استخف بهم ، وشنق بعضهم ، ففسدت النيات ، وتفرقت الكلمة ، ويضيف ابن خلدون إلى هذا كله سبباً آخر ، وهو خيانة ملك ليون حليف الناصر ، وتخليه عنه في اللحظة الحرجة . أما النصاري ولم يكونوا يحلمون بنصر كهذا فأرجعوا الأمر كله إلى المعجزات : فأحد الرهبان الذين شاركوا في المعركة ، وقاتل فيها ، كان يرفع الصليب ، وتوجهت إليه شتون سهماً فلم تصب منه مقتلاً ، وأحد الفلاحين كان يتقدم المقاتلين يقودهم ويرشدهم ، وبعد أن أدى دوره في المعركة اختفى ولم يظهر له أثر ، وكان الله يرد نيران المسلمين عليهم ، ويذكر المؤرخون الفرنسيون أن النصر يعود إلى عذراء روكامدور ، وجاءت من فرنسا بمعجزة وكانت وراء الانتصار ، وأن الصليب ظهر في السماء طوال أيام القتال ، وأن راهباً شق طريقه وسط الجيش الإسلامي يحمل صليب المطران دون أن يصيبه أذى ، وأن قتلاهم في المعركة يتراوحون بين ٢٥ و ٥٠ قتيلاً ، وأن المئتي ألف مسلم الذين قتلوا في المعركة لم تسح منهم نقطة دم واحدة .

كان أبو البقاء في الثامنة من عمره تقريباً حين حدثت وقعة العقاب ، وليس ثمة شك أن صدى المهانة التي لحقت بالمسلمين ظل يتردد بعدها لسنوات طويلة ، وأن فداحة أحداثها اختلطت مع الأيام بالأساطير والقصص ، وتسرب ذلك كله إلى أعماقه ، فكان إحساسه وجيله بالمأساة ألماً فادحاً ، وزاد من قسوة ذلك أنها كانت الخطوة الأولى في طريق طويل انتهى بسقوط دولة الإسلام في الأندلس .

وشهد في شيبته أبا عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي يحاول في مدينة مرسية وما حولها عام ٦٢٥ هـ = ١٢٢٧ م ، أن يجمع شمل المسلمين ليواجه بهم النصارى في الشمال ، فلم يسعفه الحظ ، ولم تواته الفرصة ، وفي ذلك الوقت كان القشتاليون يقيمون زعيمًا مسلمًا ليحارب زعيمًا آخر مسلمًا أيضًا ، فيتحطم الاثنان معًا ، فوضعوا ثقلهم إلى جانب محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ، وهو عربي أصيل ، من قبيلة الخزرج الشهيرة في المدينة ، فأقام لنفسه دولة حول غرناطة ، أتيح له فيها إلى حد ما أن يُحيي عظمة إشبيلية على أيام بني عباد ، وظلت غرناطة على مدى قرنين ونصف من الزمان حامية حمى الإسلام في صراعه الدفاعي ضده قوة المسيحية الصاعدة في الأندلس .

وأمضى أبو البقاء زهرة حياته في عهد الأمير محمد (١٢٣٢ - ١٢٧٣ م) ، وكان يلقب بالغالب بالله ، وهو الذي أسس الدولة ، وأقام دعائمها ، وجعل غرناطة عاصمتها ، وبني الحمراء ذات الشهرة العالمية على أنقاض قلعة أموية قديمة ، وعاصر شيخًا تجاوز السبعين من عمره اللقاء الحاسم بين الأندلسيين والمرينيين من جانب ، والقشتاليين بقيادة دون نونيو دي لارا Don Nuno de Lara صهر ألفونسو العاشر الملقب بالعالم ، ملك قشتالة ، من جانب آخر . وكان المسلمون بقيادة السلطان المريني أبي يوسف يعقوب الذي باشر القتال بنفسه وجعل ابنه على المقدمة ، وكان انتصار المسلمين في الموقعة حاسمًا ، أعاد إلى أذهان الأندلسيين ذكريات موقعتي الزلاقة والأراكة المجيدتين لقد هزموا الجيش القشتالي ، وتشتت جنده ، وقُتل قائده ، ولكن ما عجز القشتاليون عن تحقيقه في ميدان الحرب حققوه عن طريق الدسيسة في مجال السياسة ، فأوقعوا بين الأميرين الغرناطي والمريني ، غير أن عقلاء المسلمين سرعان ما انتبهوا إلى الأمر ، وتجاوزوا دفاعًا عن وجودهم عما وقع بين الأميرين من خلاف ، وتفاهم المغاربة والأندلسيون ، وأصبحت مالقة قاعدة لبني مرين ، ومحطًا لقواتهم التي تعبر إلى الأندلس مجاهدة ، ونزحت مجموعة من خيرة المغاربة للإقامة فيه لتكون على أهبة الاستعداد دومًا ، ودخلت التاريخ تحت اسم مشيخة الغزاة ، وكان رئيسها يعرف باسم « شيخ الغزاة » .

ومع ذلك يؤخذ على محمد الأول مؤسس مملكة بني نصر ، أنه كان يذهب في مهادة

النصارى واتقاء شرهم حداً مهيناً ، يدفع لهم الجزية ، ويأخذ رضى صاحب قشتالة فيما يفعل ، ويعينه بالجند والسلاح حين يقاتل غيره ، وفى سنة ٦٤٣ هـ = ١٢٥٤ م صالح ملك قشتالة ، وعقد معه معاهدة سلم تنازل بمقتضاها عن عدد من المدن والحصون والقلاع ، من بينها جيان ، وشريش ، والقلعة ، والمدينة ، وغيرها .

فإذا تركنا الحرب والسياسة إلى الفكر والأدب والثقافة ، وجدنا الموحدين يقفون إلى جانبها ، ويشجعون عليها ، وإن اهتموا بالعلوم العملية والفلسفية بخاصة ، فازدهر الطب على أيامهم ، وأنشأوا المدارس الحربية ، وعرف الأندلس عدداً من علماء النبات ، وشهدت الفلسفة أوج عصرها ، أنه العصر الذى عاش فيه ابن باجة وابن طفيل وابن رشد ، ومن بين أروع ما حققوه فى هذا المجال وسبقوا إليه الدعوة إلى التزام الفكر بمنهج فكرى معين ، يصدر عنه فيما يقول ويعتقد ويدعو ، لا يحيد عنه مع الهوى ، ولا يميل به مع الريح ، فقد أخذ علماء الأندلس ، فيما يروى بن خلدون على الغزالي ، « أنه خلط النهاية بالبداية ، فصارت كتبه أقرب إلى التضييل منها إلى الهداية » ، ويزيد ابن طفيل الأمر تفصيلاً فيقول : « وأما أبو حامد فإنه مضطرب التأليف ، يربط فى موضع ويحل فى آخر ، ويتمذهب بأشياء ويكفر بها »^(٢) ، ويأخذ عليه ابن رشد أنه « لم يلتزم طريقة فى كتبه ، فزاه مع الأشعرية أشعرياً ، ومع المعتزلة معتزلياً ، ومع الفلاسفة فيلسوفاً ، ومع الصوفية صوفياً ، حتى كأنى به :

يوماً يمانٍ إذا لاقيتَ ذا يمنٍ وإن لقيتَ معدياً فعدنان »^(٣)

وبقى الأدب فى الذروة فناً ، وإن أدى به الترف إلى الانحطاط فى بعض ما عالج من موضوعات ، وانهارت سلطة الفقهاء على أيام الموحدين ، ومنعوا جملة من التدخل فيما لا يعنيه من شئون الدولة ، ثم أخرجوا من الأندلس^(٤) ، غير أن الإسلام الأندلسى ،

(٢) فصل ابن طفيل اتهامه هذا ، ومن أرادته كاملاً فليرجع إلى : ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٦٥ ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ .

(٤) لدراسة هذه القضايا تفصيلاً يمكن العودة إلى : الدكتور حكمة على الأوسى ، الأدب الأندلسى فى عصر الموحدين ، القاهرة

على حد تعبير غرسية غومث ، « كان يأكل آخر زاده »^(٥) .
 واختلفت مملكة غرناطة في هذا المجال عما سبقها ، فقد غادر الأندلس كثيرون قبل قيامها ومعه ، تناثروا في أفريقية أو المشرق ، يبحثون عن الأمن وراحة البال ، أو يطلبون الشهرة ونباهة الذكر ، وجاءها مئات آخرون من العلماء والفقهاء والأدباء ، وفدوا من مختلف المقاطعات التي سقطت في يد النصارى ، ولكن الأندلس كان قد أوفى على غايته ، إجادة وإبداعاً وأصاله ، فظلوا يعيشون على تراث الأعصر الذهبية ، يفصلون الجميل ، ويحملون المبسوط ، ويحررون الهوامش على الشروح ، وأصبح الشعر بعامة « معانيه شاحبة ومعروقة » ، غير أن أشكاله الرائعة لم يصبها أى تلف . نعم ، لم يبق ثمة عسل في الشهد ، ولا زهور حوله ، ولكن بعض نخلات تخلفت ، تمسح الخلايا الفارغة وتلمعها ، على نحو لم يحدث يوماً^(٦) ، وكان أبو البقاء واحداً منها .

جاء أبو البقاء واسطة العقد بين جيلين من الشعراء : مجموعة سبقته تنسب إلى عصر الموحدين ، وأبرز شعرائها أبو جعفر بن سعيد وحفصة الركونية ، وعرضنا لهما في موضع آخر من هذا الكتاب ، وأبو بكر بن زهر ، المتوفى ٥٩٦ هـ = ١١٩٩ م ، واشتهر وشاحاً أكثر منه شاعراً ، وأبو بحر صفوان من إدريس ، صاحب كتاب « زاد المسافر » والمتوفى عام ٥٩٨ هـ = ١٢٠٢ م ، وآخرون كثيرون مقلون شعرا ، أو ضاع إبداعهم مع الزمن ، أو في مرتبة غير عالية منه . وبين طبقة أخرى تلت ، وكان لها طابع أنغامه في الموسيقى ، وتلتقى معه في عدد من الموضوعات دارت حولها قصائدهم ، وفي مادة التصوير نفسها ، بعضهم يقف معه على خط واحد ، والآخرون سبقوه ، على الأقل في ضوء ما وصلنا من شعره ، وهم ليسوا كثيرون على أية حال ، ونجى في مقدمتهم ابن خاتمة شاعر المرية ، وخصته المستشرقة الإسبانية الفاضلة الدكتورة سوليداد خيبرت Soledad Gibert بدراسة عميقة

(٥) الشعر الأندلسي الترجمة العربية ، ص ٦٥ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٦ .

(٦) غرسية غومث ، مع شعراء الأندلس والنتى ، ترجمة د . الطاهر أحمد مكي ، ص ٢٢٨ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ،

وجيدة ، وترجمنا نصها إلى العربية في هذا الكتاب ، وابن زمرك^(٧) ، وابن الخطيب أخيراً ، وبعد هؤلاء الثلاثة بدأت شمس الشعر الأندلسي ، مع دولة الإسلام نفسها ، تنحدر نحو الغروب .

أما الذين عاصروهم من الشعراء فعلاً فهم : أبو عبد الله محمد بن أدریس المعروف بمرج الكحل ، المتوفى عام ٦٣٤ هـ = ١٢٣٦ م ، وابن سهل الإشبيلي ، المتوفى عام ٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م ، وعلى بن سعيد المغربي ، المتوفى ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ م ، وكان إلى جانب الشعر مؤرخاً ومؤلفاً ، وثمة آخرون كانت تصطبغ بهم الحياة في إشبيلية ، عاصمة الموحدين ، وأرجح أنه التقى بهم ، أو ببعضهم في الأقل ، ورنده لا تبعد كثيراً عن إشبيلية . وعاصر أيضاً ابن الأبار الشاعر والمؤرخ ، وصاحب قصيدتي الاستصراخ اللتين عرضنا لهما من قبل ، ولا أظنها تلاقيا ، لأن ابن الأبار من بلنسية ، وفارق الأندلس إلى تونس مع سقوط مدينته في يد النصارى عام ٦٣٦ هـ = ١٢٣٨ م ، وأرجح أن أبا البقاء عرف قصيدته ، إن لم نقل الكثير من شعره ، وأنه استوحاهما في نونيته التي سنعرض لها فيما بعد .

○ مصادر دراسته :

حتى زمن قريب كان أبو البقاء الرندي شاعراً مغموراً لا يتحدث عنه الناس إلا حين يذكرون نونيته ، فإذا تحدثوا وقفوا عندها معجبين متأثرين أو ناقدين مقومين ، أو محللين يستخرجون النتائج والأسباب ، ولا يتجاوزونها إلى حياته نفسها لأنهم لا يعرفون عنها إلا القليل . وربما كان المقرئ مسئولاً عن هذا إلى حد بعيد ، فرغم أنه أورد قصيدته كاملة ، في كتابيه نفح الطيب ، وزهر الرياض ، ونقل عنه أبياتاً أخرى متفرقات ، وجاء له بقصيدة ثانية مطولة ، لم يشر إلى حياته بحرف واحد ، وحين يسكت المقرئ صاحب الموسوعة الأندلسية الكبرى يختدى الناس خطاه مسلمين .

(٧) : بما كانت أفضل دراسة لاس زمرك . حتى هذه اللحظة . هي التي قام بها غرسية غومث ، وترجمناها إلى العربية ، انظر : مع شعراء الأندلس والذين . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٨ .

كان المؤرخ المصرى الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان أول من حاول أن يمزق حجب الصمت حول هذا الشاعر الأندلسى ، فتحدث مطنبا عن عصر الرجل ، وموجزا عن حياة الشاعر ، فى الجزء الأول من كتابه « نهاية الأندلس » ، وهى خطوة كان من الضرورى أن تتلوها خطوات ، فى ضوء ما ينشر من مخطوطات كانت مغمورة ، أو ينتهى إليه البحث العلمى من كشوفات ، غير أن الأمر وقف عند دراسة الأستاذ عنان ، ولم يتجاوزه أحد ، إذا استثنينا تعريفا موجزا بالشاعر ، وتعليقات مفيدة على قصيدته ومؤلفاته ، أتى بها الباحثة المغربى الأستاذ عبد الله كنون ، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهو يعرف بكتاب أبى البقاء « الوافى فى نظم القوافى » ، فى مقال له بصحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد^(٨) .

والترجمة الوحيدة الوافية نسبيا لأبى البقاء ، أوردها ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة فى أخبار غرناطة ، المجلد الثالث بتحقيق محمد عبد الله عنان ، ونشر فى مصر للمرة الأولى عام ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م ، واعتمد فيها ابن الخطيب على جانب مما أورده ابن الزبير ، المتوفى عام ٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ م ، فى كتابه « صلة الصلة » ، وعلى ابن عبد الملك ، المتوفى عام ٧٠٣ هـ = ١٣٠٥ م ، فى كتابه « الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة »^(٩) ، وأتى على أخبار تتصل بحياته ، وبمقتطفات عديدة من شعره ، لا نجد لها فى نسخة الذيل التى بين أيدينا . لأن ترجمة أبى البقاء فيها غير كاملة . سقط آخرها . وعدد آخر بعده من التراجم^(١٠) .

(٨) المجلد السادس . ص ٢٠٥ - ٢٢٠ . عام ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .

(٩) الكتاب فى ثلاثة أجزاء . نتم لى بروفيسال الجزء الثالث منه . فى الرباط عام ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ . وهو متور الأول . وعثر أخيرا على هذه الأوراق المبتورة . وأوراق من الوسط والآخر . فى مكتبته القرويين بفاس ، وتحمل غيبس الكتاب على الخزانة . ونكته احتلت بها من القمصى والاستبداد . وتحمل هذه الأوراق تاريخ نسخ الكتاب وهـ ٦٩٧ - ١٢٩٧ م . أى فى زمن المؤلف . ولا يستبعد المؤرخ المغربى عبد السلام بن سودة المرى أن تكون نخط المؤلف ذاته . وبه حد يدار الكتب المصرية النصف الأول من الجزء الثانى عطفه لما

الكتاب . ص ١٤٠ من نسخة . دليل مؤرخ العرب الأقصى . ج ١ ص ٢٧٧ . الطبعة الثانية . الدار البيضاء . ١٩٦٠ م .

(١٠) توجد مخطوطاته موزعة على عدد من مكتبات العالم . ومن سنوات بدأ الدكتور احسان عباس فى نشر ما تيسر له منها ، نشر السبع الخامسة كتابا . والقسم الثانى من السفر الأول بتحقيق الدكتور محمد شريف . وقسم من السفر الرابع .

○ حياته :

نعرف مما أورده لنا ابن الخطيب أن أبا البقاء ولد في محرم من سنة ٦٠١ هـ = سبتمبر ١٢٠٤ م ، وتوفي عام ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م ، يذكر ذلك صراحة ، وليس مع النص اجتهاد ، أى أنه عاش قريباً من اثنين وثمانين عاماً ، أدرك معها أوائل إمارة محمد الثاني ، وطالت حياته حتى لامست القرن الثامن الهجري ، وشهد من الدولة أيام استقرارها ، وإن لم تكن على ما يتمنى لها الأندلسيون من القوة والثبات .

واسمه كاملاً ، اعتماداً على ابن الخطيب أيضاً : صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف النفري ، ويكنى عنده أبا الطيب ، ويكنيه المقرئ أبا البقاء ، وهى الكنية التى اشتهر بها ، وشرقت وغربت رفق نونيته . ويبدو أن له أكثر من كنية ، ولم يكن وحيداً فى هذا ، فقد أشار ابن الخطيب إلى والده فى موضعين ، كناه بأبي الحسن فى واحد ، وكناه بأبي خالد فى الثانى منهما : ونعرف من هذا النسب أنه نفري ، ونفزة قبيلة من البربر ، ولكنها تذهب بأنسابها إلى حمير فى اليمن .

ونعرف من لقبه أنه من رندة ، وهى مدينة قديمة ، على قمة جبل مرتفع ، بها آثار كثيرة ، ويشقها نهر ينسب إليها ، وتحيط بها الوديان من كل جانب ، وأتاح لها ذلك كله أن تكون فى أحوال كثيرة شبه مستقلة ذاتياً ، وقامت فيها خلال عصر الطوائف ، كغيرها من كبريات المدن وإن لم تكن كبيرة ، إمارة مستقلة على رأسها بنو إفران ، وهم ينحدرون أيضاً من أصول بربرية ، ودام حكمهم لها عشرين عاماً . وخلال الدولة النصرانية كان هناك من يلوذ بها ثائراً أو هارباً أو متوثباً ، ومن بين كل مدن الأندلس لما تزل تحتفظ فى حاضرها المعاصر بروح عربي واضح ، فى المباني والشوارع وحياة وأخلاق الناس ، وزرتها أكثر من مرة ، فما أحست بما أحس به المتنبي قبل أكثر من ألف عام وهو يزور شعب بوان .

وحياة أبي البقاء ، حتى وهو في طور الرجولة ، وتحت أضواء الشهرة ، تجي غامضة ومجملية ، فلا نعرف شيئاً عن أسرته ، أبيه وأسلافه من قبل ، ولا عن بنيه وزوجه ، والحنان العائلي غائب في شعره تماماً ، ونعرف من الإشارة إلى شيوخه ، وسنعرض لهم فيما بعد ، أنه أمضى شطراً من صباه في إشبيلية يدرس على الدباج وابن الجلد ، وأقام بمالقة زمناً درس فيه على ابن الفخار الشريشي ، وقرأ على ابن الزبير صاحب كتاب « الصلة » ، وتلقى العلم في غرناطة على ابن قطرال وابن زرقون ، وظل يتردد على عاصمة الإمارة حتى بعد أن نضج وتجاوز مرحلة الطلب ، يسترفد ملوكها ، وينشد أمراءها ، ويذكر أبو عبد الله اللوشي ، شيخ لسان الدين بن الخطيب ، أنه نظم قصيدته التي مطلعها :
أواصلتي يوماً وهاجرتي ألفاً وصالك ما أحلى ، وهجرك ما أجفا^(١)

باقترح السلطان يعارض قصيدة ابن هاني ، وأمره ألا يخرج من بساتين القصر الملكي قبل أن يكملها . وقد جاء في طالعة كتابه « الوافي في نظم القوافي » : « قال الشيخ الجليل ، الفقيه القاضي أبو الطيب . . . » ، واستنتج منها العالم المغربي الأستاذ عبد الله كنون أنه ولي منصب القضاء ، ولا أراه حتماً ، فقد يلحق به اللقب وجاهة ، أو لأن الذين حوله يقصدونه لحل مشاكلهم إخاءً ووداً ، دون أن يكون قد ولي المنصب رسمياً .

ونذكر من أشعاره أن حياته لم تكن سهلة ميسرة ، ولا تسير على وتيرة واحدة ، وإنما تعاورتها لحظات سعيدة وأخرى مضيئة ، وتوارد عليه النجاح والإخفاق فتغزل سعيداً ، وشكا الليل مهموماً ، وألغز في أشعاره خلى البال يتسلى . ونفهم من شعره أنه كان يتردد على السلطان محمد الغالب ويمدحه ، وأن جفوة قامت بينهما ، وأنه ابتعد عن البلاط النصري زمناً ثم عادت الأمور إلى طبيعتها ، واتصل مديحه من جديد :

نأيت عنه اضطراراً ثم عدت له كما اقتضى السبرمان الحل والسفر
فإن قضى الله أن يقضى به أملى فحسبي المحسبان الظل والثر

(١٢) وهي قصيدة طويلة ، وأوردها ابن الخطيب كاملة ، انظر : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ . والمقرة الحامسة بشعر أبي البقاء من هذه الدراسة

ويبدو أنه تغرب كثيراً ، ونلمح هذا واضحاً في شعره ، وسنعرض له حين نتحدث
عن شاعريته ، وتعرض لأزمات مالية قاهرة ، وعانى من الفقر أشده ، وتمنى الموت على
حياة هذه حالها ، واكتشف أن المال يستر العيوب ، وأن الفقر يكشفها :

وقد لذ الحمام وطابَ عندي وعيشي لا يلدُّ ولا يطيبُ
لَحَى الله الضرورةَ فهي بلوى تهين الحرَّ والبلوى ضروب
رأيتُ المالَ يسترُ كلَّ عيبٍ ولا تخفى مع الفقرِ العيوب
وَفَقَدُ المالُ في التحقيق عندي كَفَقَدِ الروحُ ذا من ذا قريب

وهي غربةٌ ليس مردّها أيام الطلب في إشبيلية أو مالقة ، وإنما جاءته أواخر حياته فيما
يبدو ، لأننا نجده في القصيدة نفسها يحن إلى الصبا ، وإلى الشباب على السواء ، وأثارها
في نفسه حادث لم يفصح عنه :

ومما هاجَ أشواقَ حديث جرى فجري له الدمعُ السكوبُ
ذكرتُ به الشبابَ فشقَّ قلبي ألم تر كيف تنشقُّ القلوبُ
على زمن الصبا فليكن مثلي فما زمنُ الصبا إلا عجيب
جهلتُ شيبتي حتى تولتُ وقد رُ الشئ يُعرفُ إذ يغيب

ويبدو أنه كان في غربته يلتمس عيشاً أفضل لم يبلغه ، وحياة أطيب لم تواته ، فهو
يعتذر لنفسه بأنه لم يدع من جهده شيئاً ، وأن أمور العيش لا تخضع لمنطق ولا تجري على
قياس ، وأن العاقل بها لاحظ له ، كأنها تعادي كل أريب ، وأن الحظ وراء كل نجاح ،
ومع غيبته تصبح حسنات المرء سيئات :

وقد أجهدتُ نفسي في اجتِهَادٍ وما إن كلُّ مجتهدٍ مصيبُ
وقد تجرى الأمور على قياسٍ ولو تجرى لعاش بها اللبيب
كأن العقلَ للدنيا عدوُّ فما يقضى بها أرباً أريبُ
إذا لم يُرزق الإنسانُ بحُتاً فما حسناته إلا ذنوبُ

ولكن . . أين كانت غربة أبي البقاء هذه ؟ لم يفصح عنها ، غير أننا نعرف أنه عاش
في مدن مملكة غرناطة الكبرى كلها ، إشبيلية ومالقة وغرناطة ورندة ، طالباً أو ناشئاً أو

مترددا ، وفي كل الحالات كان يتحرك رجلاً على رقعة صغيرة في أيامه ، هي كل ما بقي للمسلمين في الأندلس ، ولا يعد معها في حركته غريباً يشكو ، أو نائياً يحن ، لأنها في أقصى أطرافها على مسافة أيام قليلة من أى مكان يشاق إلىه . وقد نفهم من اعتذاره للسلطان في أبيات سبقت بأن الغربة هي التي نأت به بأنه كان خارج بلاده ، وهو ما يمكن أن نفهمه أيضاً من الأبيات التالية يتحدث فيها عن نفسه غريباً يحن إلى بلاد لا يضيع بها الأديب ، رائقة الطبيعة ، طيبة الهواء ، خلف فيها حبه وقلبه ، وإذا استثنينا هذا الأخير ، فبلاد الأندلس كلها سواء في ألوان الطبيعة وتقدير الأديب :

ألا ذكر الإله بكل خير بلاداً لا يضيع بها أديبُ
بلادٌ مأوها عذب زلالٌ وريحُ هوائها مسك وطيبُ
بها قلبي ، الذي قلبي المعنى يكاد من الحنين له يذوبُ

أين كان إذن ؟ بدءاً أستبعد أنه ذهب إلى الجانب المسيحي من الأندلس ، رغم أن العلاقات السياسية بين غرناطة وجيرانها كانت في فترات كثيرة قوية ومسالمة ، والجزية التي كان يدفعها محمد الغالب لقشتالة جعلت منه تابعاً لها من حقه أن يكون عضواً في برلمانها ، (الكورتس Cortes) ، ومن حقه أن يحضر اجتماعاته ، ورغم أن هذه البلاد كانت حتى تلك اللحظة عامرة بالمسلمين الذين حملوا اسم المدجنين Los Mudejares ، ويسهمون بنشاط فعال في حركة الحياة اليومية ، من اقتصاد وزراعة ومعمار وفن وثقافة ، بعيداً عن السياسة ومشاكلها ، لأن قصيدته هذه ، وواقع حياته بعدها ، لا يشي بشيء من هذا على الإطلاق .

لم يسبق إذن إلا أن نفترض أنه عبر المضيق إلى العدو الأخرى ، إلى مغرب بني مرين ، أرجح هذا حدساً وليس معي من الوثائق ما اعتمد عليه ، ولا من الإشارات ما يدعم ظني ، غير ما استنطقته من أبياته السابقة ، ومن ظاهرة أخرى لا أجد لها ، ولم يجد غيري ، تفسيراً ، وهي أن نونية أبي البقاء ، وفي مجملها إدانة لحكام الأندلس وتخريض عليهم ، لم ترد ، كما سنرى ، في أى مصدر أندلسي رغم شهرتها ، وكان كتاب الذخيرة السنية ، في تاريخ الدولة المرينية ، العبد حقية « المصدر الوحيد الذي جاء بها كاملة ، وهو

كتاب مغربي مؤلفا ومادة ، وعنه نقلها المقرئ التلمساني ، وهو مغربي أيضا . أتراه باح بها هناك ألما ممضا لم يستطع أن يتفوه به هنا ؟ ربما . ومع ذلك ، فما أراه مجرد ظن ألقى به ، دار بخاطري ، لم أستطع له طردا ولا نفيا ولا تأكيدا ، وأدع الوثائق ترجح أو تؤكد في قابل الأيام أحد الاحتمالين .

وصفوة القول في أبي البقاء ، أوجزها لنا ابن الزبير ، وكان أستاذا له على نحو ما : « كان في الجملة معدودا من أهل الخير ، وذوى الفضل والدين » ، ويضيف ابن عبد الملك : وكان نبيل المقاصد متواضعا ، مقتصدا في أحواله .

○ شيوخه :

يلعب الأستاذ دورا كبيرا في حياة الطالب ، توجيهها نحو منهج محدد ، وترغيبا في مادة معينة ، وإثارا لسلوك خاص ، وذلك حين يملك الأستاذ وسائل التأثير من العلم والاستقامة وحب الطلاب ، يكون أهلا للاحتذاء ، وأراه مفيدا هنا أن نعرف شيئا عن شيوخ أبي البقاء ، وقد جهلنا الكثير عن حياته ، وسنلمح من سلوكهم ، ومن مواقفه وإبداعه ، أنهم تركوا فيه أثرا باقيا .

أورد لنا ابن الخطيب طائفة من شيوخ أبي البقاء ، ولا نعرف على التأكيد إذا كان قد جاء بهم على سبيل الحصر ، أو جاء بالكبار منهم إجمالا ، ولم يقدم لنا ماذا درس هؤلاء ، وماذا تلقى الطالب على أيديهم من مواد ، وأول ما يذكر منهم أبا الحسن يزيد ، والد أبي البقاء ، وهو أمر بدهي ، ولكنني لم أجده ذكرًا في أي من المصادر الأندلسية الأخرى ، ويبدو أن مشيخته لابنه اقتصرت على تعليمه الابتدائي ، مما درج الأطفال في الأندلس على تعلمه في الكتاب ، على يد معلم خاص ، أو من آباءهم أنفسهم ، إذا كانوا على شيء من ثقافة ، وهو ما لا يعدو القراءة والكتابة وتجويد الخط ، وحفظ أجزاء من القرآن الكريم ، وشيء من الشعر ، وقليل من النحو .

والثاني من شيوخ أبي البقاء هو الدباج ، هكذا ذكره ابن الخطيب ، دون كنية تسبقه أو لقب يلحق به ، ولكنه لا ينصرف حين ينجى هكذا إلا إلى أبي الحسن علي بن جابر

اللخمي الإشبيلي ، وُلِدَ سنة ٥٦٦ هـ = ١١٦٩ م ، وكان علماً في إشبيلية ، أديباً وعالمًا وصالحاً ، وأماماً في فنون العربية ، يقرئ كتاب سيوبه ، والقراءات السبع ، وشهر بتدريس كتب الأدب ، كالكمال للمبرد ، ونوادر أبي علي القالي ، وما أشبه ذلك . وتلمذ عليه عدد من شعراء الأندلس وكتابه ، من بينهم علي بن موسى ، مكمل كتاب « المغرب في حلّ المغرب » ، ومؤلف كتاب « المقتطف من أزهار الطرف » ، و « الغصون الياضنة في شعراء المائة السابعة » ، و « المرقص والمطرب » ، « الطالع السعيد في أخبار بني سعيد » و « رايات المبرزين » وغيرها . ومن تلاميذه أيضاً الشاعر الرقيق ابن سهيل الإشبيلي .

وكان إلى جانب هذا أستاذاً فكها ، لطيف المعشر ، حلو الروح ، قريباً إلى نفوس طلابه ، يتندر معهم ، ويصحبهم للنزهة خارج إشبيلية ، وينشدهم شيئاً من أشعار لطيفة تجيء عفو الخاطر ، فيها ظرف ورقة ، وبريئة من أوزار شعر العلماء في سخفه ونظمه ورتابته وثقل دمه ، وذات يوم خرج يتنزه مع طلابه ، وأحضرت لهم مجبنات (١٣) « ماخبا نارها ، ولا هداً أوراها ، فما خام عنها ولا كف ، ولا صرف حرّها عن اختضاها البنان والكف ، فقال فيها :

أحلى مواقعها إذا قُربتها وبخارها فوق الموائد سام
إن أحرقت لمسا فإن أوارها في داخل الأحشاء بردُ سلام

« وقال أحد تلامذته لغلام جميل الصورة : بالله أعطني قبلة تمسك رمقي ، فشكاه إلى الشيخ وقال له : ياسيدي ، قال لي هذا كذا ، فقال له الشيخ : وأعطيته ما طلب ؟ ، فقال : لا ، فقال له : ما هذه الثقاله ، أما كفاك أنك حرمته حتى تشتكى به أيضاً ! . وكان يتذوق الشعر الجيد ، يطرب لسماعه ، ويشجع على قوله ، وكان الشاعر الوشاح أبو بكر ابن الصابوني ينشده موشحاته ، يسمعها منه غير مطنب ولا معلق ، فلما أسمعته الدور التالي من موشحة له ، صاح به مردداً « لله درك ! » ، والأبيات رقيقة حقاً :

(١٣) المجنات نوع من المعائن المحشوة بالجن ، ثم تنفج على النار وتأكّل ساخنة ، وكانت ذائعة في الأندلس ، وتزداد كثيراً في الشعر الأندلسي .

قسماً بالهوى لذي حجرٍ ما ليل المشوق من فجرٍ
 خَمَدَ الصبحُ ليس يطردُ
 مـالـلـيـلى فيما أظنُّ غَدُ
 صَحَّ بِاللـيـلِ أَنَّكَ الأبدُ
 أو تَقَضَّتْ قِوَادِمُ النسرِ فنجومُ السماء لا تسرى

وقد أعجب على بن سعيد بالبيتين التاليين من شعر شيخه ، فأوردهما له في الكثير من كتبه ، كالمغرب ، ورايات المبرزين ، والقدح المعلى ، وربما في غيرها ، وعنه بالتأكيد نقلهما المقرئ في نفح الطيب :

لَمَّا تَبَدَّتْ وَشَمْسُ الأفقِ بادية أبصرتُ شمسين من قُربٍ ومن بُعْدٍ
 من عادة الشمس تعشى عينَ ناظرِها وهذه نورها يَشْفِي من الرَمَدِ
 وأورد له الرعيني الإشبيلي الأبيات التالية ، في الترجمة التي خصه بها في برنامجهِ :
 ما جاء عفوًا فخذهُ وما أبى فتجَنَّبُ
 ولا تَرُدُّ كُلَّ مرعى ولا تَرُدُّ كُلَّ مشربٍ
 فربما لَدُّ طعم وفيه سُمُّ مُقَشَّبُ

وهي أبيات كما ترى من الحكم المنظومة ، وأورد له ابن عبد الملك في الذيل والتكملة أبياتاً أخرى ، وبعضها يتكرر في المصادر التي عرضت له ، ويغلب على جانب كبير منها طابع شعر العلماء .

وكان إلى جانب هذا شيخاً جليل القدر ، مشهوراً بالفضل ، قدمه أهل إشبيلية للصلاة بهم في جامع العديس ، وهو من المساجد الكبيرة والشهيرة ، وتوفي في آخر حصار إشبيلية ، يوم الأربعاء لتسع بقين من شعبان ، عام ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م ، وكان من دعائه ألا يخرج عنها . وألا يمتحن بما امتحن به من عاش بعده عند إخراج العدو لأهلها ، فكانت وفاته قبل استيلاء العدو عليها بتسعة أيام ، ولم يحضر الصلاة عليه إلا ثلاثة نفر ، لما حل بالناس يومئذ من الموت وباءً وجوعاً . ويقول ابن السراج إنه توفي عند دخولهم لم يمهل ، ودُفن بداره ، وحُفر قبره بالسكاكين استعجالاً لمواراته ، واشتغلاً عن التماس

آلات الحفر بهول اليوم . ويرى ابن الأبار في كتابه التكملة أنه « توفي بعد دخول الروم البلد . صلحاً بنحو من ثمانية أيام ، هاله نطق النواقيس ، وساءه خرس الأذان ، فما زال يتأسف ويضطرب إرتماضاً لذلك إلى أن قضى » . وهى رواية يوهن من أمرها أن تحويل مساجد إشبيلية إلى كنائس لم يحدث لحظة الفتح مباشرة ، وإنما جاء تدريجاً مع الزمن ، وأن الأذان لم يختف دفعة واحدة ، لأن المسلمين ظلوا فى المدينة سكاناً لزمن طويل .

وثالث الشيوخ ، بترتيب ابن الخطيب ، هو ابن الفخار ، أورد اسمه هكذا ، ثم ترجم له فى مكان آخر من الإحاطة ، وأعطى عنه معلومات لا بأس بها ، واسمه : محمد ابن عبد الرحمن . . . بن الفخار الجذامى ، ويكنى أبا بكر ، وأصله من مدينة أركش Arcos . وهى حصن أندلسى قديم على نهر لكّه ، على مقربة من مدينة شريش ، ولما استولى العدو على قصبته خرج منها إلى هذه ، فاستوطنها ، وقرأ على كبار شيوخها وهم كثير ، وروى عن علمائها وهم جلة ، ثم أقرأها ، ولما استولى العدو عليها لحق بالجزيرة الخضراء فقرأها ودرّس ، ثم عبر المضيق إلى سبتة وصنع بها الشئ نفسه ، يتعلم ويعلم أيا من يمضى ، ورجع إلى الأندلس ثانية ، وذهب إلى غرناطة ، فأخذ عن علمائها ، ثم استوطن مالقة فى نهاية المطاف ، وتصدر للإقراء بها .

كان ابن الفخار متنوع المعارف ، من فقه وعربية وقراءات وأدب وحديث ، عظيم الصبر ، مُستغرق الوقت ، يدرّس من لدن صلاة الصبح إلى الزوال ، ثم يسند ظهره إلى طاقة المساجد بعد ذلك فيقرئ وتأتيه النساء من خلفه للفتيا ، فيفتيهن إلى نصف ما بين العصر والعشاء الأولى ، ثم يأتى المسجد الأعظم بعد الغروب ، فيقعد للفتيا إلى العشاء الآخرة ، من غير أن يقبل من أحد شيئاً ، ومارى فى وقته أورغ منه . وكان يتخذ رومية مملوكة ، لا يشتمل منزله على سواها ، فإذا أنس منها الضجر للحصر وتمادى الحجاب اعتقها ، وأصبحها إلى أرضها .

وكان مغرمًا بالتأليف ، فألف نحوًا من ثلاثين كتابًا فى فنون مختلفة ، فى التفسير والحديث والقراءات والفتوى والنحو ، ويستأهل الإشارة من بينها كتابه « الجواب المختصر المدوم فى تحریم سكنى المسلمين ببلاد الروم » .

وإلى ذلك كان شاعراً ، وشعره كثير ، وفيما يرى ابن الخطيب « غريب التزعة ، دالٌّ على السذاجة ، وعدم الاسترابة والشعور ، والغفلة المعربة عن السلامة ، من ارتكاب الحواشي ، واستعمال الألفاظ المشتركة التي تتشبت بها أطراف الملاحن والمعاريف ، وولع كثير من أهل زمانه بالرد عليه ، والتملح بما يصدر عنه » ، ولم يورد له ابن الخطيب غير أبيات ثلاثة في وصف الوردة ، رآها خير ما عنده ، وأراها نظماً مصنوعاً ، ثم بيتين من الشعر ، قالهما ولما يزل طالبا في شريش ، أنشدهما في فتي وسيم في حانوت سراج ، يقابل باب المسجد ، يرقم جلداً كان في يده ، وألح عليه الطلبة ألا يبرح الباب قبل أن يقول فيه شيئاً فأنشدهما :

وربَّ معذّر للحب داعٍ . يروق بهاء منظره البهيج
وشى في وجنتيه الحسنُ وشياً . كوشى يديه في آدم السروج
ونشأت بينه وبين فقهاء مالقة خصومة ، في أمور أدى إليها اجتهاده في مناط الفتوى ،
وعقد لهم أمير المسلمين بالأندلس مجلساً ، فظهر عليهم ، وتجلى في إقحامهم ، وكانت محنة خلصه الله منها ، وبلغ من تعظيم الناس إياه ، وانحيازهم إليه ، مبلغاً لم ينله مثله ،
وانتفعوا بتعليمه ، واستفادوا من أدبه ، على نسكه وسذاجته .
ويصفه ابن الخطيب في كتابه « عائد الصلاة » بأنه « كان رحمه الله خيراً صالحاً ، شديد الانقباض ، مغرقاً في باب الورع ، سليم الباطن ، كثير العكوف على العلم والملازمة ، قليل الرياء والتصنع » . وتوفي بمالقة عام ٧٢٣ هـ = ١٣٢٣ م ، وكانت جنازته مشهورة .

ورابع شيوخه ابن قطرال ، وكالعادة لم يزد ابن الخطيب عن هذا شيئاً ، لكنه ترجم له في الأحاطة في مكان آخر من الكتاب ، أورد اسمه كاملاً : محمد بن علي بن محمد . . .
بن قطرال الأنصاري ، وذكر أنه من مراکش ويكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن قطرال .
وأورد قائمة وافية بشيوخه في المغرب والأندلس ، ولم يشر إلى مجالات تخصصه ، وأشار إلى أن شعره كثير بديع . غير أنه لم يورد منه شيئاً ، سوى بيتين مصنوعين رد بهما على بيت من الشعر كتب له به القاضي أبو بكر بن شبرين ، ويبدو أن أبا البقاء لقيه وتلقى عنه حين

جاء غرناطة لمدة ليست طويلة فيما يبدو ، ويصفه ابن الخطيب في « عائد الصلة » ، بأنه : « كان رحمة الله فاضلا صوفيا ، عارفا ، متحدثا ، فقيها ، زاهدا ، تجرد عن ثروة معروفة ، واقتصر على الزهد والتخلي ، وملازمة العبادة ، والغروب عن الدنيا ، وله نظم رائق ، وخط بارع ، ونثر بليغ ، وكلام على طريقة القوم ، رفيع الدرجة على القدر » . وشرح قصيدة ابن سهل الإشبيلي ، « وتجول في لقاء الأكابر على حال جميلة من إثارة الصمت ، والانقباض والحشمة » ، ورحل إلى المشرق حاجا عام ٧٠٣ هـ = ١٣٠٣ م ، ثم تُوفى هناك بحرم الله ، عاكفا على الخير وصالح الأعمال ، معرضا عن زهرة الحياة الدنيا ، عام ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م

وخامس شيوخه أبو الحسين^(١٤) بن زرقون ، ولم يورد عنه ابن الخطيب شيئا ، ولكن الرعيني في برنامجه أورد له ترجمة لا بأس بها ، فهو محمد ابن محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر الأنصاري . ويصفه ابن الأبار في كتابه « التكملة » ، بأنه « كان فقيها مالكا حافظا مبرزاً ، متعصباً للمذهب قائماً عليه ، حتى امتحن بالسلطان من أجله ، واعتقل مدة بسببه » .

وكان من مفاخر إشبيلية ، وبها ولد عام ٥٣٩ هـ : ١١٤٤ م ، وكتب في شبيبته لأحد ولاية إشبيلية ، وتولى القضاء في بعض مدنها .

كان يدرس الحديث ، وله تأليف في الجمع بين الصحيحين ، وآخر في « تهذيب المسالك لمذهب مالك » ، وتأليف كبير سماه « المعلى في الرد على المجلّي والمجلّي » ، وكان يقرئ قصيدة ابن عبدون في بكاء بني الأنطس ، ويحدث بها عن أبيه ، عن ناظمها ، ويدرس المقامات ، فقد كان مليئا من الأدب ذاكرة له ، واختصر كتاب الأموال لأبي عبيدة .

وكان من أحسن الناس خلقا ، وأجملهم إشارة ، وأشدّهم تواضعا ، وكف بصره في آخر عمره ، وتوفى على أحسن عمل من تدريس العلم . ضحوة يوم السبت ٤ من شوال

(١٤) في الإحاطة ٣ ، ص ٣٦٠ ، أبو الحسن . وهو خطأ .

سنة ٦٢١ هـ = ١٢٢٤ م ، بداره التي ولد فيها ، وحُبس جملة من ماله في سبيل الخير ، ودفن في قبلة مسجد إقرائه .

السادس والأخير من شيوخ أبي البقاء هو أبو القاسم بن الجدد ، وجاء به ابن الخطيب على هذه الصورة مختصراً ، وييت بنى الجدد أصحاب نباهة وذكر في إشبيلية ، منهم الكتاب والشعراء والفقهاء ، ومن تولى الوزارة والخطط والقضاء ، ولكنى لم أجد لمن يعنيه ابن الخطيب ترجمة فيما بين يدي من المصادر ، على حين تتوارد أسماء أسلافه كثيراً في المصادر الأندلسية المتعددة ، كالمغرب في حلى المغرب لابن سعيد ، والمعجب لعبد الواحد المراكشي ، ومؤلفات ابن الخطيب نفسه ، ونفح الطيب للمقرى وغيرها . وأشك في أن أبا القاسم هذا ، الذي كان أستاذاً لأبي البقاء ، دون ترجمة ، ولعلها فيما لم يطبع من كتب ابن الخطيب وغيره ، أو فيما عبثت به يد الزمان من تراث الأندلس فلم تصلنا .



من تاريخ هؤلاء الشيوخ ندرك أنهم كانوا يدرسون كل العلوم التي يقبل عليها طلاب عصرهم بعامة ، وعليها عماد الثقافة ، وفيها حاجة الإدارة ، وهي علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث ، وعلوم اللغة من نحو وصرف وأدب ، وأنهم جميعاً يقرضون الشعر ، وبعضهم تميز فيه على نحو ما ، وأرجح أن أبا البقاء أخذ بحظه من هذه العلوم كلها ، ولكنه تجلّى في مضمار الأدب بعامة ، وفي الشعر منه على نحو خاص .

○ مؤلفاته :

لم يكن أبو البقاء شاعراً فحسب ، وإن اشتهر بهذه الصفة ، وإنما أسهم في جوانب أخرى من ثقافة عصره ، فألف جزءاً على حديث جبريل ، مجهول المكان في يومنا هذا ، وصنف في الفرائض وأعمالها مختصراً نافعاً ، وله كتاب كبير سماه « روضة الأنس » ونزهة النفس » ، كتبه برسم السلطان محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة ، ولا أعلم أن الكتاب موجود ، ولكن لسان الدين بن الخطيب نقل فقرة منه في كتابه الإحاطة ، وكانت ردّاً على رسالة مداعبة بعث بها إليه مواطنه أبو بكر البرذعي يصف فيها

جارية رآها بسوق الرقيق وصفاً حسياً يتناول ما فتنه من جمالها ، وكيف أنها استولت على لبه ، وأخذت بمجامع قلبه ، ثم « جاء فتى صادق في حبه ، لا يبالي بفساد ماله في صلاح قلبه ، فعد المال عدواً ولم يجد من التسليم بداً » .

وذكر أبو البقاء في مقدمة هذه القصة أنها مما يتعلق بالباب الذي وردت فيه ، ولم يعقب ابن الخطيب على النص بشيء ، ولا نعرف أكيداً هل كان هذا الباب من الكتاب يدور حول الرقيق بعامة ، أم عن الجمال الإنساني وما يتعلق به من غزل وحب واشتهاء ، وأرجح في ضوء جملة وردت بآخر النص أنه كان عن « الفكاهة » ، فهو يسلم على صاحبه « ما كانت الفكاهة من شأن الوفا ، والمداعبة من شيم الظرفا » . والرسالة مسجوعة على نهج النثر في ذلك العصر ، ومتخففة تُعجب وتُسلى ، ولم يتجاوز رد أبي البقاء عليها القضية نفسها موضوعاً ، ولا السجع أسلوباً واستخدم مواهبه في رسم صورة أخرى للجارية ، يقابل بها تلك ، تزخر بألوان البديع ، وزاد عليها نصيحة لصاحبه بأنه « لا ينبغي لمن قلبه رقيق ، أن يدخل سوق الرقيق ، إلا أن يكون قد جمع بين المال والجمال ، يتنافس في العالي ، ويسترخص بالثمن العالي » .

الكتاب إذن ، فيما أرجح ، من الكتب التي تستهدف الإمتاع والتسلية ، بالحكايات المتخيرة من التراث القديم ، أو الملتقطة من الحياة المستحدثة ، وهي أصدق في تصويرها للمجتمع ذوقاً واهتمامات من كتب التاريخ نفسها وقل ما تعنى بغير ما يدور في فلك الحاكمين .

أما كتابه الذي وصلنا فعلاً فهو « الوافي في نظم القوافي » ونجد في بعض المخطوطات لفظ « الكافي » بدل « الوافي » ، و « علم » بدل « نظم » ، ووصلنا في عدة مخطوطات أعرف منها أكيداً .

○ مخطوطة ضمن مجموع ، في الخزانة العامة بتطوان ، تحمل رقم ٤٩١ ، وتقع في ٨٣ ورقة ، من الحجم المتوسط ، ومسطرتها ٢٦ سطراً . وخطها مغربي واضح . صحيح في الجملة ، ولم يسم ناسخها نفسه ، ولا ذكر تاريخ النسخ في آخره .

○ وثانية محفوظة في الخزانة العامة بالرباط ، عاصمة المغرب ، تحت رقم ١٧٣٠ ك ، وهي قديمة ، وتقع في ١٨٧ صفحة كبيرة ، وُكُتِبَتْ في خط مغربي جميل .

○ وثالثة توجد في دار الكتب المصرية ، في المكتبة التيمورية ، تحت رقم ٦٠٣ أدب ، وجاءت في ١٨٨ صفحة ، وُكُتِبَتْ بخط أندلسي ، ويرجع تاريخها إلى عام ٧٣٨ هـ ، أي بعد وفاة المؤلف بأربعة وخمسين عاماً لا غير ، وأراها أقدم النسخ الثلاث .

○ وثمة مخطوطة رابعة توجد في مجمع التاريخ الملكي الإسباني ، تحت رقم ٤٨ ، وآلت ملكيتها إليه من مجموعة المستشرق الإسباني بسكوال جيانجوس ، ولم أتوصل إلى رؤيتها ، لأن المجمع درج من سنوات على أن يحجب مخطوطاته عن الدارسين العرب ، ومن ثم فلا أستطيع أن أقدم وصفا لها .

وأشار المؤلف صراحة في مقدمة الكتاب إلى أن اسمه « الوافي في نظم القوافي » ، وقسمه على أربعة أجزاء .

كسر الجزء الأول منها على أربعة أبواب : تحدث في أولها عن فضل الشعر ، ومن تكلم به ، وأثاب عليه ، وفي الثاني عن الشعراء وطبقاتهم ، وجعلهم أصنافاً ثلاثة : جاهليين ومخضرمين وإسلاميين . وقسم هؤلاء إلى ثلاثة : مُحدث ، ومولد ، وبعد ذلك كل عصر ينسب إليه أهله . وفي الثالث عن عمل الشعر وآدابه ، وفيه أخبار طريفة مما يدخل في باب البديهة والإجازة والمأطلة . وفي الرابع عن أغراض الشعر وأبوابه ، وحصرها في ثمانية أنواع : النسيب ، والمدح ، والتهنئة ، والرثاء ، والاعتذار ، والعتاب ، والذم . وأورد في كل قسم منها ما يناسبه من تعريف أو تقسيم ، ونماذج من قصائد الشعراء المتقدمين عنه ، والمعاصرين له ، ومن شعره هو على الخصوص .

وأوقف الجزء الثاني على محاسن الشعر وبديعه ، وجاء في أربعين باباً هي : الابتداء ، والانتها ، والاستطراد ، والمطابقة ، والمقابلة ، والمناسبة ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتخييل ، والتفريع ، والتوجيه ، والتمثيل ، والتمثيل الذي قبله نوع من التشبيه ، والتجنيس ، والمضارعة ، والترديد ، والتصوير ، والاتباع ، والتبديل ، والتضمين ، والاطراد ، والتفسير ، والمبالغة ، والتميم ، والتسهم ، والتحرز ، والالتفات ،

والتحريف ، والاستثناء ، والاستدراك ، والقلب ، والتصحيح ، والترصيع ،
 والتسجيع ، والتسميط ، ولزوم ما لا يلزم ، والتفصيل ، والتختيم ، واللغز .
 ودرس في الجزء الثالث عيوب الشعر ، وردّها إلى ثلاثة أنواع : الإخلال ،
 والسرقة ، والضرورة . ولم يخص الإخلال بفصل مستقل ، وإنما جعله تسعة أضرب تكلم
 عليها واحدا فواحدا ، وعقد للسرقة ثلاث فصول : في ضرورها وألقابها ، وفي مراتب
 الأخذ ، وفيما يشبه السرقة وليس منها ، وتحدث في آخر هذا الجزء عما يجوز في الشعر لغير
 ضرورة .

أما الجزء الرابع والأخير ، فأوقفه على حد الشعر والعروض والقافية ، وفيه فصل في
 ألقاب البيت تختلف باختلاف أحواله ، وفصل في أنواع الشعر وألقابها ويعنى بها عروضه .
 ورأى أنها أربعة وعشرون بحراً : خمسة عشر قديمة تكلست بها العرب ، وتسعة محدثة
 ولّدها المحدثون . وقد تكلم على البحور القديمة المعروفة ، أعاريفها وضرورها ، وما يعرض
 لها من زحافات وعلل ، وختم ذلك كله بذكر الأجزاء التي يتركب منها كل بحر منظومة في
 شطر ، وشرط آخر من عمله ، يبين فيه اسم البحر نفسه ، كقوله في بحر الطويل :

ومثلُ طويلِ الشعرِ ما أنا قائلُ فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلُ

وأتى بعد ذلك على الأوزان المحدثة ، وهي : الوسيط ، والوسيم ، والمعتمد ،
 والمتد ، والمسرد ، والمطرّد ، والخبب ، والفريد ، والعميد . وذكر أجزاء تفاعيلها
 وأمثلتها . ثم فصل القول في القافية ، وختمه بآخر أتى فيه على عيوب الأعاريف
 والقوافي .

ولكن أهمية الكتاب لا تقف عند هذا الحد . فهو ينثر خلاله كثيراً من أشعار
 معاصريه ، وبعضها يكاد يكون المصدر الوحيد عنها^(١٥) ، وحكايات عنهم ، وأخبار
 ومسابجات تتصل بالموضوع الذي يكون فيه .

(١٥) انظر مثلاً : غريبة عومث ، مع شعراء الأندلس والمتن ، ص ٨٠ . ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي . الطبعة الثانية .

ويشير الذين ترجموا له إلى أن له « مقامات » بديعة ، في أغراض شتى ، ولكنها لم تصلنا فيما أعرف . وقد يكون المراد فيها ما كتبه مسجوعاً في كتابه « روضة الأنس » ، ذلك أن الأندلسيين وغيرهم يطلقون أحياناً اسم « مقامة » على كل نص مسجوع .

○ ديوانه :

يقول ابن الزبير عن شاعرية أبي البقاء الرندي ، وكان أستاذاً له على نحو ما : « شاعر مجيد في المدح والغزل » . ويذكر عنه ابن عبد الملك في كتابه « الذيل والتكملة » ، وأجازه أبو البقاء في رواية ما ألفه نظماً ونثراً : « كان خاتمة الأدباء بالأندلس ، بارع التصرف في منظوم الكلام ومشهوره » . ويقول أيضاً : إن نظم أبي البقاء ونثره مدون . ولكن شيئاً من ذلك لم يصلنا ، فيما أعلم . ونعرف منه أخيراً ، أن أبا البقاء أودع جملة وافرة من نظمه في كتابه « الوافي » ، وأورد منها في كتابه « الذيل » قصيدة من أربعة عشر بيتاً ، أوردها أبو البقاء هناك في باب التشبيه ، ومطلعها :

عللاني بذكر تلك الليالي وعهود عهدي كاللآلي

ونقل له قصيدة أخرى ، من باب التشبيه أيضاً ، في ثلاثة عشر بيتاً ، ومطلعها :

وليل صباية كالدهر طولاً تنكر لي وعرفه التمام

وبعد القصيدة أصاب مخطوطة « الذيل » خرم سقطت معه بقية ترجمة أبي البقاء ، ويعسر علينا أن نتنبأ بما فقدنا مع ضياعها . ولكن الأبيات على أية حال من قصيدة طويلة في مدح السلطان محمد بن الأحمر ، وجاء بها ابن الخطيب كاملة ، وهي في خمسة وأربعين بيتاً ، ومطلعها :

سرى والحب أمر لا يرَام وقد أغرى به الشوق والغرام

وأورد له ابن الخطيب جملة من شعره ، تبلغ الستة والعشرين ، ما بين قصائد ومقطوعات . أقلها في بيتين . وأطولها في ستة وأربعين بيتاً ، وقال عنه : إنه كثير ، « سهل المأخذ . عذب اللفظ ، رائق المعنى ، غير مؤثر للجزالة » .

وأورد له المقرئ ، فى كتابه نفح الطيب وأزهار الرياض ، قصيدته النونية كاملة ، واختص بذلك ، نقلا عن الذخيرة السنية ، وسندرسها مستقلة وتفصيلا فيما بعد ، ثم قصيدة طويلة فى خمسة وثلاثين بيتاً ، جاء بها فى نفح الطيب فحسب ، ومطلعها :
 سلم على الحى بذات العرار وحي من أجل الحبيب الديار
 واختار ابن الخطيب أبياتاً عشرة منها أعجبت ، من مقدمتها الغزلية ، وقدم لها بأنها « مغربة فى الأحسان » . أما الأبيات الأخرى التى أورد لها المقرئ ، وهى بيتان فى وصف البحر ، وبيتان فى وصف سكينة الكتابة ، وبيتان فى وصف المقص ، وستة أبيات فى الغزل ، وثلاثة فى وصف غلام ، وأراه نقلها كلها من الإحاطة ، لأنه حرر كتابه النفح فى القاهرة ، وكان ابن الخطيب قد أوقف بنفسه نسخة من كتابه فى حياته على طلاب العلم فى مصر ، واطلع عليها المقرئ وأفاد منها .

○ مداخلة :

ثلاث قصائد مما وصلنا فى مدح السلطان محمد بن الأحمر ، وهى من النظم الجميل ، على نحو ما نجد عند معاصره ابن زمرك ، فكأنهما يغترفان من نبع واحد ، الأولى فى ٤٦ بيتاً ، ومطلعها :

سرى والحبُّ أمر لا يرام وقد أغرى به الشوق والغرام
 ويدؤها بمقدمة غزلية ، يناجى فيها محباً فارق ، ويشكو ليلاً طال ، ويملؤها بكل ما فى طاقته من صور جلها معاد مكرر ، وإن جاءت فى إيقاع جميل محبب ويخلص منها بعد أربعة وعشرين بيتاً إلى مدح الأمير ، بما اعتاده شعراء هذه الفترات ، وكل فترة فى الحقيقة ، فالشمس كوجهه سطوعاً ، وهو يشبه البدر ملاحه وتماها ، شجاع مقدام ، عريق من بنى نصر الكرام ، الذين ينتسبون فى الأنصار الذين نصرُوا الرسول وآووه ، وهم الذين قادوا الجيوش ، ومنجوا الجزيرة الأمن ، وبالأمر محمد عز الدين ، وقويت شوكة الإسلام ، وقد تلتقى فى القصيدة بصورة طريفة ، حين يمدح الأمير بالجود والسخاء ، إذا قلنا إن فى يده غماماً ، بخشنا حق اليد ، وضللنا الغمام :

إذا ما قيل في يده غمامٌ فقد بُخستْ وقد خُدِعَ الغمامُ
وأحياناً يمضى بالصورة إلى لون من المبالغة المنفرة ، تذهب بالمعنى . وتترك في النفس
عكس ما يريد من تصوير :

إذا ما ضاقت الدنيا بِحُرِّ كَفَاهُ لَثْمٌ كَفَّكَ وَالسَّلامُ
والقصيدة الثانية في المديح أتى بها المَقْرَى كاملة في نفع الطيب . ولم يشركها هو حاله
كثيراً إلى المصدر الذي نقلها عنه ، وجاءت في خمسة وثلاثين بيتاً ، بدأها بمقدمة طلبية
شغلت خمسة عشر بيتاً ، سلم فيها على الحى ، وحيا الديار ، جاء بذلك في بيت واحد
تجاوز بعده الإيقاع الجاهلى ليدافع عن العشاق ، وَيَجِبُهُ من لامهم ، ويدعوا إلى حياة
أبيقورية ، لأن العيش لمن رame ، وليالى الأُنس قصار ، وبين الكأس والوصل يجب أن
تمضى الحياة ، وتغزل بظبي غرير تعذب في حبه ، وفارق النوم في فكره ، ورغم أن
الآيات محافظة ، جاءت تقليداً لنهج ملتزم ، إلا أنها معنى وصورة تعكس في هذا النطاق
روحا أندلسياً خالصاً .

واختار ابن الخطيب الآيات التى تلى هذه المقدمة ، وعددها عشرة ، أعجب بها ،
ورآها « مغربة في الإحسان » ، رغم أنها تنضح افتعالا وصناعة ، فهى تصف معركة
ضارية بين الليل والنهار ، حين تفجر الصبح ، وانهمز الليل ، وأسرعت الشهب هاربة ،
وانزوى السها خيفة . وثار النجم ، وشابت نواصى الدجى ، وطارح النسر أخاه ، وغير
السفر من القمر . فصار في آخر الشهر كأن عنقوداً ثنى به ، أو عرجونا تدلى ، وكأن الثريا
تسبكه ديناراً ، وكفها يفتل منه سواراً ، وتحكم الفجر في الظلمة فجار عليها ، وتلقى
الصبح المشتاق إليه . فسعد به . كما يسعد المرء بإقبال الدنيا ، بعد أن ذاق ذل الفقر :

وليلة	نُبِّهْتُ	أجفانها	والفجرُ قد فجرَ نهرَ النهارِ
والليلُ	كالْمَهْزُومِ	يوم الوغى	والشعبُ مثل الشهبِ عند الفرارِ
كأننا	استخنى	السها خيفةً	وطولبَ النجمُ بثارِ فثارِ
لذلك	ما شابتْ	نواصى الدجى	وطارحَ النسرِ أخاه فطارِ
وفى	الثريا	قمرٌ سافرٌ	عن غرةٍ غيرِ منها السفارِ

كأن عنقودا تثنى به إذ صار كالعرجون عند السرار
 كأنها تسبك ديناره وكفها يفتل منه السوار
 كأنما الصبح لمشاقه عز غنى من بعد ذل افتقار
 كأنما الشمس وقد أشرقت وجه أبي عبد الله استنار

واستغنى ابن الخطيب عن تكملة أبيات المدح التالية للبيت الأخير ، لأن هذه تحفل على أية حال بعدد من الصور البلاغية ، وهى مفتعلة ، ومنحوتة ، ولكنها صور فى نهاية المطاف ، أما التى أعرض عنها فقد خلت حتى من الصناعة ، مجرد نظم لا فن فيه ولا روح ، من مثل قوله :

محمدٌ محمدٌ كاسمِهِ شخص له فى كلِّ معنى يُشارُ
 اليمن من يمينه حكم جرى واليسر من شيمته تلك اليسار

ويشغل هذا السخف من القصيدة عشرة أبيات كاملة ، تدور حول مدح الأمير بأنه من لحم وبه تزهو ، وفرع من قيس وإليه تنتمى ، وأنه أجود من البحر ، يدور معه السعد حيث دار ، ويختتمها بهذا البيت :

الحافظ الله وأسماؤه لذاك الجارِ وذاك الجوار

واختيار ابن الخطيب لما سجل منها ، يومئ إلى أنه فى كتابه « الإحاطة » كان يتذوق ما يدون من شعر ، وليس حاطب ليل يجرى قلمه بأى قصيد تجرى عليه عيناه .
 وقصيدة المدح الثالثة ، والأخيرة ، جاءت فى سبعة وعشرين بيتاً ، بدأها بمقدمة غزلية رائقة ، محكمة النظم ، فلا حشو فى ألفاظها ولا زيادة ، جميلة الإيقاع ، فلا نشوز فى موسيقاها ولا اضطراب ، تميل إليها النفس ، وتعلق سريعاً بالذاكرة ، وأعجب بها ابن الخطيب كثيراً ، وقال عنها إنها ذات نزعة غريبة ، وسبق بها غيره .

ياطلعة الشمس إلا أنه قرأ أما هواك فلا يبتى ولا يذر
 كيف التخلّص من عينيك لى ومتى وفيهما القاتلان : الغنج والخور
 وكيف يسلى قواد عن صبابته ولو نهى الناهيان : الشيب والكبر
 أنت المني والمنايا فيك قد جمعت وعندك الحالان : النفع والضرر

ولى من الشوق مالا دواء له ومنك لى الشافيان : القرب والنظر
 وفى وصالك ما أبقي به رمقى لو ساعد المسعدان : الذكر والقدر
 وكان طيفُ خيالي منك يقنعنى لو يذهب المانعان : الدمع والسهر
 يانايا لم يكن إلا ليملكنى من بعده المهلكان : الغم والغيرُ
 ما غيّتَ إلا وغاب الجنس أجمعه واستوحش المؤنسان : السمع والبصر
 بما تُكنُّ ضلوعى فى هواك بمن يعنو له الساجدان : النجم والشجر
 أدركُ بقية نفس لست مدركها إذا مضى الهاديان : العين والأثر

وقد انتقل من المقدمة إلى مقصده فى سهولة دون افتعال ، وألحق بها مدح السلطان ، وهو غايته ، دون جفاء ، يكتنيه أبا عبد الله ، ولا تفترق المعانى هنا عما فى قصيدته الأولى ، وإن اتخذت صوراً مختلفة ، وسار فى بنائها على نهج مغاير ، كالذى نلاحظه فيما أوردنا من مقدمتها ، فالأمير كريم يهب الخيل آلاًفاً ، شجاع فارس الجمع عند اللقاء ، أسد عند الخطر ، وربما كان المعنى الجديد الذى وقع عليه ، وقل ما يعرض له الشعراء فى أمداحهم ، أن رعيته باتت فى أمان ، فما يخشى الناس فى حياتهم راحلين أو مقيمين شيئاً : تأمن الناس فى أيامه ومشوا كما مشى الصاحبان : الشاة والنمرُ وزال ما كان من خوفٍ ومن حذرٍ فما يرى الدائلان : الخوف والحذر لا جديد من المعانى فى مدائح أبي البقاء ، وإن جاءت بعض أبياتها فى ثوب قشيب ، وفى صورة تختلف عما عند غيره من الشعراء ، إن الشاعر والشعر هنا ، وربما فى عصور كثيرة ، لا يتجاوز غالباً وصف الممدوح بصفات عامة ، مبالغ فيها ، يمكن أن يلبسها الشاعر لمن يريد . دون عناء كبير . وليس وراءها دافع قوى من عاطفة أوجب أو شكر ، ومن ثم جاءت باردة روحاً ووقعاً ، لا تثير فى النفس شيئاً ، لأنها صدرت عن نفس خاوية غير مستثارة حقاً .

○ تغزله :

نلتقى بشعر الغزل عند أبي البقاء على ضربين ، تقليدياً يجئ فى مقدمة قصائد المديح ،

وعرضنا له من قبل ، وقلة من الشعراء فحسب تتخفى وراء هذه المطالع ، لأسباب اجتماعية أو دينية ، فتتغزل حقاً ، وتعبر عن عاطفة مشبوبة ، ولكنها توهم غيرها بأنها تحتذى نهجاً متبعاً ، أما الكثرة الغالبة فيجئ غزلها في هذا المقام صناعة خالصة ، وأنخال مقدمات أبي البقاء من هذا اللون .

والضرب الثاني مقطعات غزلية خالصة ، بعضها لا يمكن الجزم بصفته هذه ، فقد يكون مطلعاً لقصائد اختارها الجامع أو المدون لأنها أعجبتهم ، وأعرض عن بقية القصيدة لأنها لم ترضه أفكاراً أو شكلاً ، ويبدو ذلك واضحاً حين يسبقها بقوله : « قال في . . . » ، والبعض الآخر يشير صراحة إلى أنها مقطوعة ، وفي هذه الحالة يكون الشاعر قد استهدف بها التغزل بدءاً ، وتعبيراً عن مشاعر مكنونة ، أو إظهاراً لقدرته على النظم في هذا المجال أحياناً .

وتدور معانيه في الغزل حول محاور عديدة ، منها : أن يهجره الحبيب فيطول ليله كأنه سمرمد ، أو يقبل عليه فيمضي الليل كأنه لحظة . وجاء المعنى الأول في أبيات ستة صور فيها حاله ، وأشواقه ملتهبة ، وأدمعه متدفقة ، وصبره نافذ ، وتحس معها أنها غير كاملة ، وربما كانت مطلعاً لقصيدة ذهب آخرها ، لأنك مع البيت الأخير منها تتوقع أن يقول شيئاً لم يجئ ، وأن يمضي بك إلى فكرة مقنعة ، ولكنه يقف بك حيث انتهى جلده :

أطال	ليلي	الكمد	فالدهر	عندي	سمرمد
وما أظن	أنه	للي	لست	الهجر	غد
يانأما	عن	لوعتي	عوفيت	مما أجد	
أرقد	هنيأ	إنني	لا أستطيع	أرقد	
لواعج	ماننطفي	وأدمع	تضطررد		
وكبدي	كبد	الهوى	وأين	مني	الكبد
ولا تسل	عني	جلدي	والله	مالي	جلد

أو يصف في بيتين حال متيم تثير الشفقة ، كثر عليه العشاق فضاغ بينهم ، وكأننا أراد

أن يشارك شعراء عصره حتى في الشذوذ فوصف لنا غلاماً في أبيات ثلاثة ، وهي المقطوعة الوحيدة التي وصلتنا في شعره من هذا اللون ، وتعكس خصائص الشعر الأندلسي في مرحلة توهجه ، حين جعل من جمال الطبيعة والجمال الإنساني شيئاً واحداً ، وبتراسلان الخصائص والصفات ، ولكنه اكتفى بأن يصف ، وأن يقف عندما رأى ، وأن يقول إن جمال الغلام يعجب عشاقه ، أما هو فلم يتجاوز الحديث عنهم وعنه ، وهو شيء يُحمد له على أية حال :

وإني وقد زانه جمالٌ فيه لعشاقه اعتذارُ
ثلاثةٌ مالها مثال الوجه والخد والعدار
فمن رأى رياضاً الورد والآس والبهار

وأخيراً نجد له أبياتاً ثلاثة في وصف امرأة خارجة من الحمام ، عدّها ابن الخطيب من النسيب وأراه محققاً . وهي صورة نادرة قل أن نجد لها شبيهاً في الشعر الأندلسي ، ولو أن معاصره ابن خاتمة عرض لمثلها في صورة أخرى ، فقد تشفع عند القاضي في أبيات عذبة رقيقة ، في شأن جارية عزرها القاضي لأنها أخذت حمامها من غير إزار^(١٦) ، وأبيات أبي البقاء لا تقل عنها عذوبة وعفوية :

برزت من الحمام تمسح وجهها عن مثل ماء الورد بالعُبابِ
والماء يقطر من ذوائب شعرها كالطلّ يسقط من جناح غراب
فكأنها الشمس المنيرة في الضحى طلعت علينا من خلال سحاب

وكان أبو عثمان ، سعد بن ليون التجيبي ، شيخ لسان الدين بن الخطيب ، ينشد الأبيات التالية في مدينة المرية ، من شعر أبي البقاء . وعنه أوردتها المقرئ في « نفح الطيب » . ولم يوردها لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة ، وهي من الغزل الرقيق حقاً ، بسيطة وسهلة . وغنية عن أى شرح أو تمهيد :

أيها العاذلُ بالله اتدُّ لك قلب في ضلوعي أو كبِدْ

(١٦) الطلح ١٠٠٠ مسم ٣٦ من ١١٥ من هذا الكتاب .

هي أجفاني فذرها تنهمي هي أحشائي فدعها تتقد
لا تظنّ الحبّ شيئاً هيناً ليس في الحب قياس يطرد
أنتَ خلّو وأنا صبّ شجّ فإذا حدثت عني قل وزد
فاترك اليوم ملامى إنه يُتركُ الشيء إذا لم يفد
أنا أسلو عن حبيبي ساعةً ياخذولي ، قل هو الله أحد

كان حظ أبي البقاء من الغزل في شعره قليلاً للغاية ، على الأقل فيما وصلنا منه ، وربما مرد ذلك أن غزلياته ضاعت فيما ضاع له من شعر ، أو لأن الظروف الاجتماعية حوله لم تتح له أن يعبر عن مكنون عاطفته ، فلا أنحال فنانا لا تستهويه المرأة جميلة أو أنثى ، في عصر كانت هي أجمل ما فيه ، وملهمة أي إبداع ، ومن يدرى ، ربما يكمن السبب في أنه واجه الحياة فقيراً ، وأمضاها مكدودا ، فشغلته ضرورات العيش عن دواعي الهوى ، وأنضبت في أعماقه ينابيع الغزل .

○ شعر الوصف :

ويجئُ عنده إدراكاً خارجياً لما كان يرى ، وربما صنعه مهارة وجريا على سنن الشعراء في عصره ، حتى لا يكون دونهم ، يصف النهر في أربعة أبيات ، لا يخرج فيها عن المعتاد من الأوصاف الأندلسية ، فالزهور تحف به . ويسيل على مثل الجمان ، كالسيف سل من غمده ، وكسر النسيم صفحته ، وصافحت الأدواح سطحه ، ثم يصف البحر في بيتين :
البحرُ أعظمُ مما أنت تحسبه من لم ير البحر يوماً ما رأى العجبا
طامٍ له حَبَبٌ طافٍ على زَرْقٍ مثل السماء إذا ما ملئتُ شُهبا
ويصف الجيش تحرك المعركة ، الجنود المدرعين . والقضب تعلوها الرايات ، فرحين ببقاء العدو ، ليوث لا يخافون ، سيوفهم ماضية ، قاتلوا حتى انتصروا ، وتركوا العدو وراءهم ، وقد ارتاع ناقوسه ، وبكى صليبه . وأصبحوا خبيرا من الأخبار :
وارتاع ناقوسٌ بنخل لسانه وبكى الصليبُ لذلة الكفار
ثم انشوا عنه وعن عباده وقد أصبحوا خبيرا من الأخبار

ويصف السيف والقلم ، ونجى مفاخرة بينهما ، وسكين الدواة ، والورد ، والخيرى ، وكان شائعاً ومحبوياً وتغنى بوصفه كثيراً شعراء مملكة غرناطة ، والريحان والرمان والجزر . وكلها نجى فى مقطوعات قد تكون بيتاً أو بيتين أو أكثر ، ولكنها لا تتجاوز الستة أبيات ، ويبدو فى بعضها على الأقل أنها مأخوذة من قصائد أطول منها ، أعجب بها ابن الخطيب فانتزعها ، وترك ما عداها ، وربما كان وصف السيف أجملها :

وأبيضٌ صبيغٌ من ماءٍ ومن لُهبٍ على اعتدال فلم يَخْمَدُ ولم يَسْلِ
ماضى الغرار يهاب العمرَ صَوْلَتُهُ كأنما هو مطبوعٌ من الأجل
أبى من الوصل بعد الهجر منظره حُسْنًا وأقطعُ من دينٍ على مال (?)
وأسمر ظن ماكل سابعة فخذ لاض كالآثم يستشفى من النهل (?)
هام الكماة به حباً ولا عجبٌ من لوعةٍ بملح القدِّ مُعتدل
إذا الطعين تلقاه وأرعفه حسبه عاشقاً يبكى على طلل

وأورد ابن الخطيب أيضاً أبياتاً جميلة لأبى البقاء ، فى وصف ساقية وحديقة ، انتزعها من قصيدة مطولة فيما يقول ، ولا يوحى جوها بأنها كانت مقدمة لقصيدة مدح ، ووصفه بأنه « تفنن فيها » ، ويبدو أن بعض كلماتها أصابه التحريف فى المخطوطة أو النسخة المطبوعة ^(١٧) فلا نكاد نتبين المراد منها إلا بجهد ومشقة ، وبخاصة أنها تزدهم بالصور البلاغية البعيدة المطارح ، ومثلها يعسر تبين المراد منه ما لم يلمح الراوى بدءاً إلى ما يتحدث عنه الشاعر أو يصفه ، ومع ذلك يمكن أن نفهم من الأبيات أنه يتحدث عن ساقية ، صوتها أجمل من العود ، تسقى وهى تجرى ، وتجرى وهى تسقى ، نجر النهر كوشاح أبيض ، يرف على حافته الزهر ، وتهز الأدواح ككائب خضراء ألويتها بينضاء ترتفع فوق أغصان سمراء .

لقد رماها قزحٌ بألوانه ، فجردت سواقيها السيوف على ماء النهر ، وهب النسيم فجفف ما على الزهر من طل ، وبدأ الروض وكأنه صحيفة مكتوبة ، أشجاره قائمة كالألقات ،

(١٧) الاحاطة ، ج ٣ ص ٣٧٠ ، بتحقيق محمد عبد الله عنان .

وسطحها في صفرة التبر ، وبدت زهرة الأقحوان كخاتم من فضة تزينه فصوص من ذهب ، وتناثر الطل حول النرجس الغض فكان كالعيون يتفرق الدمع في أجفانها ، واختار « الخيري » أن يعبق بشذاه ليلاً كالعشاق ، لأن الليل أكرم للسر ، على حد تعبير ولادة بنت المستكفي :

و غانية يُغنى عن العود صوتها	وجارية تسقى ، وساقية تجرى
بحيث يجر النهر ذيل مِجْرَة	يرف على حافاتِها الزهر كالزهر
وقد هزت الأرواح خضر كئائب	بالوية بيض على أسل سمر ^(١٨)
رمى قزح نبلا إليها فجردت	سيوفا ، سواقيا على دارع الزهر
وهبت صبا نجد فجرت غلائلا	تخفف دمع الطل عن وجنة الزهر
كان بصفح الروض وشى صحيفة	وكالألفات القضب ، والطرس كالزهر
كان به النرجس الغض أعين	تفرق في أجفانها أدمع القطر
كان شذا الخيري زورة عاشق	يرى أن جنح الليل أكرم للسر

الآيات بديعة التصوير ، تكثر فيها الصور البلاغية ، وبعضها جديد من صنع أبي البقاء ، كتشبيه شذا « الخيري » يعبق ليلاً بزيارة العشاق لا تتم إلا في الظلام ، أو تشبيه زهر الأقحوان بخاتم من فضة . ولكن ؟ . . أين هو من هذا كله ؟ بماذا أحس ؟ ما صدى هذا الجمال في نفسه ؟ لا يشئ بشئ من حقيقة مشاعره ، والحق أنه ليس فرداً في هذا الطريق ، فجل شعراء العربية يقفون على الحياض بإزاء جمال الطبيعة حين يعرضون لها ، غير أنه تجافى عادة أندلسية شائعة ، فرفاقه في وطنه لا يتحدثون عن الرياض إلا ويعرضون للشراب في ظل أشجار ، وبين طيب هوائها ، ولا يذكر الشراب إلا ومعه السقا والصبايا الفاتنات ، وقد يجمعون إلى هذا كله الموسيقى والغناء . أم تراه كان يقصد بدءاً أن يصف الساقية فحسب ، مهارة وإظهاراً لمقدرته ؟ لا يمكن الجزم بشئ من هذا ، في غيبة بقية القصيدة ، وقدم لها ابن الخطيب بأنها من المطولات .

(١٨) في الأصل :

« وقد هزت الأرواح خضر كئائب » ، ولا أراه معهوداً .

○ همومه إنسانا :

وثمة أبيات تتصل بهموم الشاعر الإنسانية ، وصلاته الاجتماعية ، تجيء أيضًا في مقطوعات قصيرة ، لا يمكن القطع بأنها كذلك في الأصل ، لأننا نعتمد فيها على ابن الخطيب ، وهو يقحم ذوقه فيما يختار ، ولعله التقطها من قصائد مطولة لم تعجبه ، وعرفنا فيما سبق أنه وصم أبا البقاء شاعرا بأنه « غير مؤثر للجزالة » وكانت محبة إلى أديب غرناطة الكبير ، فأبو البقاء يشكو ، في بيتين ، أخوة السوء لا نفع فيهم ، ويورد في بيتين آخرين أنه عجم الزمان ، وعرف أهله ، فإذا هم يقلون عند الفزع ويكثرُونَ عند الطمع ، كلامهم كثير ، وإقبالهم على الدراهم شديد :

ولقد عرفتُ الدهر حين خبرته وبلوتُ بالحاجاتِ أهلَ زمانِ
فإذا الأخوة باللسان كثيرة وإذا الدراهم مِلَقُ الإنسانِ

أو يدعو ، في بيتين ، إلى الصبر ، ويشر به ، لأن الدهر يقبل ويدبر ولا يبقى على حال . ونحدثنا أخيرا عن الموت ، وقلة من الشعراء تتحدث عنه كظاهرة ، وانفعالا به ، لأنه تجربة لا تحدث إلا مرة واحدة في العمر ، وحين تحدث يكون صاحبها عدما ، لا يحس ولا يشعر . بالنسبة لنا على الأقل ، وأن تعيش التجربة تحيلا ، أو ترتد إليها تصورا ، يتطلب الأمر حين تكون شابا حالة نفسية معتمة ، أو واقعا اقتصاديا ضاغطا ، تصبح الحياة معه عبئا مضنيا تود التخلص منه ، أو أن تتقدم بك السن ، وتشرف على النهاية ، فأنت على بعد خطوات من الموت لا بحالة ، وذلك ما نراه مع أبي البقاء ، فقد امتدت به الحياة ، وحين دنت ساعته تحدث عن الموت حديث الواعظ ، فما بعده عسير ، وطاعات المرء هي التي تحسب له ، ويدعو غيره لأن يعرض عن اللذات ، وأن يتعظوا ، ويتبعوا أوامر الله ، كل من على الدنيا رحل ومضى ، حتى الملوك ، ولم يحمل أى منهم غير كفته ، ولم يخز من أرضها غير قبره :

الموتُ سرُّ الله في خلقه وحكمةٌ دلت على قهره
ما أصعب الموت وما بعده لو فكَّر الإنسانُ في أمره

أيام طاعاتِ الفقى وحدها هى التى تحسبُ من عمره
لا تُلهك الدنيا ولذاتها عن نهى مولاك ولا أمره
وانظر إلى من ملك الأرض هل صحَّ له منها سوى قبره
ثم يرثى نفسه ، يكتب شاهده الذى سيوضع على قبره ، ينظمه شعراً ، ويطلب فيه
من صحبه ، ومن يمر عليه ، أن يطلب له الرحمة ، وأن يدعو له بالمغفرة ، فما أشد حاجته
إليهما :

خليلى بالودِّ الذى بيننا اجعلا إذا متُّ قبرى عرضةً للترحمِ
عسى مسلمٌ يدنو فيدعو برحمةٍ فلئنى محتاجٌ لدعوةٍ مُسلمِ

وهى فكرة نجدها عند ابن الزقاق^(١٩) أيضاً ، ولو أن هذا اعترف ، وذكر صحبه بأنهم
أمضوا حياة هنيئة ، وأن دنياهم كانت رائقة العيش . فيأضه بالصفاء والمتع .
وما نقل إلينا من شعر أبى البقاء خالٍ من أى نبض عائلى ، صحيح أن قلة من الشعراء
تحدثوا عن زوجاتهم ، ولكن الكثيرين منهم تحدثوا عن آبائهم وأمهاتهم ، وبخاصة إذا
كانوا فى حالة اجتماعية مرموقة ، وإنما يصمتون عنهم إذا جاءوا من غمار الناس ، فليس فى
أنسابهم ما يزهون به . أترى صمت عنهم أبو البقاء لأنهم كانوا من هذا القبيل ؟ ربما .
ولكن لماذا صمت عن بنيه أيضاً ؟ .

○ فنه الشعرى :

من الظلم الواضح ، ومما يجافى قواعد النقد الحقة ، أن نقوم شاعراً فى ضوء بعض
شعره ، وربما كان أقله ، وفى غيبة الكثير الذى أبدعه ، وربما كان أجوده ، وهو ما ينطبق
على أبى البقاء تماماً ، ولا يشفع له ، ولا يصلح عذراً لنا ، أن ما وصلنا من شعره كان فى
جملته اختيار عالم أديب ، وهو ابن الخطيب ، لأن الاختيار يعكس ذوق المختار ، فى

(١٩) انظر الفصل الخاص بابن الزقاق فى : غريبة غومت : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ،
الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ .

نطاق بيئته ومزاجه وعصره وظروفه ، ولا يعنى بالضرورة أن ما اختار له أفضل ما قرأ أو سمع من إبداعه ، إلى جانب أن ابن الخطيب نفسه لم يكن مجرد مؤرخ كاتب ، أو أديب شاعر ، وإنما كان قبل هذا وزيراً أول ، ورجل دولة مشغول ، ويضع في اعتباره هذه الجوانب كلها حين يختار أو يكتب ، وما أكثر ما ألح فحسب ، أو صمت تماماً ، أديب غرناطة الكبير . ولكن ذلك لا يحول دون أن نبدي ملاحظتنا على القليل الذى بين أيدينا ، وأن نقول رأينا فى ضوءه ، وهو رأى قابل للتغيير إن جد مع الزمن ما يجعل مراجعته ضرورة .

أول ما يلفت النظر فى شعر أبى البقاء هذه اللغة البسيطة السهلة ، تكاد أن تكون عامية . مما يجرى على ألسنة الناس عادة ، وهو أمر لا يجيئ عنده عن عجز أو تقصير ، لأن بعض مقطوعاته التى آثر فيها جانب الصناعة ، حفلت بالألفاظ المعجمية ، وإن جرت بين أنداده من شعراء عصرى الخلافة والحجابه بوجه خاص ، وإذن فهو يسلك هذا الطريق اقتناعاً منه ، وإثارة له . وليس مساقاً إليه . ويدعم رأى هذا أننا لا نقع فى كل ما لدينا من شعره على لفظ واحد غير عربى ، رغم أنه عاش فترة المد والجزر العنيفة بين الإسلام والمسيحية على بطحاء شبه الجزيرة ، وهو تجاذب يتجاوز الحرب إلى الاجتماع والاقتصاد ، وحتى الثقافة ، على السواء ، ومع ذلك ليس ثمة لفظ رومانى واحد فى أى من قصائد أو مقطوعات أبى البقاء .

يميل أبو البقاء إلى الألفاظ الجارية ، ويؤثرها على غيرها ، وإن أدت هذه المعنى نفسه ، وجاءت فى ذات الإيقاع ، فهو يستخدم كلمة « بنجت » ، بدلا من « حظ » ومعناها واحد ، ووزنها العروضى واحد ، وذلك فى قوله :

إذا لم يُرزق الإنسانُ بنجتاً فما حسناته إلا ذنوب

وقد يجيئ شطر البيت كله من هذا الكلام الدارج :

ولا تسئل عن جَلدى والله مالى جلدٌ

ولو أن شعراء عصره أوغلوا فى القديم ، وآثروا الألفاظ الصعبة ، على طريقة ابن هانىء أو ابن دراج القسطلى ، لفسرت موقفه بأنه كان رد فعل ضد هذا الإيغال ، ولكن شعراء

عصره كانوا ، فى الحق ، على مقربة منه فى لغتهم ، وإن لم يهبطوا بها حيث اختار أبو البقاء أن يكون ، وإذن فهى طبيعة العصر نفسه .

أترأه كان يكتب لأبناء زمنه ، لا يهمه من يأتون بعد ، وليس فى حسبانته من ذهبوا من قبل ، وأن أبناء زمنه شغلوا وسط عواصف السياسة الهوج عن العربية وإجادتها والفصحى وغريبها ، وإيثار ما جزل من ألفاظها ؟ . افتراض يقف فى طريقه أن الشعوب فى لحظات المحن تحرص أكثر من أى وقت آخر على مقوماتها الأساسية من لغة ودين وتقاليده وعادات ، ونجد الحرص على اللغة واضحاً فى انتشار فن المقامات والرسائل المسجوعة ، وكتابتها فى صناعة فنية محكمة ، لا تتأق إلا لمن يجيد العربية وتمكن من أسرارها ، وقد شارك أبو البقاء فى هذه اللعبة بكتابه « روضة الأنس ، ونزهة النفس » ، ويصفه ابن الخطيب بأنه كان كبيراً . وأخيراً فإن موقف المسلمين فى الأندلس فى فترة إيداع أبى البقاء ، لم يكن ساء إلى حد ينسى المسلمين لغتهم ، وفى نونيته نفسها شاهد على ما أقول . ومن هنا أرجح أن أبا البقاء أثر السهولة فناً ، وارتضى لشعره أن يجىء لغة فى مرتبة وسط ، يصبح فيها زاد المتعلم ، وغنوة الأمى .

يكثُر أبو البقاء من استخدام التشبيه ، وأحياناً يجىء عنده قلقاً ، يصطدم آخره بأوله ، فالجنود المسلمين يذهبون إلى القتال متهللين ، فرحين بلقاء العدو ، فإذا مضيت مع الصورة إلى نهايتها ، وجدته يشبه هذه الوجوه بالقمر :

متهللين لدى اللقاء كأنهم خلقت وجوههم من الأقمار

والقمر يرتبط فى ذهن القارئ العربى ، منذ كان هناك شعر وأدب ، بجبال وجه المرأة ، به تشبه ، وبين جماله وجهها نوازن ، ولا أراه يثير غير السخرية أن تصف جنوداً ذاهبين إلى القتال بأنهم أقمار .

ومثله أيضاً ، حين يصف السيف ، فيشبه من أصابته طعنة منه فأرعفته ، وأسالت دمه ، بأنك تحسبه عاشقاً يئس على طلل ، والصورة هنا لا تستقيم ، وشتان ما بين صريع فى حرب أو نزال ، يفيض داخله بالقهر والذل والهزيمة ، وبين عاشق يفيض صباباً ، ويقف على ربع حبيبته ، يسترجع ذكريات مضت ، نشوى بالسعادة والرضا :

إذا الطعين تلقاه وأرعه حسبه عاشقا يكي على طلل
ونجد ذلك التناقض النفسى أيضاً حين يصف الماء يقطر من ذوائب شعر أسود جميل ،
لامرأة خارجة من الحمام ، بأنه كالطل يسقط من جناح غراب ، وحتى مع افتراض أن
الجارية كانت تقص شعرها على نحو « غلامى » ، وهى طريقة شاعت فى الأندلس زمنًا ،
على نحو ما عليه الحال فى عصرنا ، إلا أن لفظ الغراب لا يستخدم ، ولا يثير ، فى العصر
الوسيط ، وحتى قريب من أيامنا ، وفى بوادينا حتى الآن ، غير التشاؤم والقلق ، وتوقع
الشر .

فإذا تركنا الجانب السلبي من فنه ، إلى ما هو إيجابى وجديد عنده ، وجدناه فى قصيدة
المديح الثالثة ، التى توجه بها إلى السلطان محمد الغالب ، وعرضنا لها فيما سبق ، يسير على
نهج جديد فى نظمه ، لحظه ابن الخطيب نفسه ، فقدم لها بقوله : « ومن نزعاته العجيبة
قوله ، وقد سبق إلى غرضه غيره » . ويقوم الجديد فيها على أن الشطرة الثانية من كل
بيت ، فى القصيدة كلها ما عدا المطلع ، تتكون من جملة اسمية خبرها شبه جملة مقدم ،
والمبتدأ مثنى مؤخر ، أو فعلية وفاعلها مثنى ، وفى الحالين يُبادل من المبتدأ أو الفاعل
مضمونه مفردين معطوفا أحدهما على الآخر ، لا يشذ فى ذلك ولا مرة واحدة ، وهى
ظاهرة إن دلت على التمكن والمقدرة فإنما تدل فى الوقت نفسه على أن الصناعة بلغت عنده
غايتها .

ويستخدم المحسنات البديعية قليلاً ، على غير عادة الشعراء فى عصره ، ونجد منها عنده
« اللف والنشر » ، كما فى الأبيات التى يصف فيها غلامًا ، وذكرناها من قبل ، والطباق
أحيانًا ، ويستخدم الجناس نادرًا .

ولم يشر أحد ممن ترجموا له أنه عنى بالموشحات ، أو أبدع فيها شيئًا ، أو أعارها جانبًا
من اهتمامه ، وهى ظاهرة لافتة للنظر ، فقد بلغ هذا الفن فى عصره ، والعصور التى
سبقتة ، قمة توهجه ، شيوعًا وفنًا وإقبالًا ، ومن يدرى ، فرما قال فيها شيئًا ولم يصلنا .

○ نونية أبي البقاء :

أروع شعره على الإطلاق ، وتجيء في مقدمة القصائد التي عرضت لمثل هذا اللون من الأحداث ، والقاعدة النقدية تقرر : « إذا أراد الشاعر أن يبكيها فعليه أن يبكي أولاً » ، ومن الواضح أن أبا البقاء بكى صادقاً وعميقاً ، لأن قصيدته تثير الشجى في نفس كل من يقرأها أو يسمعها ، ولم تفقد شيئاً من جدتها وتأثيرها حتى يومنا ، وحين تعود إليها ثانية بعد قراءتها ، تحس كأنك تقرأها للمرة الأولى ، لقد استطاع شاعر الأندلس أن ينقل إلينا تجربته كاملة ، في إيقاع شجى ، ذى تأثير عجيب .

أول ما يعرض لنا ونحن ندرس النونية إهمال المصادر الأندلسية التي بين أيدينا إهمالاً كاملاً لها ، لم تشر إليها من قريب أو بعيد ، فضلاً عن أن تأتي بها كاملة ، أو بأبيات مختارة منها ، رغم أنها ترجمت لأبي البقاء ، واختارت له بعضاً من أشعاره ، إذا كانت محدودة عند ابن عبد الملك وابن الزبير ، فهي كثيرة ومتنوعة عند ابن الخطيب . وكان المصدر الذى أوردها كاملة مغربياً ، وهو كتاب « الذخيرة السنية » ، لمؤلف مجهول ، ويتحدث عن فترة كان فيها بنو مرين على أوثق الصلات بمملكة غرناطة ، فى حالى التحالف والاختلاف على السواء ، ونقلها لنا المقرئ كاملة فى كتابه « نفع الطيب » و « أزهار الرياض » ، وكعادته كثيراً لم يشر إلى المصدر الذى نقل عنه ، وأرجح أنه نقلها عن الذخيرة أيضاً .

ومؤلف « الذخيرة » مجهول ، ولكننا نعرف أنه عاش فى عصر السلطان أبي سعد المرينى ، وحكم من ٧١٠ إلى ٧٣١ هـ - ١٣١٠ - ١٣٣١ م ، أى أنه ألف كتابه بعد ستة وثلاثين عاماً ، على الأقل ، من وفاة أبي البقاء ، وأكبر الظن أنها تعاصرا ، وسبق أن ألمحت فى هذه الدراسة إلى احتمال أن يكون أبو البقاء قد عبر المضيق إلى المغرب فى وقت نجعله ، وربما كان بعد إنشاد القصيدة ، شيخاً تجاوز الستين من عمره ، ولزم أن كان قصيراً على التأكيد ، غير أنى لا أعتقد أنه لقي مؤلف كتاب « الذخيرة » ، لأنه فى هذه المرحلة لم يكن يعدو أن يكون طالباً فتياً يتردد على حلق الدرس ، ولعل الأقرب إلى التصور أن

القصيدة بموضوعها المثير ، وإيقاعها الجميل ، سواء أكان صاحبها هو الذى حملها ، أم عبرت البحر بنفسها ، شقت طريقها إلى أسماع وقلوب جمهرة المسلمين فى الأندلس والمغرب على السواء .

ويذكر صاحب الذخيرة السنية أن أبا البقاء أنشدها بمناسبة نزول محمد الغالب سلطان غرناطة عن عدد كبير من القواعد والحصون الأندلسية لملك قشتالة عام ٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ م ، وهى أحداث ثابتة تاريخياً ، أى أن أبا البقاء قالها وهو فى الخامسة والستين من عمره تقريباً . ومن المؤكد أن السلطان ضاق بها ، وعمل على حصارها ، فهى تندد بالقواعد التى سقطت على عهده فى يد المسيحيين ، وتستثير جمهرة المسلمين فى الأندلس وخارجها ، لاستعادة ما ذهب والدفاع عما يوشك أن يذهب ، والقواعد الكبرى التى نديها فى قصيدته هى : إشبيلية ، وقرطبة ، ومرسية ، وشاطبة ، وجيان ، وكلها سقطت بين عامى ٦٣٥ و ٦٥٠ هـ = ١٢٣٧ - ١٢٥٢ م ، إلى جانب مئات من الحصون والقرى ، وإذن فهى تدينه دون أن تعرض له ، وتجعله مسئولاً دون أن تذكر اسمه ، وليس ثمة شك فى أن أحفاده كانوا أحرص منه على عدم تداولها بين الناس ، وكان ابن الخطيب وزيراً أول لهم ، وليس بوسعهم أن يضمن كتبه شيئاً لا يرضون عنه ، ولا أرى سبباً آخر لإهمال ابن الخطيب لها ، رغم الترجمة المستفيضة ، والأشعار العديدة ، التى خص بها أبا البقاء ، ولا يرد فى الخاطر أنه لم يسمع بالقصيدة ، وهى جميلة تسترعى الانتباه ، وتعلق بالذاكرة ، وكانت متداولة بين الناس ، وابن الخطيب ذواقه فى الشعر ، موسوعى الثقافة ، ومثلها لا يخفى عليه .

كان أبو البقاء مهياً نفسياً وثقافياً لأن يبدع قصيدة حول هذه القضية ، بمثل هذا المستوى ، فقد درس على أستاذه ابن زرقون قصيدة ابن عبدون فى رثاء بنى الأفطس ، وعاصر ابن الأبار صاحب قصيدتى الاستصراخ ، وكل هذه القصائد درسناها من قبل ، وارتبط عاطفياً بمعظم المدن التى سقطت ، إن لم يكن بها كلها ، وله فيها ذكريات من أيام الطلب أو ما بعدها ، فلا غرو أن تفجرت أبياته من نفس كليمه وفؤاد محزون . /

استهل أبو البقاء قصيدته بتقرير قاعدة إنسانية مستمدة من واقع الحياة نفسها ومؤداها أن كمال أى شىء بداية نهايته ، ما يكاد يبلغ ريعان شبابه حتى تدركه الشيخوخة فتضعفه وهنا على وهن ، حتى تسلمه إلى الفناء ، وهو أمر يصدق على الحضارات والأمم كما يصدق على الأفراد . فلا يغرن إنسان جبروته مهما عظم ، ولا تبطرن أمة قوتها مهما بلغت ، فسيل ذلك كله إلى فناء . . . كله إلى زوال .

ويضرب الأمثال لما قرره : ذهب ملوك اليمن فما بقي لهم تاريخ ، وأتى الزمان على حصون إرم فما أبقى منها على حجر ، وذهب بحكم ساسان وكسرى ، وبملك سليمان ومدخرات قارون ، أتى عليهم جميعاً فما عادوا غير تاريخ يروى شاحباً ، أشبه بحلم رآه نائم فما تذكر منه إلا بقايا باهتة ، وفجائع الدهر ألوان ، وكل ذهب بسبب ، وفنى في ظروف تغاير الآخر ، ولكل حادث أحوال تخفف من وقعه ، أما فجیعة الإسلام في الأندلس فقاصمة .

وفصل ما أصاب الأندلس : لقد ذهبت الجزيرة بما لو سقط على أحد لذهب به ، أو على ثهلان لهدّه ، لقد سعدت بالإسلام وارتقت ثم أصابتها العين ، وتوالت عليها البلايا ، وانحسر الإسلام عن أقطارها ومدنها ، عن بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان قرطبة وإشبيلية ، وهى قواعد الإسلام الحصينة ، ومدنه الزاهرة .

ويصور أسف الناس الحزين على بلاد عمها الكفر ، وأقفرت من الإسلام ، وصارت مساجدها كنائس ، تزخر بالنواقيس والصلبان ، بعد أن كانت عامرة بالعلم والإيمان ، مما يبكى حتى الجهاد من محارب ومنابر ، ويذكر بقايا المسلمين فيما ظل لهم من مدن ، وغفلوا عن الأحداث فما يتعظون بها ، والعدو من حولهم متربص بهم ، ويحث أولئك الذين اطمأنوا على دنياهم الواسعة ، في مملكة غرناطة المزدهرة ، أن يكون لهم في ذهاب إشبيلية عظة ، وكانت قبل دنيا عريضة من اللهو والترف واقتناص الملذات . إن فجیعة الإسلام في الأندلس أنست الناس بهولها كل ما أصابهم قبل من كوارث وفي أى مكان ، وستعلو عن النسيان على امتداد الزمان .

ثم يتجه إلى مسلمى أفريقية ، أصحاب الخيل الضامرة الدريّة كأنها عقبان ،

والسيوف المرفقة تلمع كأنها نيران ، يعيشون في أمن ورغد ، وتظلمهم أوطان عزيزة منيعة ،
يسألهم مستنكرا : ألم تسمعوا بما أصاب الأندلس من كوارث ومحن أضحت حديث
الركبان ، وقتلى الإسلام وأسراه على أرضه يثنون فما يستجيب لهم إنسان ، وهم أخوة
لهم ، أليس فيكم أبي يثور لما أصاب قومه ، ويعينهم على دفع الشر ، ورد العدوان .
ويختم القصيدة بوصف ما أصاب المسلمين في أحداثهم الرهيبة : أحال الكفرة عزهم
ذلا . وجعلوا أحرارهم عبيدا ، وتشابهت عليهم السبل فهم حيارى لا يدرون
ما يصنعون . ويفصل حالهم وهم يباعون رقيقا ، يحال بين الأم وطفلها ، ويبيع كل منها
لسيد ، وصبايا فائنات جميلات ، في زهوة الشباب ، يقودهن العليج للمكروه وقد
أسرهم في الحرب ، أو اشتراهن رقيقا من السوق ، وكلهم يبكي ، فيذيب بكاهم القلوب
حزنا وكمدا .

○ نص القصيدة :

لَكلُّ شَيْءٍ إِذا ما تَمَّ نُقصانُ	فلا يُغثِرُ بطيب العيشِ إنسانُ
هِيَ الأمورُ كما شَاهدتها دُولُ	مَنْ سرَّه زَمَنٌ ساءَتْهُ أزمانُ
وهذه الدارُ لا تُبقي على أَحَدٍ	ولا يدوم على حالٍ لها شأنُ
يَمزقُ الدهرُ حَتَمًا كلَّ سابِغَةٍ	إِذا نَبَتْ مشرفياتُ وخرِصانُ
ويَتَفشى كلَّ سيفٍ للفناء ولو	كان ابنُ ذِي يَزْنٍ والغمدُ غمدانُ
أَينَ الملوكِ ذُوو التيجانِ مِنْ يَمَنِ	وأَينَ مِنْهُم أَكاليلُ وتيجانُ
وأَينَ ما شَاده شَدَّادُ في إِرَمِ	وأَينَ ما ساسه في الفرسِ ساسانُ
وأَينَ ما حازَه قارونُ مِنْ ذهبٍ	وأَينَ عادُ وشَدَّادُ وقَحطانُ
أتى على الكلِّ أمرٌ لا مردَ له	حتى قَضُوا فكَانَ القومُ ما كانوا
وَصارَ ما كانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مُلْكٍ	كما حَكَى عن خيالِ الطيفِ وِسنانُ
دارُ الزَمانِ على دارٍ وقاتله	وأَمَّ كَسرى فما آواه إيوانُ
كانما الصَّعبُ لَمْ يَسْهَلْ لَه سَبَبُ	يوما ولا ملكُ الدنيا سليمانُ

فجائعُ الدهرِ أنواعٌ متنوعةٌ وللمحادثاتِ سلوانٌ يسهلُها
وللزمانِ مسراتٌ وأحزانٌ وما ليا حلٌّ بالإسلامِ سلوان

دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له حتى خلت منه أقطارٌ وبلدان
أصابها العينُ فى الإسلامِ فامتحنَتْ فاسألْ بَلَنَسِيَةِ ما شَأْنُ مَرْسِيَةِ
وأين قرطبةُ دارُ العلومِ ، فكم وأين حمصٌ وما تحويه من نَزْهِ
قواعدُ كَنِّ أركانِ البلادِ فما تبكى الحنيفةُ البيضاء من أسف
على ديار من الإسلامِ خالية حيث المساجدُ قد صارت كنائس ما
حتى المحاريب تبكى وهى جامدةٌ يا غافلاً وله فى الدهرِ موعظةٌ
وما شياً مرحاً يلبيه موطنه تلك المصيبةُ أنست ما تقدمها
هوى له أحدٌ وانهد ثيلان حتى خلت منه أقطارٌ وبلدان
وأين شاطبةُ أم أين جِيانٌ من عالم قد سما فيها له شان
ونهرها العذبُ فياضٌ وملآن عسى البقاء إذا لم تبق أركانٌ
كما بكى لفراقِ الإلفِ هَيانٌ قد أقفرتُ ولها بالكفرِ عمران
فيهنّ إلا نواقيسٌ وصلبانٌ حتى المنايرُ تترى وهى عيدان
إن كنتَ فى سِنَةِ فالدهرِ يقظان أبعدَ حِمَصٍ تغرُ المرةُ أوطان
وما لها مع طولِ الدهرِ نسيان

ياراكبين عناق الخيلِ ضامرة وحاملين سيوف الهندِ مرهفةٌ
وراتعين وراء البحرِ فى دعةٍ أعندكم نبأ من أهل أندلس
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ماذا التقاطع فى الإسلامِ بينكم
ألا نفوسٌ أبياتٌ لها هممٌ كأنها فى مجال السبقِ عقبان
كأنها فى ظلامِ النقعِ نيرانٌ لهم بأوطانهم عز وسلطان
فقد سرى بخديث القوم ركبان قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
وأنتم ياعباد الله إخوان أما على الخير أنصارٌ وأعوان

يامن لذلة قومٍ بعد عزمهم أحال حالهم كُفّر وطغيان
 بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
 فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
 ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان
 يارب أم وطفلٍ حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان
 وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
 يقودها العليج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران
 لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

○ تعليق على القصيدة :

قيض لمرثية أبي البقاء من الشهرة والذيع ما لم يقيض لمرثية أخرى . وهي شهرة مردها الصدق الذي تحتويه ، وحرارة العاطفة التي تجرى بين أبياتها ، قالها مكلومًا يخاطب الأندلسيين من قومه ، والمسلمين أنى وجدوا ، ولم يتوجه بها إلى أمير ، ولم ينشدها في بلاط . ومع أن الجديد في مضمونها قليل . إلا أن هذا القليل يرجح في ثقله وقيمته كل ما تضمنه القصائد الأخرى ، لأنه يمس جانبًا إنسانيًا يستدر شفقة أسمى القلوب ، وأشدّها جسودًا وضراوة . وهو يفعل ذلك في واقعة بسيطة مؤثرة ، ولعله شاهد بعض ، أو كثيرًا ، مما وصف ، فهو يلتقط صوره من عمق المأساة ، تنم على ذلك بعض عباراته السهلة والصادقة في الوقت نفسه ، مثل : « ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... » ، فليس أسمى على الحر من أن يباع عبدًا ، أو وصفه للطفلة يقودها العليج ، أو الأم تباع لسيد وطفلها لسيد آخر ، فليس أسمى ولا آلم من فراق جبرى ، لا تعرف له نهاية ، بين أم وطفلها ، تودعه وتعلم أنها قد لا تعود إلى رؤيته أبدًا ، ومنظر فتاة فاتنة ، لا يد لها في الحرب ، تساق للمكروه مكرهة دون أن تستطيع دفعًا لمغتصبها . ومثل هذه المشاهد الحزينة المؤثرة كانت تحدث على التأكيد في أية معركة يخسرها المسلمون في الأندلس ، ولكن أبا البقاء أول من عرض لها . واتخذها سبيلًا لإثارة حمية المسلمين في الأندلس وأفريقيا على السواء .

وما عدا ذلك من معان شريك فيها لمن سبقوه أو فاقهم في الإيجاز ، والبعد عن الحشو الممل ، وجاء في قصيدته ذات الاثني وأربعين بيتًا بكل المعاني ، وبأكثر منها ، التي جاءت في مرثية طليطلة المجهولة القائل ، أو ما قاله ابن الأبار في بلنسية ، وحين استعبر الماضي لم يحاول ، كما فعل ابن عبدون من قبل ، أن يجعل منها معرضًا لعلمه الواسع ، وإنما قنع بأمثلة قليلة ، في أبيات محدودة ، وأفكاره مرتبة ترتيبًا بديعًا ، واستطاع أن يلون عباراته ، وأن يعطيها إيقاعًا يميزها عن سواها رغم تشابه المضمون ، وكانت هذه الحكم ، تدور حول الاعتبار بما مضى ، خير مدخل مهد به الشاعر لموضوعه ، ثم انتقل منه إلى حادثه الخاص .

وأكد أبو البقاء . شأن غيره في هذا ، على الطباق النفسى والتصويرى فى القصيدة ، لتبدو المفارقة واضحة ومثيرة ، يصور ما كانت عليه المدن الذاهبة وما آلت إليه ، ويبرز ما تعرضت له المقدسات الإسلامية من امتهان : المساجد التى أصبحت كنائس ، والنواقيس التى حلت مكان الآذان ، والأعراض التى استيحت علانية . وعبر القصيدة كلها لا تجد بيتًا قلقًا ، ولا كلمة زائدة ، ولا لفظًا نايًا ، وكان أبو البقاء مستجيبًا فى إنشاد القصيدة لإحساس ذاتى غامر ، ومن هنا خلت أبياته من أية صناعة لفظية ، وكانت طابع كل من سبقوه .



و حين طار ذكر هذه القصيدة ، وتداولها الناس فى الأندلس وأفريقيا على السواء ، ووجدوا فيها صدق واقعهم صادقًا أضافوا إليها . مع الزمن ، أبياتًا تتحدث عن مدن أخرى استغلب عليها الكاثوليك ، مثل بسطة . والمرية ، ومالقة ، ووادى آش ، وغرناطة ، وكلها سقطت فى أيديهم بعد موت أبى البقاء . وهى أبيات . إلى جانب استحالة أن يكون أبو البقاء قائلها تاريخًا . دون القصيدة روحًا وفنًا وإثارة ، ولحظ ذلك المقرئ فى نفح الطيب ، فعقب على القصيدة بعد أن أتى عليها كاملة : « انتهت القصيدة الفريدة ، ويوجد بأيدي الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرها مما أخذ من المدن بعد موت صالح بن شريف . وما اعتمدته منها نقلته من خط يوثق به على ما كتبه ، ومن

له أدنى ذوق علم أن ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة ، وغالب ظنى أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس ، إذ كان أهلها يستهضون همهم الملوك بالشرق والمغرب ، فكان بعضهم لما أعجبه قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات ، وقد بينت ذلك في « أزهار الرياض » فليراجع .

ولكن نسخة « أزهار الرياض » التي بين أيدينا ليس فيها أية إشارة إلى هذه الأبيات ، ونحن ندين بالفضل في معرفتها إلى العالم المغربي الأستاذ عبد الله كنون ، فقد نشرها في « صحيفة المعهد المصري » في مدريد ، على ما أشرنا إليه في البدء ، نقلاً عن قطعة مخطوطة متداخلة من أزهار الرياض والنفع معاً ، توجد ضمن مجموع قديم في خزانته الخاصة . فالأبيات التالية جاءت بعد البيت : « وأين حمص وما تحويه من نزه . . » في القصيدة الأصلية :

وأين غرناطة دار الجهاد فكم	أسدى الشدى وهم في الحرب فرسان ^(٢٠)
وأين حمراؤها العليا وزخرفها	كأنها من جنان الخلد عدنان
والماء يجرى ساحات القصور بها	قد حف جدوها زهر وريحان
وأين جامعها المشهور كم تليت	في كل وقت فيه به آي وقرآن
وعالم كان يهدى للجهول هدى	مدرس وله في العلم صبيان
وعبابد خاسع لله مبهل	والدمع منه على الخدين طوفان
ووادى شلين يحكى في تخشع	سيوف هند لها في الجو لمعان
وأين بسطة دار الزعفران فهل	رأى شبيهاً لها في الحسن إنسان
كذا المرية دار الصالحين فكم	قطب بها ، علم غوث له شان
وأين مألقة مرسى المراكب كم	أرست بساحلها فلك وغربان
وكم بداخلها من شاعر فطن	وذى فنون له حذق وتبيان
وكم خارجها من متره فرج	وجنة حولها زهر وبستان

(٢٠) إذا في الأصل وأهلها أسد الشرى ، ويبنى المعنى مع ذلك غير تام .

وأين جارتها الزهرا وقبتها وأين ياقوم أبطال وفرسان
 وكم شجاع زعيم في الوغى بطلٌ بدا له في العدا فتك وإمعان
 وكم جدلت يده من كافر فغدا تبكيه من أرضه أهلٌ وولدان
 ووادي آش غدت بالعرّ عامرة وردّ توحيدها شرك وطغيان
 وجاء في المخطوطة نفسها زيادة بيت بين قوله « تلك المصيبة » وقوله « يارا كين »
 ونصه :

يا أيها الملك الحمراء رأيته أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا
 وفي الختام ألحق بالقصيدة الأبيات الثلاثة التالية :

هل للجهاد بها من طالب فلقد ترخفت جنة المأوى بها شان
 والشوق للهور والولدان نحوكما^(٢١) فازت لعمري بهذا الفضل شجعان
 ثم الصلاة على المختار من مضير ما هب ريح الصبا واهتز أغصان
 ويذكر الشهاب الحفاجي ، المتوفى عام ١٠٦٩ هـ - ١٦٥٨ م ، دون أن يشير إلى
 المصدر الذي اعتمد عليه ، أن شاعراً اسمه يحيى القرطبي شهد آخر صفحة من تاريخ الدولة
 الإسلامية في الأندلس ، فنظم قصيدة على نسق قصيدة الرندي فاختلفت بها ، غير أني لم
 أعثر للشاعر أو قصيدته على أثر فيما هو منشور من المصادر الأندلسية .

○ بين التأثير والتأثر :

إذا تركنا ما للقصائد الأندلسية الشبيهة من صدى في نونية أبي البقاء . وسبقته
 أو عاصرته ، فمن المفيد أن نذكر أيضاً أن أنغامها وجوها بعكس صدى ، لا يقل
 وضوحاً ، لنونية أبي الفتح البستي ، المتوفى عام ٤٠١ هـ - ١٠١٠ م ، وهي مثل قصيدة
 أبي البقاء ، شرقت وغربت على أيامها ، ونالت شهرة عريضة ، وسجلتها مخطوطات
 عديدة ، وكانت موضع شروح كثيرة ، واتفق في عدد من المخطوط الرئيسية ، وإن اختلفا
 في الدافع والمناسبة ، ومطلع قصيدة أبي الفتح :

زيادةُ المرء في دنياه نقصانُ وربحُه غيرَ محضٍ الخيرِ خسران
كما أن أحمد شوقي ، المتوفى عام ١٩٣٢ ، عارض قصيدة أبي البقاء في نونيته
الرائعة ، التي قالها في ذكرى محنة دمشق على يد الاستعمار الفرنسي ومطلعها :
قم ناجِ جَلِّقْ وانشدْ رسمَ من بانوا مشتً على الرسمِ أحداثٌ وأزمانُ
ولكن أمير الشعراء ، كما هو متوقع منه ، حلق في سماء الشعر عالياً ، وترك الكل دونه
على الأرض ، بما فيهم أبو البقاء .

ولم تقف شهرة مراثية أبي البقاء عند العالم الإسلامي وإنما جازت شهرتها إلى العالم
الكاثوليكي في الأندلس . ويرى الدكتور ليون كارلونيرو إى سول Léon Carlonero y Sol ،
وكان يعمل أستاذاً للغة العربية في جامعة إشبيلية في أواخر القرن الماضي ، أن مراثية الشاعر
الإسباني خورخي منريكي Jorge Manrique (١٤٤٠ - ١٤٧٩ م) في رثاء والده ، متأثرة
إلى حد كبير بقصيدة أبي البقاء الرندي . وأن الشاعر الكاثوليكي لابد أن يكون قد عرف
قصيدة الشاعر المسلم . في نصها العربي أو مترجمة إلى الإسبانية ومتداولة شفاهاً ، مع
مراعاة الفارق في الدافع إلى كل منهما . ويشاركه في هذا الرأي خوان
باليرا Juan Valera من كبار أدباء الإسبان في العصر الحديث (١٨٢٤ - ١٨٠٥) ؛
وقد قام باليرا بترجمة مراثية أبي البقاء إلى اللغة الإسبانية ، نقلاً عن الترجمة الألمانية ، على
نفس الوزن الذي نظمت فيه أشعار خورخي منريكي .

ونظرة عابرة إلى قصيده الشاعر الإسباني يتبين منها المرء أن ثمة أمرين كان فيهما مقلداً
للشاعر العربي على التأكيد . الأول هو الحديث عن تلون الحياة ، وارتفاعها وانخفاضها ،
وتعاور الحزن والسرور على الإنسان ، وثانيهما استمداده العبرة من التاريخ واتخاذها
شاهداً . ولو أن الشاعر الإسباني استمدّها من تاريخ أمته قديماً وعلى أيامه ، من ملوك
الرومان والقوط في الماضي ، والإسبان المعاصرين له ، على حين انحصرت إشارات الشاعر
العربي في ملوك الشرق القديم . والجدير بالذكر أن عدد فقرات القصيدة الإسبانية تساوي
عدد أبيات قصيدة أبي البقاء . وبعيد عن التصور أن الأمر جاء صدفة واتفاقاً .

ولكى تكون لدى القارئ العربى فكرة عن قصيدة خورنخى منزىكى ، أورد ترجمة
لطلعها إلى العربية :



نبه النفس النائمة ،
وأيقظ العقل وأشع فيه النشاط ،
متأملاً ،

كيف تمضى الحياة ،
وكيف يجيء الموت
صامتاً .

يا للسرور ، كم هو خفيف في ذهابه ،
مؤلم عند تذكر ساعاته ،

وكيف يبدو لنا
أن أى زمن مضى
خير من الحاضر .

وفي لحظة ، نرى الحاضر ماضياً ،
ومنتهاً ،

ولو حكنا في فطنة
لاعتبرنا ما في ضمير الغيب
ماضياً .

لا ينخدعن أحد أبداً
ظاناً أن الدوام حتم
لما يؤمله ،

لأن ما رآه لم يدم ،
وكل شيء عليه أن يمضى

عبر نفس الطريق ! .
حياتنا أنهار
تمضى لتصب في بحر ،
هو الموت .
إلى هناك يذهب السادة ،
توا لكى يفنوا
ويتلاشوا .
هناك الأنهار الفياضة ،
والأنهار الجارية ،
والأنهار الضحلة ،
لحظة وصولها تصبح متساوية ،
كالذين يعيشون من سواعدهم
يتساوون مع الأغنياء .

عاشت مملكة غرناطة زهاء قرنين من الزمان بعد عصر أبي البقاء ، وبها لاذت الحضارة الإسلامية في شبه الجزيرة ، لكن الجماهير فقدت حيويتها كجماعة مؤثرة ، وإن تميزت ببطولات فردية مناضلة ، تحاول بعزم أن تؤخر النهاية القاصمة ، وفقدت القيادة الموجهة الحازمة ، فكان الأمراء والحكام دون مستوى الأحداث تفكيراً وشجاعة وخلقاً وعناداً في النضال ، يستخدمون العدو لتحطيم بعضهم البعض ، ويشترون بخيانة أمتهم عروشاً صغيرة ذليلة ، وعبر هذه الفوضى الغامرة كان من الطبيعي أن يكون هناك من يأسى لحال الإسلام في الأندلس ، يندب حاله وينعى أيامه ، لكن لم يصلنا من ذلك القليل ، أو على التحديد لم تصلنا إلى مرثية واحدة كانت مجهولة تماماً ، وسوف ندرسها في الفصل التالى .

مرثية أندلسية مجهولة

○ مراثيات ضائعة :

البعد عن الوطن يثير الشجى دائماً ، ويهيج الذكريات ، وأمل المرء أن يعود يوماً إلى البلد الذى شب فيه ، وسط أشخاص أعزاء عليه ، وأشياء حبيبة إلى نفسه ، يخفف عادة من حسرات المهاجر وآلامه ، أو الراحل إلى آفاق بعيدة . وتصبح الحسرة أكثر إيلا ما كلما كان هذا الأمل أشد استحالة ، أو ضاع إلى الأبد .

وليس ثمة شك فى أن المصير الذى كان ينتظر مسلمى الأندلس حين وجدوا أنفسهم جماعات خارج بيوتهم وربوعهم ، وقد أكرهوا على ترك ديارهم ، قد أذرف دموع آلاف التعساء ، وأثار مشاعر الشعراء ، غير أن صدى النبرات الخالدة لبعضهم ، وزفرات الآخرين ، لم يصلنا منها إلا القليل .

ضاعت مثلاً مرثية شعرية كتبها موريسكى مجهول ، فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، أرسلها إلى شمال أفريقيا ، وحملها من يدعى داود ، ومعها رسالة ، ويطلب فيها العون والمساعدة ، ولكن الإسبان اعتقلوا داود فى الطريق ، وأخذوا الأوراق التى معه ، ومنها المرثية والرسالة ، وأرسلها المركز موندينجر Mondéjar إلى الملك ، النص العربى وترجمة له . ولا أدرى أين استقر النص العربى ، ولكن مرمول كرنخال Marmol Carvajal أورد ترجمة لها فى كتابه : « ثورة الموريسكيين Rebelion de los Moriscos » وعنه نقلها فون شاك فى كتابه « شر العرب وفهم فى إسبانيا وصقلية » ، وقد ترجمت الكتاب إلى اللغة العربية ، ونشرت المجلد الثالث منه وهو الخاص بالفن ، بعنوان : « فن العرب فى إسبانيا وصقلية »^(١) ، ووردت فيه المرثية كاملة هناك ، وترجمتها نثراً بداهة وأحاول جاهداً أن أعثر على نصها العربى .

(١) صدر عن دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

ومنها هذه المراثية التي بين أيدينا ، وكانت مجهولة حتى وقت قريب ، وإليك تاريخها كاملا .

○ تاريخ المراثية :

كان الباحث الجزائري الدكتور محمد صوالح أول من وقعت عينه على مخطوطة هذه المراثية ، في مطلع هذا القرن . فنشرها في « المجلة الأفريقية Revue Africaine » عام ١٩١٤ ، ثم ترجمها إلى اللغة الفرنسية ، وقدم لها بترجمة فرنسية أيضا ، ولم يهتد إلى قائلها ، فحاول أن يُشرك معه بقية أدباء العالم العربي في شمال أفريقيا ، وبعضا من المستشرقين . فكتب إليهم في الجزائر وتلمسان وفاس والرباط وتونس وإسبانيا ، يطلب العون منهم في التعرف إلى قائلها ، لكن أحدا منهم لم يقدم له جوابا شافيا ، ونشر أحد أصدقائه ، مجاملة له ، الأسئلة التي طرحها عليه ، ومعها أبيات من القصيدة . في مجلة الزهراء التي تصدر باللغة العربية في تونس . وطلب إلى العلماء والقراء أن يوافوه بكل ما يمكن أن يكون في حوزتهم من معلومات مفيدة ، غير أن نداءه بقي دون صدى . وما لبثت الحرب العالمية الأولى أن اندلعت . وأصاب كل الناس ويلاؤها ، وشغلهم عن العلم والثقافة ، وتمخضت نهايتها عن عالم جديد . مختلف تماما عما سبقها . وصمت الدكتور صوالح ، لسبب لا أعلمه ، ونسيت القصيدة تماما .

وبعد ذلك بثلاثة وعشرين عاما أرسل الأديب المغربي عبد الرحمن حجي القصيدة إلى مجلة الرسالة فنشرتها في عددها رقم ١٣١ . السنة الرابعة ، بتاريخ ١١ من شوال ١٣٥٤ ٦ من يناير ١٩٣٦ ، الصفحات ٢٢ - ٢٤ . وقدم لها بهذه الفقرة :
 « . . قصيدة بليغة من الأدب الأندلسي الرائع ، تصف أحسن وصف المأساة الأندلسية . لم نعثر على قائلها . وقد طبعها لأول مرة على ما يظهر الأستاذ الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٤ مع ترجمة فرنسية ، وبعض تعليقات بالفرنسية ، ذكر فيها أن هذه القصيدة من جملة قصائد بعثت إلى السلطان بايزيد العثماني بقصد الاستغاثة ، وأشار إلى أن صحيفة الزهرة التونسية نشرت نتفا منها منذ سنوات ، وطلبت من الأدباء أن يعلنوا

عن صاحبها إذا عرفوه ، ولكن لم يجب الصحيفة أحد ، فبقي مجهولا ، وقد عرضتها على المؤرخ المغربي الكبير السيد محمد بن علي الدكالي السلوي ، فذكر لي أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية ، ولعله أبو جعفر بن خاتمة ، وقد تكون مذكورة في كتاب له يسمى مزية المرية الموجود منه نسخة خطية بمكتبة الإسكوريال . ولقد أحبيت أن أرسل إليكم نصها لكي تنشروه في مجلتكم الحافلة ، إذا راقكم ، لعل بين المشتغلين بالأدب الأندلسي من له معرفة بقائلها .

ومن الواضح أن هذه المعلومات تجاوزها الزمن ، وتحتاج إلى إعادة تحرير ، ومن المؤكد أن الأستاذ حجي ، وكتبها في شبابه ، لو عاد إليها الآن لأصلح منها ، وكتبها على نحو آخر . أول ما يقع في الخاطر تعقيا عليها ، أننا لا نعرف من المقدمة ما إذا كان النص الذي أرسله إلى الرسالة نقلا عما نشره الدكتور صوالح ، أم أنه عثر عليه في مخطوطة أخرى لم يشر إليها ، وإن كنت أرجح أنه حصل عليها من مخطوطة أخرى ، لأن مخطوطة الجزائر ، وقد رأيتها عبثت بها الأرضة أحيانا ، حتى ليستحيل ملء الفراغ الذي تركته وراءها . كذلك فإن بعض القضايا تحتاج إلى إعادة تحرير ، لأن عددا من الناشرين غير الباحثين يقعون على هذا النص ، فيأخذون كل ما ورد فيه على أنه قضية مسلمة ، ينطلقون منها ، ويبنون عليها نتائج تجيء خاطئة بالضرورة ، فالدكتور صوالح لم ينشر القصيدة مستقلة وإنما نشرها في مجلة تصدر باللغة الفرنسية ، وصحيفة الزهرة لم تنشر ما نشرت بدافع ذاتي منها ، أو لأنها وقعت على القصيدة في كتاب أو مخطوطة ، وإنما كان نشرها بطلب من الدكتور صوالح نفسه . لعله يجد معينا يسهم معه في الوصول إلى صاحبها . ولم يذكر في ختته عن القصيدة أنها فيما أرسله الأندلسيون إلى السلطان العثماني يطلبون الإغاثة ، وإنما تحدث عن قصائد رثاء أندلسية كثيرة مجهولة ، أو ضائعة ، وأن من بينها واحدة بعث بها المسلمون الذين ظلوا في إسبانيا بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ م إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني . يعرضون فيها وضعهم المخزن . وكانت هذه القصيدة موجودة في المكتبة الوطنية في الجزائر ، تحت رقم ١٦٢٠ (781٠b) ولكنها مع الأسف الشديد ضاعت . أو سُرقت إن شئت . من المجموع . ورغم ذلك حاول الدكتور صوالح أن يحصل على نسخة منها .

وحصل عليها ناقصة . واكتفى بهذه الإشارة . فلم يقل أين حصل عليها . ولا من قالها . ولا ما هي طبيعتها ، ولم ينشرها ، ولعله وجد أنها نفس القصيدة التي أوردها ، المقرئ في كتابه أزهار الرياض . الجزء الأول ص ١٠٩ ، وتوجد أيضاً في مخطوط تكميل أزهار الرياض للقنطري ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله ، ص ٤٧ ، ويوجد بالحزانة العامة بالرباط . ضمن مجموع يحمل رقم ٢٨ ل . وهي ذات قيمة تاريخية فحسب . وتعكس المستوى الذي انحدرت إليه اللغة العربية وأدبها بين الموريسكيين حين سقطت دولة الإسلام في الأندلس . وقد يكون من الخير أن تأتي على مطلعها ليقف القارئ على مستواها :

سلامٌ كريمٌ دائمٌ متجددٌ أنحصَّ به مولاي خير الخليفة
سلامٌ على مولاي سلطان مكة وسلطان دار المصطفى خير بقعة
سلام على مولاي من حاز ملكه قبور كرام الرسل في أرض أيلة
وحاز بلاد الشام والمسجد الذي به صخرة المعراج أفضل صخرة
سلام على من دار مصر مقيله ومسكنه ، أكرم بها من مدينة
كذلك قد يكون صاحب القصيدة من المرية ، على ما سنعرض له فيما بعد . ولكن
بعيد جداً أن يكون ابن خاتمة . لأن هذا كان شاعراً مشهوراً . ووصلنا ديوان شعره بخط
يده . وعرض له عادة من المؤرخين في عصره . ولا تتفق روح القصيدة مع مزاجه . وقبل
هذا كله فإن الرجل توفى عام ٧٧٠ هـ ١٣٦٩ م . أي قبل سقوط المرية في يد المسيحيين
بثثة وعشرين عاماً كاملاً ، ومثلها في ذلك كل المدن التي وردت في القصيدة بلا استثناء .
وأما كتابه « منزلة المرية » فضائع ، حتى يومنا . ولم يحدث أن كانت مخطوطته في
الإسكوريال . ولا أعرف أنه عُثر عليها في مكان آخر^(٢) . ولعل بين علماء المغرب من
يعطيها شيئاً من جهده . فقد يقف عليها في إحدى المكتبات الخاصة ، لأنها من الأهمية
تمكان .

(٢) في الدرس في القصيدة المرية ، ابن خاتمة ، في هذا الكتاب ص ٩٧ وما بعدها

ومهما يكن من أمر فلم يستجب لدعوة العالم المغربي غير المؤرخ الجليل الأستاذ محمد عبد الله عنان ، فتناول القصيدة من الناحية التاريخية ، أحداثها ودلالاتها ، وحاول أن يحدد زمنها ، دون أن يمس الجانب الأدبي منها ، أو يضيف إليها جديدا يعين على تحقيق شخصية قائلها .

○ مخطوطة المراثية :

توجد هذه المخطوطة في مكتبة الجزائر الوطنية تحت رقم ١٦٢٧ . وتتألف من ثمانى ورقات طولها ٢٠ سم ، وعرضها ١٥ سم ، والصفحة الأولى منها بيضاء ، وبقية الصفحات مكتوبة ، وفي كل صفحة عشرة أبيات ، ما عدا الثانية فتضم تسعة ، والأخيرة وتحتوى على خمسة أبيات فحسب ، أى أن مجموع أبيات القصيدة مئة وأربعة وأربعون ، وكتبت بحبر أسمر اللون ، ويصنع من الصوف المحروق والماء ، وخطها مغربى ، وأسماء المدن ، واسم الله والنبي ، والألفاظ الدينية ، وصيغ التعجب مكتوبة بحروف أكبر ، وأضاف الناسخ بحبر أحمر بعض التعليقات المفيدة والمختصرة ، ولكن التعليقات تطول إلى حد ما فى ما بين البيت ١٠١ والبيت ١٤٠ ، وجاءت فى شكل سطور منحدره على الهامش ، منظمة ودقيقة ويروق العين منظرها ، غير أن المعلق كان يتجاوز الفقرات الجملة ، أو التى تحتاج إلى تفسير ، فلا يعلق عليها بشىء .

والمخطوطة ليست أصلا ، ولكنها نُسخت عن أم لا نعرف عنها شيئا ، وتاريخ نسخها « يوم الأحد فى العشر الثانى من شهر شعبان سنة ٨٩٧ - ١٠ يونية ١٤٩٢ م) . ورغم العناية التى بُذلت للمحافظة عليها ، بوضع ورق مشمع بين الصحائف . ووضعها فى غلاف أخضر من الورق المقوى المغطى بالجلد ، فإنها تأثرت بالارضة على نحو ملحوظ ، فتقبتها فى أكثر من مكان فى الصفحة الواحدة ، ويتسع حجم البعض منها حتى يبلغ فى الصفحة الأولى خمس ستمترات طولا . وخمس عشرة مليمترا عرضا . والتلف فى بقية الصفحات أقل عددا وجسامه ، ولكنه مزعج على أية حال ، لأن بعض فقرات القصيدة أو التعليقات اندثرت تماما ، مخلفة وراءها ثقوبا واسعة ، لا يمكن ملء ما ضاع معها

إلا تخميناً وافتراساً . وثمة أخطاء وهفوات ترجع إلى جهل الناسخ ، وهذه من السهل الوصول إلى حقيقتها .

○ أفكار القصيدة :

تدور القصيدة حول محاور خمسة ، تختلف فيما بينها أفكاراً ، ومستوى ، وعدد أبيات .

المحور الأول يدور حول بكاء رندة ، وجاء في ثلاثة وستين بيتاً ، وقد سقطت رندة في يد النصارى عام ٨٩٠ هـ - ١٤٨٥ م ، ويبدوها الشاعر متسائلاً مذهولاً : أحقا إن مدينة رندة المنيرة سقطت في يد المسيحيين . وغربت عنها شمس الإسلام ، وأظلمت أرجاؤها ، وتزلزلت منازلها وقصورها ، وأزعج عنها أهلها ، وهدت مبانيها ، وثُلث عروشها ؟ . ويقارن بين ما كان عليه أمرها ، وما انتهى إليه حالها ، كانت عُقاباً فهوت ، وعقدا فانتثرت ، ويعصف حالها مسلمة موحدة ، وأصبحت في قبضة النصارى وهي مثلثة . تعبد فيها التماثيل والصُور من دون الله ، وارتفع فيها صوت النواقيس ، ودارت على أهلها صروف الليالي ، فتوزعتهم بين قتل وأسير . وصور وقع المأساة على القلوب ، وحال الناس لحظة الهزيمة : عويل صارخ . وبكاء لا يجدى ، ورسم صورة مفصلة لما أجسده فيما سبق . أطلال فيها الحديد وأطنب ، وفصل القول وأسهب ، فالمساجد التي حُولت إلى كنائس صمت فيها نداء المؤذن وأخرس صوت المرتل ، ويشكو محرابها الجوى لمنبرها ، والفتيان الذين قاتلوا في بطولة ، وكان الموت أحب إليهم من الحياة ، والفتيات الجميلات اللاتي انتهى بهن المطاف جوارى ومحظيات في بيوت الكافرين ، يستغثن ولا مغيث ، ويستجرن ولا مجير ، ونساء عجائز يكابدن الجوع والظماً ، وشيوخ شاب شبيهم . وسيدات شابات تمنين الموت قبل أن يشهدن الذل . وأطفال انتزعوا من حجور أمهاتهم . وأكروهوا على تبديل دينهم ، ويختم قصيدته بأنه كان يتمنى لو لم يولد فلا يلفحه حر مصابها . فلا خير في عيش أعذب منه الموت ، ثم يتساءل : أتبعث رندة من جديد ؟ أتعود سلسلة كما كانت . ويسمع فيها صوت المؤذن عالياً ؟ . لقد أحدث سقوطها رجّة في

بطاح الأندلس ومدنها وثغورها ، ولبس الجميع الحداد عليها ، وأحياؤها تبدى الأسى ، جمادها يبكى لفرط حزنه ، ولو كان الفراق يهلك لذابت جبالها ، وغاضت بخارها ، حزنا على فرقة دينها .

والمحور الثانى يدور حول رثاء مالقة وما حولها ، وكانت أهم مدينة بقيت فى أيدي المسلمين ، فى جنوب الأندلس على البحر الأبيض . والميناء التجارى والحربى الأول لمملكة غرناطة . وسقطت فى يد النصارى عام ٨٩٢ هـ - ١٤٨٧ م . أى بعد سقوط رندة بعامين ، وبسقوط هذه المدينة الحصينة توالى سقوط المدن والحصون حولها ، فسقطت الغربية وبلش عام ٨٩٢ هـ - ١٤٨٧ م ، والمنكب وهى على البحر الأبيض . وكانت مصيف بنى نصر ملوك غرناطة ، وسقطت عام ٨٩٤ هـ - ١٤٨٩ م ، ووادى آش . وسقطت فى يناير ١٤٩٠ م ، وبسطة وسقطت عام ٨٩٥ هـ - ١٤٨٩ م . وغرناطة وسقطت فى ٢ من يناير عام ١٤٩٢ ، وهى آخر مدينة سقطت . ومعها سقطت دولة الإسلام فى الأندلس . ولو أن الشاعر سبق بها ذكرا كلا من بسطة ووادى آش . ويبدأ الشاعر هذه القسم فجأة ، بعد أبيات سبقته تشي بأن القصيدة انتهت ، وعدد أبياته اثنان وعشرون ، عرض فيه لسبع مدن . من مملكة غرناطة ، خمس كل واحدة بيتين ، وذهبت غرناطة وحدها بعشرة أبيات ، وفى حديثه عن المدن السبع لم يتجاوز بأفكاره أن مغانيها أقفرت ، وعاد سكرها علقماً ، وأسكرها الهول ، أما غرناطة فهى دار العلى ، وقرار الملك ، والحضرة العليا ، ليس لها مثيل فى العراقين ، ولا فى بلاد الله أجمع ، غلبها الأسى ، فالأمام والمأموم ، والزائر والمقيم ، كلهم فى مأتم ، والناس فى صعب من الهول ، والبنات بواكى الأعين مذعورات .

والمحور الثالث كان رثاء المرية ، وسقطت كما قلنا قبل عام ٩٨٤ هـ - ١٤٨٩ م . أى قبل سقوط غرناطة بأزيد من عام تقريبا . والحديث فيها متصل مما قبله لا فجوة فيه . ولو أن الترتيب التاريخى غير مراعى ، ومن الصعب تحديد نهاية الأبيات بها مباشرة ، ويمكن القول أنها شغلت من القصيدة كلها ثمانية عشر بيتا . وجعل منها خاتمة المطاف ، رغم أنها سقطت قبل مدن أخرى سلفت . وهو لا يريد أن ينساها لأنها موطن آبائه

الكرام ، وأول أرض غذاه خيرها ، ويطلب من أصدقائه أن يودعوها ، أو أن يكلوا أمرها لمن يحسن الدفاع عنها ، ثم يحمل الذاهبين إليها تحيته ، وهنا يأخذ في بيان أسباب النكبة : لقد ضاعت الأمانة ، وأضاع الناس حقوق الرب ، وكان العصيان وراء استيلاء العدو على بلادهم ، فسلب منهم أوطانهم ونفوسهم ، وأصبحت أموالهم فينا له . ويشير إلى أن استيلاء العدو عليها كان بلا ثمن ، لم يأخذها في حرب ، ولم يقدم لها تضحيات ، وإنما هبط عليهم في أعداد كثيرة ، كموج البحر لا تنتهى ، نذرت قتال المسلمين ووفت بنذرهما ، وأن ما وقع للمسلمين كان نتيجة لمقدمات وقعت ، ولن تتغير الأولى إلا إذا تغيرت الثانية .

والمحور الرابع يدور حول استنقار المسلمين في الأندلس وخارجها لإنقاذها ، وجاء في ستة وعشرين بيتاً ، ويبدوها بدعوة أهل الدين أن يهبوا ، لأن الدين هُد من ركنه ، وزُرع من أكنافه ، ودبت الأفاعى إلى كل مؤمن ، وغصت أكباد كل تقى ، وينادى المسلمين عربا وعجبا ، يستنفرهم للجهاد ، فهو فرض ، ويهيب بهم أن يرجعوا إلى الدين ، وأن يتوبوا ويصدقوا ويصبروا ويردوا الظلمات ، وأن يطهروا نفوسهم ويستعدوا ليوم اللقاء ، أسودا على خيل ضامرة ، يرعب الأعداء زئيرها ، شجعاناً يودون لقاء الله تحت ظلال السيوف ، وأن يضرىوا كالهام ، ويطعنوا في المهج ، ويؤكد على أن الله لن يخذل أمة تدّين بالحق ، ثم يحذر : أما إذا لم تفعلوا فترقبوا سخط الله ، وأياما تفيض بالذلة والفرقة واهتضام الحقوق ، وحينئذ يأخذ المشركون كرائهم وخير أموالهم ، ومعها لا خير في العيش ، وقد مرأطيه ، وبقي أمره وأسوأه ، ويومها لا يبقى أمامهم إلا أن يمدوا أكف الذل خائفين ومرعوبين ، وإذا لم يُقل رب العباد عثارهم ، فهذا العدو الضخم سوف يأتي عليهم .

والمحور الخامس والأخير : دعاء . وجاء في خمسة عشر بيتاً ، توجه فيها إلى رب العالمين . يطلب غوثه ، ويستشفع برسوله ، ويصلى على المختار من آل هاشم ، ويطلب عونه وعفوه وتأيدته ، وأن يرسل على العدو الرزايا ، وأن يشتت شمل الكفرة ، ويختمها بالصلاة على خير البرية وصحبه .

○ من صاحب القصيدة ؟

والبحث عنه هنا لا يعنى ذكر اسمه ، فذلك لا يتأتى إلا إذا ذكره التاريخ صراحة وهو ما لم يفعله ، أو أشار المؤرخون إلى ما يعين عليه وهو ما نفتقده ، لأن هذه القصيدة لم ترد ، فيما أعلم ، حتى هذه اللحظة في غير مخطوطة الجزائر ، والفترة كلها لم تجد مؤرخا يدون أحداثها بعد وفاة لسان الدين بن الخطيب ، وسبقت الأحداث بمئة عام تقريبا ، إذا استثنينا فقرات تجئ هنا أو هناك ، من كتب ضاعت ، أو وثائق سياسية لم تظهر ، وكلها تتصل بالتاريخ السياسى ، وما نهدف إليه هو تحديد هويته وموطنه عن طريق تحليل القصيدة ، وفي هدى من أبياتها .

أول ما يرد في خاطر : هل القصيدة لشاعر واحد أو لجملة من الشعراء ؟ لا شىء يحول تاريخاً دون أن يكون واحداً ، لأن الفارق بين سقوط رندة أول مدينة ذكرها ، وغرناطة آخر مدينة استسلمت . لا يتجاوز سبعة أعوام . ولكن من جانب آخر يدرك المرء للوهلة الأولى أن القصيدة ليست بمستوى واحد فنيا وحرارة عاطفة ، فالقسم الأول الذى بكى فيه رندة جيد متسق ، وتعكس أبياته حزن مكثوم حقا . وجاء أطول أقسام القصيدة ، ويأتى بعده ودونه مرتبة وعدد أبيات ، القسم الذى رثا فيه مدينة المرية ، وأما الأبيات التى بكى فيها مالقة وما حولها . وغرناطة وأقسامها فباردة فاترة ، والشاعر فيها عجل يريد أن يخلص من واجب إلى غاية ، فهو يسجل سقوط هذه المدن عجلا لينتهى منها إلى غيرها ، ولذلك جاءت رغم كثرة المدن التى تعرضت لسقوطها أقل الأقسام أبياتا . وفيما يبدو جاء بها ليصل ما بين شعره في سقوط رندة وحديثه عن المرية ، وبكاء هذه الأخيرة أجود مما سبقه ، ولكنه دون الشعر الذى أشده في رندة . ثم حاول أن يرتفع بإيقاعه شيئا وهو يستنفر المسلمين للجهاد ، ولكنه لم يبلغ من الجودة ما بلغه في أول القصيدة وإن تجاوز الثانى وكان في مستوى القسم الثالث . ومع الأخير منها يلوذ بدعوات عادية ليس فيها من الشعر إلا أنها جاءت في أوزانه وقوافيه .

ورغم هذه التفاوت بين انفعاله وآخر في أجزاء القصيدة ، فإن قائلها واحد ، فيما

أرى ، وأرجح ظنا يقرب من اليقين أنه من المرية ، يذكر ذلك صراحة في القسم الذى أوقفه عليها :

فيا أصدقائى ودعّوها كريمة أو استودعوها من إليه أمورها
منازل آبائى الكرام ومنشئ وأول أوطان غذائى خيرها
واقروا عليها من سلامى نحية يحدّها آصالها وبكورها

نعم إن ناسخ القصيدة ، وكان معاصرا للشاعر ولأحداثها ، علق على هامش هذه الأبيات عند كلمة « أو استودعوها » قائلا إن الشاعر يشير إلى مدينة الغربية ، وهو لا يتأتى ، لأن الضمير نحويا يجب أن يعود على أقرب مذكور ، إلا لقريئة ملزمة ، وبين هذا الضمير والغربية أورد أسماء مدن أخرى مثل : المنكب ، والإقليم ، وغرناطة ، ووادى آش ، وبسطة ، ثم المرية أخيراً فلا يمكن أن نتجاوز به هذه الأخيرة ، ونرده إلى مدينة سبقتها بغير مبرر منطقي ، أو شاهد تاريخي ، وبخاصة أن لغة الشاعر سليمة ، وجريه على سنن الإعراب مستقيم .

فالشاعر من المرية إذن ، ولكنه قال القصيدة قبل سقوطها بأعوام ، قالها حين سقطت رندة ، وأثاره أن يستولى النصارى على هذا المعقل الحصين من معاقل الإسلام ، يقوم على قمة جبل الوصول إليه سلماً مشكّلة وعسير ، وربما رأى في ضياعها ، رغم صفاتها هذه ، نذير شؤم ، وبداية هزائم لا تتوقف ، وكان هذا ما حدث فعلاً ، ولذلك جاء حديثه عنها حديث مذهول غير مصدق ، وربما كان من دوافعها صدى قصيدة أبي البقاء الرندى ، وهو من المدينة نفسها ، وقالها قبل ذلك بأكثر من مئة عام ، وجاءت قصيدته مثيرة ، وتعبر عن انفعال صادق ، وأخذت مكانها اللاتق بها من ذواكر الناس ، وربما من حلقات الدرس ، غير أن هذا لا يمنع أن الشاعر تردد طلباً للعلم ، أو استجابة لدواعي العيش ، على أكثر من مدينة في هذا الجانب من الأندلس ومدنه متقاربة ، وجعلت منها الأخطار المحيطة وحدة ، وأكدت المآسى صلات الود والقربى بين الناس فيها .

وقال الشاعر قصيدته ، فيما أرجح ، بعد سقوط رندة مباشرة ، وكانت وقفاً عليها في البدء . وجاءت متميزة في نطاق الكل الذى وصلنا ، وبحس المرء أن قائلها إنسان قهرته

الهزيمة ، لكنها لم تقض عليه لأنه خارج دائرة الخطر المباشر ، وغلبه التشاؤم ولكنه لم يذهب بإيمانه ولا أضباع أمله ، وأن فيه بقية من رمق ، ويعمل جاهدا على إثارة العزائم وإنهاض الهمم ، ولهذا سلمت هذه الأبيات بناء ولغة ، وارتقت تعبيرا وصورا ، وجاءت أصيلة في الجانب الأكبر من أفكارها . لا تقع فيها إلا على قليل من أفكار وأثر الذين سبقوه .

ولكن الهزائم توالى ، وسقطت مدن أخرى ، وسقطت المرية نفسها ، سقط رأسه ، ومنازل آبائه على حد تعبيره ، سقطت بعد رنة بأربع سنين وخمسة شهور ، ويبدو أن الشاعر فارقها إلى العاصمة غرناطة فرادا ، تركها بعد أن سقطت فعلا ، وذلك يعنى أنه لم يكن نكرة في محال الحياة العامة ، لأن غمار الناس أشد التصاقا بمواطنهم ، ويواجهون الأحداث في أماكنهم عادة ، لا يفكرون في الهجرة اختيارا ، ولا يستطيعونها لو أرادوا ، وليس لديهم ما يخشون ضياعه خارج حياتهم ، وهى مهددة على الدوام ، إن لم يكن بالموت قتلا في ساحة اللقاء ، فبالموت جوعا أو مرضا تحت ضغط الفقر والحاجة ، والحرب لا تجئ وحدها ، وإنما تأتى معها ، وت خلفها ، على نطاق واسع شتى الأوبئة مادية ومعنوية على السواء .

متى قال الشاعر بقية القصيدة ؟ أظنه قالها في غرناطة ، بعد أن استقر فيها لاجئا ، ولكن غرناطة ما لبثت أن لحقت ببقية المدن التى حولها ، وبين سقوطها كلها وسقوط المرية عامان فحسب ، فعاد إلى قصيدته عن رنة يريد أن يكملها ببيكاء المرية مدينته ، ولكنه رأى بحاملة ، أو فنا ، أو احتراما للتاريخ ، أن يشير إلى بقية المدن الأخرى . وهكذا نفاجأ به يتحدث عن مألقة دون تمهيد . وبعد أبيات سبقتها توحى أنها نهاية قصيدة ، ويستعرض فى الأبيات الجديدة موجزا أحوالها ، وأحوال المدن التى حولها . ثم يعرض لغرناطة وما يصاقبها فى أبيات قليلة ، باستثناء العاصمة وكان حظها من الأبيات أوفر . على نحو ما أشرنا . وحين بدأ يتحدث عن المرية مدينته ، كان متعب الروح ، مستنفد القوى ، رغم كل دواعى الإثارة ، فارتفع بأبياتها عما سبق ، ولكنه لم يبلغ بها أبيانته الأولى

في رندة ، وسرعان ما تجاوزها داعيا إلى الجهاد ، ولم يصبر عليه ، فأنحدر إلى الجانب السلبي يدعو ويصلي وينتظر قضاء الله .

يمكن إذن أن نقول إن الشاعر بدأ قصيدته بعد سقوط رندة ، وأنه أكملها عام ١٤٩٢ م ، في تاريخ يمكن تحديده بدقة ، لأن مخطوطة الجزائر تحمل تاريخ نسخها ، على ما أشرنا ، وهو يوم الأحد ، العشر الثاني من شعبان ٨٩٧ هـ (= ١٠ من يونية ١٤٩٢ م) ، وغرناطة ، وعرض الشاعر لسقوطها ، وخصها بعشرة أبيات ، سقطت في اليوم الثاني من ربيع الأول ٨٩٧ = ٢ من يناير ١٤٩٢ ، وبين هذين التاريخين يكون الشاعر قد أكمل قصيدته ، ومع النص الصريح يصبح استنتاج الأستاذ محمد عبد الله عنان ، وهو قريب من الدقة ، في أنها كتبت حول عام ٩٠٤ أو ٩٠٥ غير ذي أساس . ومع أن الناسخ لم يشر إلى المكان الذي نسخ فيه القصيدة ، يبدو لي أنها نسخت في غرناطة نفسها ، وأن أحد الموريسكيين الذين طردوا من الأندلس كرها عام ١٦١٣ ، أو الذين هاجروا قبلهم اختيارا ، حملها معه إلى الجزائر ، وقد استقر هؤلاء الموريسكيون المطرودون على امتداد ساحل شمال أفريقيا كله ، في المغرب والجزائر وتونس ، ومن يدرى فلعل آخرين حملوها معهم أيضا ، ولعلنا بشيء من البحث في المخطوطات المسجاة في المكتبات العامة والخاصة تنتظر الباحث والدارس ، يمكن أن نجد منها صورة أخرى ، أو ما يلقي على ما معنا شيئا من الضوء .

○ ملاحظات عامة :

يبدو الشاعر متمكنا من اللغة العربية ، وإذا كانت معاني بعض الأبيات غامضة ، فلأننا نعتمد في نشرها على مخطوطة وحيدة ، بعض ألفاظها غير واضح ، وعبثت الأرضة ببعضها الآخر ، ونعتمد في الاهتداء إليها على التخمين ، واختيار اللفظ الأقرب إلى الصورة المكتوبة . دون أن نعطي أنفسنا حرية التغير والتبديل ، وهي تجيء في مستوى أرق الشعر الذي نعرفه عن هذه الفترة ، وما سبقها بقليل ، عند أبي البقاء الرندي ، وابن

خاتمة ، وابن الخطيب وابن زمرك ، ولا نعرف شاعراً أندلسياً آخر معاصراً له كان في مستواه .

وهو رجل مثقف ، ولا يبدو عليه أنه فقيه ، أى لم يتخذ هذا المجال حرفة له ، لأن الفقه كثافة عامة كان مشتركاً بين الناس جميعاً ، لأن الدين الحياة نفسها في تلك العصور ، فهو لا يقف طويلاً عند الصور المكرورة التي نألفها في قصائد الشعراء الفقهاء ، وفي بكائه لرندة لا يرد هزيمتها إلى الفسق ومعصية الله ، رغم أنه أعطانا صورة مفصلة لما انتهى إليه حالها . ولم يحاول أن يبرر هذا السقوط على نحو ما فعل الآخرون ، ولم يردده إلى القضاء والقدر أو تقلب الأيام ، ولم يتأس بما حدث للآخرين من قبل . لأن الناس قد يجدون في هذا مندوحة للتواكل والاستسلام .

وفي نهاية القصيدة حين استنفر المسلمين للجهاد رسم صورة دقيقة للعلاج ، وهو العودة عملياً وباخلاص للتعاليم الإلهية ، فيحض أخوانه في الدين ينصحهم ويبصرهم بما يجب عليهم أن يقوموا به من التوبة ، وتطهير الأرواح ، والبعد عن المظالم ، وإصلاح الاقتصاد ، والقتال العنيد .

ويعرف داخل كنائس المسيحيين جيداً ، حيث تماثيل القديسين ، وصورة العذراء ، ويلم بشيء من طقوسهم ، فأمام هذه التماثيل والصور يركعون ويسجدون ، ويدعون ويطلبون .

ونلاحظ أنه بدأ قصيدته مباشرة ، دون مقدمة من أى لون ، وهو في هذا نسيج وحده ، لأن القصائد التي سبقته مهدت لموضوعها بأبيات تقصر أو تطول ، ولكن بعض الأفكار مشتركة بينها كلها ، لأنها حدثت في كل المدن التي وقعت في يد النصارى تقريباً ، كتحويل المساجد إلى كنائس ، واسترقاق الفتيات الجميلات ، والتفرقة بين الأمهات والولدان ، ولكن تناول الشاعر المجهول مختلف عن تناول سابقه .

نص المراثية

○ بكاء رندة :

أحقاً خبا من جو رندة نورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت
أحقاً خليلي أن رندة أقفرت
وهدت مبانيها وثلت عروشها
وكانت عقاباً لا يُنال مطارها
هوت رندة الغراء ، ثم حصونها
وقد كنّ عقدا زين القطر نظمها
وفرق شمل المؤمنين لحيها
تسلمها حزب الصليب وقادها
وقد ذهبت أديانها ونفوسها
فباد بها الإسلام حتى تقطعت
وأصبحت الصليبان قد عُبِدَتْ بها
لِقَرَعِ النواقيس اعلى بمارها
فيا ساكني تلك الديار كريمة
أحقاً أخلائي القضاء أبادكم
فقتل وأسّر لا يفادي وفرقة
لعمري الهدى ما بالحشا لفراقكم
ولوعة تُكلّ ليس يذهب روعها
ونفس على هذا المصاب حزينة
وقلب صديق ماج فيه بلاؤه

وقد كسفت بعد الشمس بدورها
منازها ذات العلا وقصورها
وأزعج عنها أهلها وعشيرها
ودارت على قطب التفرق دورها
ومعقل عزّ زاحم السر صورها
وأنظارها شعاء ، عزّ نظيرها
فقد فتح الآن البلاد نثيرها
وقطع من أرحامهم زمهريرها
وكانت شرودا لا يُقاد نفورها
وقد دثرت تحت السباء دثورها
مناسبها واستأصل الحق زورها
تماثيلها دون الإله وصورها
كرائه أصوات يروع صريرها
سقى عهدكم منز يصبو نثيرها
ودارت عليكم بالصروف دهورها
لدى عرصات الحشر يأتي سفيرها
سوى حرق سُخْم تلظى سميرها
ولا تنقضي أشجانها وزفيرها
يذوب كما ذاب الرصاص صورها
سويداؤه سوداء جم ثبورها

سأبكي وما يجدي على الفائت البكي
شآبيبُ دمعٍ بالدماء مشوبةٌ
عويلا يوافي المشرقين برحبه
فواحسرتا كم من مساجدٍ حُولتُ
ووأسفا كم من صوامعٍ أوحشت
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى
وكم من لسانٍ كان فيها مرتلٌ
وكم من فتىٍ ثبت الجنان مهذبٍ
يصول على الأبطالِ صولةً ضيغمٍ
له في سبيل الله خيرٌ نقيية
له في جناب الكفر أجدى نكايةً
يُراع له دينُ الصليب وحزبه
وكم أنفُسٍ كانت لديه أسيرةٌ
تحكم فيهِ الشركُ وهو موحدٌ
وكم طفلةٍ حسناء فيها مصونةٌ
تميل كغصن البان مالت به الصبا
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة
وقد لظمت - واحر قلبي - ! خدودها
وإن تَسْتَفْتِ بالله والدين لا تُغثُ
وقد حيل ما بين الشقيق وبينها
وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها
وشيوخ على الإسلام شابت شيوه

بعبرة حزن ليس يرقا غيرها
يساجلُ قطر الغاديات درورها
وثُكْلا بأقمارٍ قد اطفئ نورها
وكانت إلى البيت الحرام شطورها
وقد كان معتاد الأذان يزورها
وآياتها تشكو الفراق وسورها
وحفلٍ بنخم الذكر تمضي شهورها
يودُّ المنايا وهو كان يديرها
فيرهبه شبلُ الشرى وهصورها
تُران له عينُ الجنان وحورها
وشعواء غاراتٍ يُثاب مغيرها
ويُجزى بها غنصاها ورميرها^(٣)
فأضحى لعمر الله وهو أسيرها
كما قد قضى جبارها ونذيرها
إذا سفرت يُسبي العقول سفورها
وقد زانها ديباجها وحريرها
وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وقد أسبلت - وادمع عيني - شعورها
وإن تستجر ذا رحمة لا يُجيرها
وأسلمها آباؤها وعشيرها
على الدل يطوى لَبثها ومسيرها
يمزق من بعد الوقار قديرها

(٣) رميرو Ramero وغنصالب Gonzalvo ، من الأسماء الأسبانية في العمرة التي كان ينطقها العرب ، وبها كان يسمى عدد

من ملوكهم وقوادهم .

تود لو انضمت عليها قبورها
 أساها ، وعين لا يكفُّ هديرها
 فأكبأها حراء ، لفحُّ هجيرها
 وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها
 سيلا إلى العسرى يحيفُ كفورها
 عواقبها مخدورة وشورها
 وبالعَمى عين رآها بصيرها
 وباعثرة أنى يُقال عثورها
 بليتُ ولم يلفح فؤادى حرورها
 ويغبط قِلُّ الأهلِ فيه كثيرها
 أيرجى على رغم العداة نشورها
 لأرجائها يشفى الصدور صدورها
 معالمها تعلو بذلك عقيرها
 على الرغم ، أغنى من لديها فقيرها
 وحقُّ لديها محوُّها ودثورها
 مدائنها موتورة وثغورها
 وأحجارها مصدوعة وثغورها
 ملابس حُسْنٍ كان يزهو حبورها
 يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
 لذابت رواسيها وغاضت بحورها
 بشير الأنام المصطفى ونذيرها

وكم فيهم من مُهجة ذاتِ ضجّة
 لها روعة من وقعة البين ، دائمٌ
 وكم من صغير حيز من حجر أمّه
 وكم من صغير بدّل الدهر دينه
 وكم من شقى يسرت هذه له
 كربٌ وأحزانٌ يابن لها الصفا
 فيأفرحة القلب الذى عاش بعدها
 وبأغربة الإسلام بين خلاها
 وباليّت أمى لم تلدنى وليتى
 وما خير عيشٍ يعذب الموت دونه
 فياليت شعرى بعد ماصح موتها
 وياملّة الإسلام هل لك عودة
 وهل تسمع الأذان صوت الأذان فى
 وبالعزاء المؤمنين لفاقة
 لأندلس ارتجت لها وتضعضت
 منازلها مصدورة وبطاحها
 تهاثمها مفعوعة ونجودها
 وقد لبست ثوب الحداد ومزقت
 فأحياؤها تبدى الأسى وجأؤها
 لو أن ذا إلف من البين هالكٌ
 على فرقة الدين الذى جاءها به

○ رثاء مالقة وما حولها :

فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة قد استفرغت ذبحا وقتلا حُجورها

وجزّت نواصيها وشئت يمينها
وقد كانت الغريّة الجنن التي
وبلّش قُطَّت رُجلها يمينها
وضحّت على تلك الثنيات حجرها
وبالله إن جئت المنكب فاعتبر
وسكرها قد بدل اليوم علقماً
وعرج على الإقليم فابك ربوعها
وودع بها وفد النعيم فإنها
وبدل بالويل المبين سرورها
تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
ومن سريان الداء بان قطورها
فأقفر مغناها وطاشت حجورها
فقد خفّ ناديها وجف نصيرها
لها رجّة، نار الهيام تثيرها
بسحب يضاهي المعصرات خريها
لها أدمع، فتن الدموع يديرها

○ بكاء غرناطة وما حولها :

ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم
بدار العلى حيث الصفات كأنها
محل قرار الملك غرناطة التي
فما في العراقيين العتيقين مثلها
ترى الأسى أعلامها وهي خُشع
ومأمومها ساهى الحجى وإمامها
لها حال نفس قد أصيب قوادها
فأنفسها في الصعق دون إفاقة
وقد دُعرت تلك البنيات حولها
وقد رجفت وادى الأشي فبقاعها
وبسطة ذات البسط ماشعرت لما
على عظم بلواها وطول وبألها
قد ارتج باديها وضج حضورها
من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
هي الحضرة العليا زهتها زهورها
ولا في بلاد الله طرا نظيرها
ومنبرها مستعبر وسريرها
وزائرها في ماتم ومزورها
وبئت لها اليمنى وحم تبورها
كنفس كلیم الله إذ ذك طورها
فهن بواكى الأعين الرمد مؤرها
سكارى وما استاكت بخمر ثغورها
دهاها، وأنى يستقيم شعورها
وما كابدت من ذا المصاب نخورها

○ رثاء ألمرية :

وما أنس لا أنس ألمرية إنها
 فلو أحرق الثكل المصابين أصبحت
 فيا أصدقائي ودعوها كريمة
 منازل آبائي الكرام ومنشئ
 واقروا عليها من سلامي تحية
 أماناتها ضاعت فضاعت رقابها
 أضعنا حقوق الرب حتى أضاعنا
 وملئنا لم نعرف الدهر عرفها
 بما قد كسبنا نالنا ما أنالنا
 بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا
 بعصياننا استولى علينا عدونا
 نعم سلبوا أوطاننا ونفوسنا
 علوها بلا مهار وما غمزت لهم
 وقد عوت الإفرنج من كل شاهق
 وقد كشرت ذؤبانها وكلابها
 وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا
 علامات أخذ مالنا قيل بها
 فلا تنمحي إلا بحو أصولها

قتيلة أوجالٍ أزيل عذارها
 تأجج من حر الوجيف بحورها
 أو استودعوها من إليه أمورها
 وأول أوطانٍ غذاني خيرها
 تجددتها آصالها وبسكورها
 لقه عميت عين تبدد نورها
 وفضت عرى الإسلام إلا يسيرها
 من النكر فانظر كيف كان عريفها
 كذا السيرة السوأي لدى من يسيرها
 وبؤنا بأحوالٍ ذميم جصورها
 وعائت بنا أسد العدا ونمورها
 وأموالنا فيئا أبيعته وفورها
 قناة ولا غارت عليهم ذكورها
 علينا فوقت للصليب نذورها
 وقد كسرت عقبانها ونسورها
 جيوش كموج البحر هبت دبورها
 جنایات أخذ قد جناها مثيرها
 ولا تنجلي حتى تخط أصولها

○ استنفار :

معاشر أهل الدين هبوا لصعقة
 أصابت منار الدين فانهك ركنه

وصاعقة واری الجسمَ ظهورها
 وزعزع من أكنافه مستطيرها

أدارت على غربيّه الدهر أكّوساً
ودبت أفاعيها إلى كل مؤمن
أنادى لها عجم الرجال وعربها
وأستنفر الأدنى فالأدنى فريضةً
على كل محتاج لفضل دفاعها
ألا وارجعوا يا آل دين محمد
أنبيوا وتوبوا واصبروا وتصدقوا
ومن كل ما يُردى النفوس تطهروا
ألا واستعدوا للجهاد عزائمًا
بأسدٍ على جردٍ من الخيل سبق
بأنفس صدقٍ موقناتٍ بأنها
تروم إلى دار السلام عرائسًا
وضرب كأن الهام تحّت ظلالها
وطعن يرى الخطي في مهج العدا
يمين هدى إن تتقوا الله تنصروا
فلا يخذل الرب المهيمن أمةً
وإن أنتم لم تفعلوا فترقبوا
وأيام ذل واهتضام وفرقة
وأهدوا لدين الشرك كل خريدة
وكل نفيس من نفوسٍ كريمة
وحق العظيم الشأن لا عيش بعدها
فترفع شكواها لعالم سرها
تمد أكف الذل في باب عزه
فإن لم يُقل رب العباد عثارنا

فضاعا بسكر الدهر تقضى خمورها
وعضّ بأكباد التقاة عقورها
نداء سراة القفر إذ ضل غيرها
على زمز الإسلام جلت أجورها
فليس يؤدي الفرض إلا نفيرها
إلى الله يغفر ما اجترحتم غفورها
وردوا ظلمات يبيد نقيرها
فليس يزكى النفس إلا طهورها
يلوح على ليل الوغى مستنيرها
يدع الأعادي سبقها وزئيرها
إلى الله من تحت السيوف مصيرها
على الله في ذاك النعيم مهورها
حثة نور الورد ذر ذرورها
كأقلام ذات الخط خطت سطورها
وتخطوا بآمال يشوق غيرها
تدين بدين الحق وهو نصيرها
بوادر سخط ليس يرجي فتورها
يطاول آناء الزمان قصيرها
نخبها على طول الليالي خدورها
وأعلاق أموالٍ خطير خطيرها
بلايا يمر الطيبات مرورها
فليس لها في الخبر إلا خيرها
بأفئدة خوف الفراق يطيرها
فهذا العدو الضخم حتمًا يبيرها

○ دعاء :

إله الورى ، ندعوك ياخيرَ مرتجى
 وشقت جيوب المؤمنين وأسكنت
 وليس لها ياكاشف الكرب ملجأ
 أغث دعوات المستغيثين إنهم
 وليس لهم إلا الرسول وسيلة
 أمام الهدى ، بحر النداء ، قارع العدا
 محمد المختار من آل هاشم
 دعوناك ، أملناك ، جئناك خُشعا
 بجاه العظيم الجاه أدرك ذمنا
 وعفوَ وتأيد ونصر مؤزر
 ولطف وتسديد وجبر لما مضى
 وأرسل على هذا العدو رزية
 يُشئت شمل الكفر تشيت نقمة
 وصل على خير البرية أحمد
 وأصحابه الشهب الهداة وآله

لكالحة هز الصليب سرورها
 عيونهم والكفر ظل قيرها
 إذا لم يكن منك التلاق ظهيرها
 بيابك موقوفو الحشاشات بورها
 شفيع الورى ، يوم التنادى بشيرها
 وأول رسل الله فضلا أخيرها
 سراج السموات العلى ومنيرها
 بأنفس استولى عليها قصورها
 برحمى يحلى المؤمنين شذورها
 وعزة سلطان يروق طيرها
 يدل به من كل عاد كسيرها
 يروح ويغدو بالبوار مبيرها
 وينظم شمل المؤمنين خصيرها
 وأكرم من قد أنجبتة ظهورها
 صلاة مع الآناء يزكو عيرها

○ زاهد من المرية :

أبو العباس بن العريف

وكتابه محاسن المجالس

● نشر أسين بلاليوس هذه الدراسة في مجلة جامعة مدريد عام ١٩٣١ .
المجلد الثالث ، الصفحات ٤٤١ - ٤٥٨ ، وأعيد نشرها ثانية في أعماله
المختارة ، المجلد الأول ، الصفحات ٢١٧ - ٢٤٢ . مدريد ١٩٤٦ .
وترجم الدراسة نفسها إلى اللغة الفرنسية ف . كفليرا
F. Cavallera وجعل منها مقدمة لترجمته لكتاب محاسن
المجالس ، ونشر مع الترجمة النص العربي ، وكان الكتاب الثاني في سلسلة
النصوص غير المنشورة المتصلة بالتصوف الإسلامي . - باريس ١٩٣٣ .

● حياته (١٠٨٨ - ١١٤١) (١) :

اسمه كاملا : أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله ، يكنى أبا العباس ، ويعرف
بأبن العريف ، من قبيلة صنهاجة ، بطن من حمير العربية في الغرب ، وأبوه محمد أصلا

(١) المصادر التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة هي :

- ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ١٧٥ (١٧٦ في طبعة القاهرة ١٩٦٦) .
- الضبي ، بغية الملتبس ، الترجمة رقم ٣٦٠
- المعجم لابن الأبار ، الترجمة رقم ١٤
- أحمد بابا ، نيل الأيهام ، ص ٣٠
- ابن خلكان ، وفيات ، ٩٣/ ١ ، وترجمة دى ملان ١٥٠/ ١ ، والمخطوطة رقم ٧٦ ، الورقة ٣٧ وجه ، ورقم ٢٠٢ ، الورقة ١٤ ظهر ، من مجموعة جيايموس ، وتوجد في مجمع التاريخ في مدريد . . وتوجد معلومات متفرقة عن علماء الحديث الذين تلقوا عن ابن العريف في :
- تكملة الصلة لابن الأبار ، ص ٥٦ - ٧٢ و ١٧٤ و ٢٠١ و ٢٠٣ و ٢١٠ و ٢١٩ و ٥٦٠ و ٥٧٠ و ٦٤٥ و ٦٦٣ و ٧٠٢ .
وانظر طبعة ابن شنب ، الصفحات : ٧٤ و ١٠٣ و ١٣٤ و ١٨٥ و ١٩١ . وانظر أيضا : جامي ، النضجات ، طبعة ليس ، ص ٦١٥ و ٦١٦ .

من طنجة^(٢) ، وكان بقصبة المرية في رجال ابن صمادح ، عندما كانت المدينة عاصمة إحدى إمارات الطوائف تحت حكم أسرة معن بن صمادح ، وحكت من ٤٣٣ هـ = ١٠٤١ هـ = ١٠٤١ م إلى ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م .

وقد صرف الوالدُ ابنه إلى مهنة يدوية تحت ضغط بعض الصعوبات المالية ، فدفعه في صغره إلى حائك يعلمه ، حتى يلتقط منه أصول المهنة ، ولكن الصبي كان ينفر من أى عمل إلا حفظ القرآن ودرسه ، والإقبال على الكتب بنهم . وبين التهديد والمنع أوشك الأب أن يضيع مواهب ابنه ، وأن يذهب بكل جهده في الدرس والتحصيل ، وأخيراً تركه حراً يمارس ما يريد تبعاً لرغبته ، وأصبح الفتى « نسيج وحده »^(١) ، وفيما بعد ، مع الزمان وبعد مرور أعوام ، اعترف الوالد بخطئه ، وتعود أن يقول للمعجبين بابنه ، بعد أن يشير إلى خطاه الأولى في طريق التعليم : « رأى ابني كان أرشد من رأيي ، إني لأعلم أني به أكرم » . وفي المرية قرأ ابن العريف القرآن ، ودرس التفسير . وسمع الحديث ، على يد أساتذة ثقة ، وتكون ذوقه الأدبي ومعارفه اللغوية في كتاب **الفصوص لصاعد البغدادي**^(٤) ، وسرعان ما تأهل وتصدى لتدريس هذه المواد ، فافقراً في المرية ثم في سرقسطة ، وبلنسية ، وشغل في هذه الأخيرة وظيفة محتسب بعضاً من الوقت ، واشتهر بمهارته في الكتابة ، وجودة الخط فكان يكتب سبعة خطوط لا يشبه بعضها بعضاً . ولكن شهرته لا تعود إلى هذه المهارات الفنية ، ولا إلى سعة ثقافته في العلوم الدنيوية ، ولكن لأن « عنده مشاركة في أشياء من العلم وعناية بالقراءات وجمع الروايات ، واهتمام بطرقها وحملتها » ، فهو فقيه ومحدث ، وعارف بطرق الإسناد

(٢) المخطوطة رقم ٧٦ من مجموعة جيانجوس ، الورقة ٣٧ وجه ، تقول : وإنما سمي والده بالعريف لأنه كان بطنجة صاحب حرس الليل ، وعريف القوم القيم بأمره .

(٣) استخدم ابن الأبار هذه الكلمة في معجمه ، الترجمة رقم ١٤ ، وفيها تورية ، فهي تشير إلى مهنة النسيج التي أرادها والده على تعلمها ، وإلى أنه تميز في حياته ، دون مثيل .

(٤) ألف صاعد هذا الكتاب للمنصور بن أبي عامر ، وعاش في بلاطه ، وحظي برعايته ، ويضم نصوصاً عربية من الشعر والنثر ، علق عليها لغزياً ونحوياً ، في محاولة منه لتقليد كتاب النوادر لأبي علي الفاي . انظر : ياقوت ، معجم الأدباء ، طبعة مرحوليوت ، في ذكرى حب ، ٦ ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ .

والرواية . وإلى جانب ذلك هو شاعر مرتجل ، « وشعره في طريقة الزهد كثير » . وفوق هذا كله ، يقول الذين ترجموا له : إنه « إمام في الزهد ، عارف محقق » ، ويستهدون بولايته وفضائله المختارة ، وكافأه الله عليها بجائله وكراماته .

وكانت مدينة المرية^(٥) في ذلك العصر البؤرة الأولى للصوفية والزهاد في الأندلس ، ولم تتلاش المبادئ الصوفية لمذهب ابن مسرة ، وظلت قائمة دينيا خلال القرون التي تلت وفاة مؤسسه في عدة مراكز ثقافية في جنوب إسبانيا . وفي قرطبة بخاصة ، وفي بجانة أيضا ، وهي قرية صغيرة قرب المرية ، على الشاطئ الأيمن من النهر الذي يحمل اسم المدينة . وظهر في المرية ، قبل ابن العريف بسنوات ، زاهد آخر ، هو محمد بن عيسى . ونال شهرة واسعة ، وكان يبشر في الشوارع والميادين بفكرة صوفية قوامها الوحدة الصوفية بين الله والروح ، في دعوة صريحة إلى تأليه الكون . ومع بداية القرن السادس الهجري ، وفي أوج حكم المرابطين ، أصبحت المرية العاصمة الروحية لكل الصوفية الإيبان ، ومنها خرجت الصرخة الأولى والوحيدة في احتجاج جماعي على إدانة الغزالي وإحراق كتبه . وقد حرّمها فقهاء قرطبة التقليديين ، واعتبروها مؤلفات زنديقة ، وكانت هذه الكتب قد دخلت إسبانيا في حياة مؤلفها ، غير أنها أسلمت إلى النيران بقرار رسمي من سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين . ولكن علماء الكلام في المرية بزعامة البرجي أصدروا فتوى أدانوا فيها موقف ابن حمدين قاضي قرطبة ، لأنه أمر بإحراق كتب الغزالي . ولم يحدث أن بلغ احتجاج الصوفية من أتباع الغزالي وأنصاره ، في أية مدينة أخرى ، القدر من الجراءة الذي أظهره علماء المرية ، لا في مراکش ولا فاس . ولا قلعة بني حماد^(٦) ، واكتفى صوفية هذه المدن بالاحتجاج فرادي ، وجماعة همسا في مجالسهم الخاصة .

(٥) انظر : أسين بلاثيوس : ابن مسرة ومذهبه ، مدريد ١٩١٤ ، ص ١٠٨ ، وص ٢٤٢ في المجلد الأول من أعماله المختارة ، مدريد ١٩٤٦ . وجولد تسيرهر : ابن البرجان ، في ZDMG المجلد ٦٨ ، عام ١٩١٤ ، ص ٥٤٤ .
(٦) قلعة بني حماد بني حماد في الجزائر المعاصرة ، وكانت عاصمة الدولة الحمادية في العصور الوسطى ، وفيها حرر ابن خلدون تاريخه الشهير .

في هذا الجو من الحماسة الدينية تكونت روح ابن العريف ، ولو أننا لسوء الحظ لا نعرف أسماء شيوخه في مجال التصوف ، لأن الذين ترجموا له من رجال الحديث والفقه بخاصة اهتموا بإيراد الأخبار التي تتصل بتكوينه في المواد التي تهتمهم هم أنفسهم فحسب ، تاركين جانبا كل ما يتصل بالمذهب الصوفي لابن العريف ، والمصادر التي استعملها . والشئ الوحيد الذي أشاروا إليه أنه أنشأ طريقة ، انخرط فيها سريعا عدد كبير من الأتباع ، وكانوا يتدفقون على المرية من مختلف بلاد الأندلس ليضعوا أنفسهم تحت إمرة شيخها .

لا يمكن القطع بأنه كان بين هذه المجموعة من التلاميذ المباشرين والمريدين الصوفيان اللذان سوف يضطهدان فيما بعد ، مع ابن العريف ، لأفكارهما الصوفية ، ولكن المؤرخين وكتاب التراجم يصرحون نصا بأنها كليهما كانا يمارسان الطريقة نفسها ، وأن الثلاثة خضعوا جميعا للخطر المشترك الذي أصابهم . وكان أحد الاثنين يقيم في غرناطة ، ويدعى أبو بكر محمد بن الحسين الميورقي ، وهي نسبة مردها أن أصله من جزيرة ميورقة ، وهو فقيه ظاهري ومحدث ، وأقام في كل من مكة والإسكندرية عدة سنوات ، ليوسع معارفه هناك ، ولكنه في ذلك الوقت سلك طريق ابن العريف : أوقف نفسه على الزهد ، وأدار نفسه للدنيا .

والثاني أبو الحكم ابن برجان ، وكان يقيم في إشبيلية ، وهو أصلا من شمال أفريقيا ، وإلى جانب أنه محدث ، كان مثل زميله صوفيا ومن علماء الكلام ، وصرف حياته أيضا إلى التقشف والتقوى ، ومن بين الكتب الكثيرة التي ألفها يشير الذين ترجموا له إلى عدد منها جدير بالذكر والتقدير ، مثل : شرح أسماء الله الحسنى ، وتفسير القرآن الكريم ، وهذا الكتاب الأخير لم يتمه ، ولكن ما كتبه منه وصلنا كاملا ، ولما يزل مخطوطا .

ويتميز ما عُرف من أفكاره الباطنية بالميل إلى حساب حروف الآيات القرآنية بطريق الجمّل ، وإخضاع قيمتها العددية لعمليات حسابية مختلفة ، يستخدمها قاعدة للتنبؤ بأحداث المستقبل ، مبهجة أو مخزنة ، وبخاصة الغزوات والانتصارات الحربية . ويقال إن ابن البرجان تنبأ في تفسيره باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس من الصليبيين .

وبالعام الذى حدث فيه الاستيلاء فعلا . هذه الإشارات هى الوحيدة التى أثارت الشك لدى فى أن ابن العريف كان يقوم أيضا بهذه التنبؤات القائمة على حساب الجمل ، لأن الذين ترجموا له ، على نحو ما أشرنا ، ينسبون إليه طريقة صوفية شبيهة بتلك التى اتخذها ابن البرجآن ، ومع ذلك فإن كتابه محاسن المجالس لا يعكس أى أثر لمثل هذه التكهنات على نحو ما سنرى .

وقد أثارت كثرة تلاميذ ابن العريف وتعصبهم لشيخهم الخوف - ربما - فى نفس السلطان المرابطى على بن يوسف بن تاشفين من ثورة يمكن أن يقوموا بها لصالح شيخهم بهدف توليته الإمارة ، نقول « ربما » لأننا لا نعتمد على وثائق قاطعة ، كالتى اعتمدنا عليها فيما يتصل بابن البرجآن ، والحق أن الشعرافى يؤكد فى طبقاته (ج ١ ص ١٥) أن السلطان حكم على ابن البرجآن بالموت لأن ما يقرب من مئة وثلاثين قرية اعترفت به إماما . والمعروف أن كثيرا من الثورات السياسية فى الإسلام تأخذ صورة حركة دينية متعصبة مسالمة ، وهى شكوك تبررها الثورة التى قام بها « المريدون » ضد المرابطين بعد قليل من وفاة ابن العريف . وفى العام التالى لموت ابن العريف كَوّن الشيخ الصوفى أبو القاسم بن قاسى فى كورة الغرب ، جنوبى البرتغال الآن ، فرقا من كتائب دينية من مريديه ، وكانوا يحتدون فى السر طريقة ابن العريف ، وبويع إماما فى الرباط الذى أقامه فى مدينة شلب على شاطئ الإطلنطى ، وحقق انتصارات عسكرية ضد المرابطين . وفيما بعد ضد الموحدين أيضا ، وحكم طوال عشر سنين كعاهل لكل الإقليم .

يمكن أن نفهم إذن ، دون مشقة ، المخاوف الشديدة التى أهتمت السلطان على ابن يوسف بن تاشفين قبل ذلك باثنى عشر عاما ، من الثقة غير العاذية التى بلغتها مواعظ ابن العريف بين سكان مدينة المرية ، والقرى المجاورة لها ، ولكننا لا نعتمد على نصوص حين نقول إن هذه المخاوف السياسية كانت الدافع وراء ملاحقة ابن العريف . ويؤكد الذين ترجموا له أن المبادأة فى هذا جاءت من قاضى المرية ابن الأسود ، حسداً للنجاح الشعبى الذى بلغه ابن العريف ، ومع ذلك فمن الواضح أن القاضى وهو المسئول الطبيعى عن الجرائم التى ترتكب ضد العقيدة السنية كان عليه أن يرفع أمرها إلى السلطان .

ووصلت رسالة ابن الأسود . ورفع الأمر كتابة إلى بلاط مراکش . وأصدر السلطان أمره إلى حاكم المرية بأن يرسل إليه ابن العريف ، وفي الوقت نفسه أصدر أمرين شيهين ضد تلميذه ، أو رفيقيه ، اللذين أشرنا إليهما من قبل ، وهما أبو بكر الميورقي وأبو الحكم بن برجان ، وحُملا على أن يغادرا محل إقامتهما ، الأول في غرناطة ، والثاني في إشبيلية .

أورد لنا مؤرخو ابن العريف قصة سجنه وإشخاصه إلى مراکش في تفصيلات وافية تماما ، وصُغت ، كما هو طبعي ، بتوابل من ألوان المعجزات والأساطير ، وقد أنفذ حاكم المرية أوامر السلطان فوضع ابن العريف في سفينة اتجهت به إلى مدينة سبتة . ولكن القاضي ابن الأسود أقنع الحاكم بأن من الأوفق ألا يذهب المتهم مطلق السراح ، وإنما يجب وضع القيد في قدميه ، وحينئذ أسرع الحاكم فأرسل أحد وزرائه ليبلغ السفينة في عرض البحر ، فصعد إليها ، ووضع القيود في قدمي ابن العريف . وكانت هذه الطريقة مفاجأة مؤلمة له ، واكتفى بأن صاح : « فليربه الله كما أربنا » . ويضيف مترجموه : إن رسول الحاكم عندما أقلع عائدا إلى ميناء المرية ، بعد أن قيد ابن العريف بالسلاسل ، اعترضته سفينة معادية ، مسيحية على التأكيد ، وحاصرت ، وأخذته أسيرا . وعندما هبط ابن العريف في ميناء سبتة بلغه في الوقت نفسه رسول من السلطان يحمل أوامر صريحة بإطلاق سراحه في الحال ، وعندما وجد زاهد المرية نفسه حرا ، طليقا من القيود ، أدرك أن السلطان لا يريد أن يتحمل اثم المظالم العنيفة التي أوقعها عليه إلى ما لا نهاية .

لقد أسرف حكام المرية على أنفسهم دون شك ، وغيرتهم الواضحة أدت بهم إلى كراهية ابن العريف ، وقد انتزعج منها السلطان حين عرف المزيد من الكرامات والفضائل التي يزدان بها ابن العريف ، ويقولون إن زاهد المرية صاح لحظتها : « أنا لا أريد من السلطان أن يعرفني ، أما وقد عرفني فعلا ، فمن الضروري أن أراه » . وفي الحال أخذ طريقه إلى بلاط المرابطين في مراکش ، واستقبله السلطان بكل مظاهر الحفاوة والإجلال ، وأفعمه بآيات التوقير والتكريم ، وعندما سأل ابن العريف ما إذا كان يرغب في شيء كي يحققه له ، أجابه : « لا أريد شيئا ، فقط دعوني أذهب حرا حيث أشاء » ، وسارع السلطان فأمر بأن يترك حرا كما يريد ، ولكن كل شيء فيما يبدو كان عبثا ، فبعد أيام

من وصوله ، أصابه المرض ، وتوفى فى مراكش نفسها ، ويقدم لنا المؤرخون تفسيرين لموته : بعضهم يراه موتا طبيعيا ، وآخرون يرون أنه مات مسموماً .

لقد رأى قاضى المرية ، ابن الأسود ، فشل غاياته الحاكمة ضد ابن العريف ، فالسلطان أحسن إليه ، وأغدق عليه ، ففكر أن يحتال فى أمره ، وأن يقدم له فى الطعام بذنجانا مسموما ، فمات منه فى مراكش عام ٥٣٦ هـ = ١١٤١ م ، ولكن أحد تلاميذه المخلصين ، أبا عبد الله الغزال المريسي ، يرى أن التفسير الأول هو الأصح والأدق ، وأن شيخه رحل عن دنيانا فى ظروف طبيعية ، وأن وفاته كانت فى مدينة سبتة نفسها ، قبل أن يُقاد إلى مراكش ، ولو أن كل الذين ترجموا له يجمعون على أنه دُفن فى هذه المدينة الأخيرة ، وأن قبره كان إلى جوار قبر ابن البرجان ، والذي توفى فى مدينة مراكش أيضا ، بعد أيام قليلة من دعوة السلطان له ، مثله فى ذلك مثل ابن العريف^(٧) .

أحدثت شهرة ابن العريف ولما ، والظروف الغامضة التى توفى فيها ، أثرا عميقا فى نفس السلطان ، وبخاصة عندما دُفن زاهد المرية ، فقد حزن عليه الناس حزنا عميقا ، وتدفقوا فى أعداد هائلة يريدون أن يصحبوا النعش إلى مقره الأخير ، وندم على أنه أعار سمعه لاتهامات قاضى المرية ضد ابن العريف ، وشك فى أمر القاضى ، وأمر بإجراء تحقيق حول ما حدث وأسبابه . وجاءت التقارير تؤكد كلها اضطهاد قاضى المرية لابن العريف ، وترد ذلك إلى غيرته وسوء دخليته ، وأنه افعل التهمة بهدف إخراجه من المدينة وقتله ، وحين فشل فى تحقيق غايته دس له السم . وحلف السلطان حينئذ أن يطبق على ابن الأسود حكم القصاص ، وأصدر فعلا أوامره المناسبة بأن يقيد وأن ينفى إلى السوس الأقصى ، حيث مات مسموما ، بنفس الطريقة التى قتل بها ابن العريف .

(٧) نضيف المخطوطة رقم ٧٦ من مجموعة جيانجوس ، الورقة رقم ٣٨ وجه ، أن ابن العريف دُفن قريبا من المسجد الجامع العتيق ، الذى فى وسط مراكش ، فى روضة القاضى موسى بن حمه الصهاجى ويحدد ابن شكوال تاريخ وفاته الدقيق وأنه وقع ليلة الجمعة ، صدر الليل ، ودفن يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر ، سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، أى فى ٢٧ سبتمبر ١١٤١ م . أما تاريخ مولده فأشار إليه ابن خلكان ، وهو عام ٤٨١ هـ . يوم الاثنين ٢ من جادى الأولى أى فى ٢٤ يولية ١٠٨٨ م . وطلقا له أيضا ، توفى ابن العريف وله من العمر ثلاثة وخمسون عاما .

○ مؤلفات ابن العريف :

لم يشر أحد من الذين ترجموا لابن العريف ، إسبانيا أو أفارقة أو من المشاركة ، إلى مؤلفاته . وكل ما هنالك أن ابن خلكان ذكر بصفة عامة ومبهم أن له مؤلفات في التصوف ، دون أن يذكر العناوين ، باستثناء عنوان واحد يشير في اقتضاب إلى كتابه « المحاسن » ، ويمكن أن نرد صمت المؤرخين المغاربة إلى أنهم جميعا سنية محافظون أكثر منهم صوفية ، وبالطبع كانوا يهتمون بالكتب التي تتصل بدراساتهم بخاصة مهملين ما عداها . وعلى النقيض من ذلك كان ابن خلكان : فقد أورد في كتابه تراجم لحياة العلماء والأدباء والساسة وكبار الأولياء في العالم الإسلامى ، وهو يهتم بكل فروع المعرفة دون تفرقة ، ولا يقف باهتمامه عند واحد معين منها . ومع ذلك فإن محيى ابن خلكان وحده في هذا المجال يثير في النفس شبهة أن مؤلفات ابن العريف . إن كانت له مؤلفات أخرى كتبها غير المحاسن ، كانت قليلة الذبوع والانتشار بين الصوفية من مشاركة ومغاربة على السواء . ويمكن أنؤكد أنه خلال قراءتى الواسعة على امتداد أعوام طويلة لم أجد أحدا يذكر كتاب ابن العريف إلا محيى الدين بن عربى المرسى ، وفي كتابه الفتوحات فحسب ، أما الكتب الأخرى لصوفى المرية فلم أجد لها ذكراً على الإطلاق . وليس مرد ذلك أن الظلام والنسيان ألقيا عليه ستارا حاجبا بعد موته . لأننا نجد في الكتب التى ترجمت له ، مثل كتاب روض الرياحين للبيافى^(٨) وهو من القرن الرابع عشر الميلادى . تشير إلى حالات من كرامات مثالية لابن العريف . ولكن دون أن تشير إلى مؤلفاته ولا مرة واحدة ، حتى ولا إلى كتاب المحاسن . إذن يجب أن نقف عند هذا الكتاب فضلا عن أنه الوحيد الذى وصلنا .

(٨) انظر : كتاب روض الرياحين للبيافى ، طبعة القاهرة ١٣١٥ هـ ، ص ١٥٥ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢١٩ . ويذكر المقرئ في نفع الطيب ، طبعة القاهرة ، ج ٣ ص ٣٦١ بعض أشعار ابن العريف .

○ محاسن المجالس ومخطوطاته :

أربع مخطوطات وصلتنا من كتاب « محاسن المجالس » ، الأولى ضمن المجموع رقم ٧٣٢ في مكتبة الإسكوريال ، الأوراق من ٤٢ إلى ٥٤ ، وهى مغربية الخط ، وتحمل تاريخ عام ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ م . والثانية توجد ضمن المجموع رقم ٨٧٢ في مكتبة برلين ، وتشغل الأوراق من رقم ١٤٨ إلى ١٧٣ ، ونخطها مشرقى ، وتحمل تاريخ عام ٨٥٩ هـ = ١٤٥٤ م ، ونسخت في الجامع الأزهر بالقاهرة (على يد محمد العجمى بن محمد ابن أحمد الفقاعى) . والثالثة ضمن المجموع رقم ٣٧ في « فهرسة المواعظ » الورقة رقم ٨٢٦ ، في مكتبة بلدية الإسكندرية . والرابعة ضمن مجموع في المخطوطة رقم ١٧٣ ، الورقة ٣٨٧٦ في فهرسة الفنون في المكتبة نفسها . ولم أستطع الوصول إلى المخطوطة الثالثة والرابعة ، أما المخطوطتان الأولى والثانية ، وأشير إليهما بحرفى E و B ، فهما يختلفان بينهما قليلا ، وقد اتخذت من المخطوطة F ، أو إن شئت مخطوطة الإسكوريال .
النسخة الأم في الإعداد لطبع الكتاب ، لأنها ذات خط مغربى ، وأقرب تاريخا إلى وفاة المؤلف ، ولكنها على النقيض من الأخرى تقدم نصا مختصرا لكتاب المحاسن فيما يبدو .
وأما مخطوطة B ، أو مخطوطة برلين إن شئت ، فتحوى على إضافات وتكملات لنص الإسكوريال ، وعلى الرغم من أنها متأخرة ، وجاءت بعد هذه بقرن من الزمان تقريبا ، وتمثل بخطها المشرقى نسخة بعيدة عن الأصل الأندلسى ، ولكننا فى الحقيقة لسنا بصدد حواش أو هوامش زيدت على النص ، لأننا فى كل الحالات التى تختلف فيها مخطوطة برلين عن مخطوطة الإسكوريال بما أضافته ، نجد الزيادة ليست جملا أو أفكارا مستقلة يمكن عزلها عن محتوى مخطوطة الإسكوريال بل إنها تعطى انطبعا عاما بأنها جمل معترضة ضرورية لفهم المعنى الكلى للفقرة^(٩) .

(٩) احترام كلنا المخطوطتين ، مخطوطة الإسكوريال ومخطوطة برلين ، له أصول تاريخية ، ففى زمن ابن عربى المرسى كانوا يتداولون نص الكتاب فى مخطوطتين أيضا ، انظر الملحق فيما بعد ، الفقرة التى نقلناها من الفتوحات ، ج ١ ص ١١٩ .

والخلاف الجوهرى بين مخطوطتى الإسكوريال وبرلين يتصل بنهاية الكتاب ، فنذ الورقة ١٦٦ ظهر إلى الورقة ١٧٣ ظهر ، تقدم مخطوطة برلين خاتمة طويلة لا نجد لها في مخطوطة الإسكوريال ، ونجد في هذه بدلا منها فقرة موجزة للغاية في الورقة ٥٢ ظهر ، ولو أنها توأم النص السابق عليها ، لكن ليست لها صلة على الإطلاق بالخاتمة التى توجد في مخطوطة برلين . وأجرؤ على الظن بأن هذه الخاتمة وبخاصة الورقة ١٦٦ وجه ، تكلمة من ناسخ مخطوطة برلين ، لأنها لا تعدو كلها أن تكون تعدادا طويلا للكرامات التى خص الله بها الصوفى فى حياته وفى الآخرة (الورقة ١٦٠ وجه إلى الورقة ١٧٠ وجه) وأضاف إليها أربع صفات جوهرية لمن يريد أن يبلغ حد الكمال : العلم بذات الله ، والعمل المتقن ، والإخلاص ، وخوف الله (الأوراق من ١٧٠ وجه إلى ١٧٣ وجه) .

ومن الواضح إذن أن مادة هذا التعليق ، وحتى أسلوب الكاتب ، ليس فيها أى شئ خفى ، وإنما هى مجرد تعليق لمن كتبها ، بعيدة عن منهج كتاب المحاسن ولغته .

○ ترجمة الكتاب إلى الإسبانية :

حاولت فى ترجمتى الإسبانية لكتاب محاسن المجالس أن أعكس فكر المؤلف فى أصالته ، وأن أنقل مذهبه بكل أمانة ، وهو أمر صعب للغاية فيما يتصل بنص صوفى عربى تكثر فيه المصطلحات ، وليس لها دائما مقابل فى اللغة الإسبانية ، وكلمة عربية واحدة أترجمها أحيانا فى جملة طويلة إلى حد ما ، وقد آثرت هذه الطريقة على أخرى تكتفى بكتابة اللفظ العربى فحسب دون ترجمته ، وهذه الطريقة وهى شائعة وعامة بين المستشرقين الأوربيين تستهدف الدقة فى تحديد المصطلح ، وهى غاية محمودة بالتأكيد ، ولكنها تخيب أمل القارئ العلمانى ، فيما أرى ، لأنه يجهل اللغة العربية ، وتقنية الصوفية الباطنية ، وله الحق فى أن يأمل وينظر من المستشرقين أن يقدموا له انعاكاسا لمحتوى النص تقريبا على الأقل ، وليست ترجمة رياضية دقيقة للنص العربى . لأن مجرد كتابة اللفظ العربى فى أحرف لاتينية بدع القارئ العلمانى ، أى غير المتخصص ، فى غموض كامل ، وهو فى الوقت نفسه غير مفيد دائما للمتخصص ، الذى يستطيع فى كل الحالات أن يعود

إلى الأصل العربى ، فضلا عن ذلك فإن الفقرات الغامضة والموجزة ، والتي تحتاج إلى توضيح علقت عليها أو فسرتها فى الهامش . والنصوص القرآنية التى ذكرها المؤلف دون أن يشير إلى السورة ورقم الآية وضعتها بين علامتى تنصيص ، وتكثر الهوامش التى أتيت بها لتساعد أيضا على التعريف بالشخصيات وعصور مؤلفى الصوفية ، ويفيض النص بالكثير من أخبارهم وحكمهم . والزيادة التى فى مخطوطة برلين على مخطوطة الإسكوريال رأيناها مفيدة ، وترجمناها فى المكان الذى وردت فيه ، ووضعناها بين خاصرتين ، ومثلها فى ذلك أية كلمة أخرى وجدت فى الأول ولم توجد فى الثانى .

○ تحليل كتاب محاسن المجالس .

○ أهميته ، وأسلوبه الأدبى :

الموضوع الرئيسى لهذه الرسالة دراسة منازل طريق التصوف على النحو التالى : المعرفة ، والإرادة ، والزهد ، والتوكل ، والصبر ، والحزن ، والخوف ، والرجاء ، والشكر ، والمحبة ، والشوق . وفى الفصل الثالث عشر أوجز ابن العريف كل مذهبه ، وأضاف إلى هذه المنازل العشرة منزلتين أخريين لا يوجدان فى الفصول السابقة ، وهما : التوبة والأنس .

وإذا صرفنا النظر عن العدد ، وهو يختلف فى مؤلفات الصوفية من كتاب إلى آخر ، فإن المنازل التى يدرسها ابن العريف لا تقدم بأسمائها التقنية الخاصة ، ولا بمعانيها الجوهرية ، أى جديد يتصل بالمذهب التقليدى فى التصوف الإسلامى ، جدير بأن يلفت النظر إليه ، منذ ذى النون المصرى ، وهو الذى أبدع وأدخل الفكرة قبل ابن العريف بثلاثة قرون . وإنما تعود أصالة « محاسن المجالس » إلى التوجيه الباطنى لتطورها ، أكثر من عودتها إلى المذهب نفسه . والفصول الأول ، والثانى عشر ، والثالث عشر . ذات فائدة قصوى فيما يتصل بهذا الأمر ، ويجب أن تدرس قبل بقية الكتاب .

نستنتج ، مع قراءة آية ، أن ابن العريف لم يؤلف كتابه « محاسن المجالس » لعامة الذين يأملون بلوغ الكمال الصوفى ، حتى ولا لأولئك الذين لا يزالون يسلكون طريق

الكاملين ، وإنما للذين بلغوا غاية الاتحاد فحسب ، ويتمتعون بالحدس ، أو المعرفة الروحية ، ومن هنا ، فإن المنازل كلها ، فيما يرى ابن العريف ، ما عدا هذا الأخير ، ومترل الحب ، درجات غير كاملة ، من خواص عامة العلمانيين . وهذا الموقف الأرستقراطي له سوابق فى التصوف المشرقى ، ولكن لم يحدث أبداً ، فيما أعلم ، أن اتخذوه معياراً وحيداً عند دراسة الموضوع . وفى الحقيقة لا تنقصنا إشارات متناثرة تتصل بهذا الرأى بين الدارسين السابقين ، فأبو نصر السراج فى كتابه « اللمع » ، والقشبرى فى رسالته ، يشيرون إلى آراء الصوفية الذين يفسرون بعض المنازل بهذا المعنى ، ولكننا نعتقد أنه لا توجد دراسة منهجية تطبق ذلك المعيار فى تصنيف كل المنازل ، وبطريقة منظمة . وطبقاً لابن العريف ، فإن العارف الذين يبلغ الاتحاد المحوّل ، ويصل فيه إلى القناعة بأن الله وحده يوجد حقاً ، ومن ثم فلا شىء مما نفكر فيه عنه ، أو نشعر به ، أو نريده ، أو نعلمه ، له وإنما منه . والمنازل ، وهى حالات فاضلة ممن يطمح فى الاتحاد ، تفقد فى نظره كل قيمتها ، ويراهما أبعد ما تكون وسيلة صالحة لتحقيق الغاية ، وأنها عوائق وحواجز تمنع الاتحاد ، لأنها ليست الله قط . والمسافة اللانهائية التى تفصل الكائن الخالد ، عن الكائن الفانى ، والخالق عن المخلوق ، تضطربنا إلى أن نرفض أى شبه بين الطبقتين من الكائنات ، وتحول دون أية محاولة فعالة للوصول إلى الله بوسيلة ليست الله . وعظمة الكائن الخالد واللا نهائى هى كذلك ، حتى أنه وحده الكائن ، على حين أن المخلوقات عدم فى ذاتها ، ونفهم إذن ، فيما يرى ابن العريف ، أن أفعال التقي وأحوال أو منازل الصوفى ، ليست عبثاً فحسب ، وإنما هى مؤذية ، عندما يأمل معها تحقيق الاتحاد ، والتى تمتنع لعظمة الله على أى مخلوق . وفضلاً عن ذلك ، فمن وصل إلى الله لا يمكن أن تكون له إرادة ، ولا أمل ولا رغبة ، فى أن يحصل على ما يملكه فعلاً .

وإذا تأملناها كلها تحت هذا الموشور ، وفى الضوء النافذ لهذا المبدأ ، فإن كل المنازل تكتسى لوناً من الغموض والتناقض الظاهرى فى نظر العارف .

ويفقد الزهد معناه عند العوام فى أنه مجرد « حبس النفس عن الملهذوات ، وإمساكها بعد تفريق المجموع ، وترك طلب المفقود ، وعن فضول الشهوات ، ومخالفة دواعى

الهوى ، وترك ما لا يعنى من كل شئ » ، ليأخذ فى طريق الخواص معنى دقيقاً وممتازاً ، يتمثل على الحقيقة فى « صرف رغبة القلب إليه ، وتعلق الهمة به ، والاشتغال به عن كل شئ » . والتوكل ، وهو ترك الإرادة ، والثقة فى الله ، ينتهى بتلاشى فضيلة الرضى السامية فى الإرادة الإلهية ، والروح خالية من أية رغبة شخصية فيما يتصل بأفعالها ، لا تحتاج إلى أن تتخلى فى الله إرادة لا تملكها . وليس للصبر معنى أيضاً فيما يتصل بالعارف ، لأنه مقتنع بأن القوانين الإلهية تستهدف فى النهاية خير البشر ، وحتى المصائب إذا نظرنا إليها كامتحان تنتهى إلى صالحهم ، ومن ثم فهى أخيراً ليست مادة صالحة للصبر .

ولا يجد العقل الكامل أيضاً سبباً واضحاً للحزن ، لأن البهجة فى الاتحاد تبدد كل كآبة ، فمن كان مع الله لا يمكن أن يشاق إلى أى شئ يفتقده أو يتمناه ، وفضلاً عن ذلك ، فإن حزن العارف يمكن أن يعبر عن نفسه فى لحظات معدودة ، حين يشعر فيها بالعبودية التى لا يزال يخضع لها تحت نير الروح الحساس ، والشئ نفسه يقال عن الخوف ، فلا المصائب الحاضرة ، ولا العقاب المتوقع ، تؤثر فيه ، لأنه يتأمل فيها الله الذى أوقعها ، وذلك التأمل يبدد فى الروح كل الخوف ، ويحيله إلى بهجة حلوة ، وزد على هذا أن العارف يستشعر خوفاً وقوراً أمام جلال الله ، يظهر له خلال التأمل ، ولكنه ليس الخوف الدليل ، وهو من خصائص العبيد لا العاشقين . والرجاء والشوق أيضاً لا تجدان لهما طريقاً إلى روح الكامل ، لأنه متحد ، ليس عليه أن يأمل أو يرغب فى أن يحصل على ما يملك ، ولا أن يشاق إليه ، كما لو كان يفتقده ، وأمله -- إذا كان لديه شئ منه -- عطشٌ لا يرتوى إلى الوحدة التى تسكره .

وبقى الشكر ، ولا يزال أقل تفسيراً بالنسبة إلى الصوفى المتأمل ، غارقاً فى التفكير فى الله ، لا يمكن أن يرى فى الأشياء المخلوقة فائدة ولا نقيضها ، لأنها كلها من عند الله ، لأن جود المعطى وجماله المطلق يمنعه أن يميز فيها بين « المنحة والمحنة ، والنعمة والشدة ، ومن جانب آخر فإن الشكر يمثل محاولة غير وقورة لتعويض الله عن خيره ، ويراه الخواص « قياماً بمكافأة المعطى ، وهرباً من رِق المنّة ، واستراحة من حق الجود ، وأداء لحق

النعمة » ، « مع أن الشكر لا طريق إلى القيام به ، ولا سبيل إلى الخروج عن عهدة واجبه ، فإنه يتناهى ولا ينتهى ، إذ شكرك لله تعالى على النعمة نعمة مستجدة ، يجب له عنك فيها الشكر ، فالشكر يفتقر إلى الشكر ، فتنى تقوم بحقه » .

والحجة وحدها هى المنزل الجدير بالأصفياء ، ولكن يجب أن تُستلهم لا فى الفوائد العائدة ، لأن هذا هو حب العامة ، وإنما فى جلال الله وجماله المطلق نفسه ، متأملاً فى الاتحاد منزهلاً ، وهذا الحب لا نهاية له ، ويحل عن الوصف « والحجة الصادقة لا تظهر على الحب بلفظه ، وإنما تظهر بشمائله ولحظه ، ولا يفهم حقيقتها من الحب سوى المحبوب ، لموضع امتزاج الأسرار والقلوب » ، « وإنما عين الحقيقة عند القوم أن يكون قائماً بإقامة الحق له ، محباً بمحبته له ، ناظراً بنظره له ، من غير أن يبقى منه بقية تقف على رسم ، أو تناط باسم أو تتعلق بأثر ، أو توصف بنعت ، أو تنسب إلى وقت » . وبما أن هذا التجلى ، ولذة الحب التى تقع من المختارين فى الحياة الأخرى ، ليست ممكنة حتى يُفنى الموتُ فى التركيب الإنسانى العنصر الجسمانى ، وهو فان وهالك ، لكى يترك الروح باقية فحسب ، وهى خالدة ، فكذلك الأمر فى الحياة الدنيا ، لا يمكن تحصيل الاتحاد بالحب حتى تتلاشى الروح وتفى ، وتقضى فى مجال الإحساس على كل ما هو متغير وفان ، سواء أكان إحساساً أو جسدياً أو روحياً لكى يترك باقياً فحسب ما هو خالد من الروح ، أى الفكر وحب الله .

وهذا الموقف البطولى فى ترك كل ما هو غير الله ، بما فى ذلك الأحوال الصوفية ، والمنازل ، والألطاف ، والمواهب ، والكرامات ، التى تتلقاها الروح من عند الله ، جدير بأن نبرزه لأهميته الفريدة فى تاريخ الروحانيات الإسلامية .

لقد قلنا إنها لا تنقصها السوابق فى مذهب الصوفيين المشاركة ، الذين جاءوا قبل ابن العريف ، ولكن إليه يعود الفضل فى أنه أعطاها طابعاً منهجياً ، وطبقها بقوة على كل منزل على حدة ، وعليها كلها مجتمعة ، من منازل الحياة الروحية . ودون شك فإن التصوف الأندلسى ، وورث فكر ابن العريف ، وتراث مدرسة المرية ، حافظ بقوة على هذا الموقف الزهدى نفسه ، عبر القرون ، وأورثه المدرسة الشاذلية ، وكان ابن عباد

الرندي ، من القرن الرابع عشر الميلادي واحداً من أواخر ممثليها . وجعل منه جوهر كل الحياة الروحية الإسلامية ، وسبق بها بقرن كامل من الزمان سان خوان دي لا كروث ، قبل أن يجعل منها الشيء نفسه في الحياة المسيحية .

ودون رغبة في أن نأتي على المصادر البعيدة لهذا الزهد في كل ما هو غير الله للوصول إلى الله ، وهي إنجيلية ، لا يمكن أيضاً أن نتوقف لنشير إلى الخطر البالغ من أن ذلك الموقف الذي عرضنا له ، من السهل إذا بالغنا فيه أن يتحول إلى « طمأنينة » . والواقع أنه في الإسلام ، كما في المسيحية ، تكثر الأمثلة لهذا الانحراف المؤسف . والحدود التي تفصل بين الطمأنينة وبين ترك الإرادة ، أو إسقاط التدبير ، في المسيحية غير دقيقة ولا واضحة المعالم ، وليس من الغريب أبداً أو غير المفهوم ، بين مثل هذه الآمال الروحية . فالروح مقتنع بالعدم ، وبتفاهة وجودها ذاته أمام الحقيقة اللانهائية والكلية لفعالية الكينونة الإلهية ، وهي السبب الوحيد لكل ما هو موجود ، ومن السهل إذن أن ينعكس ذلك الشعور بالتواضع المسيحي ، وأن يفنى في يقين عملي بالأفائدة ولا فعالية في أي عمل مخلوق . وخدمة الله ، كما لو أن أعمالنا لا تساوي شيئاً ، تلخص التفاني المسيحي ، على حين تلخص كل خدمة الله بالنسبة إلى المطمئن في « الترك » و « الفاقة » ، لأن أعماله الذاتية كلها لا تساوي شيئاً ، ما دامت نتيجة حتمية ، ولا مناص منها ، للسبب الإلهي وحده . ولهذا ثمة إبهام كامن في كثير من الحكم الصوفية ، مسيحية كانت أو إسلامية ، التي تشير إلى هذا الموضوع الصعب ، ويقول ابن العريف : « إنما عين الحقيقة عند القوم أن يكون قائماً بإقامة الحق له ، محسباً بمحبته له ، ناظراً بنظره له ، من غير أن يبقى منه بقية تقف على رسم ، أو تناط باسم ، أو تتعلق بأثر ، أو توصف بنعت ، أو تنسب إلى وقت » . الإبهام في هذه ، وفي جمل أخرى كثيرة في كتاب المحاسن ، حبل بانيحاءات الطمأنينة ووحدة الوجود ، تفسر محاباة الصوفي المرسى ابن عربي لأستاذه ابن العريف صوفي المربة ، وأشرنا إليها من قبل ، وفي كتابه « الفتوحات المكية » بخاصة يشير إلى كتاب « محاسن المجالس » لابن العريف أكثر من مرة ، ليوثق ، أو يعطي قيمة ، أشد نظرياته جرأة عن فكرته في وحدة الوجود الحضورية . وهو سبب آخر يجعلنا نعطي ابن العريف ورسالته أهمية

أكبر في نطاق تاريخ التصوف ، فلا أحد يجهل التأثير الخصب الذي أحدثه ابن عربي في تطور نظرية وحدة الوجود الإسلامية في العالمين العربي والفارسي على السواء .

لقد أشرنا في إيجاز خالص إلى الخطوط الرئيسية في كتاب محاسن المجالس ، وأهميته لتأريخ التصوف الإسلامي ، وبقي القليل فيما يتصل بأسلوب ابن العريف الأدبي في تحرير الكتاب ، لقد سار على الخطة التي فرضها على نفسه في المقدمة ، فنبى فكرة كل « منزل » بالوان من الوثائق المختلفة ، كآيات من القرآن الكريم ، أو أحاديث نبوية ، أو حكم من أعلام الصوفية ، وحكايات وأحوال الأنبياء ، والأولياء ، وقصائد غزلية استخدمها في مواطن صوفية ، وجمل شخصية مقنعة كخيطة رئيسي يربط بين الوثائق البعيدة .

وغنى عن القول أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، التي كان يستشهد بها في كل خطوة ، كان يعطيها دائماً تفسيراً مجازياً ، أو موافقاً لفكرته . والمؤلفون وأصحاب الحكم والأمثلة التي استشهد بها ، أو أشار إليها ، هم من الأنبياء : موسى ، ويوسف ، ويعقوب ، وداود ، وعيسى ، أو من الصوفية المشاركة أمثال : أبو يزيد البسطامي ، ورابعة العدوية ، وعتبة الغلام ، والشبلي ، والدقاق . أبيات الشعر ، وهي كثيرة على نحو ملحوظ بالنسبة لحجم الرسالة ، مجهولة القائل غالباً ، ولأن بعضها قصير ، وفي غيبة العون الذي يقدمه محتواها ، تقوم صعوبات كثيرة دون تفسيرها ، ولست متأكداً أنني تغلبت على كل الصعوبات . وأخيراً فإن الجمل الموجزة التي أضافها ابن العريف لترتيب الشواهد البعيدة تنسم أيضاً بالغموض ، وهو غموض لا يعود إلى إيجازها فحسب ، وإنما إلى تقنيته الخفية ، وقد حاولت تفسيرها موضحاً في هوامش جاءت أسفل صفحات ترجمة الكتاب .

○ ملحقات :

ألحق العلامة أسين بلاثيوس بدراسته هذه النصوص التي أشار فيها ابن عربى فى كتابه « الفتوحات المكية » إلى ابن العريف ، وهى : ج ١ ، ص ١١٩ و ٢٢٧ و ٢٩٧ و ٣٦٣ . وج ٢ ص ١٢٨ و ٤٢١ و ٨١١ . وج ٣ ، ص ٥٢٠ وج ٤ ، ص ١٠٥ و ١١٧ و ٧١٤ ، طبعة بولاق ، القاهرة عام ١٢٩٣ هـ . ولم نرفائدة ملحة فى نقلها هنا ، ويمكن للقارئ أن يعود إليها إذا أراد فى هذه الطبعة ، وأصبحت الآن نادرة تمامًا ، أو إلى الطبعة الجديدة الرائعة التى أصدرتها الهيئة العامة للكتاب فى مصر ، بتحقيق الدكتور عثمان بحى ومراجعة أستاذنا الجليل الدكتور إبراهيم مذكور رئيس المجمع اللغوى ، وهى متوفرة ، وجبت ما قبلها من طبعات ، وتضم فهرس وافية ، ومن السهل الرجوع إليها دون صعب .

(المترجم)

الفهرس

صفحة

- إهداء ٣
- كلمة ٥
- الأندلس ، تاريخ اسم وتطوره : ٩ - ٢٥
- المسلمون أول من أطلق اسم الأندلس على إسبانيا ٩ - اريبيريا
- وإسبانيا لفظان أطلقها الإغريق ٩ - رأى الجغرافيين العرب القدامى
- ١٠ - كلمة هيسبيريا ومدلولها ١٢ - رأى دوزى فى أصل كلمة
- الأندلس ١٢ - اضطراب الروايات القديمة ١٤ - اختفاء لفظ إسبانيا
- تماماً طوال العصر الإسلامى ١٨ - متى أطلق اسم الأندلس على إسبانيا
- ١٩ - كيف تطور لفظ « وندال » ليصبح أندلس ٢٢ - انتقال اللفظ
- إلى العربية عن طريق البربرية ٢٤
- تعليق من الأستاذ محمود شاكر ورد عليه ٢٦
- تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية وأخبار مجموعة لجهول ٣١ - ٤٩
- [دراسة موازنة للمستشرق الأسباني خوليان ريبييرا]
- تعريف بابن القوطية ٣١ - رأى دوزى فى مؤلف كتاب أخبار
- بجموعة وخطأ هذا رأى ٣٤ - تحليل الكتاب وتحديد هوية المؤلف
- ٣٥ - تحليل كتاب ابن القوطية ٤٤ - الاختلاف بين الكتاين ٤٧ .
- القصيدة التى فجرت ثورة ٥٠ - ٧٦

- بداية الوهن بسقوط الخلافة وقيام دول الطوائف ٥٠ -
 الصنهاجيون في الأندلس وقيام إمارة غرناطة ٥٢ - يهودى يدعى
 صمويل بن النغلة في بلاط الأمير ٥٤ - سياسة صمويل مع الأمير
 والرعية ٥٥ - حماية اليهود وبعث الدراسات العبرية ٥٧ - وفاة الأمير
 حبوس وتولي ابنه باديس ٥٨ - باديس يقع أسير إرادة صمويل ٥٩ -
 وفاة صمويل وقيام ابنه يوسف من بعده ٦٠ - سياسة يوسف وأخطاؤه
 ٦٢ - الحياة الأدبية في غرناطة على عهد بني زيرى ٦٤ - موقف
 الشعراء من سيطرة اليهود : المنفلت شاعر يمدح اليهود ٦٤ . السمسير
 شاعر رافض ٦٥ . أبو إسحاق الإلبيري : مصادر دراسته ٦٦ . شيوخه
 ٦٧ - وظائفه ٦٨ - إثارته الشباب ضد اليهود ونفيه خارج غرناطة
 ٦٩ - عودته إلى غرناطة وإنشاده القصيدة التي فجرت الثورة ٧٠ -
 العوامل الفنية التي اعتمد عليها ليبلغ بقصيدته قلوب مواطنيه ٧٣ -
 قيام الثورة والقضاء على النفوذ اليهودى ٧٤ -

● شاعرة عاشقة ، حفصة بنت الحاج ٧٧ - ٩٦

- المرأة في الأندلس ٧٧ - حياتها ٨٠ - ارتباطها عاطفيا بالشاعر
 أبي جعفر بن سعيد ٨٢ - أمير غرناطة المرابطي ينافس أبا جعفر ٨٥ -
 حفصة شاعرة ٨٧ - ديوانها ٨٩ -

● ابن خاتمة ٩٧ - ١٤٧

- شاعر أندلسى من القرن الرابع عشر الميلادى
 [للمستشرق الأسبانية سوليداد خيرت]
 حياته ٩٧ - شيوخه ١٠١ - البيئة السياسية والثقافية ١٠٩

مؤلفاته : المؤلفات التاريخية ١١٧ - المؤلفات الأدبية ١١٨ -
مؤلفات لغوية ١١٩ - مخططات الديوان ١١٩ - محتوى الديوان
١٢٣ .

● الأصول العربية لفلسفة راييموندو لوليو ١٤٨ - ١٧١
[للمستشرق الأسباني خوليان ريبيرا]

الفلسفة العربية مفتاح لمعرفة أصول فلسفة راييموندو لوليو ١٤٨ -
صلة لوليو بالمسلمين ١٥١ - توثيق الصلة من مؤلفاته ١٥٣ - كبار
الصوفية المسلمين الذين سبقوه : ابن سبعين ، وابن هود ،
وابن الفارض ، وابن العفيف التلمساني ، وأبو مدين ١٥٦ - ابن
عربي : حياته وفلسفته ورحلاته ١٥٧ - أوجه التشابه بين عربي
وراييموندو لوليو ١٦١ .

● الشعر الأندلسي وتأثيره في الشعر الأوربي ١٧٢ - ٢٠٠
[للمستشرق الأسباني أنخل جونثالث بالثيا]

التراث الأندلسي إسهام إسباني في مجال الحضارة ١٧٢ - شعراء
الأندلس ودورهم في الأدب العربي ونماذج من شعرهم في الغزل
والخمريات والوصف ١٧٦ - الزجل والموشحات ١٨٦ - كاهن هيتا
يستخدم شكل الموشحة في كتابه « الحب المحمود » ١٨٩ - تأثير
الموشحات في شعراء التروبادو ١٩٢ - في الشعر القطلوني ١٩٤ - في
البرتغالي ١٩٥ - في الإيطالي ١٩٥ - في الشعر الإسباني ١٩٦ .

● رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي ٢٠١ - ٢٢٤

أصول مشرقية : عمرو بن عبد الملك الوراق وأبو يعقوب الحريري

صفحة

يرثيان بغداد في فتنة الأمين والمأمون ٢٠١ - ابن الرومي يرثي البصرة
بعد خرابها على يد الزنج ٢٠٣ - الوجدان الأندلسي ٢٠٥ - شعر
الحنين ٢٠٧ - ابن حزم يبكي قرطبة بعد خرابها على يد البربر
٢١٢ - رثاء ابن شهيد لها ٢١٥ - رثاء شعراء آخرين ٢١٧ -
خصائص هذا الشعر ٢١٩ - ابن رشيق يبكي مدينة القيروان بعد
تخريب الهلالية لها ٢٢٠ - بكاء ابن شرف لها ٢٢١ .

● رثاء المدن والممالك : في عصر الطوائف ٢٢٥ - ٢٤٩

طابع عصر ٢٢٥ - سقوط طليطلة ٢٢٦ - شاعر مجهول يرثي
طليطلة ٢٢٩ - تحليل القصيدة ٢٣٣ - المعتمد يرثي دولته ٢٣٥ -
ابن اللبانة يبكي دولة العبابدة ٢٤١ - ابن عبدون يرثي بني الأفطس
٢٤٥ .

● مرثية بلنسية ضائعة ٢٥٠ - ٢٦٤

سقوط بلنسية في يد السيد ٢٥٠ - دوزي يكتشف المرثية مترجمة
إلى القشتالية ٢٥١ - العثور على ترجمة الترجمة العامية الأندلسية
٢٥٣ - ريبيرا يهتدى إلى صاحب المرثية ويقوم نص الترجمة العامية
٢٥٥ - نص المرثية باللغة العامية الأندلسية ٢٥٧ - ترجمة نصها
الإسباني بالعربية الفصحى ٢٥٩ - نص المرثية باللغة الإسبانية في
الأغاني الشعبية وترجمته ٢٦١ - موازنة بين النصوص المختلفة ٢٦٢ .

● شعر الاستصراخ والاستغاثة ٢٦٥ - ٢٧٥

تداعي دولة الموحدين ٢٦٥ - النصاري يحاصرون بلنسية ٢٦٦ -
ابن الأبار ينشد أمير أفريقية قصيدة بطلب فيها العون ٢٦٧ - تحليل

القصيدة ٢٦٨ - قصيدة أخرى لابن الأبار ٢٧٠ - تحليل هذه القصيدة وتعليق عليها ٢٧٣ .

- أبو البقاء الرندي ونونيته في رثاء الأندلس ٢٧٦ - ٣٢٣
- عصر وشاعر ٢٧٦ - مصادر دراسته ٢٨١ - حياته ٢٨٣ -
- شيوخه ٢٨٧ - مؤلفاته ٢٩٣ - ديوانه ٣٣٠ - مدائحه ٢٩٨ - تغزله
- ٣٠١ - شعر الوصف ٣٠٤ - همومه إنساناً ٣٠٧ - فنه الشعرى
- ٣٠٨ - نونيته ٣١٢ - نص القصيدة ٣١٥ - تعليق عليها ٣١٧ - بين
- التأثير والتأثر ٣٢٠ .

- مرثية أندلسية مجهولة ٣٢٤ - ٣٤٣
- مرثيات ضائعة ٣٢٤ - تاريخ المرثية ٣٢٥ - مخطوطات المرثية
- ٣٢٨ - أفكار القصيدة ٣٢٩ - من صاحب القصيدة ٣٣٢ -
- ملاحظات عامة ٣٣٥ - نص المرثية ٣٣٧ .

- زاهد من المرية ٣٤٤ - ٣٦٠
- أبو العباس بن العريف وكتابه محاسن المجالس
- [للمستشرق الأسباني ميغيل أسين بلاثيوس]
- حياته ٣٤٤ - مؤلفاته ٣٥١ - محاسن المجالس ومخطوطاته ٣٥٢ -
- ترجمة الكتاب إلى الإسبانية ٣٥٣ - تحليل الكتاب وأسلوبه ٣٥٤ -
- ملحقات ٣٦٠ .

كتب أخرى للمؤلف

- امرؤ القيس، حياته وشعره
الطبعة الخامسة، دار المعارف، ١٩٨٤ م
- دراسة في مصادر الأدب
الطبعة السادسة، دار المعارف، ١٩٨٤ م
- ملحمة السيد، دراسة مقارنة
الطبعة الثالثة، دار المعارف، ١٩٨٣ م
- مع شعراء الأندلس والمتنبي
ترجمة لكتاب المستشرق الإسباني إميليو غرسية غومث، الطبعة الرابعة،
دار المعارف، ١٩٨٥ م
- بابلو نيرودا، شاعر الحب والنضال
دار روز اليوسف، ١٩٧٤ م. [نفد وتعاد طباعته الآن]
- طوق الحمامة لابن حزم، تحقيق
الطبعة الرابعة، دار المعارف، ١٩٨٥ م
- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة
الطبعة الثالثة، دار المعارف، ١٩٨٢ م
- القصة القصيرة، دراسة ومختارات
الطبعة الرابعة، دار المعارف، ١٩٨٥ م
- الشعر العربي المعاصر، روائعه ومدخل لقراءته
الطبعة الثالثة، دار المعارف، ١٩٨٥ م
- الحضارة العربية في إسبانيا
ترجمة لكتاب المستشرق الإسباني ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار
المعارف، ١٩٨٤ م

- الفن العربي في إسبانيا وصقلية
ترجمة لكتاب المستشرق الألماني فون شاك، الطبعة الثانية، دار المعارف،
١٩٨٤ م
- التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية، وتأثيراتها
الغربية
ترجمة لكتاب المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا، دار المعارف، ١٩٨٠ م
- الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم (تحقيق)
دار المعارف، ١٩٨٢ م
- الأدب المقارن، أصوله وتطوره ومناهجه
دار المعارف.

١٩٨٧ / ٤٩٠٣	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢١١٣-٩	الترقيم الدولي

٣ / ٨٧ / ١١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.٠)

